

# جماعات العنف التكفيري

## الجذور، البنى، العوامل المؤثرة

مجموعة باحثين



# **جماعات العنف التكفيري**

## **الجذور، البنى، العوامل المؤثرة**



مجموعة باحثين

# جماعات العنف التكفيري الجذور، البنى، العوامل المؤثرة



المؤلف: مجموعة باحثين

العنوان: جماعات العنف التكفيري: الجذور، البنى، العوامل المؤثرة

المراجعة والتقويم: فريق مركز الحضارة لتنمية الفكر الإسلامي

الإخراج: الديوان للطباعة والنشر والتوزيع

تصميم الغلاف: حسين موسى

الطبعة الأولى: بيروت، 2016

ISBN: 978-614-427-083-7

## Groups of Takfiri Violence

### Roots Structures and Affecting Factors

«الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعتبر بالضرورة  
عن قناعات مركز الحضارة لتنمية الفكر الإسلامي واتجاهاته»



مركز الحضارة لتنمية الفكر الإسلامي  
جميع الحقوق محفوظة ©

Center of Civilization  
for the Development of Islamic Thought

بنية ماميا، ط 5 – خلف الفانتازи ُرلد – بولفار الأسد – بئر حسن – بيروت  
هاتف: 820378 (9611) – فاكس: 826233 (9611) – ص. ب 25/55

[info@hadaraweb.com](mailto:info@hadaraweb.com)

[www.hadaraweb.com](http://www.hadaraweb.com)

## **المحتويات**

9 .....	كلمة النّاسِرِيْنَ .....
13 .....	كلمة رئيس المركز الاستشاري للدراسات والتوثيق (الدكتور عبد الحليم فضل الله) .....
19 .....	كلمة رئيس مركز الحضارة لتنمية الفكر الإسلامي (الشيخ الدكتور محمد تقي سبحانه) .....
25 .....	الجلسة الأولى: ظاهرة العنف التكفيري: الجذور والخطاب – كلمة رئيس الجلسة
27 .....	(الأستاذ معن بشور) .....
.....	– البنى المعرفية والمنهجية للفكر التكفيري: قراءة نقدية في المستند الديني
29 .....	(الدكتور عبد الأمير كاظم زاهد) .....
.....	– العنف التكفيري: من الآخر بعيد إلى القريب
53 .....	(الدكتور بدر الإبراهيم) .....

– العوامل الاجتماعية والسياسية المساهمة في نشوء التطرف الديني (الدكتور عبد الغني عماد) .....	73
<b>الجلسة الثانية: المؤثرات الإقليمية والدولية وعلاقتها ببروز العنف التكفيري .....</b>	<b>103</b>
– كلمة رئيس الجلسة: التوظيف الدولي والإقليمي للعنف التكفيري (الأستاذ بلال حسن التل) .....	105
– الجهات الفاعلة الحكومية، والقرارات المعتمدة، والبروز الكارثي للتطرف التكفيري (الدكتور محمد مرندى) .....	113
– الجماعات التكفيرية والقوى الدولية: الرعاية ومقاطعة المصالح (الدكتور جورج قرم) .....	139
– العنف التكفيري من منظور القانون الدولي (الأستاذ الدكتور حازم محمد عتلם) .....	145
<b>الجلسة الثالثة: البنى التنظيمية والمالية وأنماط العملين العسكري والاجتماعي وأليات الاستقطاب .....</b>	<b>161</b>
– كلمة رئيس الجلسة (الشيخ محمد حسن زراظط) .....	163
– العلاقة بين الجماعات: التحالفات والتزاعات (الأستاذ عبد الله سليمان علي) .....	165
– تنظيم الدولة الإسلامية «داعش»: البنى والهيكل التنظيمية والمالية وأليات الاستقطاب (الأستاذ مصطفى زهران) .....	199
– جماعات العنف الجهادي: البنى العسكرية وأساليب القتال (الأستاذ سمير الحسن) .....	237

– انحراف الفئات الشابة في جماعات العنف المتطرفة: دراسة حالي	
تونس ولبيا	
275.....	(الأستاذ نوبل صديق)
الجلسة الرابعة: الإعلام وجماعات العنف التكفيري .....	
281.....	– كلمة رئيس الجلسة
283.....	(الدكتور عبد الله بوحبيب)
285.....	– الاستراتيجية الإعلامية لداعش: الخطاب والقدرات والوسائل
285.....	(الأستاذ الدكتور محمد محسن)
285.....	– وسائل الإعلام العربية والغربية وموقعها من التنظيمات الدينية
285.....	والمتطرفة
309.....	(الدكتور محمد علوش)
الجلسة الخامسة: قراءات ختامية في ظاهرة العنف التكفيري وسبل	
345.....	المواجهة .....
345.....	– كلمة رئيس الجلسة
347.....	(الشيخ ماهر حمود)
349.....	– تنظيم القاعدة: الأجيال الثلاثة: رؤية عسكرية
349.....	(الأستاذ محمد خواجة)
389.....	– التكفير عند جماعات العنف التكفيرية: الجنوز والعوامل وسبل
389.....	المواجهة: قراءة تاريخية وسيوسولوجية
389.....	(الدكتور يحيى فرحت)
429.....	– جذور الإرهاب، ومصطلحاته، والمواقف السياسية المحيطة به،
429.....	وسبل معالجتها
429.....	(العميد المتقاعد إلياس فرحت)

- إعادة صياغة مفهوم الإسلام السنّي ودوره في مواجهة الإرهاب	
(الدكتور أحمد موصلي) .....	455
<b>ملحقات.....</b>	
- جماعات الإسلام السياسي: الصعود.. إلى الهاوية	
(الدكتورة هلا رشيد أمون) .....	461
- الجماعات التكفيرية: الجذور، التحالفات، أساليب التجنيد، وسبل	
المواجهة	
(الدكتور ياسر الشاذلي) .....	479
- كيف هزم لبنان بوحدة شعبه وجيشه ومقاومته الإرهاب التكفيري،	
ولماذا؟	
(الدكتور طراد حمادة) .....	503

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

## كلمة الناشرين

تعمل دوائر عدّة في العالم على الربط بين الإرهاب والعنف وبين الإسلام، حتى كاد يتحول هذان المفهومان المركبان: «العنف الإسلامي»، و«الإرهاب الإسلامي» إلى مفهومين مأنوسين قلما يلتفت السامع إلى إشكالية الربط بينهما.

وشئنا أم أبينا وأعجبنا هذا الاقتران أم لم يعجبنا فهذا هو الواقع الذهني. وممّا يزيد الطين بلة أنّ الأمر لم يقتصر على الربط الذهني بين الإسلام والعنف أو الإرهاب؛ بل انضمّ إلى ذلك وجود جماعات وحركات منظمة ناشطة في عدد من بلاد العالم الإسلامي وغيره، تعمل تحت راية الإسلام وتمارس عنفها وإرهابها باسم الله والدين. وقد دعاها هذا الأمر إلى معالجة هذه الظاهرة للكشف عن الخلفيات والبني الفكرية التي تستند إليها هذه الجماعات على تنوع انتماماتها، بهدف معرفة تركيبتها الفكرية والتنظيمية والتفكير في الحلول والآليات الناجعة لمواجهتها.

وبعد مناقشات وجلسات عمل عدّة انتهينا إلى الحاجة إلى التداعي إلى درس هذه الظاهرة والبحث في أسبابها وفي مدى ارتباطها بالفكر، ومدى تأثير الواقع الاجتماعي في نموّ هذه الحركات وانتشارها. واستقرّ

رأي آخرًا على عقد مؤتمر علمي اخترنا له عنوان: «جماعات العنف التكفيري: الجذور والبني والعوامل المؤثرة»، عقد على مدى يومين. دعونا إليه عددًا من المهتمّين باحثين ومثقفين من دول عدّة.

وقد بيّنت لنا النقاشات التي دارت بين المؤتمرين وردود الأفعال على المداخلات التي قدّمت أنّ هذه الظاهرة تستحق الدرس والمعالجة على الرغم من ما يبدو أنّه اهتمام زائد بها. ومن الملاحظات التي يمكن أن نشير إليها في هذه العجلة:

أ- إن العنف والإرهاب من الظواهر الإنسانية أكثر مما هما ظاهرتان دينيتان، فلا يكاد يخلو مجتمع من المجتمعات البشرية من إرهاب وعنف يمارس بهذا الشكل أو ذاك. ويبدو أنّ توقيع الملائكة حين قالوا لله تعالى: ﴿أَجَعَلْ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الْمِدَاء﴾، كان توقيعًا مصيبةً.

ب- إن العنف غير الديني أعمق وأكثر إضرارًا بالبشرية من العنف الممارس تحت راية الدين، فإذا كانت كثير من الحروب خيست لأسباب ودّوافع دينية سواء كانت حرب المئة عام أو أكثر منها أو أقل، فإنه تكفينا الإشارة إلى الحربين العالميتين اللتين خاضتا دون أن يكون لأيّ دينٍ فيهما راية.

ج- والفارق الأساس يكمن في أنّ من يقتل باسم الدين يصرّح بدوافعه ويسلّم شعاراته الدينية على ضحاياه، أمّا من يقتل لأسباب أخرى لا يجد نفسه ملزماً بالتصريح بهذه الدوافع.

د- يبدو لنا أنّ الدين نفسه هو ضحية من ضحايا العنف والإرهاب، وذلك أنّ الدين في كثير من الحالات يتحول إلى غلاف تُغلف به سائر الدوافع. وبالتالي يتجلّ العنف المختزن في النفوس التي تمارسه في عنف دينيٍّ. وممّا يؤكّد هذا أنّنا نجد في الدين الواحد من يبرّ عنفه بدوافعه الدينية وآخر يبرّ رفضه للعنف بدوافع دينية أيضًا.

وبعد عقد المؤتمر وتلقّينا ردود أفعال مرّحبة بنتائجـه وجدنا أنّ من المفيد تحويل وقائعـه إلى كتاب. فدرستـا الأمر واستقرّ الرأي أخيراً على أن تنشر وقائعـ المؤتمر كما هي مع بعض التعديلات التي لا تخرج الكتاب عن كونـه كتابـ مؤتمر سوى تحرير لغوـيّ.

ولا بد من الإشارة إلى أن جميعـ المشاركـين في المؤتمر قدموـا أبحاثـهم مكتوـبة باستثنـاء بعضـهم، فاضطـررـنا إلى اعتمـاد التسـجيلـات الصـوتـية مع صـياغـتها بما ينـاسب مع طـبـيعة النـصـ المـكتـوبـ، وقد أشرـنا إلى هـذا داخـلـ الكتابـ. والأـمـرـ نفسه فعلـناه بالـنـسـبةـ إلى كلمـاتـ رؤـسـاءـ الجـلسـاتـ المحـترـمينـ.

وفي الخـتـامـ لا يسعـنا إـلاـ شـكـرـ جـمـيعـ منـ أـسـهـمـ فيـ إـنجـاحـ هـذـاـ المؤـتـمرـ ولا نـدخلـ فيـ مـتـاهـةـ ذـكـرـ الأـسـمـاءـ لـكـيـ لاـ نـقـعـ فيـ التـقـصـيرـ. وـنـأملـ أنـ يـنـالـ هـذـاـ العـمـلـ إـعـجـابـ قـرـائـناـ الأـعـزـاءـ، وـلـاـ نـدـعـيـ استـيفـاءـ الـكـلامـ فيـ مـعـالـجةـ هـذـهـ الـظـاهـرـةـ؛ وـلـذـاـ لـاـ بـدـ مـنـ أـنـ تـسـتـكـملـ خطـوتـناـ بـخطـواتـ لـاحـقةـ، عـلـنـ نـسـهـمـ فـيـ تـخـطـيـ هـذـهـ الـأـزـمـةـ التـيـ أـلـمـتـ بـأـمـنـتـاـ فـيـ الـعـصـرـ الـراـهنـ، وـالـلـهـ وـلـيـ التـوـفـيقـ.

مركزـ الحـضـارـةـ لـتنـميةـ الفـكـرـ الإـسـلامـيـ

الـمـرـكـزـ الـاسـتـشـارـيـ لـلـدـارـاسـاتـ وـالـتـوـثـيقـ

بيـرـوـتـ، 2016



# كلمة رئيس

## المركز الاستشاري للدراسات والتوثيق

الدكتور عبد الحليم فضل الله

نرحب بكم أجمل ترحيب في مستهل هذا المؤتمر الذي يجمع نخبة من الباحثين والمفكرين والمتخصصين، والتي ستناقش على مدى يومين في خمس جلسات جذور العنف التكفيري وأسبابه، والعوامل الفكرية والاجتماعية والجيوسياسية التي ساهمت في تفشي جماعاته وانتشار خلاياه في طول العالم الإسلامي وعرضه. وتأملونا الثقة بأن تشكل أعمال المؤتمر وأبحاثه وخلاصاته إضافة علمية مفيدة في مجال فهم منظويات هذه الظاهرة وخلفياتها، وذلك بقدر ما يتسع له المقام الراهن المشحون بالقتل والتلوّش، من دقة منهجية، وحصافة موضوعية.

والسؤال الذي يطرح نفسه في هذا السياق هو الآتي: هل تستحق هذه الجماعات مزيداً من البحث، وهي التي كشفت عن نفسها أيمما انكشف في السنوات الأخيرة، وسال في تحليلها حبر غزير، بلغات عدة ومن قبل باحثين كثري؟

الإجابة هي نعم. فشلة حاجة ماسة لرصد التحولات المتتسارعة التي مرت بها هذه الجماعات، وترقب طفراتها الآتية، فهذا يزودنا من جهة بالمعرفة الضرورية لاحتواها وإخمام نيرانها واستدراك مخاطرها، ويساعد

من جهة أخرى على الاتفاق بشأن طبيعة ما ترتكبه من عنف، وما تتسبب به من أزمات.

فالجماعات التكفيرية إنما تدشن بحسب بعض الآراء حقوقها الخاصة في ليل العنف البشري الطويل، فتدلو بدلوها في حروب السياسة والعقيدة؛ تنسج في ذلك على منوال من سبقها، و تستلهم خطواتها من أولئك الباحثين عن ولاداتهم الملحمية، وأماناتهم الإمبراطورية، وهواماتهم العقدية، في ركام المدن وسيول الدماء وحطام المجتمعات.

لكنها، وفق وجهة النظر الأخرى، ليست مجرد حقبة جديدة للعنف، ولا فصلاً ملطفاً آخر من فصول التاريخ. فالأفعال الدموية لتلك الجماعات التي تباين تسمياتها ومرجعياتها وتتلاقى أساليبها وممارساتها، إنما تعيد تأسيس فكرة العنف على نحو مفارق لسياقاته المعروفة، في هذا الجزء من العالم على الأقل.

فما نواجهه اليوم ليس عنفاً تقليدياً سياسياً الطابع، هدفه الصراع على السلطة أو تثبيت الهيمنة، أو محاربة الاستبداد، أو الدفاع عن مصالح فئات وطبقات. وليس عنفاً اجتماعياً، مردّه إلى الفقر والتهميش والتمييز والاستبعاد والاستغلال، ولا عنفاً اقتصادياً يدور مدار تقاسم الثروات والسيطرة على الموارد، ولا حتى عنفاً مقدساً، مع أن خناجره تُرفع باسم الدين، وتطعن زعماً باسم الله.

لقد اختلت هذه الجماعات في أقل من عقد من الزمن صنوفاً من الأهوال، وأشكالاً من التنكيل بالضحايا لم يعرف هذا الشرق مثيلاً لها في تاريخه القائم على نصاب تعددية مشهود، فكان عنفها بخلاف ما سبقه أو تزامن معه، عنفاً مشهدياً خالصاً، مطلوباً بذاته ومكتفياً بنفسه. وهو عنف متبرج بدائي لا يبحث عن شرعية تبرر حصوله، أو تخفف من وقع

ارتکاباته؛ بل يجد سحره وجاذبيته في إبراز ما فيه من قسوة وضغينة، وفي الإفصاح عما ينطوي عليه من حقد وتمييز وكراهيّة.

على أن جماعات العنف التكفيري التي شهدنا صعود خطها البيني في العقدين الأخيرين، والتي تبدلت أولوياتها وأهدافها مرات عدّة، إنما تمثّل وبكل ما للكلمة من معنى ردة عن ثالث ثورات عرفتها البشرية:

ثورة أخلاقية أسست لها الديانات السماوية وأطلقتها الإسلام من أسر الجاهلية، وزرع قيمها التأسيسية في صلب المسيرة الإنسانية الكبرى الباحثة عن الأخوة والرحمة والعدالة والقسط، لتصير الأخلاق جزءاً لا يتجزأ من حياة الفرد، وشرطًا من شروط انتظام الجماعة، ومبدأً لتعارف الأقوام والجماعات، وقيداً لا فكاك منه في علاقات التألف والخصوصة، وفي أحوال الرخاء والشدة.

وثورة معرفية، مجّدت العقل وجعلت حياة الناس وتجاربهم عقلانية ومعقولية، عقلانية بمعنى السعي إلى تحقيق غایيات مفيدة، ومعقولية بمعنى أن سعي فئة ما إلى تحقيق غایاتها الخاصة لا بد من أن ينسجم مع الغایات العامة للمجتمع، ويحظى بحد أدنى من المقبولية والاعتراف من الفئات الأخرى.

وهي أيضًا ردة عن الثورة الحقوقية، التي أتت بعد قرون من التناحر والتقاول والظلم، ولا سيما في داخل الغرب أو من خلاله. ثورة حقوقية عبرت عنها شرائع ومواثيق كان لها اليد الطولى في تكريس حقوق الشعوب في الحرية والكرامة والاستقلال وتقرير المصير، وحفظ حق الإنسان في التفكير والتعبير، والحصول على نصيب منصف من الدخل، وحصة عادلة من الإنتاج.

لقد كان الغرض الأبعد لثورة الحقوق هذه هو حماية الفئات الأضعف

من غطرسة القوة، وتعسّف السلطات على اختلافها، سياسية كانت أم اجتماعية، أو لاهوتية، وصون الحق بالحياة واحترام الذات الإنسانية في أوضاع الحرب والسلام على حد سواء.

إن حركات العنف التكفيري هي على طرف نقیض من ذلك، فمنظفها الأخلاقي المتهافت يتناقض مع الجوهر الأخلاقي للوحى الإلهي، وخطابها السياسي اللاعقلاني واللامعقول يعاند وعلى نحو انتشاري حركة التاريخ، وهي تريد أن تمزّق، هكذا وبصرية سيف واحدة ودون أدنى حظ من النجاح، المواثيق والعقود الإنسانية، في نزعة دنيوية معادية للحضارة المادية ومجافية للمبادئ الروحية والمعنوية.

على أن استثنائية حركات التكفير وعنفها المفارق، لا ينكر أنها كانت وما زالت، جزءاً لا يتجزأ من سياق أوسع من حدود الظاهرة نفسها. فصعودها لا ينفصل عن دعوات دينية وعقدية استوطنت هذا الشرق قبل قرنين، وبنَت عصبياتها على الانغلاق ونبذ حق الاختلاف، بل وإنكار حق الآخر المختلف بالوجود، مستندة في ذلك إلى رفض لا هوادة فيه للاجتهداد والرأي، فأطاحت في طريقها بالعقل، وقهرت روح النص، وجرّدت أعماقه من الأمثولات والمعانٍ التي تعلن عن نفسها تباعاً وباطراد، مع توالي العصور وتعاقب الأزمنة وتبدل الأحوال.

لقد رفعت هذه الدعوات كل محاججة مشروعة إلى مرتبة الشقاق والفرقة والإقصاء، متتجاهلة أن تراث الإسلام الغني والغزير لم يجمد على تأويل واحد، ولم تُعرف فيه حدود فاصلة ولا فوارق صارمة بين التيارات العقدية والفلسفية والمذاهب الفقهية المتدافعه في كل اتجاه، تلك التي تنازعت في ما بينها مرة، وتحاورت أو تكاملت في ما بينها مرات عدّة، في سيولة وتشابك قلّ نظيرهما.

ولا ينفصل صعود الحركات التكفيرية وعنفها عن تواطؤ مضمّر مع

قوى دولية وإقليمية، وجدت فيها ضالتها، من أجل مَد النفوذ وتبرير التدخل وتصعيد الهيمنة، واستنزاف راضي الأطامع الخارجية ومقاومي مشاريع الاحتلال والسيطرة والاستيطان، في زمن صار ممكناً فيه للأسف، خلط الأوهام بالحقائق، وتبرير عنف مغالٍ وعدمي بفضل نبيل ومشروع.

ولا ينفصل بروز هذه الجماعات أيضاً عن إخفاق مجتمعاتنا في بناء دولة حديثة ذات مشروعية راسخة، وعن اقتصادات الريع والغنية التي أفضت على هذه الجماعات سيلًا من الدعم المالي الرسمي وغير الرسمي، فتمكّنت متعيناً به، من تطوير بُناتها التنظيمية، وقوية هيكلها العسكرية، وإبهار الحواضن الاجتماعية المفقرة والمتروكة لمصيرها، وهذا هي تقتضي من أبنائها أولئك المتروكين في قاع المجتمعات، والواقفين على قارعة اقتصادات الريع والنهب والفساد، لتزجّهم في آلة عنفها، وتحوّلهم إلى وقود في حروبها. وقد سهّلت الثورة التكنولوجية بدورها عمليات التجنيد، وساهمت بأيسر السبل في نشر غواية القتل والتدمير والعبث بعقول طرية يافعة.

إن هدف هذا المؤتمر هو التعمق في فهم هذه الظاهرة، وإبراز الآراء المتنوعة وحتى المتباعدة في تحليلها. والتحدي الذي سنواجهه في هذين اليومين، أن ننجح بتمييز ما هو سياسي عما هو دراسيٌّ علميٌّ، وأن نقدم أفكارنا وتحليلاتنا بجدية وصراحة وحرص، دون أن نلامس حدود التعبئة هنا، أو نمسّ عصباً مشدوداً هناك، وطموحنا هو إحداث نقلة منهجية تضع الجماعات التكفيرية خارج خطوط الانقسام المعروفة والمشروعة في الإسلام بين المدارس والمذاهب، وتُلقي بها بعيداً عن التيار الرئيسي العريض الذي يضم اجتهاداته واتجاهاته الرئيسية كافة.



# كلمة رئيس

## مركز الحضارة لتنمية الفكر الإسلامي

الشيخ الدكتور محمد تقي سبحانى

لا شك في أن قضية التكفير والإرهاب من أخطر القضايا التي تواجهها الأمة في العصر الراهن؛ بل العالم كله، كما هي من أكثر الظواهر المعاصرة تعقيداً. ويبدو أن هاتين الظاهرتين سوف تبيان في رأس لائحة الأولويات الثقافية والسياسية في السنوات القادمة. ويكفي لإثبات أهمية هاتين الظاهرتين أن عدداً كبيراً من المؤسسات الأمنية والثقافية على المستوى المحلي والإقليمي والعالمي جعلت منها محوراً لاهتمامها، ومن المؤشرات الدالة أيضاً أن وسائل الإعلام العالمية لا تخلي من خبر عن شأنٍ مرتبٍ بهاتين الظاهرتين وبشكل يوميٍّ، ولأجل هذا قلماً تُعقد محادثات بين طرفين سياسيين ولا يكون الإرهاب التكفيري ثالثهما، وقلماً يؤخذ موقفاً سياسياً لا يذكر فيه الإرهاب أو أحد إخوانه وأخواته.

وقد شهدت السنوات الأخيرة عدداً من المؤتمرات والندوات العلمية لدرس هذه الظاهرة وما زالت محور دراسةٍ واهتمام. وهذا المؤتمر محاولةٌ تضم إلى المحاولات السابقة في هذا المجال. ونأمل من هذا المؤتمر استئنافَ الجهد العلمي في مجال عرض الأفكار والأراء وطرح السبل والوسائل التي تسهم في فهم هذه الظاهرة واكتشاف سبل التغلب عليها.

وممّا نحن مدعوون إلىه في مثل هذه الحلقات العلمية توضيّح المصطلحات وتحديدها، في سبيل تأمين التفاهم بين المُتَحاورِين؛ وذلك لأنّا نرى أنّ كلماتٍ مثلَ الإرهابِ، والعنفِ، والتَّكْفِيرِ، وما شابه من المفاهيم التي يكثر استعمالها، ربما لا تحظى باتفاقٍ أو إجماع على دلالاتها.

نأمل في هذا المؤتمر أن نُضمّ جهداً إلى جهدِ، وفكراً إلى رأيِّ، لعلّنا نُوفّق إلى الكشفِ عن بعض الزوايا الحقيقة والخفية أحياناً لظاهرة الإرهاب التَّكْفِيريّ، بعيداً عن الضوضاء الإعلامية والصخب السياسي. ومن باب الرغبة في تحقيق تفاهم دقيق، أميلُ إلى الحذر من مجالين يتم فيهما استعمال كلمتي الإرهاب والتَّكْفِيرِ، وهذان المجالان هما: النظام المعنائيُّ الحاكمُ على الخطاب السياسي المعاصر الذي يسمح بالاستناد إلى هذه المفاهيم لإدانة الآخر المختلف أو لترير الذات وما ترغُب في الإقدام عليه من فعلٍ.

والمجال الثاني هو الخطابُ الدينيّ التراثيُّ الحافل بالمصطلح الثاني ومشتقّاته أي بمادة كفرٍ وما يُشتقُ منها. ولا شكّ في أنَّ للتطرف والعنف بأشكالهما المتعددة جذوراً في تربة السياسة والأوضاع السياسية، كما لهما امتدادات وتأثيرٌ وتأثُّرٌ بالفكر الديني عبر التاريخ، ولكنَّ حصرَ هاتين الظاهرتين المدمّرتين للإنسان والحضارة الإنسانية بمنعى الدين والسياسة لا يُحلُّ المشكلة ولا يقضي عليها، وإنما يترك جمرَها تحت الرماد ليعود إلى الاشتغال من جديد في ساحة المجتمعات الإنسانية فُيحرق الأخضر واليابس كما يفعل في هذه الأيام.

بلى؛ إنَّ العنف والإرهاب وما شابه من ظواهر تمتدّ جذورها في التاريخ الإنساني كله، ولا يكاد يخلو مجتمع من المجتمعات الإنسانية من هذه اللوثة الفكرية والاجتماعية والأخلاقية، ولكنَّ النسخ المعاصرة

للإرهاب والتکفیر، تمتاز عن أسلافها القديمة بمجموعة من الخصائص  
نعرض أهمّها في ما يأتى:

أولاً: ما نواجهه اليوم ليس مجرّد عنف وإرهاب؛ بل نحن نواجه تنظيراً  
لهما، يبغي إضفاء القدسية على هذه الممارسات. فأنْ يُمارِس المستبدّون  
أو المتديّنون الإرهاب شيءٌ، وأنْ ينظر هؤلاء لممارساتهم ويستندوا في  
تبريرها إلى المبادئ الفلسفية والكلامية والفقهية والأخلاقية شيءٌ آخرٌ  
مختلف تماماً الاختلاف عن الممارسة المجرّدة. ومن هنا، ينبغي أن يُدرّس  
التکفیر وإرهابه من هذه الزاوية؛ للكشف عن المبادئ النظرية والفكريّة التي  
يستند إليها.

ثانياً: السمة الثانية التي تسمِّ الإرهاب المعاصر هي تحوله إلى ظاهرةٍ  
عالمية، لا تقتصر على دين دون آخر، ولا تصيب مجتمعًا إنسانيًّا دون غيره،  
ولا تيارًا فكريًّا دون قرينه، فالإرهاب يُمارَس في هذه الأيام في المجتمعات  
كُلّها ومن قبل جميع التيارات، ومن هنا يمكننا الحديث عن إرهاب  
إسلاميٍّ، وآخر مسيحيٍّ، وثالث يهوديٍّ أو بوذويٍّ إلى آخر الائحة، كما إنّ  
الإرهاب أو العنف الذي يستند إلى العلمانية حجز له محلًا وأي محلٌ في  
التاريخ الإنساني المعاصر خلال حربين خاضهما مطلع القرن الماضي.  
وخاض غيرهما بالتقسيط خلال ذلك القرن والقرن الذي نحن فيه. وما  
نقوله عن الإرهاب يصدق على التکفیر على الرغم من تبدل المصطلح من  
مدرسة فكرية أو دينية إلى أخرى.

ومن هنا لا ينبغي أن نغفل عند معالجة ظاهرة التکفير والإرهاب عن  
النماذج الأخرى التي قد تختلف في الصورة؛ ولكنّها تشتراك في الجذور  
التي تستند إليها. أليس اتهام المتدينين من قبل التيارات العلمانية بالتخلف  
والرجعية شكلاً من أشكال التکفیر؟ أليس الاتهام بالخيانة الوطنية عند أول  
اختلاف أو تنافس سياسيٍ شكلاً من أشكال التکفير غير الديني؟

**ثالثاً:** وبناءً على ما تقدّم أعلاه لا يمكن حصر الإرهاب في بعده الديني أو الثقافي؛ بل لا بدّ من النظر إلى سائر الأبعاد التي تشارك معًا لتكوين ظاهرة الإرهاب المعاصر. واشتراكُ هذه العناصر جميًعاً في ولادة هذه الظاهرة هو سمةٌ من سماتِ النسخة المعاصرة.

ولقائل أن يقول هذه هي حال الظواهر الاجتماعية كلّها؛ حيث تضامنٌ مجتمعةٌ من العوامل لإنتاجها. ونحن نوفق على هذا التصور ونؤمِن بأنَّ الظواهر الاجتماعية الإنسانية لا يمكن تفسيرها بنظرية العامل الواحد؛ ولكنَّ الملفت في هذه الظاهرة محلُّ الدرسٍ هو اشتراكُ هذه العوامل وتضامُنها الكاملُ إلى حدٍ لا يسمح بتشخيص هويَّة هذه الظاهرة ووصفها بأنَّها دينية أو سياسية أو ما شابه. وهذا ما يسمح لنا بالدعوة إلى عدِّ الإرهاب والتکفير موضوعاً للدراسات بين-تخصُصية، تشارك فيها علومٌ عدَّة مثل: علم الاجتماع وعلم النفس مضافاً إلى الدراسات الفلسفية والفقهيَّة والأخلاقيَّة.

**رابعاً:** ثمة سؤالٌ يُطرح في الدراسات الحديثة حول التطرفِ التکفيريَّ، وهو: هل هذا الاتجاه قد يُمتد إلى التراث ويُمثل نظرة رجعيَّة وتطلُّقاً إلى الوراء، أم هو نمطٌ حداثيٌّ من التفكير أو ما بعد حداثيٌّ؟ ولا تتفق الإجابات في الرد على هذا السؤال، وإنما تتعدد بتعذر الاتجاهات وتتنوع زوايا المقاربة، ولا تُعدَّم أيٌّ مقاربةٌ من الشواهد التي تؤيد ما تنتهي إليه، وتؤدِّي إثباته.

إنَّ وجودَ نماذج من هذا التطرفِ في المواقفِ الفكريةِ والعمليةِ في التراث الفكريِّ الإسلاميِّ يدعم النظرة القائلة بانتماء هذه الظاهرة إلى أصول إسلامية، ومن النماذج التي تذكر عادةً: الخوارج والحساشون، وغيرُهم من الفرقِ التي عبرت عن نفسها في الجدالات الكلاميةِ والفقهيَّة والسياسيَّة. ومن هنا، ثمة من يرى أنَّ ما نشهدهُ اليوم من تکفيرٍ وتطرفٍ فيه،

إنما هو إعادة تجسيد لتيارات ولدت في البيئة الفكرية الإسلامية، وتبنت نظرية سطحيةً أحادية الجانب إلى الدين، وجانت العقلانية والإنسانية وتجنّبَتُهما في تعاملها مع النصوص الدينية. ولسنا ننكر على هذا التصور نصيبي من الصحة؛ ولكننا في الوقت نفسه لا نقدر على تجاهل العناصر الحديثة التي قد يستند إليها هذا التطرف، ومن ذلك: التعامل الآلي والبراغماتي مع الدين، والاستفادة من النماذج والأساليب الحديثة في الإدارة السياسية والاجتماعية واستخدامها في تطبيق خاطئ للأفكار الدينية، واقتباس تجارب فاشيةٍ وغيرها بغية تحقيق الغايات التي يحسب أصحابها أنها تخدم أغراضهم الدينية.

وأخيراً لا ينبغي أن نغفل، في تحليلنا لهذه الظواهر المشوّمة التي نحن بصددها، عن أنّ أبرز قيادتها تلقوا تعليمًا حداوثياً بكل ما للكلمة من معنى، وذلك لفتراتٍ غير قصيرةٍ من أعمارهم؛ بل إنّ بعضهم له تاريخ من تبني الفكر غير الديني واعتقاده، ثم تحوّل بعد ذلك إلى التدين، صادقاً أو لمّارب آخر. ومن هنا، نرى ضرورة ملاحظة هذه الشخصيات الفريدة التي تُسمى الإرهاب الموسوم بأنه ديني يسمّتها الخاصة، وتسمّه في تشكيل هويته الفريدة التي تميّز بينه وبين النسخ القديمة التي شاركه في الفعل والأثر، وفي شيءٍ من العناصر المكونة للهوية.

ما ذُكر أعلاه، ما هو إلا باقةٌ من الأسئلة والملحوظات التي تستحق التأمل فيها وتقديم الإجابات والأطروحات حولها بطريقةٍ علميةٍ، مع اعتماد منهجيةٍ واضحةٍ المعالج؛ لكي نخرج من هذا المؤتمر الكريم وقد أضفنا إلى الطروحات المقدمة طرحاً، وإلى الأفكار المطروحة فكرةً.

نعم؛ إنّ مواجهة هذه الظاهرة المدمرة للإنسان والحضارة الإنسانية يجب أن تكون متعددة الأبعاد بدءاً من السياسة والأمن والاقتصاد والثقافة والفكر، ولكن تبقى المسؤولة الأنثى ملقأةً على عاتق المثقفين وبخاصيةٍ

المشتغلين على الفكر الديني، وهم مطالبون بتحمّل هذه المسؤولية التاريخيّة الخطيرة، وإنّ أي تساهل أو استخفافٍ في هذا المجال سوف يجعلنا في مواجهة محكمة العدل الإلهي قبل أن يجعلنا في مواجهة محكمة التاريخ التي لا ترحم.

ومن هنا، نحن مدعوّون إلى إعادة النظر في تراثنا الفكري ونظامنا القيمي لنخرج منها كلّ ما يمكن أن يكون مولّداً للإرهاـب والعنف غير المشروع وغير المبرّر أخلاقياً ودينياً. ومن جهة ثانية على كلّ ناطق باسم الفكر والثقافة أن يُسمع الدنيا صوت إدانته لهذا النمط السلبي من التكفير والتفكير، لكي يعلو صوت العقل والعقلانية على صوت الجهل والجهالة.

وفي الختام أجدّد الشكر لجميع الإخوة والأخوات لتشريفهم إلينا واستجابتهم دعوتنا إلى هذا اللقاء العلمي، وأسأل الله عزّ وجلّ أن يجعلنا من الذين يؤثّرون واجبهم في تحمل مسؤولية هذه الرسالة الملقة على عواتقنا جميعاً. والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

## **الجلسة الأولى**

### **ظاهر العنف التكفيري: الجذور والخطاب**

- كلمة رئيس الجلسة (الأستاذ معن بشور)
- البنى المعرفية والمنهجية للفكر التكفيري: قراءة نقدية في المستند الديني (الدكتور عبد الأمير كاظم زاهد)
- العنف التكفيري: من الآخر بعيد إلى القريب (الدكتور بدر الإبراهيم)
- العوامل الاجتماعية والسياسية المساهمة في نشوء التطرف الديني (الدكتور عبد الغني عماد)



## كلمة رئيس الجلسة

الأستاذ معن بشور<sup>(1)</sup>

لا بد من طرح سؤال للتأمل فيه: هل إصرارنا على استعمال وصف التكفير لجماعات الغلو والعنف والتوحش، هو الاستعمال الصحيح الذي يسمح بتبعة الجهود والطاقات كلها، والذي يخرج المعركة مع هؤلاء من إطار يرتبط بشكل أو باخر بتاريخ الصراعين المذهبي والديني؟ أعتقد أنه يجب أن نصف الظواهر بعماراتها أكثر مما نصفها بأفكارها. خصوصاً وأن التكفير ليس مخصوصاً بجماعات دينية وإنما للأسف ينتشر أيضاً في ثقافة الإقصاء التي طالت أحزابنا ومنظماتنا من التيارات كلها. وهذه ثقافة في تقديرني هي أحد أسباب إنجاب هذه الظاهرة.

---

(1) رئيس المركز العربي الدولي للتواصل والتضامن، من لبنان.



# **البني المعرفية والمنهجية للفكر التكفيري**

## **قراءة نقدية في المستند الديني**

الدكتور عبد الأمير كاظم زاهد<sup>(1)</sup>

### **المدخل**

كان مسار المسلمين من بعثة النبي (ص) حتى محنّة أحمد بن حنبل مساراً معرفياً مقبولاً في سماته العامة ومسجماً إلى حدٍ كبيرٍ مع حقائق المنطق العلمي السليم والعقل الإنساني، سواء في أدوار التشكّل الأولى لمدارس الاجتهداد، أو في اكتشاف مسالك الاجتهداد التي تُنبع عنها نشوء المذاهب الفقهية، وما تفرّع عنها من اتجاهات للاستباط.

صحيح أن العصر الأول شهد في بعض أوقاته (قراءة حرفية للنص) وكان اتجاه التفسير بالتأثير هو الغالب، وتوقف كثيراً عن الفتوى والخوض في مستجدات الأزمان؛ لكن ذلك الاستثناء لم تُنبع عنه مباشرةً موجةً نصوصية، فلقد كان هذا اختياراً أشخاص قلائل بينما كان الاتجاه العام هو الفهم العقلي للنص.

---

(1) مدير مركز دراسات جامعة الكوفة في العراق.

## ١- الجذور التاريخية للفكر المتشدد

صحيح أيضاً أن حالات من العنف الديني قد ظهرت في هذه الفترة مثل: ممارسات خالد بن الوليد في ما يُسمى بحروب الردة، و المعارك الخوارج مع جيش الإمام علي (ع) وما نجم عن ذلك من أفكار متطرفة وشاذة استمرت انشغال الدولة بحروب أهلية متعددة، فاستغلت الضعف والانقسام، فأعلنوا أفكاراً وبني جديدة، منها: استبدال الخليفة الشرعي بعد اتهامه بالتصبير واتهامه بارتكاب الكبائر، والكبائر عندهم مكفرة بأميرين أحدهما للصلوة وأخر للحرب<sup>(١)</sup> وجعلوا أمر الخلافة شورى عامة بعد أن كان شورى خاصة، وحوّلوا الأمر بالمعروف إلى الجهاد وأفتووا بالهجرة من البلاد التي يسيطر عليها (من يرون أنه ظالماً) فراراً إلى الجبال، وأعلنوا أنفسهم جماعة تطهيرية إزاء انحراف تصوروه، ثم ارتكبوا على أساس هذه البنى الفكرية جرائم قتل، ومثلوا بالقتل كما حصل مع عبد الله بن خباب<sup>(٢)</sup>، مما دعا الإمام علياً (ع) إلى معاملتهم على أساس أنهم قتلة مجرمون ومارقون وخارجون عن طاعة الخليفة الشرعي.

إن هذه الحركة بدأت سياسية حيث كان التنظير الفكري لها أقل من الجهد السياسي، وكذلك أقل من الجهد الحركي القتالي، وكل ما كان لهم من بنى فكرية كانت وظيفته شرعة حركتهم القتالية، وتبرير خروقاتهم مثل: تكفير مرتكب الكبيرة التي على أساسها صاروا يقتلون أهل الإسلام ويدعونهم أهل الأوثان.

بيد أن هذه الحركة قد تلاشت وجودها الفعلي بعد عقود من الزمان، ووقف جميع من يسمون أنفسهم أهل السنة آنذاك ضدها؛ لأنها لم تقف في

---

(١) والمفت أن الجماعات التكفيرية ما زالت تحافظ على منصبين أحدهما منصب الإفقاء والآخر أمير القتال.

(٢) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج 2، ص 78.

خصوصيتها عند الإمام علي (ع) إنما استمرت تقاتل دولة بنى أمية فتضامن أهل السنة مع الدولة والحكام، وقاتلوا الخوارج.

أما فكريًا فقد هاجمتها كتب الفرق والعقائد وعلم الكلام هجومًا كبيرًا، وانتهت هذه الموجة بعد ظهورها بمئة عام تقريبًا، أي في 145هـ؛ لكنها في أثناء وجودها لم تؤثر على مسار تطور المعرفة الدينية، فكانت الاتجاهات العقلية قد تنامت وظهر الأشاعرة والمعترلة، وكانت مدرسة أهل البيت (ع) تمارس بناء العقل الإسلامي الوسطي إلى جنب هذه المدارس بفاعلية عالية على الرغم من حصار السلطة لها.

إن بداية مشكلة التكفير إذا تجاوزنا تجربة الخوارج نجدها في زمن المؤمن العباسي أواخر القرن الهجري الثاني، الذي تبنى فكر المعتزلة ومقولاتهم، ومنها: خلق القرآن، وبدافع من غلواء السلطة وتداعيات امتلاك القوة، وطبيعة الاستبداد صار يفرض رأي السلطة على الناس الذين يخالفونه، فاعتقل أحمد بن حنبل وضربه لعدم انصياعه لفكرة السلطة في مسألة خلق القرآن. وحينما تبدلت عقيدة السلطة بمحيء الم وكل الذي أعلى شأن أحمد وقمع المعتزلة، ونشر أصحاب أحمد في المساجد يبشرون بأرائه، فصار عند ذلك إماماً لـ«أهل السنة»، وعندئلي أن هذا المصطلح قد ظهر تواً مقابل جماعة البدعة (المعتزلة)<sup>(1)</sup> حيث تم تمجيل شخصية أحمد بن حنبل، وقد نسجت الكثير من القصص والأساطير والمناقب والكرامات له، وقد أضيف إلى مصطلح «أهل السنة» شعار «لَا تقية إلّا في دار الشرك»، ليتحول الأمر من نظرية إلى اتجاه حركي عملي سلوكى سياسى.

تجمّع الرواة حول أحمد لرواية الحديث فأملأى عليهم المسند، وصارت جماعته تطلق على نفسها «أهل الحديث»، في مقابل أهل الاجتهد

---

(1) ابن أبي بعلى، طبقات الحنابلة، ج 1، ص 4.

والرأي، حيث كان يتبادر إلى الذهن في ذلك الزمان عند استخدام هذا المصطلح أبو حنيفة (150هـ) وأتباعه، والشافعي (204هـ) وأنصاره<sup>(1)</sup> حصرًا في الفقه، وأتباع آل البيت والمعتزلة في الفقه والعقيدة، كما شاع مسلك رفض التأويل كأساس معرفي؛ لأنّه عندهم حمل الظاهر على محتمل مرجوح يراد اعتباره راجحًا كما يصفه السبكي<sup>(2)</sup>، أو هو استخدام للرأي في موضوعات الشرع.

كما ظهر في زمن أحمد مفهوم «البدعة» التي عرّفت: بأنها ما أحدث في الدين مما ليس منه، وما خالف السنة، وما لم يؤيده سلوك الصحابة والتابعين وأتباعهم، وبهذا تظهر جدلية مفهوم الابتداع والاتّباع، أي مفهوم «السلف وعقيدتهم وفهمهم»، ويلاحظ صعود نسخ التشدد في اعتبار أنّ البدعة أخطر من الكفر، فأحمد لا يرى توبّة لمن دعا إلى بدعة، بينما يرى للكافر توبّة، ويرى أنّ جهاد أهل البدع أعظم عند الله من جهاد الكفار<sup>(3)</sup>. ومن هنا بدأ تصاعد الفكر الإقصائي الاتّقامي ضد العقلاًين.

ويرى أ Ahmad صحة حديث الفرقة الناجية؛ بل يميل إلى تواتره ويرى أنّهم أهل الحديث، ويعطيهم امتيازاً حصريًّا وهو أنّهم أحق من غيرهم ممن يتكلّم بالدين، لذلك فمن خالف التواتر عنده فهو ضالٌّ كافر، ومن خالف الخبر الواحد فهو فاسقٌ يُؤدّب؛ لأنّه مبتدع، وفي مسنده لا يرتكز على حديث النبي الأكرم محمد (ص) كقبية مجتمع الحديث؛ بل يتتوسّع بذكر آراء الصحابة، ويرى لها مرجعية كمرجعية الحديث النبوّي من حيث كونها نصوصًا مستنديّة.

وفي ظني أنّ هذه الواقع وما نتج عنها من آراء ونظريات قد غرست

---

(1) محمد أبو زهر، أحمد بن حنبل: حياته وعصره، ص 155.

(2) السبكي، جمع الجواب، ص 117.

(3) عبد الواحد التميمي، اعتقاد الإمام أَحمد، ص 11.

في أرضية الفكر الإسلامي جذور اتجاه متشدد نصوصيٌّ، غير قابل للحوار والجدال البرهاني، ليكون الأنماذج النظري المبكر للفكر التكفيري. وبسبب أوضاع العالم الإسلامي المعروفة آنذاك نما هذا الاتجاه فأصبح تياراً سمي بالحنابلة، وكانت تلك الجماعة من أكبر الجماعات التي تقلل الحكومة في القرنين الرابع والخامس؛ لأنها كانت تمارس العنف وتحارب الخصوم، كالشافعية<sup>(1)</sup> والصوفية والأشاعرة والمعتزلة والشيعة. وقد بقي هذا التيار يمارس سلوك التشدد حتى ظهر ابن تيمية في عصر الهزائم، وزمن الدوليات، والانحطاط الحضاري عند المسلمين، فكان أيضاً من رواة الحديث والمشتغلين في الإسناد، حتى أشيع آنذاك عن ابن الوردي أن كل حديث لا يعرفه ابن تيمية ليس حديثاً. ولم يتوقف على رواية الحديث وشرحه وتوجيهه نصوصه توجيهًا تكفيريًّا، بل خاض جملة من الخصومات والمعارك، وساهم في حروب ضد النصيريين في ماردین وغيرها، ونتجت عن مؤلفاته الكثيرة مجموعة من الأفكار:

- 1- الدعوة إلى استئناف الدولة الدينية (الخلافة) العامة المركزية، وإنهاء وضع الدوليات.
- 2- تكفير خصومه العقدين: كالأشاعرة والشيعة والمعتزلة وغيرهم.
- 3- محاربة الصوفية، واعتبار الصوفيين أكثر شرًّا من الكفار؛ لأنهم يتسللون بالأولياء.
- 4- رسمٌ منهجٌ خاصٌ بالاستنباط أساسه فهم الصحابي (ومنطلقه الرواية).

لقد رسّخ ابن تيمية تيار التكفير، وحقنه بالفكر والنظريات، وعمق رؤى الانقسام والإقصاء، ودخل العالم الإسلامي في مرحلة التراجع

---

(1) آدم متر، الحضارة الإسلامية، ج 1، 370؛ انظر: المقدسي، أحسن التقاسيم، ص 366.

الحضارى بعد القرن الثامن الهجرى مدة أربعة قرون، ثم استيقظ على دعوة محمد بن عبد الوهاب وتبنيه لفكرة الغزو العقدي التطهيري لنشر مشروعه «التصحىحى» للعقائد، التي يراها شرّاً، وتنامت دعوته بالاتفاق مع آل سعود بإنشاء دولة وهابية قبلية طبّقت نظاماً تعليمياً بداعياً للمعرفة الدينية كان السبب الأساس -في ما أعتقد- لانتشار الجماعات الانتحرارية التي تقاتل المسلمين بعد تكfirهم، والتي أدخلت العالم الإسلامى في أخطر مشكلة عرفها تاريخه القديم وال الحديث.

## 2- السمات العامة للفكر المتشدد

يشترك الفكر التكفيري في مراحله التاريخية المتعاقبة في خصائص عامة تجمع بين تياراته وجماعاته، ويفترق في أمور ضئيلة وتفصيلية عمّا استقرّت عليه مراحله. أما ما يعدّ من السمات العامة لهذا الفكر، فهو:

أولاً: إن منطق التكبير والعنف الدينى منطق واحد، وأن هذا الفكر حلقات متواصلة يبني اللاحق أفكاره على التجارب السابقة، وربما يزيد عليها، فهو فكر متراكم ومتطوّر ذاتياً يكتشف آلياته في كل دور.

ثانياً: لهذا الفكر قابلية توظيف المقولات الدينية المتعارفة لأغراضه بنزعها من سياقاتها، وله القابلية على إضافة مقولات عقدية وفقهية جديدة تحت عنوان: «فقه الضرورة والعقائد الغائبة».

ثالثاً: إذا احتاج هذا الفكر إلى أن يغاير المجمع عليه من أهل السلف، فهو مستعد أن يغايره ويتبنى آراء جديدة ينفرد بها.

رابعاً: تعد القراءة الحرافية، والابتعاد عن العقل والبرهانية، وممارسة العنف الدينى سمات عامة ومشتركة لهذا الفكر.

## 2- منطق الفكر التكفيري

يمكنا ببساطة أن نلحظ اشتغال الفكر التكفيري في منطقة الشذوذ الفكري، مقابل ما عرفته الأغلبية الإسلامية التي تتعاطى مع العقائد بالوسطية والاعتدال والاهتمام بالمقبول من العلماء قبولاً عاماً، أما الفكر التكفيري فقد تماهى مع الشذوذ، ودعا إلى العزلة الاجتماعية والثقافية، ف تكون فكرهم خارج العقل الجماعي، حتى أن الجماعات التكفيرية تختر المناطق النائية والبعيدة عن المطارحة الفكرية والحوار، ويعدون أحياناً إلى غلق منافذ التأويل والاجتهاد، وبوابات العقلانية والتأمل، ومراجعة المواقف والإلقاء من تجارب الناس؛ بل يدعوا هذا الفكر إلى محاربة هذه المنافذ كلها؛ حفاظاً على منطقة الاشتغال المتشددة والشاذة، ولا يعني كثيراً بسلامة الدليل والدلالة، إنما يحيل الأمر إلى فقه ضروراته الميدانية، حيث تندمج الأفكار التي تقترب من إعمال العنف؛ لتشكل فيه حزمة فكرية متربطة (البدعة، التكفيير، الجهاد، إنكار المنكر، الخروج على الحاكم، البراء، الطائفة المنصورة... إلخ).

وتضيق فيه الأفكار التي تدعو إلى التعارف والحوار والسلام والتسامح والمعروف وإشاعة المحبة وإرادة البناء، بناء الإنسان وبناء الأوطان، وبناء الفكر، وبناء التقوى، وبناء هيكلية العمل الصالح.

## 3- تراكم الفكر التكفيري

تتناضل مراحل هذا الفكر وتتراكم، ولو تبعينا مراحل الفكر التكفيري من فكر الخارج لوجدنا أنه يستفيد من القراءة الحرافية للنص ويزيد عليها، فقد زاد الحتابلة على فكر الخارج زيادة خطيرة، هي: نظرية سلطة السلف والبدعة، وتكفير الآخر بالذنوب وبالرأي، فإذا جئنا إلى ابن تيمية وجدها يتبع فكرة الدار المختلطة (الكافر والمؤمنين) كتبير لمهاجمة ديار دخلت في الإسلام ولكنّ فيها من لم يرتصوا مسلكهم. وحينما نصل

إلى الوهابية نجد تهمة الشرك جاهزة لمن استغاث بالأولياء، واستعن بالصالحين وطلب بركتهم وشفاعتهم، ووجدنا الفكر التكفيري يضمّ المدن إلى دولته (بالغزو)، أي تحويل نظرية الأمر بالمعروف والأساليب السلمية للدعوة والتبلیغ إلى جهاد عنفي مسلح، وصولاً إلى رأي المودودي الذي أعلن أن المسلمين لم يعرفوا معنى الربوبية الحقة، وأنهم مقصرّون بعدم إعلان الدولة الملزمة تمام الالتزام بفروع الأحكام تحت نظرية الحاكمة.

بهذا الشكل نلحظ أن الفكر التكفيري فكر تتوالد أفكاره ممن سبقه، ويزداد قسوة وتطرفاً وكراهة وإكراهاً زيادة متواتلة ومطردة، فلو أجرينا مقارنة بين آراء أحمد وما صار إليه العناية نجد عندهم زيادات كثيرة أدخلها الأتباع ونسبوها إلى المتبع وهو لم يقلها. ولو تابعنا ما بين المودودي وبين الإخوان المسلمين والجماعات (الجهادية) نلحظ تطورات نحو الراديكاليات المبتكرة في العقيدة والفروع مما يجعلنا نستنتج سمة الصفة التراكمية التي تزداد انحداراً نحو التشدد.

#### 4- التعارض مع التراث الديني

لم يقف الفكر التكفيري عند حدود توظيف معطيات التراث، فقد كان وظّف الكثير من المقولات التراثية لصالح وجهات نظره، واضطُر إلى معارضه مقولات ثابتة ومجمع عليها، ومن ذلك أنه ترك إصرار السلف الذي انتهى إليه في أكثر من موضع، فصار فكراً يعمل في دائرة الشواذ الفكري المتشدد، ويترافق ذاتياً، ثم يضيف لتراثه فكراً جديداً حتى لو تعارض مع إجماعات السلف الذي يُعدّ مرجعيته الشرعية.

يمكن مثماً تقدم تشخيص البنى الفكرية والمنهجية على النحو الآتي:

## 5- البنى الفكرية للاتجاهات التكفيرية

وهي البنى الفكرية التي استند إليها التكفيريون، وأنتجها علماء التراث العقدي الإسلامي والتراث الفقهي، فقد تعامل معها الفكر التكفيري بثلاث وسائل منها: البنى المعرفية الموجودة التي اقتطعها من سياقها العام، ووظفها كمبررات شرعية لأفكاره وإيديولوجياته.

ومثال ذلك:

أـ فكرة «دار الإسلام ودار الحرب» فهذه القسمة للعالم كانت موجودة بوصفها موقفاً للفقهاء لتقسيم العالم القديم على خلفية الصراع بين تمدد دولة الخلافة الأموية، وبين العالم الآخر المعاصر لها مما سمي بالفتورات، فهذا الأمر على الرغم من أنه ليس معنى شرعاً قرآنياً أو حديثياً، إلا أنهم الآن يوظفونه لأغراض جيوپوليتيكية إرهابية.

بـ وكمثال آخر قضية البيعة التي طورتها السلطة الأموية آنذاك، من اختيار حرّ إلى ممارسة استبدادية.

جـ وأيضاً مثال تطبيق الحدود الشرعية من دون مراعاة لشروط التطبيق وظروف الجنایات، مثل: قطع يد السارق في أجواء الحاجة والفقر، وإقامة حدود الجلد التعزيرية في مجتمع ينشأ على قيم مختلفة عن القيم الإسلامية، ويحتاج إلى تربية قيمة جديدة ليتبينَ قيم الدين، لأن العقوبة تطبق على من يعلم بالجريمة ويتعमده. وليس لمن يجهله، لا سيما أن على ولاة الأمر مراعاة ظروف الشخص ومدى ما يتحققه التعزير من ردع إيجابي، وليس مجرد زرع الخوف والرعب في نفوس المخالفين للأحكام من جهاز الحسبة، أو جهاز الأمر بالمعروف كما هو سارٍ في الممارسة التكفيرية.

دـ ومن ذلك مثلاً سبي النساء والأطفال، فهم عندما يسيطرُون على بلدة، يكون مصير النساء والأطفال (المُسْتَوْلِي على بلدتهم) السي

والاتجار بالبشر، وهذا من السياسات المتروكة لولي الأمر، على أن مناط تصرفاته تحقيق المصلحة الإسلامية بمعناها التام، وليس لإيقاع الرعب والتنكيل فقط.

## 6- إضافات التكفيريين

لقد أضاف التكفيريون إلى معطيات التراث إضافات لم تكن ضمن مسائله سواء بتوسيعه، أو اختزاله، أو وضع زيادات عليه، ومثال ذلك: تحويل احترام الجيل الأول من نطاق التقدير إلى اعتبارهم مرجعية دينية معيارية.

ومنها التوسيعة والتضييق في عقيدة الولاء والبراء، وإضافاتهم إلى عقيدة التوحيد، وتوظيف عقيدة فكرة الحاكمة.

### أ- الإضافات التكفيرية على القضايا العقدية

#### - عقيدة السلف

لا تكاد تجد حركة تكفيرية تمارس العنف فعلاً، أو لا تمارسه خوفاً مع استعدادها ذاتياً لاعتماده، إلا وترى أنها من نتاج المدرسة السلفية، وأنها تتبنى عقيدة السلف وبمتابعتها للمدرسة السلفية، ولكنّ المتابع للتأسيس الأول لفكرة السلفية يجد:

أولاً: اضطراباً كبيراً في نطاق المقصود بـ«أهل السلف»، فمنهم من خصّه بمذهب الصحابة<sup>(1)</sup>، ومنهم من أدخل معهم التابعين وأتباعهم<sup>(2)</sup>.

(1) أبو حامد الغزالي، إلحاد العوام عن علم الكلام، ص 45.

(2) ابن حجر العسقلاني، فتح الباري، ج 6، ص 157.

ومنهم من زاد فيهم الأئمة الأربعه<sup>(1)</sup>، وقالت جماعة هم أهل القرون الخامسة الأولى<sup>(2)</sup>.

ثانيًا: أنه قد ظهر مصطلح عقيدة السلف على يد أبي عثمان الصابوني (449هـ)، الذي كتب رسالة أسمها: «عقيدة السلف أصحاب الحديث»، وكانت فكرة السلف قد ظهرت عند أحمد بن حنبل ظهوراً خالياً من التنظير المترابط مع شبكة قضايا الفكر التكفيري، وقد صارت مسلكاً في القرن الرابع، واتكملت في القرن الخامس عند الصابوني، ففكرة عقيدة السلف غير معروفة حتى العصور التأسيسية المتأخرة، وهو مصطلح غير مؤصل، وقد أطلق أخيراً على أهل الحديث<sup>(3)</sup>.

والأساس النقلي لعقيدة السلف هو حديث: «خير القرون قرنى ثم الذي يليه» وهو من الأحاديث التي حظيت بزيادات عده على متن قيل عنه: إنه متفق عليه<sup>(4)</sup>.

لقد تعدد متون هذا الحديث<sup>(5)</sup> واضطربت من جهة الزيادات في دلالته ومضمونه، فقيل عنه: إنه في معرض ذم الحلف قبل الدعوة إلى القسم، وهذا لا يعني أفضلية مطلقة للأزمنة المبكرة على الأجيال المؤمنة المتأخرة؛ لأن ذلك مداعاة لإهدار القيمة المعنوية للأجيال وهو معارض بحديث «أمتى كالمطر...»<sup>(6)</sup>، ومعارض بالقرآن حينما خاطب «عامة

(1) إبراهيم البيجوري، تحفة المريد، ص 231.

(2) أبو بكر الإسماعيلي، اعتقادات أئمة أهل الحديث، ص 63.

(3) البوطي، السلفية: مرحلة زمنية، ص 22.

(4) نص ابن القيم في أعلام الموقعين، ص 223؛ وقد روى أحمد «الذين يلونهم» رابعة أن من الأحاديث الموضوعة « أصحابي كالنجوم».

(5) زكريا الأنباري، أنسى المطالب، ج 1، ص 136 (متفق عليه)؛ أحمد العسقلاني، التلخيص الحبير، ج 4، ص 204.

(6) السخاوي، المقاصد الحسنة، ج 1، ص 299.

ال المسلمين» بقوله تعالى: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾<sup>(١)</sup>. وإن واقع التجربة في القرون الثلاثة لا يساعد عليه، وعلى فرض صحة الحديث فهو لا يكفي دليلاً على المفهوم الإقصائي التميزي واقتراحه بالفرقة المنصورة، ولا يكفي دليلاً على أنهم مرجعية معيارية للفكر اللاحق، وبالممحصلة فإن هشاشة المستند، لم تكفي لإنشاء إيديولوجية تقف وراء مشروع مجتمعي للطرف ذي استمرارية متشددة.

لكن التعامل مع الجماعات التكفيرية ينبغي أن يكون على أساس أن منهجها السلفي الذي لا يتمتع بالمستندات الدينية الكافية منهجه يحمل بذور التطرف في داخله، أو في بنيته الذاتية وفي رؤاه.

إن الفكر السلفي وبسبب التباين مع عقائد عامة المسلمين نهج لا يستطيع الانسجام مع محیطه المعاصر؛ لذلك يلتجأ إلى العنف ولا يتناقش مع ممارسة الحوار والجدال بالتي هي أحسن.

عقيدة الولاء والبراء

تهدف قضية استثمار الولاء والبراء كواحدة من قضايا الفكر الإسلامي إلى وضع حجر الأساس لمحققين، هما:

أـ ربط أفراد الجماعات التكفيرية بنطاق الولاء للجماعة الإرهابية اخترالللمفهوم؛ الذي هو بالأصل رابطة للأمة بكمالها، وتحويه إلى رابطة للجماعة الجهادية الضيقة بعدها ومضمونها وتطلعاتها.

ب- توسيع رابطة البراء التي أرادها القرآن من المعتدين على المسلمين، إلى البراء من عامة المسلمين ممن لا يعتقد بالمنهج التكفيري؛ تمهدًا للعدوان عليهم، فقد قال تبارك وتعالى: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءامَنُوا لَا

(1) سورة آل عمران: الآية 110.

**تَنْهَذُوا عَدُوِي وَعَدُوكُمْ أَوْلَاءَ** ﴿١﴾، فإذا ثبت أن شخصاً عدو لله وعدو للمسلمين وجبت البراءة منه، والبراءة في التصور القرآني توجيه للانفصال عن عقائد كافرة (معايرة) وشعائرها، أما ممارسة البغض والكراهية فأمر عرضي انفعالي لا يجب إلا تجاه من اعتقدى، فإن البراءة مقدمة لمقامته وإجباره على الكف عن العداون، ويلاحظ أن آيات القرآن شددت على مفهوم الولاء أكثر من البراء؛ لأن الولاء هو وجهة إيجابية، ورابطة للاندماج، بينما يختار التكفيريون «إشاعة البراء» على عموم من يخالفهم، وتقليل الولاء لأتباعهم فقط.

ويرى باحثون أن مفهوم الولاء والبراء ليس من أمهات العقائد، إنما هو من السياسات التي تتسع وتضيق حسب الظرف التاريخي وحسب مصالح المسلمين؛ لكن ابن تيمية وابن عبد الوهاب وسعا هذه المفاهيم وحولوها إلى نظرية سياسية تعبوية للجماعات بدل أن تكون سياسات لدولة شرعية، وكنموذج على ذلك نجد أطروحة محمد سعيد القحطاني التي أسماها «الولاء والبراء في الفكر الإسلامي» التي اعتمدت من إحدى جامعات السعودية، وهي تساير هذا النهج الإقصائي وتعدّه من آثار السلف الصالح، واعتقد فيها أن فكرة البراء من خالف فكر تلك الجماعات حتى لو كانت مخالفةً في الجزئيات والتفاصيل والاجتهادات الفرعية تترابط فكريًا مع مفهوم الخلاص الواحد الأكثر خصوصية تحت مسمى الفرقة الناجية، وتأسستا على منح الولاء للجماعة الإرهابية فقد اعتبروا أنفسهم مفوضين من عند الله لمحاسبة الناس على عقائدهم، وهو المستند البنوي للتطرف.

وفي قضية البراء نوعان من المستويات: **الأول**: البراء من مخالفتهم من المسلمين أتباع الاجتهدات الأخرى، **والثاني**: البراء من غير المسلمين دولاً وشعوبًا؛ ما يسوغ لهم استعمال العنف تحت مسمى الغزوات

---

(1) سورة الممتحنة: الآية 1.

أو الجهاد دون مراعاة للنظام العالمي الذي تترابط فيه مصالح الدول والشعوب وتستقرّ السياسات على أساس القبول الدولي بها، وأن القيام بضربيات غادرة عشوائية هدفها إشاعة القلق في النفوس، وبثّ الرعب دون نما إشعار أو إبلاغ أو ظهور شجاع أمام من يفترضون أنهم خصوم لا تعدّ من قيم الشهامة والفروسية التي يريدها الإسلام كأخلاقية من أخلاقيات الجهاد، وبذلك تعدّ هذه الضربات ضرباً من العجن، والعمل غير الأخلاقي ما يعكس تصوراً مشيناً عن الإسلام، وليس بما يتباينه هؤلاء من أفعال يصنعنها تحت مفاهيم وأفكار دينية-إسلامية.

أما المراد من البراء ففي حقيقة الحال هو ليس إشارة للكراهية، إنما اعتماد أفكار وعقائد لا تقترب من عقائد المعاندين من أعداء الحق والحقيقة والعقل والعقلانية كمقدمة لمقاومة عدوائهم إذا كانوا معتدلين؛ بل يقف الإسلام موقفاً مانعاً ومحرّماً للأفعال الغادرة والقتل العشوائي، الذي يلي الكراهية، فليس المراد بالبراء هو القتال، وإنما ترادف الأمران، الجهاد والبراء.

وفي المحصلة: لا تندرج أفكار البراء غير الإيمانية وقيمها مع فكر الإنسان المسلم، فلا بد من المقاومة.

### - متغيرات على عقيدة التوحيد

على الرغم من أن الأديان الإبراهيمية تنطلق من فكرة الإله الواحد الخالق المدبّر المعبدود، ويتبّع إصرار المسلمين على التوحيد الخالص من الشوائب، فقد صاغ المسلمون نظرية خالصة للتوحيد بإفراده بالخلق والرزق والإحياء والحكم، وأوجبوا الإيمان بذلك؛ ولكن من دون إلزام الناس بما لا يلزم من التشدد كجزء من مفهوم التوحيد الذي اخترعوه مثل مفهوم «توحيد الألوهية»، فقد استثمروا الإجماع على توحيد الله بالعبادة؛ لكنهم أسقطوا الفارق بين القصد الوعي وعدمه في الإخلال بمفهوم

التوحيد؛ إذ أشعوا أن الاستعانة والاستغاثة وطلب البركة من الأولياء وطلب الشفاء من الأمراض ببركتهم، والتندر لهم وكل ذلك صور من الشرك، وخلل في توحيد الألوهية، حتى لو قصد الطالب وجاهتهم، فاقداً الأمر من الله (عز وجل) ولم يقصد عبادة الأولياء والصالحين بالذات، فعنهما هذا لا يعفي الجاهل ولا يكون له عذر من الشرك، وكل من فعل هذه الأمور سواء عن جهل، أو عدم قصد، أو تصوّر أن لهم جاهًا عند الله، فهو عند التكفيريين إما مبتدع وإما كافر، وعند بعضهم مشرك حتى لو كان جهله عن قصور<sup>(١)</sup>.

ودليلهم على ما ذكروه: ما نسبوه إلى الإجماع أن من تكلّم بكلمة الكفر فهو كافر وإن لم يقصد معناها<sup>(٢)</sup>، وفي هذه النسبة إلى الإجماع ما لا يخفى من النقوض، وفي ثانيا الفكر التكفيري تجد أن مجرد النطق بالشهادتين غير مانع من الشرك، بخلاف ما أجمع عليه أهل العلم، ويقدم التكفيريون أفكاراً مضافة أخرى على مفهوم التوحيد، لكي تمهد هذه الصياغات للتغليس عن معتقدات الناس، ولهم القبور والأضرحة والمساجد التي صار بعضها معالم حضارية وتتسويغ نهب ممتلكات الناس، ومواجهة التصوف؛ لأنه مبني على احترام مقامات الأولياء، فقد وصفهم ابن تيمية بأنهم أغلظ شرّاً من الأولين.

ويوجّه إلى الفكر التكفيري مجموعة من الانتقادات:

1- إنه يهدر القصد المعتبر فقهًا وقانونًا واعتقادًا، وفي ذلك إسقاط للسبب الموجب لاعتبار أي تصرف، تصرفاً شرعياً، فإنّ الله بالعبادة عند عامة المسلمين يتحقق بالقصد والفعل لقوله (ص): «إنما الأعمال بالنيات».

---

(١) محمد بن عبد الوهاب، تطهير الاعتقاد، ص35.

(٢) المصدر نفسه، ص32.

2- إن الجهل والقصور من موجبات رفع المؤاخذة (ل الحديث الرفع)،  
وأن علاج الجهل بالتعليم والإرشاد، وليس بالتكفير والقتل.

3- إن تكفير الناس بما اختلف عليه أهل العلم حكم باطل؛ لأن  
المتفق عليه أن يكون المكفر قد فعل فعلًا أجمع الناس على أنه مدخل  
بالوحديانية وضرورات الدين.

4- ذكر الذهبي أن أحمد بن حنبل أفتى بجواز التبرك بقبر النبي  
(ص)<sup>(1)</sup>، فالتكفيريون تجاوزوا في ذلك حتى ابن حنبل.

5- ورد في قوله تعالى: ﴿يَأَتِيهَا الْذِينَ ءَامَنُوا أَتَقُولُ اللَّهُ وَآتَتْغُوا  
إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ﴾<sup>(2)</sup> وهو نص يجيز التواصل مع البارئ بالوسائل، وجاء  
لقطع الوسيلة مطلقاً غير مقيد، والمطلقة يجري على إطلاقه ما لم يرد عليه  
القيد سوى ما ذكره المفسرون من جواز ذلك<sup>(3)</sup>.

6- قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ جَاءَهُمْ  
فَأَسْتَغْفِرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَابًا رَّحِيمًا﴾<sup>(4)</sup>.

قال الرازى: لقد جاز من خصّه الله برسالته وأكرمه بوحيه ألا ترد  
شفاعته حياً أو ميتاً، لا سيما وهو القائل من زارني بعد مماتي، فكأنه زارني  
في حياتي.

### - نظرية الحاكمة السياسية

ثمة فرق بين الحاكمة الشرعية والحاكمية السياسية، فالأخيرة توجب

(1) الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج 11، ص 212؛ أحمد بن حنبل، العلل، ج 2، ص 492.

(2) سورة المائدۃ: الآیة 35.

(3) يقول الزمخشري: الوسيلة كل ما يتوصل به إلى الله ويرى الرازى أن  
الوسيلة بعد الإيمان وبعد معرفته لكي يسقط احتمال عبادة الوسيلة.

(4) سورة النساء: الآیة 64.

التسليم بأن التشريعات الربانية أنزلها الله لصالح البشر في دنياهم وآخرتهم، فهي مطلوبة ومرغوبة عقلاً وواجبة شرعاً<sup>(1)</sup>.

لكن استثمار هذه القناعة الإيمانية وتحويلها إلى نظرية سياسية للاستيلاء على السلطة يكشف عن جماعات اختطت لها مسلكاً سياسياً وإيديولوجياً لإخضاع الآخرين تحت عنوان ديني؛ وذلك بتجريد الإنسان من حق الاجتهاد وإعمال العقل وجلب المصالح والاجتهاد في ما سكت عنه النص، وما يرد من عناوين ثانوية على منطقة المباح والممنوع<sup>(2)</sup> مما يسمى بالفراغ التشريعي، ولأجل أن تتحول الحاكمة إلى نظرية سياسية ملزمة فقد خالف المودودي عامة المسلمين من أهل السنة بأن نقلها من نطاق الفروع إلى نطاق العقيدة، فالإمامية والحكم جزء من الفروع التي يجوز فيها الاجتهاد عند فقهاء المذاهب الأربعة وعلماء العقائد، في حين الجزء العقدي لا يجوز فيه الاجتهاد<sup>(3)</sup>، وعن المذاهب الأربعة فإن الإمامية جزء من الفروع.

طور المتطرفون آراء المودودي فابتدعوا فكرة الجاهلية الجديدة لتبرير ابعاد الناس عن الحاكمة، وروجوا لذلك أيّما ترويج، وأعلنوا أنّ سكوت الناس عن تشريع غير الله هو عبادة للمشروع، وهو كفر بواح، ثم ربّطوا ذلك بتوحيد الألوهية<sup>(4)</sup> وجعلوها جميّعاً مقدمات للتکفير، وكان عموم دليلهم على ذلك كله الآيات الثلاث في سورة المائدة<sup>(5)</sup> المتفقة كلها في جملة الشرط، والمختلفة نصّاً في جواب الشرط على ثلاث توصيفات: الفاسقون، الطالمون، الكافرون، بحسب سياق الآيات في سورة المائدة.

(1) الخياط، المعتمد، ج 1، ص 297؛ ابن رشد، الكشف عن مناهج الأدلة، ص 24.

(2) للمزيد انظر: أبو الأعلى المودودي، المصطلحات الأربعة، ص 36 ومفهوم الحاكمة.

(3) سيد قطب معالم في الطريق، ص 31.

(4) المودودي، المصطلحات الأربعة، ص 81.

(5) سورة المائدة: الآيات 45-47.

وقد اتفقت كلمة المفسرين على عدم صلاحية الآيات لتكفير من لم يحكم بما أنزل الله؛ لأن إثبات التفويض ليس دليلاً على ضده، ولأن عامة الناس لا تزال تمارس عقائدها وشعائرها، وتلتزم بأحكام الفقه الإسلامي على الرغم من عدم إلزام الحكومات به، على أن الدساتير تتصل على مرجعية الشريعة الإسلامية للقوانين والتشريعات في أكثر دول العالم الإسلامي.

صحيح أن بعض القوانين والأنظمة فيها ما يخالف فروع الأحكام، وفي سبيل حلّها لا بد من عرض البادئات الإسلامية، وممارسة النصح والأمر بالمعروف، وشحذ الهمم وبلورةوعي مجتمعي لاستبدالها، بما يتفق عليه المتخّصصون من أنه لا يتعارض مع الشريعة.

أما معالجة هذه الانحرافات عن فروع الشريعة بتكفير الحكام والناس وعلماء الدين والموظفين والجيش والشرطة والطلبة والجامعات وقتلهم وسيبي نسائهم واغتنام ممتلكاتهم... كل ذلك تطرف لا أساس له من الدين، وقد أريد به تبرير جرائم القتل الجماعي والإبادات الجماعية.

#### - حديث الطائفة المنصورة<sup>(1)</sup>

لقد أضاف الفكر التكفيري على نبوءة مستقبلية وردت في ما روى منسوباً إلى النبي (ص) أن المسلمين بحقانيتهم هم الطائفة المنصورة، وطبقواه على من أرادوا الترويج له من جماعات وحركات؛ بل وبلدان.

(1) روى الحديث ابن حبان وحده بسنده غير موثق وهو قول لمسلم بن مخلد قال سمعته (ص) يقول: «لا تزال عصابة من أمتي يقاتلون على أمر الله قاهرين لعدوهم...» (ابن حبان، المستند، ج 15، ص 240)؛ وورد عند الألباني لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق. (الألباني، السلسلة الصحيحة، ج 1، ص 269) قال هم أصحاب الحديث، وروى الحديث معاوية، والمغيرة بن شعبة وثوبان وعمران بن حبيب.

قال في مرقاة المفاتيح في شرح المشكاة: إنهم أهل الشام؛ لأنهم يقاتلون أهل الروم مما يبدو لك أن مصداق الحديث متغير بحسب الأزمان والاستحسانات، ولا يفرق السلفيون بين الطائفة المنصورة وأهل الفرقة الناجية وأتباع السلف.

### بـ- إضافاتهم على الجهاد

لقد وضع الفقهاء المسلمون شروطاً لصحة الجهاد، واختلفوا في هل يُقاتل الكفار لكرههم؟ أو المعتدون لعدوانهم؟ إلا أن الفكر الأصولي نقل في مجال الجهاد أولاً قضايا هي ضمن نطاق الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والوسائل السلمية كالدعوة والبلاغ إلى مهام حربية للجهاد، ولم يتزموا بشرط الرأبة أو إذن إمام شرعي، حتى أن أباً مصعب السوري (منظر الجهاديين) قد اعترف بأن الحركة الجهادية تفتقر للأصول المنهجية للجهاد<sup>(1)</sup>، وغيروا وجهة الجهاد من وجهة خارجية إلى وجهة داخلية، وببرروا العمليات الانتحارية عاديين إليها من الجهاد، صارفين النظر عن أنها فتك وغدر، وبها تذهب أرواح الأبرياء من الذين لا يجوز قتلهم لا شرعاً ولا عقلاً.

وإن ترجيحات الفكر التكفيري لأقوال العلماء في الجهاد تجري تبعاً للحاجة الميدانية، ويكتفي لمعرفة إضافاتهم مراجعة كتاب محمد عبد السلام فرج «الجهاد الفريضة الغائبة»، وملاحظة ضالة العلم الشرعي عندهم، واستناده إلى الأحاديث الضعيفة على موازين أهل الحديث أنفسهم.

لقد أسقط الفكر التكفيري من الجهاد، الانضمام إلى راية الحق والإمام الشرعي الذي يدعو إلى الجهاد، وأسقطوا الإعلام قبل بدء القتال

---

(1) السوري، «الفجوة الفكرية»، مجلة: الظاهرين على الحق، العدد 2، سنة 1421، ص.5.

وإنذار الخصم، وأهدروا الأمان الممنوح لغير المسلمين في ديار الإسلام وإن لم يقاتلوا، وأسقطوا مبدأ معاملة المسلمين على الظاهر، وأجازوا الغدر والفتك والقتل العشوائي، وقالوا باغتنام أموال المسلمين، وكل ذلك خلاف لما انعقدت عليه آراء الفقهاء من كل المذاهب في مبحث الجهاد<sup>(١)</sup>.

### - التكفير

لقد تجاوز الفكر المتشدد محترزات الأئمة وأهل العلم في التكفير، فكل مدوّنات المسلمين تدعو إلى عدم المسارعة إلى التكفير، وقد وضعوا له شروطاً لا تتحقق بيسر. وأما جماعات التكفير فقد مارسته بإهدار قاعدة الأصل صحة اعتقاد المسلم حتى يتبيّن فساده بدليل جلي، وكفروا الآخرين بأبسط الشبهات، وأسقطوا التعبد بالظاهر، وخلطوا بين كفر الاعتقاد وكفر العمل حيث ربطوه بشبكة أفكارهم، وأجازوا ما منعه إجماع العلماء من التكفير المذهبي والتكفير بلازم المذهب ومايل الرأي، وأجازوا صدور التكفير من دون قضاء أو مجتهد.

## 7- الأفكار التي خالفوا فيها تراث السلفية الفقهية

### 1- مسألة الخروج على الحاكم الجائر والثورة عليه

وفي المسألة قولان عند الفقهاء:

أولاً: ذهب الحنفية والزيدية والإمامية والمعتزلة والخوارج وابن حزم إلى جواز الخروج على الحاكم الجائر وإزالته، ونصّب حاكم عادل يسوس الناس بالحكمة والحلم والعدل<sup>(٢)</sup>، ووافقهم من الحنابلة ابن عقيل وابن

---

(1) انظر: ابن رشد، بداية المجتهد، ج 1، ص 577.

(2) الندوة العالمية للشباب الإسلامي، الموسوعة الميسرة في الأديان، ج 1، ص 32. يرى ابن باز أنه لا يجوز الخروج حتى لو فسق أكبر الفساق، ولو رأوا كفراً بواحاً وليس لديهم القدرة ليس يجوز لهم الخروج. (انظر: ابن باز، فتاوى الإسلام، ج 1، ص 672).

الجوزي مستدلين بسيرة الإمام الحسين (ع)، واشترطوا له التمكّن، وعدم التسبب بمفسدة أكبر.

ثانيًا: وقال به المالكية والشافعية وأحمد وجمع من الحنابلة وفقهاء أهل الحديث القدماء والمعاصرين بعدم جواز الخروج على الحاكم، واستدلوا بالقرآن بقوله تعالى: ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولَئِكُمْ أَعْلَمُ مِنْكُمْ﴾ وحديث عبادة بن الصامت «إلا أن تروا كفراً بواحًا» وروى البخاري أنه (ص) قال: «فليصبر».

قال النووي: أجمع أهل السنة أن الحاكم لا يزول بالفسق<sup>(1)</sup>، ومن قال بعزله فهو غلطان ومخالف للإجماع وهو حرام، وقال الصابوني في عقيدة السلف: إن أصحاب الحديث لا يرون الخروج على الحاكم، وعن ابن حجر عن ابن بطال أن طاعة الحاكم المتغلب خير من الخروج عليه<sup>(2)</sup>، وذهب السيوطي إلى رواية حديث يمنع الخروج على سلاطين الجور قال: «وإن أكلوا مالك وضرموا ظهرك»<sup>(3)</sup> ولا يرى ابن تيمية جواز الخروج ولا تلميذه ابن القيّم، ومن المتأخرین الألباني. وبين الرأيين أقوال مفضلة، ومشترطة، وعلقة للجواز على مقدمات.

ييد أن الفكر التكفيري على الرغم من انتسابه إلى فقه السلف وامتداداته خرج تماماً عن هذا الإجماع، كالجامعة الإسلامية المؤسسة بمصر عام 1981 حيث دعت إلى الخروج على الحاكم، وقتل الطائفية الممتنعة عن إقامة شرائع الإسلام<sup>(4)</sup>.

(1) النووي، شرح مسلم، ج 12، ص 229.

(2) ابن حجر، فتح الباري، ج 13، ص 7.

(3) السيوطي، تنوير الحوالك، ج 1، ص 374.

(4) انظر: عبد القادر عودة، التشريع الجنائي في الإسلام، ج 1، ص 253؛ سيد قطب، معالم في الطريق، ص 67؛ عبد السلام فرج، الفريضة الغائبة.

## 2- مسألة الشرك بالتبرك والتسلل بالرسول الكريم (ص)

ورد عن أَحْمَدَ فِي مَا ذَكَرَهُ الْذَّهَبِيُّ فِي سِيرِ أَعْلَامِ النَّبَلَاءِ<sup>(١)</sup> أَنَّ أَحْمَدَ بْنَ حَنْبَلَ أَفْتَى بِجُوازِ التَّبَرُكِ بِقَبْرِ النَّبِيِّ (ص)، فَقَدْ سَأَلَهُ وَلَدُهُ عَبْدُ اللَّهِ عَمْنَ يَلْمِسُ رِمَانَةَ مِنْبَرِ النَّبِيِّ (ص)، أَوِ الْحَجَرَ النَّبُوَيَّ بِقَصْدِ التَّبَرُكِ؟

قال: لَا أَرِي بِذَلِكَ بَأْسًا، وَخَالِفُهُ الْفَكْرُ التَّكْفِيرِيِّ.

### البني المنهجية للفكر التكفيري

يكشف المطلع على مدونات الفكر التكفيري مجموعة من التغرات المنهجية، وأدرجها في ما يلي على وجه السرعة:

1- اختر لهم كل التراث الإسلامي بعده من التفاسير، فمن بين 800 تفسير نجد لهم يعتمدون خمسة تفاسير، وكتب متون الحديث وشروحه، وفقه ابن تيمية. وذلك وفق منهج انتقائي يضع الإيديولوجيا قبل العلم، وكذلك الحال مع متون الحديث وشرحه وكتب الفقه، ولقد غدا مرجعهم الأساس مؤلفات ابن تيمية دون أن تذكر بقية المدونات، ودون أن نرى ترجيحات بين الأقوال على أساس م坦ة الدليل، فالمقارنة ملغاة تماماً.

2- القراءة الحرافية النصوصية للنص الديني: لقد دعتهم السلفية الظاهراتية إلى الوقوف على النص الفقهي ناهيك عن النص التأسيسي، ما جعلهم في صدام كامل مع متغيرات الأزمان، ولم يراع الفكر الأصولي التكفيري ظروف التنزيل، ويقطع غالباً النص من سياقه ويحوّله إلى قيم مطلقة، على الرغم من وجود ما يتداخل معه من ذات المستوى، إلى جانب اعتبارهم عصر الصحابة والتابعين عصراً معيارياً.

3- الموقف المزدوج من التأويل: فهم يرفضونه جملة، ولكنهم

---

(1) الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج 11، ص 212؛ انظر: أحمد بن حنبل، العلل، ج 2، ص 492.

يلجأون إليه عند الحاجة. فمن جهة يرفضون التأويل حتى وقع أسلافهم بالتجسيم، ومن جهة أخرى يلجأون إليه حينما تعوزهم النصوص الصريحة المؤيدة لأفكارهم.

4- رفض تقليد المذاهب الفقهية، ومنْح حق الاجتهداد بلا مقدمات منهجية لحملة «فقه الحديث» من دون مُكنته منهجية، وطبقاً لنظرية فقه السلف فإن الفكر التكفيري يرفض اتباع المذاهب الفقهية، ويشن حملة على فقه الحنفية، ويرى أن الرجوع إلى الحديث المروي هو الحل لاكتشاف الأحكام، وبذلك يهدّد الفكر التكفيري تراث الأمة الفقهي برمته.

5- تبنّيهم لما يسمونه الفقه الميداني (فقه الضرورة): إذا احتاجت تجربتهم ومسيرتهم إلى حكم فقهي غير موجود في تراث السلفية، أو موجود ما هو نقيضه يلجأون إلى فقه خاص بهم أسموه الفقه الميداني، أو فقه الضرورة<sup>(1)</sup>.

6- التماسهم من النصوص القرآنية أدلة على أفكارهم، أي أنهم لا يراعون معطيات النص من حيث هو نص إلهي، فيجعلونه البداية والمنطلق، ولكن لما تكون لديهم فكرة يتمسّون الأدلة عليها من القرآن.

7- إن الفكر التكفيري لا يستنطق النص الديني؛ ليتعرّف على معطياته، بل يُصار إليه كبرهان على مدّعياتهم، للنموذج تفسير (سيد قطب: في ظلال القرآن).

8- لا يراعون تبدل الأحكام بتبدل الأزمان إلا في مجال نجاح أغراضهم السياسية.

---

(1) انظر: عبد السلام فرج، الفريضة الغائبة.

- 9- تحريمهم الفكر الفلسفى والمنطق والبحث المنهجى، وتمسكهم بالآليات البدائية.
- 10- اعتمادهم الخبر الواحد والضعف والمرسل في تقديم رؤاهم العقدية، وهي كلها لا تصلح مستنداً.
- 11- نظراً إلى قلة باعهم ومهاراتهم فإنهم غالباً يستندون إلى خبر الواحد لإثبات قضية عقدية (وهو لا يصلح لذلك لدى أهل العلم)؛ بل يعتمدون المرسل والمنقطع والضعف.
- 12- مهاراتهم في فقه التبرير.

# العنف التكفيري

## من الآخر البعيد إلى القريب

الدكتور بدر الإبراهيم<sup>(1)</sup>

يشكّل انتشار الجماعات الجهادية على امتداد الوطن العربي تهديداً حقيقياً للدول والمجتمعات؛ إذ يهدّد السلم الأهلي والوحدة الاجتماعية داخل المجتمعات العربية؛ ما يدفع إلى محاولات كثيرة لفهم هذه الظاهرة وتطورها، رغبةً في إيجاد معالجات ناجعة لها في ظل القلق الوجودي الذي يساور شرائح اجتماعية عربية واسعة.

ومن المفيد في فهم الظاهرة، العودة إلى خطاب هذه الجماعات، وكيف تطورت رؤيتها للآخر، وأولويات عملها بناءً على هذه الرؤية. ولكن، قبل ذلك، من المهم الإضافة على العوامل الأساسية لانبعاث هذه الجماعات وتمددها؛ إذ إن فهم هذه العوامل، وأيّها أكثر أهمية، مهم لفهم سلوك هذه الجماعات ونظرتها إلى الآخر، وأولوياتها في هذه المرحلة.

### جذور داعش وإخوته

يملأ تنظيم الدولة الإسلامية، المعروف بداعش، الدنيا ويشغل

---

(1) كاتب وباحث، من السعودية.

الناس، منذ فترة طويلة، ويدور حوله الجدل، في المقالات، ومواقع التواصل الاجتماعي، والبرامج الحوارية، وحتى الأعمال الدرامية؛ إذ إن هذا التنظيم، تمكّن في فترة قصيرة، من التوسيع بشكل كبير، في العراق وسوريا، وهدّد عدداً من الدول العربية، عبر إنشاء فروع له فيها، تقوم بأعمال عنف، سعياً لإحداث الفوضى، وزعزعة الدولة. لكن النقاشات العامة حول هذا التنظيم، تشهد خلطاً بين أسباب نشوء هذا التنظيم، ودوافع التحاق الشباب به، كما تشهد ظهور الانحيازات الإيديولوجية والمذهبية في تحليل الظاهرة، ويندو من المهم إلقاء الضوء على بعض هذه النقاشات؛ لأنها تؤسس غالباً لوجهات نظر مختلفة، حول سبل معالجة الظاهرة والتعامل معها.

يفضل بعض إحالة ظاهرة داعش، إلى أسباب عقدية وفقهية، متعلقة بالتراث الإسلامي، أو بالمناهج الدينية في بعض الدول العربية، وعند بعض الجاليات الإسلامية في أوروبا، في حين يرد آخرون بإعلاء شأن البعد السياسي والاقتصادي.

وفي الحقيقة، يندو من الصعب للغاية، اختزال الظاهرة بعامل واحد، لكن من المهم تحديد العوامل الرئيسية، والعوامل الأقل أهمية في تكون هذه الظاهرة، كما إنّه من المهم، التفريق بين أسباب نشوء الظاهرة، والトリير الإيديولوجي الذي يضفي عليها الشرعية، وهو ما لا يتبع له كثيرون؛ إذ إن للظاهرة أسباباً سياسية واقتصادية رئيسة، لكنها تستخدم الإيديولوجيا الدينية، لتقديم غطاء شرعي لأعمالها، التي تسعى من خلالها لتحقيق أهداف سياسية، وليس للقتل من أجل التسلية كما يظن بعضهم، والإيديولوجيا الدينية متصلة بالأهداف السياسية، ومفيدة في تفسير كثير من سلوكيات التنظيم، لكن التنظيم لم ينبع من كتب التراث كما تفترض بعض الأطروحات؛ بل هو نتاج الواقع الحالي.

حادثة حرق الطيار الأردني، معاذ الكساسبة، من قبل تنظيم الدولة الإسلامية<sup>(1)</sup>، أثارت ردود فعل شاجة، ومعها نقاش حول مسألة الحرق، واستناد تنظيم الدولة إلى مقولات تراثية لإثبات صحة فعله، وهو ما دفع بكثيرين إلى تردّيد الحديث عن أهمية تقييّح التراث، وتتجديـد الخطاب الديني، باعتبار التراث مسؤولاً عن نشوء ظاهرة داعش وأخواتها. حادثة الحرق هذه، إذا أنعمنا النظر فيها، ترد على من يعتقدون بأن الخطاب الديني السائد، وعدم تقييـح التراث، سبب ظهور تنظيمـات مثل: داعش والداعـف الرئيس لممارساتها.

من المهم توضيـح عدم وجود إسلام حقيقـي له جوهر ثابت، فالنص الديني يحتمـل تأويـلات عدـة، حتى أكثر المتمسـكين بحرفيـة النص يـؤولونـه، فالنص لا يـنطق بذاته؛ بل يستـنطقـهـ البشر وفق أفـاهـمـهمـ المختلفةـ، وبالـتاليـ، ليس ثـمةـ إسلامـ ذوـ صـفـاتـ مـحدـدةـ، وإنـماـ توـجـدـ تـأـويـلاتـ متـعدـدةـ لـإـسـلامـ، لـكـلـ وـاحـدةـ مـنـهاـ صـفـاتـهاـ.ـ والـقولـ إنـ عـلـيـنـاـ العـودـةـ إـلـىـ إـسـلامـ الـحـقـيقـيـ، يـسـطـبـنـ الـاعـقـادـ بـاخـتـزالـ الـدـينـ بـتـأـويـلـ وـاحـدـ،ـ وـهـذـاـ لـاـ يـصـدرـ فـقـطـ مـنـ الـمـتـشـدـدـينـ الـإـسـلامـيـينـ؛ـ بلـ أـيـضاـ مـنـ أـوـلـئـكـ الـمـتـسـامـحـينـ وـالـمـنـفـتـحـينـ،ـ الـذـيـنـ يـدـعـونـ بـشـكـلـ مـباـشـرـ أوـ غـيرـ مـباـشـرـ،ـ إـلـىـ إـيـجادـ مـؤـسـسـةـ وـاحـدـةـ،ـ لهاـ وـحـدهـاـ حقـ التـأـويـلـ،ـ لـلـمـحـافظـةـ عـلـىـ «ـوـسـطـيـةـ»ـ إـسـلامـ،ـ وـفـيـ هـذـاـ إـلغـاءـ لـبـاقـيـ الـاجـتـهـادـاتـ،ـ وـإـخـضـاعـ الـدـينـ وـأـهـلـهـ لـتـأـويـلـ وـاحـدـ،ـ تـرـسـمـهـ مـؤـسـسـةـ،ـ هـيـ فـيـ الـأـعـلـبـ،ـ تـحـتـ سـطـوةـ السـلـطـةـ السـيـاسـيـةـ.

إـذاـ كانـ النـصـ الـدـينـيـ يـحـتـمـلـ تـأـويـلاتـ عـدـةـ،ـ فإنـ الـأـمـرـ يـنـطـبـقـ عـلـىـ النـصـوصـ الـتـرـاثـيـةـ،ـ التـيـ هـيـ فـيـ الـأـسـاسـ مـحاـواـلـاتـ لـتـأـويـلـ النـصـ الـدـينـيـ.ـ الـمـقـولـاتـ الـتـرـاثـيـةـ،ـ تـخـضـعـ لـتـأـويـلاتـ عـدـةـ،ـ وـنـرـىـ كـيـفـ يـحـتـدـمـ النـقاـشـ

---

(1) سلامـةـ عبدـ الحـمـيدـ،ـ «ـحـرـقـ الـكـسـاسـبـةـ:ـ حـرـقـ دـاعـشـ النـفـسـيـةـ»ـ،ـ صـحـيفـةـ الـعـربـيـ الجـدـيدـ،ـ 2015/2/3ـ.

حول تفسير مقولاتٍ للسلف بين السلفيين أنفسهم، ما يؤكّد أن النصوص التراثية، لا تُنَهَّم بمعزلٍ عن التأویلات المتعددة، كما إنّها ليست شيئاً واحداً ثابتاً، فهي مجموعة تأویلات للنص الديني، على مدى عصور مختلفة، وضمن سياقات تاريخية متباعدة، وظروف خاصة بزمنها، لذلك، فالقول بأنّ نصاً تراثياً بذاته، مسؤولة عن فعلٍ ما في الحاضر، يعكس تبسيطاً واحتزلاً كبيرين.

ما فعله تنظيم داعش بالطيار الأردني، يؤكّد أن طرح تجديد الخطاب الديني حلاً لمشكلة داعش، لن يكون فعالاً. لقد أحرق داعش الطيار الأردني، واستند في تبرير فعلته إلى أقوال شاذة وضعيفة في التراث، يواجهها حديث نبوى بعدم جواز الحرق، ويسند رأي جمهور العلماء والفقهاء المسلمين<sup>(1)</sup>، أي أن هذه المسألة، مرفوضة في الخطاب الديني السائد، وهذا الخطاب ليس بحاجة إلى تجدidine في هذه القضية، فهو متجاوز لها، ومع ذلك، نبش داعش في التراث، ليخرج بتأويله الخاص، الذي يخدم تبرير فعله.

لم يكن لسيادة الرأي القائل بعدم جواز الحرق، أي أثر على سلوك داعش، ولم يردعه هذا الأمر عن القيام بفعلته، أو محاولة تأصيلها عبر البحث في أقوال أو أحداث تاريخية شاذة، ما يعني أن الحديث حول تجديد الخطاب الديني لا يقدّم شيئاً.

تنظيم داعش استخدم الأقوال التراثية ليبرر فعلًا يتناسب مع مصلحته السياسية، فهو حرق الكساسبة بهذه الطريقة رغبةً في إثارة الرعب في صفوف التحالف، وهو يستخدم أساليب مشابهة في إرعباب خصومه، في إطار حربٍ نفسية يشنّها عليهم. الحرق هنا مصلحة سياسية، تم تبريرها

---

(1) جدل فقهوي بعد استعانته داعش بفتوى ابن تيمية لتبرير إحراق الكساسبة: ماذا كان موقف النبي وهل فعلها أبو يكرو عمر وعلي؟، موقع سى إن إن بالعربية، 2015/4/2.

لاحقاً بمقولة لابن تيمية، كما ظهر في فيديو الحرق، تتحدث عن التمثيل الشائع لا عن الحرق، فابن تيمية يقول: «فاما إذا كان في التمثيل الشائع دعاء لهم إلى الإيمان، أو زجر لهم عن العدوان فإنه هنا من إقامة الحدود والجهاد الم مشروع»<sup>(1)</sup>، لكن التنظيم فسرها كما يريد لخدمة أهدافه السياسية، وهو ما يوضح أن الفعل فعل سياسي، وليس منبئاً من كتب التراث، لكن تبريره وشرعنته تتخذ طابعاً دينياً وتراثياً.

مشكلة من يطرح تقييح التراث في مواجهة داعش، أنه يظن هذا التنظيم حركة عببية، انبعثت من كتب التراث، ويمارس أفرادها القتل لأنهم قرأوا مقولات تراثية سيئة. هذا التنظيم هو حركة سياسية، والعنف الذي يمارسه عنف سياسي، يسعى من خلاله لبناء دولة، وتعزيز نفوذه مقابل خصومه، وظاهرة العنف السياسي لا يمكن تفسيرها بالحديث عن التراث، فهي وليدة الظروف السياسية والاقتصادية، لكنها تتخذ مبررات إيديولوجية لممارستها العنف، قد تكون قومية أو يسارية أو دينية؛ إذ يمكن أن نسرد أمثلة لحركات مختلفة تمارس العنف وفق إيديولوجيات غير دينية، أو أن نجد من يمارس أفعالاً بشعة مثل الحرق دون أن يكون قدقرأ مقولاتٍ تراثية إسلامية، كما أحرق مستوطون صهاينة الفتى الفلسطيني محمد أبو خضير، عام 2014.

ولا يلحظ من يعيد طرح القضية بوصفها دينية مثلاً، أن أزمات الهوية لا علاقة لها بمستوى الدين، أو اتباع تعاليم سلفية، فالبعد الطائفي كما يمكن أن نرصد، حاضر عند مجموعات كبيرة من الناس، بما فيهم غير الملتحمين دينياً، وحتى الملحدين، والتعبئة والتجنيد للأفراد يتمّان بشكل كبير على أساس استنفار الحس الهوياتي عند هؤلاء الأفراد، واستدعاء حمسيتهم على أبناء جماعتهم المذهبية في سوريا والعراق وغيرها، والعودة

---

(1) المصدر نفسه.

إلى آليات حثّ الهوية واستفزازها مفيدة في فهم الظاهرة الجهادية، وبالذات في نسختها الداعشية، أكثر بكثير، من العودة إلى ما قاله ابن تيمية وابن القيّم الجوزية.

مواجهة تنظيم مثل داعش، يمارس العنف السياسي، تكون بمحاصرة العوامل السياسية والاقتصادية، التي أدى لظهوره وتمدده. هذه العوامل هي الأمر المركزي في نشوء داعش وغيره، دون نفي علاقة الإيديولوجيا المتبناة من داعش، بتفسير بعض سلوكياته وممارسته.

إيجاد تأويلاً جديداً للنص الديني، أمر مطلوب لذاته، وإثارة سجال شرعي وفقهي حول قضايا مثل الرجم وحد الردة، مطلوب أيضاً، لكن هذا لا علاقة له بمواجهة تنظيمات العنف السياسي، التي تحتاج إلى مواجهة ظروف تشكلها، ومعالجة أوضاع الحاضر، التي ساهمت في جعلها تمدد وتضخم بهذا الشكل.

يمكن الحديث عن فشل الدولة العربية وانهيارها، وبروز الصراعات الطائفية بصيغتها الحادة، كما في العراق، بوصفه عاملاً أساسياً في تكوين داعش، وفي تفسير أولوياتها، المتعلقة بقتال من تسميه «الرافضة» و«المرتدين»؛ إذ إن الصراع الأهلي يفرض أولويته على أجندة هذا التنظيم الجهادي، الذي يخرج من رحم الانقسام الأهلي، ليعيد ترتيب أولويات تيار jihad العالمي، من محاربة «الكفر العالمي» ممثلاً بأميركا والغرب، إلى إقامة الدولة الإسلامية، ومحاربة خصومها داخل المجتمعات المسلمة، وفرز المكونات الاجتماعية وتصنيفها، ضمن استراتيجية حرب شعواء، إبادية الطابع، بغرض إقامة المجتمع الصالح، للدولة الصالحة المفترضة، التي ترث دولة الفساد المنهارة.

أيضاً، لا يجب إغفال الدور الذي تلعبه التدخلات الغربية في منطقتنا، في بروز تنظيمات مثل داعش، فالاحتلال الأميركي للعراق، أسهم في

نشوء التنظيم رفضاً له، وكثيرون ممن يلتحقون بالتنظيم يرون فيه مجالاً للثورة على النظمتين الإقليمي والعالمي، ومواجهة الحالة الاستعمارية، بعض النظر عن الانحراف الذي يحصل عند التطبيق العملي لهذه الفكرة، حيث يغرق هؤلاء في استهداف «عدو الداخل». كذلك، فإن فشل عملية إدماج المسلمين في الدول الأوروبية، تلقى بظلالها على تلك الدول، عبر قدرة التنظيم على تجنيد عدد كبير من المسلمين الأوروبيين، وخاصة في فرنسا، مستغلاً بشكل احترافي موقع التواصل الاجتماعي، وكل هذا يعني أن الحالة الاستعمارية، سواءً ترجمت باحتلال عسكري، أو بهيمنة اقتصادية وسياسية، تعمل على إيجاد بيئة خصبة لنمو تيارٍ جهادية مثل داعش.

أما دافع الأفراد للانضمام لتنظيم كهذا، فتختلف باختلافهم، والحاجة ملحة لدراسات تتعلق بـ دافع الأفراد؛ إذ إن الحديث النمطي عن دافع من نوع قلة التعليم والفقير، ليست دقيقة في كثير من الحالات، فكثيرون يتمتعون بتعليم جيد، ومستوى معيشة مقبول، ومع ذلك يفضلون الالتحاق بالتنظيم، ويمكن تفسير ذلك بحاله الاستنفار الهوياتي التي يعيشها كثير منهم، كما أسلفنا، نتيجة الشحن والتعبئة بخصوص ما يحصل في سوريا والعراق، مضافةً إلى أن بعضهم يرثون إلى نموذج دولة تمثل النقاء الإيديولوجي، كما إن آخرين يمثلون حالة العدمية، كما يصفها أوليفيه روا في مقالٍ له حول الشباب الملتحقين بالحركة الجهادية.

## الخطاب والشرعية

محاولة تفسير ظاهرة داعش وإخوتها، تمرّ عبر الحديث عن خطاب هذه الجماعات الجهادية ومنابعه. هذا الحديث غالباً يدور حول ما إذا كانت منابع الخطاب الجهادي سلفية أو إخوانية، والحقيقة أنها خليط بين هذا وذاك، ولا شك في أن الجماعات الجهادية جزء من حالة الإسلام السياسي، وليس خارج أدبياته وفهمه للذات والعالم؛ ولذلك، لا تنفع

بيانات البراءة التي تطلقها بعض حركات الإسلام السياسي، في نفي العلاقة الفكرية بين هذه الحركات والجماعات الجهادية، غير أن خطأ ثالثاً يجب أن يظهر في التحليل، بين اختزال الإسلام السياسي (وبالذات حركة الإخوان المسلمين) بداعش وإخوتها، وتبنيه الإخوان بالكامل من الظاهرة الجهادية، في حين أن الإخوان دعموا الظاهرة الجهادية منذ بدايتها في أفغانستان.

إن داعش نتاج تراكم الظاهرة، وتنظير سيد قطب معتبرٌ عند الجماعات الجهادية بالعموم، ما يجعل وضع مساهمة الفكر الإخواني في صناعة الحالة في حجمها الطبيعي، أمراً مطلوباً دون مبالغات.

الحديث عن الخطاب الجهادي وأدبياته لا يهدف إلى كشف أسباب انباث التنظيمات الجهادية العنفية، فكما أسلفنا، ثمة ظروف ومعطيات سياسية واقتصادية تهيئ الأوضاع لشوء مثل هذه التنظيمات، وإيجاد بيئة مناسبة لجماعات العنف السياسي، لكن الحديث عن الخطاب الجهادي يهدف إلى فهم المعين الإيديولوجي الذي تستقي منه هذه الجماعات أفكارها، والخطاء الشرعي الذي يغطي ممارساتها. وتاليًا، فهم كثير من سلوكيات هذه الجماعات، في تعاطيها مع كل من حولها؛ إذ إن هذا السلوك مدفوع في كثير من الأحيان بالإيديولوجيا المتبناة من قبل هذه التنظيمات، فالمصلحة السياسية وإن كانت تقتضي القيام بفعل ما، فإن الإيديولوجيا هي التي تعطي التبرير وتضفي الشرعية على هذا الفعل؛ وعليه، فإن كثيراً من الأفعال والسلوكيات ناتجة عن مصالح سياسية واقتصادية، ولا يمكن فهمها باعتبارها مجرد هوس وجنونٍ إيديولوجي محض، لكن الإيديولوجيا ضرورية لإقناع الأتباع والجمهور بشرعية الفعل.

الظاهرة الجهادية عموماً، والظاهرة الداعشية بصفة خاصة، تستخدم خطاباً يمزج بين أدبيات الإخوان المسلمين، والسلفية الوهابية؛ إذ يأخذ

من الإخوان الفكرية الأممية والجهادية العالمية، التي تبنّاها الإخوان، ويأخذ من السلفية الوهابية العقائد والأصول الفقهية، وإذا كان الجانب الوهابي في داعش طاغياً، فإن الجذور الإخوانية للخطاب موجودة، على الرغم من أنها أكثر وضوحاً في حالة تنظيم القاعدة مثلاً، عنها في تنظيم داعش.

ليس الزوج بالإخوان المسلمين مجرد اتهام يستند إلى كيدية سياسية اتجاههم، فالعودة إلى أدبياتهم تساعده في فهم أصل الفكرية الأممية في التيار الإسلامي، وكيف ساند الإخوان الحالة الجهادية، ورفدوها بكل ما يستطيعون، منذ نشأتها الحديثة في أفغانستان، في ثمانينيات القرن المنصرم، وكيف أن أدبيات الإخوان، قبل سيد قطب، تزخر بالحديث عن الجهاد العالمي، ورفض الحدود الوطنية في هذا المجال، وهنا نستحضر مقوله للشيخ حسن البنا، مؤسس الجماعة؛ إذ يقول في معرض حديثه عن الوطنية: «أما وجه الخلاف بيننا وبينهم فهو أننا نعتبر حدود الوطنية بالعقيدة وهم يعتبرونها بالتخوم الأرضية والحدود الجغرافية، فكل بقعة فيها مسلم يقول لا إله إلا الله محمد رسول الله وطني عندنا، له حرمته وقداسته وحبه والإخلاص له والجهاد في سبيل خيره، وكل المسلمين في هذه الأقطار الجغرافية أهلنا وإن كانوا نهتم لهم، ونشعر بشعورهم ونحس بمحاسهم. ودعاة الوطنية فقط ليسوا كذلك، فلا يعنيهم إلا أمر تلك البقعة المحدودة الضيقة من رقعة الأرض، ويظهر ذلك الفارق العملي فيما إذا أرادت أمم من الأمم أن تقوّي نفسها على حساب غيرها، فتحن لانرضى ذلك على حساب أي قطر إسلامي، وإنما نطلب القوة لنا جميعاً، ودعاة الوطنية المجردون لا يرون في ذلك أساساً، ومن هنا تفكك الروابط، وتضعف القوى، ويضرب العدو بعضهم بعض<sup>(1)</sup>.

هذه الأممية، الطاغية على تفكير البنا، تُرجمت لاحقاً بدعم فكرة

---

(1) حسن البنا، مجموعة رسائل الإمام الشهيد حسن البنا، ص 21-22.

الجهاد على ثغور المسلمين، من أفغانستان إلى الشيشان والبوسنة، ولم يقتصر هذا الدعم على الجانب الإيديولوجي، وإسباغ المشروعية الدينية على هذا القتال؛ بل زاد على ذلك انضمام كواذر إخوانية إلى ساحات القتال؛ بل إن كثيراً من الشخصيات الإخوانية أصبحت رموزاً جهادية كبيرة، مثل عبد الله عزام، الذي كان إخوانياً، وكذلك أسامة بن لادن، الذي كان عضواً في «إخوان العحجاز»، فرع جماعة الإخوان المسلمين في السعودية<sup>(1)</sup>، وأيضاً سمير السويم، المشهور بـ«خطاب»، أحد رموز jihad الشيشاني، كان إخوانياً.

خطاب jihad العالمي، وسردياته الأساسية، مرتبطة بالإخوان المسلمين، وليس بالسلفية الوهابية، ويشير الباحث الترويجي توamas هينهاامر إلى نقطة مهمة في هذا الصدد: «لا ريب في أن الدعوة إلى الوحدة الإسلامية، في عهد الملك فيصل، كانت مثيرة للسخرية بعض الشيء بالنظر إلى عداء العلماء الوهابيين التاريخي للمسلمين من غير الوهابيين؛ إذ إنهم إلى مستهل القرن العشرين لم يعتبروا في الغالب غير الوهابيين مسلمين أصلاً»<sup>(2)</sup>. وهنا يتضح الفرق بين نوعية الدعم التي يبحث عليها خطاب الإخوان الإيديولوجي، وبين الدعم الذي من الممكن أن يتسامح معه الخطاب السلفي الوهابي؛ إذ إن الخطاب الوهابي يشترط أن تكون السيطرة لعقيدته، فإذا ما أن توسيع الجماعة الوهابية بنفسها، فتكون هي المسطرة على الإقليم، أو تدعم جماعة أخرى تؤمن بالمذهب الوهابي وولاؤها له، وتحارب معالم الشرك، فيما لا يعني الخطاب الإخواني بتغيير العقيدة، ويكفيه وجود الشعار الإسلامي العام، للتحرك ونصرة المسلمين.

---

(1) ستيفان لاكرروا، زمن الصحوة: الحركات الإسلامية المعاصرة في السعودية، الشبكة العربية للأبحاث والنشر، بيروت، 2012، ص 152.

(2) توamas هينهاامر، jihad في السعودية: قصة تنظيم القاعدة في جزيرة العرب، بيروت: الشبكة العربية للأبحاث والنشر، 2013.

أما الأديبيات الوهابية، ضمن المنظومة الجهادية، فتظهر بشكل أساسي في قضية التكفير، التي تعتبرها الجماعات الجهادية أساساً في حركتها، كما تظهر أيضاً في قضايا مثل: هدم الأضرحة والمساجد المبنية على قبور الأولياء<sup>(1)</sup>، وفي مسائل فقهية مثل تعطية وجه المرأة، الذي يأخذ فيه تنظيم داعش برأي الفقه الحنفي، القائل إجمالاً بوجوب تغطية الوجه<sup>(2)</sup>، ومثل ذلك التشديد الحنفي على أداء الصلاة جماعةً في المسجد، وهنا يتضح التأثير الوهابي على كثير من السلوكيات التي تحكم تعاطي هذه الجماعات مع فكرة تطبيق الشريعة.

اختلط الفكر الإخواني بالسلفية الوهابية في مراحل ومحطات عدّة، وأنتج هذا التمازج تيارات إسلامية تجمع بين المدرستين، فهاتان المدرستان لم تكونا سائرتين في خطين متوازيين؛ بل تقاطعتا في ظروف عدّة، وكان الجهاد العالمي أهم وليد ربّما لهذا التمازج، وهو ما يظهر أكثر مع تراكم التجربة، وتعدد التنظيمات الجهادية.

## التكفير وتعريف الآخر

يظل التكفير لبّ الإيديولوجيا الوهابية، وهو أداة تستخدمن في التحشيد والتعبئة للقتال ضد المعارضين للدعوة من «الكفار»، وهذه الأداة ذاتها يستخدمها تنظيم داعش وأقرانه في تعبئة عناصرهم، وتؤكد الإيديولوجيا السلفية الوهابية (بصيغتها الأصلية أيام الشيخ محمد بن عبد الوهاب) على مفهوم الهجرة، الذي يقسم الدنيا إلى دار إسلام ودار كفر، ويبحث

---

(1) انظر مثلاً: «داعش يهدم قبر وجامع النبي يونس في الموصل»، صحيفة الشرق الأوسط، 2014 / 7 / 25

(2) «الدولة الإسلامية تفرض الحجاب الكامل على نساء الموصل»، صحيفة الرياض، 2014 / 7 / 26

على الهجرة من ديار الكفر إلى ديار الإسلام التي تعني الأراضي الخاضعة لسيطرة السلفية الوهابية.

الآخر هنا هو ذاك غير المنضوي تحت مظلة الدعوة الوهابية، وهو هدف للتکفير، الذي يشرع عن قتاله وإخضاعه للدعوة، ومن المهم هنا الإشارة إلى أن التکفير أداة سياسية، تؤكد على سياق حديثنا حول الأهداف السياسية للتنظيمات الجهادية، والتي يغفلها الكثير من المراقبين، وسط إغراقهم في الحديث عن التکفير بوصفه ظاهرة دينية، دون ملاحظة أبعاده السياسية.

إن توسيع داعش في التکفير ليشمل عدداً ضخماً من المسلمين له أصوله الوهابية، ويمكن مراجعة موسوعة «الدرر السننية في الأجوبة النجدية» للشيخ عبد الرحمن بن قاسم، والمكونة من ستة عشر مجلداً، لفهم الخطاب الوهابي بشكل دقيق، فقد جمعت الموسوعة رسائل محمد بن عبد الوهاب وفتواه، وأئمة الدعوة الوهابية من بعده، وصولاً إلى السبعينات من القرن المنصرم.

التکفير حاضر بقوة في الفتاوى والرسائل الخاصة بالشيخ محمد بن عبد الوهاب، فهو مثلاً يؤكد أنه لم يكن يعرف معنى لا إله إلا الله أثناء طلبه للعلم، وقبل أن يهتدى إلى أفكاره حول التوحيد والشرك، وهو ما ينطبق على علماء عصره جميعاً: «وأنا في ذلك الوقت لا أعرف معنى لا إله إلا الله، ولا أعرف دين الإسلام، قبل هذا الخير الذي من الله به، وكذلك مشائخى، ما منهم رجل عرف ذلك، فمن زعم من علماء العارض (الرياض وما حولها، أو ما يعرف بمنطقة اليمامة) أنه عرف لا إله إلا الله، أو عرف معنى الإسلام قبل هذا الوقت، أو زعم من مشائخه أن أحداً عرف ذلك، فقد كذب وافتوى، ولبس على الناس، ومدح نفسه بما ليس فيه»<sup>(١)</sup>.

---

(١) عبد الرحمن بن قاسم النجدي (جمع)، الدرر السننية في الأجوبة النجدية، دار القاسم، ط٥، الرياض، ١٩٩٥، ج ١٠، ص ٥١.

الدعوة الوهابية كما يظهر في أدبياتها، تصحيح لجاهلية سائدة، وإعادة إحياء لإسلام منذر، وهكذا فإن من لا يلتحق بركب الدعوة الوهابية، هو كافر؛ لذلك كفر الشيخ ابن عبد الوهاب علماء الجزيرة من الحنابلة قبل غيرهم، ممن خالفوه أو لم يستجيبوا لدعوته، أو حتى لم يكفروا من كفرهم هو.

لقد تم استخدام التكفير سلاحاً في وجه المعارضين السياسيين للدعوة الوهابية، فقد تم تكفير أهل حائل مثلاً، ليس لأنهم يمارسون أموراً شركية بالعرف الوهابي، ولكن لأنهم لم يشاركون الوهابية تكفير الدولة التركية وأهل مكة: «فمن لم يكفر المشركين من الدولة التركية، وعبد القبور كأهل مكة وغيرهم... فهو كافر مثلهم»، وتم إطلاق مصطلح الردة على المعارضين السياسيين، الذين يخضعون للدولة ثم ينقلبون عليها، ويروي حسين بن غنام، أحد أهم مؤرخي الدعوة الوهابية، مثلاً: «دخل كثير من أهل وادي الدواسر في الإسلام، وارتدى بعضهم بعد ستة أشهر، فجهّز عبد العزيز (ابن محمد بن سعود مؤسس الدولة السعودية الأولى) جيشاً، وأرسله لقتالهم، فقدم عليهم وصبّ عليهم العذاب، وأكثر فيهم القتل، حتى ذلّوا وهانوا، فطلبو الدخول في الإسلام»<sup>(1)</sup>.

إن الحكم بالردة موجود عند داعش، خاصة لمن يختلف معهم أو يخرج عن الطاعة المطلقة لقياداتهم، وذكر هنا ما فعلوه بأفراد قبيلة الشعيبات في دير الزور<sup>(2)</sup>، والتي بعد اتفاقها معهم حصل خلاف انتهى إلى

---

(1) حسين بن غنام، تاريخ نجد، تحقيق: ناصر الدين الأسد، دار الشروق، القاهرة، 1994، ص 169.

(2) المرصد السوري، «داعش يعدم 700 من أبناء عشيرة يعتبرها «طائفة ممتنعة بشوكة»»، موقع سي إن إن بالعربية، 17/8/2014.

إصدار الحكم على العشيرة بأنها (طائفة ممتنعة)، فكان لزاماً قتل رجالهم، وتهجير نسائهم، وهدم بيوتهم.

التكفير هنا هو دافع للقتال، والارتباط وثيق بين التكفير والقتال في الخطاب الوهابي، فتكفير أهل مدينة أو قرية موجب لقتالهم، كي يخضعوا للدولة الممثلة للتوحيد، وهذا أمر يتبعه تنظيم داعش بلا مواربة. والقتل لم يكن فقط في الحروب ضد مخالفي الوهابية؛ بل تجاوزه إلى عمليات اغتيال لشخصيات معينة في غير أوقات الحرب، كاغتيال أمير بلدة العينية عثمان بن معمر وهو في مسجده بعد أدائه صلاة الجمعة، بسبب الاشتباه بتآمره على الدعوة الوهابية، على الرغم من أنه كان في الظاهر حليفاً، ويُذكر هذا بالاغتيالات التي تقوم بها داعش تجاه من تعتبرهم صحوات، وتشتبه بأنهم يتآمرون عليها، وإن كانوا من صفها.

بالنسبة إلى الوهابية فقد تجسد التوحيد بالدولة، ومن لا ينضم للدولة ولا يُكَفِّر أعداءها ويُتبرأ منهم، فهو كافر مثلهم، كما في مثال أهل حائل الذي أوردناه، فالإيمان بالدعوة ترجمته الخضوع للدولة، والبراءة من أعدائها جميعاً، والتردد في هذا يوجب الكفر، فمن شك في كفر الكافر، هو كافر بالنسبة إلى الوهابية، وهذا هو ما يعتقد به قادة داعش، فهم يرون أن الدولة الإسلامية التي يقودونها محتكرة الحقيقة الدينية، وهكذا يصبح الخروج عن طاعتتها خروجاً على الدين، ومحاجة للكفر، وهنا تصبح المعارضة السياسية لداعش كفراً أو ردة، توجب القتال والقتل.

ولا يتوقف الأمر على استحلال الدماء؛ بل حتى أموال الكفار مستحالة، أي أن التكفير يشرعن سرقة مال من يتم تكفيره، والشيخ عبد اللطيف بن عبد الرحمن آل الشيخ، أحد علماء الدولة السعودية الثانية، وواحد من أحفاد الشيخ محمد بن عبد الوهاب، يفتى بجواز أخذ الأموال من قوافل العسكر الأتراك، أو قوافل الزوار الشيعة، كما هو مذكور في

موسوعة «الدرر السننية في الأجوبة النجدية»، ويؤكد أن: «سرية ابن الحضرمي في عهده (ص)، مشهورة معروفة، وقصدت غير قريش، وفريش في ذلك الوقت مع كفرهم وضلالهم، أهدى من كثير من العسكر، والزوار من الرافضة بكثير، فالمجادل في حلّ ما أخذ من العسكر والزوار، لا يدرى ما الناس فيه من أمر دينهم، فعليه أن يصحّح عقيدته، ويراجع الإسلام من أصله، ويتغطّ في التزاع الذي جرى بين الرسل وأممهم»<sup>(1)</sup>. هذا الأمر يجعل سطوة داعش على المصادر مثلاً وغيرها مفهوماً تماماً؛ إذ إنه شرع في نظرهم.

إن كل هذا التوسيع في التكفير لا يعني إقرار الوهابية بأنهم يُكفرون بالعموم، فالشيخ محمد بن عبد الوهاب حين يُسأل عن الأمر ينفي تكفيره الناس بالعموم، ويعتبره افتراءً، ويقول في ذلك: «وأما القول إننا نكفر بالعموم فذلك من بهتان الأعداء، الذين يصدّون به عن هذا الدين ونقول سبحانك هذا بهتان عظيم»<sup>(2)</sup>، وهو الأمر نفسه الذي يردد أبو عمر البغدادي (الذي سبق أبي بكر البغدادي على رأس تنظيم داعش)؛ إذ يقول في كلمة له: «وقد رمانا الناس بأكاذيب كثيرة لا أصل لها في عقيدتنا، فادعوا أننا نكفر عوام المسلمين، ونستحل دماءهم وأموالهم»<sup>(3)</sup>، ولكن التدقيق في مفهوم المسلم عند تنظيم داعش يقود إلى الاستنتاج أن كثيراً من المسلمين هم خارج دائرة الإسلام بالفهم الوهابي الذي تتبناه داعش، ويؤكد ذلك الاستثناءات الكثيرة التي أوردها أبو عمر البغدادي في كلمته هذه، ذلك أن الوهابية تربط بين الإسلام والالتزام بالتفسir الوهابي له، المجسد في دولة التوحيد، وعلى

(1) عبد الرحمن بن قاسم النجدي (جمع)، الدرر السننية في الأجوبة النجدية، ج 8، ص 353-354.

(2) محمد بن عبد الوهاب، مؤلفات الشيخ الإمام محمد بن عبد الوهاب، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الرياض، ج 5، ص 101.

(3) أبو عمر البغدادي، «قل إني على بينة من ربِّي»، 13/3/2007.

الرغم من أنهم لا يكفرون المسلمين بالعموم، إلا أنهم من خلال هذا الأمر يرمون كثيراً من المسلمين بالكفر، وما يترب عليه من قتال وقتل، وهو ما نشهده من سلوكيات داعش تجاه المسلمين قبل غيرهم في العراق وسوريا.

## الزرقاوي يعيد تعريف الآخر

تكشف الوثائق التي تمت مصادرتها من مقر أسامة بن لادن، في باكستان، ونشرها الأميركيون، جوانب فكرية وسياسية مهمة من شخصيته، وربما يكون من أهم ما تكشفه الوثائق، التحول الذي طرأ على الحالة الجهادية، من طور إلى آخر، والذي علق عليه بن لادن بمرارة في أكثر من رسالة.

قبل الحديث عن الاختلاف بين جهادية بن لادن والحالة الجهادية الراهنة، لا بد من تثبيت بعض الأمور الأساسية في فكر بن لادن ورؤيته. يؤمن ابن لادن بالتفسير الديني للصراع، فهو لا يرى الصراع مع أميركا والغرب متعلقاً بالقضايا السياسية أو الاقتصادية بالدرجة الأولى؛ بل صدام حضارات، وصراعاً عقدياً، ضد الكفر العالمي، ممثلاً بالتحالف الصليبي اليهودي، كما يسميه، والذي يهدف إلى القضاء على الإسلام<sup>(1)</sup>.

وفي حرب ابن لادن على الأميركيين، لا يفرق الرجل بين المدنيين والعسكريين، فهو يقاتل الجماعة الأميركية بأكملها، كما إنه يتوسع في التكفير، فيُكفر غالبية الحكومات العربية والإسلامية، لأنها موالية للكفر العالمي ممثلاً بأميركا، وفق مبدأ الولاء والبراء الذي يعتقد بن لادن، ولأنها لا تطبق الشريعة أيضاً؛ إذ يهمّ بن لادن أن تُحكم بلدان المسلمين بالشريعة، وهنا يقول بوضوح: «فالعلة الكبرى في تكفيرنا للحكّام أنهم لا يحكّمون

---

(1) نص رسالة ابن لادن إلى أهل العراق على الرابط:  
[http://alarabnews.com/alshaab/20042004-05-07//osamah\\_5\\_04.htm](http://alarabnews.com/alshaab/20042004-05-07//osamah_5_04.htm).

شرع الله تعالى في جميع شؤوننا مع موالاتهم لأمريكا<sup>(1)</sup>. وهو يسعى لإعادة الخلافة الإسلامية، بحسب تصوره لها، وكما توضح ذلك رسائله الأخيرة قبل مقتله، والتي تتحدث عن الثورات العربية عام 2011، بوصفها فرصة تاريخية لإعادة الخلافة<sup>(2)</sup>.

يمكن القول إن أبا مصعب الزرقاوي، هو الذي أحدث التحول في الحالة الجهادية، أثناء حياة بن لادن، وبمبركته أيضاً؛ إذ عرض الزرقاوي، وقد كان زعيم جماعة التوحيد والجهاد في العراق، مبادعه ابن لادن، والأنصوات تحت مظلة تنظيم القاعدة، إذا وافق ابن لادن والظواهري على رؤيته للعمل الجهادي في العراق، وقد شرح هذه الخطة في رسالة نشرت تفاصيلها في الإعلام<sup>(3)</sup>، تضمنت تحطيطاً لإشعال فتنة طائفية بين الشيعة والسنّة، عن طريق ضرب العمق الديني والسياسي للشيعة، بلا تفريقٍ بين مدنيين وعسكريين، لاستفزازهم ودفعهم لمحاربة السنّة، فيستيقظ السنّة الغافلون.

وفي تشرين الأول / أكتوبر من العام نفسه، أعلن الزرقاوي بيعته لابن لادن، ولا يوجد ما هو منشور، بخصوص رد ابن لادن أو الظواهري، الذي دفع الزرقاوي للبيعة، لكن البيعة بذاتها كانت غطاءً من القاعدة لخطة الزرقاوي، وأعماله الطائفية.

مع ذلك، لا بد من تسجيل تحفظ ابن لادن والظواهري على عمل الزرقاوي، ويظهر هذا في رسائل عدّة من الوثائق المنشورة مؤخرًا لابن

---

(1) المصدر نفسه.

(2) «أسامي بن لادن والربع العربي»، صحيفة الأخبار اللبنانيّة، 21/5/2015.

(3) نص رسالة الزرقاوي إلى ابن لادن، والتي يطلب فيها البيعة بشرط الموافقة على استراتيجيته:

لادن، كما يظهر أيضًا في رسالة الظواهري إلى الزرقاوي عام 2005<sup>(1)</sup>، والتي فصل فيها في الموقف من الشيعة، وعلى الرغم من أن الظواهري هاجم الشيعة بقوة، وأكّد أن المواجهة معهم قادمة لا محالة، إلا أنه تحفظ على هجوم الزرقاوي على عوام الشيعة ومساجدهم، فذلك مداعاة للنفور من المجاهدين، وإشغالهم عن الأُميركيين؛ إذ إن الآخر/ العدو في نظر الظواهري هو الأميركي، وهو الأولى بتوجيه الجهود ضده. ويبعد واضحًا الاختلاف بين ابن لادن والزرقاوي، لناحية التوسيع في قتل المسلمين، كما إن ابن لادن حذر من الصدام مع الحركات الإسلامية مثل الإخوان، في رسائله بعد الربيع العربي، في حين كان وريث الزرقاوي (داعش) صدامياً ومُكفِّلاً بهذه الحركات.

هذه اختلافات يُتَوْجُّها اختلافاً أهم، أُوْجَدَ تحوّلًا فعلياً في الحالة الجهادية، وهو الاختلاف حول ترتيب الأولويات، حيث تُظْهِر معظم رسائل ابن لادن تركيزه على العدو الخارجي (أميركا)، قبل العدو الداخلي، وقبل إقامة دولة الإسلام، ويكرّر أهمية ضرب رأس الأفعى ليتساقط أعداء الداخل لاحقاً؛ بل ويذهب إلى دعوة فرع اليمن لعرض الهدنة على نظام علي عبد الله صالح، للتفرغ لقتال الأُميركيين<sup>(2)</sup>، ويبدي اتزاعجه، وهو بعيد الذي لم يعد قادرًا على السيطرة، من تركيز بعض فروع القاعدة على المعارك الداخلية.

الزرقاوي هو أول من ضرب أولوية العدو الخارجي، بتركيزه على عدو الداخل، المتمثل «بالرافضة» والمرتدين (وهو توصيف يشمل قطاعاً

---

(1) نص رسالة الظواهري إلى الزرقاوي على هذا الرابط:

<http://goo.gl/ZaYyFh>.

(2) «وثائق ابن لادن: تفاصيل خطابات للوحishi»، الوطن اليمنية، 6 / 5 / 2012.

سنّياً واسعًا) قبل المواجهة مع أميركا، وهو ما كرّره أبو عمر البغدادي، ثم أبو بكر البغدادي، في الخطاب والممارسة.

مع السعار الطائفي في المنطقة، الذي ساهم الزرقاوي في صنعه (مع الاحتلال الأميركي)، انقلبت أولويات الجهاديين، واليوم، يقوم أبناء الزرقاوي، في تنظيم داعش، وجبهة النصرة، اللذين يعتبران الزرقاوي مرجعهما الأساسي على الرغم من اختلافهما التنظيمي، بتسعيّر الحرب في المشرق العربي، ويصل بعض الجهاديين في تغيير أولوياتهم، إلى العمل مع بعض حلفاء أميركا في المنطقة، كما تفعل النصرة (الأكثر براغماتية من داعش)، وتنقسم مجموعة كبيرة من جمهور الإسلام السياسي في المنطقة، بين سلفيين راديكاليين مؤيدِين لداعش، وتيار إخواني (ومعه ملاحقة) يؤيد النصرة، التي تجري محاولة تبييض صفحتها أمام الغرب، ويتعهد زعيمها بعدم الانطلاق من الشام لضريبه، ويسوق لها بعضهم، وكأنها جبهة تسويرية ليبيرالية، بينما هي قد تختلف عن داعش في الدرجة لا النوع؛ إذ هي متزمرة بالخطاب الطائفي، وقتل المدنيين<sup>(١)</sup>.

## خاتمة

في المحصلة، تعمل جهادية أبناء الزرقاوي، على تفتيت المجتمعات العربية بإحداث الفوضى المؤدية للاحتراب الأهلي والطائفي، ولا يمكن مواجهة تمددها من دون رفضها بالجملة، ورفض ما تتجه من خراب. والمهم ملاحظة تحول مفهوم الآخر المستهدف بالتكفير والقتل عند الجماعات الجهادية، من الآخر البعيد، المتمثل بالغرب، إلى القريب المتمثل بالطوائف الإسلامية، والأنظمة العربية، والأحزاب العلمانية، والمنحرفين عن الشريعة من المسلمين، وهذا التحول، هو نتيجة

---

(١) في قضية قتل المدنيين انظر مثلاً: «جبهة النصرة تبني تفجير السيارتين المفخختين في حمص»، صحيفة الرياض، 27/5/2014.

لاستراتيجية الزرقاوي، التي طبّقها في العراق، وهنا، يمكن القول إن العامل السياسي هو الأهم في تفسير هذا التحول؛ إذ إن الصراع الطائفي في العراق، وما أفرزه من انقسام طائفي حاد، أثّر على تفكير وسلوك الجماعات الجهادية، كما أثّر على طرق تجنيد الأتباع، فمن إقناع الشباب بأهمية محاربة الكفر العالمي، إلى إقناعهم بوجوب محاربة «الرافضة» و«المرتدin».

من هنا يمكن أن نتبين أهمية فهم العوامل السياسية في تشكيل هذه الجماعات العنفية، وإعادة صياغة رؤيتها وأولوياتها وخطابها؛ إذ إن الحديث عن النصوص التراثية، لا يكفي لفهم هذا التحول، فالتكفير في النصوص التي تستند عليها تنظيمات مثل داعش، موجود بخصوص كثرين، لكن العمل بهذه النصوص وتفعيلها خاضع للظرف السياسي، والحاجة التي تفرضها الواقع السياسية، وهي التي تستدعي النص كمبرر ومشروع للفعل السياسي.

# العوامل الاجتماعية والسياسية المُساهِمة في نشوء التطرّف الديني

الدكتور عبد الغني عماد<sup>(1)</sup>

لا شك في أن المتتبع لما كتب حول الحركات الإسلامية عموماً، وحول الحركات المتشددة بالخصوص، سوف يلاحظ أنه على الرغم من ضخامة ما كتب عنها وحولها من أعمال فكرية وتاريخية، وما استقطبته من اهتمام، إلا أنه لم تصدر سوى أعمال قليلة ونادرة، تميزت بالموضوعية العلمية الهدافة إلى فهم وتفهم جذور الظاهرة، والأسباب الحقيقة لنشوئها وصعوبتها وتفاقمها. هذا، فضلاً عن المقاربات التعسفية التي سادت وانتشرت لمكافحتها والتعامل معها.

ومن الطبيعي أن هذه المهمة ليست سهلة على الإطلاق، وسط طوفان من الكتابات السجالية المؤدلجة والمصاغة بعنابة للترويج والإشادة والدعائية، أو بالعكس للنقد والتشكيك والتجریح، وهي في كلتا الحالتين، تقدم مدخلاً انتقائياً، يخدم المقاربة الوظيفية لأصحابه ومنتجيه أكثر مما يقدم مادة تحليلية معرفية، تفتح مداخل جديدة لفهم جذور المشكلة ومغذيّات الظاهرة.

---

(1) أستاذ علم الاجتماع في الجامعة اللبنانية.

وحتى لا نقع في فخ التعميم، يمكن القول إنه لا يمكن تشخيص صعود التشدد والعنف الإسلامي إلا بتحقيق أمرين: الأول تغلب المقاربة الدينامية للظاهرة ودراستها في حركتها التاريخية والسياسية والمعرفية، بحيث يمكن لهذه المقاربة أن تقدم فهماً أعمق للمسارات والتطورات والتحولات التي تعرضت لها كتعابيرات سياسية-دينية في علاقتها مع مختلف مكونات المجتمع السياسي العربي ومحيطه.

والثاني يتمثل بتحرير المقاربة التحليلية من التنميط المسبق الذي أدى إلى تناولها كظاهرة مفصلة عن سياقات التطور الاجتماعي والانساني والسياسي؛ ذلك أن اعتماد النظرية المؤامراتية أو المقاربة الأمنية كأساس لتحليل هذه الظاهرة، عدا عن أنه يفرغ هذه الظاهرة من مضمونها السياسي والفكري، يخرجها عن سياقها الاجتماعي والموضوعي، ويجعل من أي مقاربة تحليلية جدية عقيمة الجدوى أو فقيرة الدلالة.

وبناءً على ذلك، يمكن القول إن «الأفكار»، وإن كانت من أكثر المنتجات القابلة للانتشار، إلا أنها لا يمكن، بطبيعة الحال، إلا أن تكون تعبيراً عن حاجات وأزمات سياسية وثقافية ومعرفية، وبالتالي هي لا تأتي بالطلاق من خارج المجتمع، أو من خارج التاريخ، فهي لا تهبط من كوكب آخر، ولا تأتِ من خارج الزمن. ومن الصعب فهم هذه الأفكار من خلال «تنميتها» تحت مسميات معينة، فمثل هذا التنميط عدا عن طبيعته المؤدلجة، لا يؤدي إلى فهم وظيفتها ودورها من جهة، كما إنّه يفصل هذه الأفكار عن سياق تطورها التاريخي وتجليلاتها في الواقع السياسي الاجتماعي من جهة أخرى. كذلك إن قراءة هذه الأفكار وتحليلها، بمعزل عن حامليها كفاعلين اجتماعيين، يحولها إلى نصوص ميتة لا حياة فيها.

بناءً على ذلك، يصبح من الضرورة الاجتهاد لتقديم مقاربات مركبة لظاهرة التشدد والتطرف والعنف السياسي الطائفي والمذهبي الآخذة

في التمدد تارة، والتركيز تارة أخرى، باعتبارها إحدى تعبيرات الحراك السياسي والديني لمواجهة التحديات المعاصرة في عالمنا، سواء كانت معارضين له أو متفقين معه، وفي كلتا الحالتين نحن مدعوون لفهمه، أو تفهمه في إطار ما يعرف بالسوسيولوجيا الفهمية التي كتب عنها ماكس فيبر، أحد كبار رواد علم الاجتماع بداية القرن الماضي<sup>(1)</sup>.

## أزمة القراءات والمقاربة البنوية للإسلام

أتحدث هنا عن أزمة القراءات؛ ذلك أن الظاهرة (الجهادية) عموماً منذ نشوئها تم دمجها ووصيمها بالإرهاب والعنف، وخضعت لتفسيرات وتحليلات شتى، من أقصى اليمين إلى أقصى اليسار، منها من أخضعها لمقاربة اقتصادية بحثة، ومنها من اعتبر العنف مكوّناً بنوياً أصيلاً في منظومة القيم المرجعية التي تنطلق منها، وبعضها ذهب إلى تحليلات سيكولوجية للمتنسبين لهذه الجماعات باعتبارهم مرضى أو مجانين، حيث تشيع مثل هذه القراءات في هذه الأيام لتحليل معنى ودلالات قطع الرؤوس في ضوء إخراج إعلامي مبهر وصادم وغير مسبوق، فضلاً عن العمليات الانتحارية والانغماسية المرعبة التي لا تفرق بين المدنيين والمقاتلين. كل هذه التحليلات تتكمّل في مكان ما مع المقاربة الليبرالية الجديدة للإسلام، والتي تضفي نظرة بنوية وجوهانية على «الإسلام» كعقيدة ودين بوصفه رديفاً للشر والعنف، ومولداً للانفصام النفسي، وللاغتراب عن الثقافة والحضارة الحديّة والعقلانية المعاصرة.

يبدأ نعوم تشومسكي كتابه الذي أثار له المتابع، والمعنون بـ«قراءة وأباطرة» بقصة صغيرة معبرة، يقول فيها: وقع أحد القراءة في أسر الإسكندر الكبير، الذي سأله «كيف تجرؤ على إزعاج البحر، كيف تجرؤ

---

(1) جولييان فروند، سوسيولوجيا ماكس فيبر، مركز الإنماء القومي، بيروت، لا تا، ص 48.

على إزعاج العالم بأسره أيها اللص؟». فأجاب القرصان: «لأنني أفعل ذلك بسفينة صغيرة فحسب أدعى لصاً، وأنت، الذي يفعل ذلك بأسطول ضخم، تدعى إمبراطوراً». بهذه القصة التي تلتقط بدقة معينة إشكالية العلاقة الراهنة بين اللاعبين الكبار واللاعبين الصغار على مسرح السياسة والعنف الدوليين، يفتح تشومسكي مناقشته لقضية الإرهاب ليبيّن ومعه عدد كبير من الباحثين اليوم في الغرب كيف أصبحت هذه القضية صناعة وإيديولوجيا بكل معنى الكلمة<sup>(1)</sup>.

والواقع أن أحد الباحثين قد أحصى مئة وثمانية تعريفات متداولة للإرهاب<sup>(2)</sup>، حيث استخدم هذا المفهوم بانحيازات قيمية وإيديولوجية وسياسية، جعلته جزءاً من الترسانة الإيديولوجية للأنظمة التسلطية، فضلاً عن أنه أصبح مسوّغاً دائماً وجاهزاً للتدخل الأجنبي.

يطلق إيتيان باليار على عنصرية القرن الحادي والعشرين الجديدة اسم «العنصرية التفاضلية»، عنصرية دونما عنصر أو عرق، بحيث يجري تمكين «الثقافة» من الاضطلاع بالدور الذي كانت البنية الحيوية (البيولوجيا) تضطلع به. ليس الموقف (الثقافي) كنظرية تباين اجتماعي أقل «جوهرية» من نظيره الحيوي (البيولوجي)، وهو يؤدي عملياً إلى إرساء أساس نظري لا يقلّ رسوحاً لعملية الفصل والعزل العنصريين<sup>(3)</sup>. وهذا ما يجعل، على سبيل المثال جدار الفصل العنصري الذي تبنته إسرائيل لعزل الفلسطينيين وفصلهم، مفهوماً وقبولاً في أميركا، ذلك أن العنصرية الجديدة «الهوياتية» والثقافية هي نظرية عزل وفصل بقدر ما هي نظرية

(1) لمزيد من التوسع انظر كتابنا: صناعة الإرهاب، دار النفائس، بيروت، 2003، ص.36.

(2) حسنبن توفيق إبراهيم، ظاهرة العنف السياسي في النظم العربية، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 1992، ص.48.

(3) مايكل هاردت وأنطونيو نيجري، الإمبراطورية: إمبراطورية العولمة الجديدة، مكتبة العبيكان، 2002، ص.206.

ترتيب أو تسلسل. إنها تعتمد على الإقصاء، وتعتمد دوماً إلى إلابس ثوب «الآخر» لشخص أو جماعة معينة. العنصرية التفاضلية الجديدة لا تبادر إلى طرح التباينات العرقية كاختلاف في الطبيعة؛ بل تسوقها دائمًا على أنها تعبر عن اختلاف في درجة التطور والاندماج في منظومة القيم المعلومة<sup>(1)</sup>.

عَبَّرَتْ عن هذه الرؤية بوضوح مقوله «صدام الحضارات» أواخر القرن الماضي: «إن الفروق بين الحضارات ليست فروقاً حقيقة فحسب، بل هي فروق أساسية أيضًا». يتبنّى هنتنگتون «نبي القرن» كما في بعض الأديبيات الأميركيّة، صاحب هذه النظرية، بأن صراعات جديدة ستتشّعب على «خط الصدع الجديد» وسيكون التقسيم بين (شرق وغرب) أساساً لحروب المستقبل بين المجتمعات الغربية والآخرين. ولا يتردد في تصنيف الحضارة الإسلامية والحضارة الصينية بأنهما حضارتان «متحديتان» للغرب، فهما ترفضان الحداثة والديمقراطية وحقوق الإنسان.

في هذا الخطاب يجري إلابس ثياب «الآخر» للإسلام بوصفه «دين السيف الذي يثمن القيم والفضائل العسكرية ويطرح الحرب والجهاد ضد الكفار»، حيث يتحدد باستفاضة عن «الحدود الدامية للإسلام» حينما حلّ وتوطن. المشكلة إذًا ليست بتلك «الحفنة» من الحركات الأصولية، بل في الإسلام نفسه<sup>(2)</sup>.

إذن، العنصرية بصورتها القديمة المتوجهة على مستوى العالم، كأبرز صورة من صور التعصب، تراجعت لصالح صيغة أخرى ناعمة مع العولمة، والفارق أن آليات إنتاج العنصرية والتعصب في عالم اليوم تغيرت، ومحور ارتكازها انتقل من «العرق» واللون إلى «الثقافة» والحضارة. التمييز

(1) المصدر نفسه، ص289.

(2) صوئيل هنتنگتون، صدام الحضارات، ترجمة: مالك عبيد أبو شهيوة ومحمد محمد خلف، الدار الجماهيرية للنشر والتوزيع، ليبيا، 1999، ص.87.

والتعصب في عصر العولمة قد يتقنّع ويتجمل ويخداع في مكان، ويبدو بشعاً متواحشاً في مكان آخر، هو يتخذ صوراً شتى؛ لذلك، لا ينبغي أن يُنظر إلى إشكالية التعصب والتطرف والتوحش في عالم اليوم بشكل تجزئي؛ لأن الترابطات المغذية للفاعلين واللاعبين على مسرحه (دولياً ومحلياً) متقاربة، فثمة منطق واحد يسري في منظومة القيم المولدة للتعصب والتطرف والتوحش وأدبيات اشتغاله، وكل طرف منه، يتغذى من الطرف الآخر.

المشكلة أن المقاربة المنهجية التي قدمها الغرب لدراسة التطرف والتعصب والتوحش في عالم اليوم بقيت في هذا الإطار، ولم يكن متطرراً على أي حال أن يقدم غيرها، وهي ترکزت تحت عنوان «مكافحة الإرهاب والتيرارات الإسلامية المتطرفة»، وقد عانت هذه المقاربة منذ إطلاقها مطلع القرن الحالي من إخفاقمنهجي بالأساس، انعكس على كل الاستراتيجيات المحلية والدولية التي تبنته؛ ذلك أن الوعي بالمشكلة لا يتمثل بالمقاومة المباشرة لمظاهرها، وإنما باستقراء هذه المظاهر واعتبارها «مؤشرات» ينبغي تحليلها للوصول إلى جذورها، إلى أصل الداء وأسبابه، وأدبيات اشتغاله وتغذيته لاستنباط العلاج الصحيح والملازم. إن الإخفاق في طرح المشكلة ودراستها علمياً واختزالها في شعار «مكافحة الإرهاب» ليس إلا وصفة سريعة للمزيد من التطرف والتعصب والتوحش في عالم اليوم.

### إشكالية التوصيف: الآخر بصفته «العدو»

يكمن الفارق الجوهرى بين مفهومي الصراع والعنف في أنَّ مفهوم الصراع أوسع من مفهوم العنف؛ إذ تتعدد صور الصراع وأدبياته، ويعدُ العنف إحدى الآليات في إدارة الصراع وجسمه، وتتوقف شدة الصراع على كم وكيف العنف المستخدم فيه. ومن هنا، فإن السلوك الصراعي من الممكن أن يكون عنيفاً أو غير عنيف. فالعنف هو أحد مظاهر التعبير عن الصراع،

وبالتالي فإن «الإرهاب» الذي كثُر الحديث عنه في الآونة الأخيرة هو مفهوم يُستخدم للدلالة على شكل من أشكال الصراع والعنف الذي يصبح عنصراً سياسياً عندما تكون الأهداف والدواتق سياسية، حتى ولو اتخد صوراً أو مظاهر طائفية أو مذهبية أو عرقية في بعض أبعاده.

متى يصبح العنف السياسي شرعياً، وما هي معايير شرعيته وحدودها؟

قبل الإجابة على هذا السؤال يجب التفرقة بين مفهوم الشرعية (Legitimacy) الذي يدور حول الأسس التي يتقبل فيها أفراد المجتمع (Legality) النظام السياسي ويخضعون له طواعية، ومفهوم المشروعية (Legality) بمعنى خضوع نشاط السلطات ونشاط المواطنين للقانون الوضعي، وبالتالي فقد تكون السلطة مشروعة، أي مطابقة لأحكام القوانين ولكنها غير شرعية برفض الجماعة، أي الشعب، لها بسبب عدم تلاوتها مع قيمها وتوقعاتها. فالشرعية فكرة، أو معتقداً، تتعلق بأساس السلطة وكيفية ممارستها، وبالتالي فهي مفهوم مصدره الدين، أو الكاريزما، أو التقاليد، بينما المشروعية مصدرها القانون الوضعي<sup>(1)</sup>.

وانطلاقاً من هذا التمييز اعتبر بعضُ أن العنف الذي تمارسه الدولة ضد فئات معينة في المجتمع يكون مشروعًا طالما استند إلى نص قانوني يرّره ويحدده. فالدولة تحترم حق الاستخدام للعنف المشروع، وفق المفهوم الفييري، لحفظ الأمن والقانون وحماية الاستقرار الاجتماعي والسياسي من المخاطر الداخلية والخارجية، ولكن الإشكالية الأخلاقية تمثل في أن هذا العنف الرسمي لا يكتسب «الشرعية» إلا عندما تقرره الجماعة أو غالبية أفرادها، وتعتبره وبالتالي ضروريًا لحماية النظام العام.

وهكذا قد يصبح هذا العنف مشروعًا، وغير شرعي، أي ترفضه

---

(1) حسين توفيق إبراهيم، ظاهرة العنف السياسي في النظم العربية، ص.50.

الجماعة وتستهجنها؛ لأنها ترى فيه تعدياً على حقوقها وحرياتها، وترى أن سنته القانوني لا يقوم على رضاها؛ لأنها هي مصدر القانون والحق؛ لذا، تحتاجّ أو تتمرد وتشور ومن ثم قد تلجم العنف المضاد الذي تعتبره «شرعياً». هنا يمكن جذر العنف السلطوي «التخويني»، وبذور العنف المضاد «التكفيري» أو «التغييري»، حيث يجري تنميته «الآخر» بصفته «عدواً» في ذروة الصراع، وتمثيل شيطنته تمثيلاً للشر المطلق.

النظام الدولي بكل مؤسساته، يقترب ويتعامل مع الدول وليس مع الشعوب، إلا في حالات استثنائية يقدّرها على ضوء مصلحته، وهي مصلحة لا تضيّعها معايير واضحة في القانون الدولي، وهو ما أدى إلى الإزدواجية في الموقف من قضايا التحرر الوطني وتقرير المصير وحقوق الإنسان، ازدواجية أدت إلى إفلات سياسي وأخلاقي لكل المؤسسات الدولية، تجسّد في خصوصيتها لسياسات الدول الكبرى وهيمنة الولايات المتحدة الأمريكية، حصدنا آثاره المدمرة في فلسطين واحتياح العراق وفي أكثر من مكان في هذا العالم. ازدواجية حصدنا آثارها في تحالف هذه الدول مع الأنظمة الاستبدادية، ودعمها لها على الرغم من كل الشعارات البراقة عن حقوق الإنسان والحرية والمساواة التي يتغنّى بها الغرب.

لا شك في أن كل النظم والقوى التي تمارس العنف تتجه إلى تبريره باعتبارات قيمية وأخلاقية، فالنظام السياسي يبرر ممارسته للعنف ضد المواطنين، أو ضد فئات معينة استناداً إلى دعاوى المحافظة على الأمن والنظام والقانون والمصلحة العامة، وحمايتها من عناصر ترمي عادة بأنها عميلة وخائنة، حيث تعمل كأدوات لقوة أجنبية، وكذلك فالكثير من النظم تمارس العنف تحت شعارات براقة، مثل: محاربة الإرهاب والحفاظ على الوحدة الوطنية. أما القوى غير الرسمية فتبرر العنف بمنطق الدفاع عن النفس وبحماية الحقوق والحريات والأقليات وعدم وجود قنوات

لتوصيل المطالب، أو عدم فاعليتها إن وجدت، كذلك تلعب الاعتبارات الإيديولوجية دوراً رئيسياً في تبرير العنف.

تحيلنا هذه المقاربة إلى تحليل مسارات إعادة إنتاج القيم التي تغذّي منظومة العنف والتلوّح بمختلف أشكالها في ما يمكن وصفه بثقافة تبرير العنف وتسویقه، ليس فقط على المستوى الدولي المعولم؛ بل على المستوى المحلي والوطني، حيث يتمثّل في اندلاع عنف مركب وبنوي طال مختلف الأشكال السياسية والمجتمعية والسيسيولوجي الرمزية والثقافية، من أبسط مظاهره إلى أشدّها، بعد أن كانت أشكاله محصورة في الدولة العربية التسلطية لأكثر من نصف قرن، حيث احتكرت كل أنواعه وفنونه، وأبدعت فيها إبداعاً قلّ نظيره، في حين يبدو اليوم وكأنّه تفلّت وتمدد خارج أي انتظام أو ضبط، ليصل إلى حدود الجرائم الوحشية والإبادة والتهجير والقتل الهوياتي.

لقد أصبح من المسلم به في الدراسات السوسيولوجية أن التيارات المتطرفة، وخاصة الدينية منها وذات الطابع الهوياتي في العالم، لا تهبط علينا من كوكب آخر؛ بل هي نبت موضوعي لواقع ومتغيرات اجتماعية واقتصادية وثقافية وسياسية، يتزامن صعودها وظهورها مع تحديات تهدّد منظومة القيم وثوابت الموروث الثقافي، والتي غالباً ما ينتج عنها «أزمة هوية» واحتلالات تطال مجمل البنى ومنظومة قيمها. غالباً ما يتم التعبير عنها بصيغ متعددة، منها الخوف من المستقبل، ورفض الحاضر والهروب للماضي طلباً للنجاة.

تحيلنا هذه المقاربة إلى فهم للتيارات الدينية السياسية المعاصرة بوصفها تعريفاً للذات وتوصيفاً للهوية، ولكن بصفتها آلية دفاعية في مواجهة العولمة وتحديات الحداثة والتغيير، بما يعنيه ذلك من منظومة قيم وسلوكيات تقتسم المجتمعات التقليدية؛ لذلك، يبدو من السذاجة

التعامل معها «أمنياً» باعتبارها ظواهر إرهابية «محضبة»، أو باعتبارها كتل عنف وإرهاب مسلح «صماء»، بدون أي تمييز بين حركات مقاومة مشروعية وتيارات دعوية وسياسية سلمية، واتجاهات جهادية عنيفة.

كما يبدو كذلك أكثر سذاجة النظر إليها بوصفها ظاهرة «ثقافية» خالصة، على الرغم من الخلفيّة «الهوياتية» كفاعل ومحرك موضوعي لمثل هذه التيارات. المسألة بالأساس تتعلق بالأطر الاجتماعية التي تتحرك فيها مثل هذه التيارات وبالأفكار التي تطرحها من جهة، ثم بمضمون هذه الأفكار والأساليب المعتمدة والتحديات التي تواجهها من جهة ثانية؛ لهذا السبب يكتسب تحليل السياق التاريخي والسياسي والاقتصادي والثقافي لأي جماعة أهمية خاصة، فعلى أساسه يحدث التفاعل مع الواقع ويتفاعل الأفراد مع الأفكار التي تمثل أجوبة على تحديات واقعية. يمكن لهذه الأجوبة أن تكون طوباوية، أو متطرفة أو إصلاحية أو ثورية، لكن بالإجمال ثمة أكثر من جواب واحد، وأكثر من صيغة للتعبير عن «الهوية».

وتعدد الإجابات، إنما يعبر عن دينامية الأفكار وعلاقتها بحركة الواقع. واجهت التيارات الإصلاحية الدينية في جوابها المنفتح والمعلن في بدايات القرن العشرين تحديات الهوية والتغريب والحداثة في مرحلة كانت الدولة الوطنية الناشئة لا تزال طرية، حيث كان ثمة أمل في الإصلاح والنهوض. أما التنظيمات الدينية في الرابع الأخير من القرن العشرين، فواجهت تحديات الهوية والتغريب والحداثة في ذروة تضخمها وتتوحشه مع العولمة والأمركة، وفي دول وطنية تغولت فاحتكمت في الغالب إلى منطق الاستيلاء على السلطة بقوة العسكر والقبائل والطوائف، لتكرّس زعامات وحكاماً أشبه بالآلهة، فتكرست معهم حياة سياسية فارغة من أي مضمون سياسي أو أخلاقي، وفاشلة إلى حد الإفلات على المستوى التنموي والاجتماعي، ومدمرة إلى حد سحق كرامة الإنسان العربي على مستوى

الحربيات. وهذا فارق في القيمة والنوع لطبيعة التحديات، والتي ينبع عنها بطبيعة الحال تفاوت في الممارسات والإجابات.

ويختزل شعار مكافحة الإرهاب تلك الرؤية المبنية من خلفية ثقافة الهيمنة الغربية، وهي أيضاً رؤية ذات بعد واحد متمركزة حول الذات، تحاول وتسعى إلى فرض نموذجها بوسائل شتى، فالمسألة في هذا السياق لا تعود فقط إلى جدلية الإرهاب والأمن العالميّين، بقدر ما أصبحت أداة من أدوات الصراع؛ لذلك، ترتبط بمعنى الإرهاب ومضمونه وتعريفه، والتي تتخذ معايير مزدوجة وانتقائية عندما يتعلق الأمر بمصالح الغرب وحلفائه وفي مقدمتهم إسرائيل.

القضية إذن تتعلق بالمقاربة المنهجية لظاهرة انفجار الهويات التقليدية وعودة الدين إلى المجال العام والمظاهر التي يتخذها، والتي اعتبرها «داريوش شايغان» غطاءً إيديولوجيًا ارتكاسيًا تعتمده المجتمعات الضعيفة في ظل التحولات والتحديات الدولية، وذلك كبديل للحداثة الكونية. في هذا السياق، ينبغي أن تدرس ظاهرة صعود تيارات التطرف والتعصب في علاقتها بالآخر، دون أن يعني ذلك التسلیم بأطروحتها أو رؤيتها بعيدًا عن النقد والتفسیک والمراجعة.

أحد أبرز تجلیيات التعصب «الهوياتي» الطائفي والمذهبی وخطاب الكراھیة يتکون في النظر إلى «الآخر» ثقافیاً وسیاسیاً واجتماعیاً بوصفه عدوًأ أو خصماً أو مجال «تهذید»، وليس بوصفه مثیلاً أو تنوعاً يمكن أن يشیري ويعنی ويضيف على الذات قیماً وأبعاداً تجعلها ذات مرجعیة تركیبیة غير أحادیة، أكثر تفهمًا وتسامحاً وعقلانیة. وبقدر ما تمثل هذه الإشكالیة المحرك الرئیسي للتیارات الدینیة المتطرفة، هي أيضًا تمثل الإشكالیة معکوسة نفسها، حيث يختزل الخطاب المعلوم الحیاة بالمنفعة والربح والمصالح، ويسجن الإنسان في بعده الاقتصادي، ويحول الجماعة إلى

قطيع استهلاكي، وفي لحظة توحشه قسم العالم إلى محور للشر حيث «الآخر»، ومحور للخير حيث قيمه هي المرجع الأول والأخير، في مشهدية مرّوّعة للدم والقتل تجسّدت في غزو العراق واحتلال بغداد، ولا نزال نحصد آثارها حتى الآن.

وهكذا تحول شعار مكافحة الإرهاب إلى إيديولوجيا، أصبح معها تعريف الإرهاب محاولة عبّية؛ بل أصبح التعريف بحد ذاته متحرّكاً ونسبةً، يعكس توازنات اللاعبين الكبار على المسرح العالمي، ولم يعد بالتالي محصلة تحليلية تعكس قراءة جادة وموضوعية للعناصر المولدة للعنف السياسي والعنف المضاد بشكل عام. وهكذا يمكن ببساطة أن يفرض القوي سياسته على الضعيف، ويسود منطق الجلاد، وتحوّل الضاحية إلى عباء، ويصبح الشعب الفلسطيني إرهابياً إذا قاوم الاحتلال والاستيطان، ويصبح الإسلام بالتالي ثقافة متوجّة للإرهاب؛ لأنّه يتضمّن موقفاً ومعززاً تارخياً يحض على المقاومة والجهاد وعدم الاستكانة للظلم. وتصبح معها مقاومة الاحتلال الأميركي للعراق منذ 2003 إرهاباً موصوفاً.

## نحو قراءة سوسيولوجية لظاهرة العنف والتطرف

ما الذي يدفع جماعات أو أفراداً إلى أن يصبحوا متطرفين وعنفيين، ومن ثم متواطئين في تعاملهم مع الخصوم والأعداء؟ كيف يصبح المرء، ومن ثم الجماعة مستعدة للتضحية بأعلى ما تملك في سبيل ما تعتقد؟ ما الذي يدفع الأفراد إلى الإيمان بمعتقد والانخراط بجماعة بلا قيد ولا شرط والانقياد لها بما يمكن أن يؤدي إلى التضحية بالنفس والآخرين؟ ثم ما الذي يجعل جماعة (اثنية أو طائفية أو عقدية...) تتمسك بأفكار تبدو غير عقلانية، وتمارس سلوكاً يُسمّ بالكراهية تجاه الآخر، ويتوجه صعوداً نحو إقصائه وإنائه حتى ولو أدى ذلك إلى تخريب حياتها ومجتمعها؟

قدم بعض إجابات على شكل نظريات، ولا نعتقد أن المحاولات

التي جرت ناجحة إلا بقدر تعبيرها عن حالات بعضها، فالعوامل الخاصة التي تحكم بحركة الناس والشعوب يصعب حصرها وتمذجتها، مع أنه يمكن تحليل بنية كل مجتمع واستخلاص استنتاجات نظرية تمكّن من ترجيح احتمال صعود ظواهر ونشوء حالات ومؤشرات عنف في بلد من البلدان، ولكن كاحتمال فقط، علمًا أن بلدانًا كثيرة عانت من العنف الديني والسياسي حيث لم يتوقع أحد؛ لذلك، كانت تلك النظريات أقرب إلى الاستقراء القابل للدحض أو الترجيح.

### افتصار الإيديولوجيا عن السياسة

في واقعنا العربي والإسلامي ليس الأمر ولد اللحظة السياسية الراهنة؛ بل هو نتاج مسار ومحصلة مسيرة بدأت، فقد شهدنا خلال القرن العشرين تحول العروبة من فكرة إلى انتماء راسخ، ومنها ولدت الحركة القومية، وتحولت إلى دولة أو سلطة. ولا يملك أي مؤرخ نزاهة إلا أن يعترف بأنها خلفت تراثاً فكريًا وسياسيًا غنيًا، وهو تراث لا يغيب من قيمته إخفاق الحركة القومية في إنجاز أهدافها، وإن كان من الواجب تقسيم تجربة الإخفاق تلك.

ليس في قولنا محاولة لرد أسباب الإخفاق إلى التجربة السياسية للأنظمة القطرية العربية فقط، وبالتالي تنزيه الفكر القومي العربي عن المساهمة في إنتاج بعض شروط ذلك الإخفاق؛ ذلك، لأننا نعتقد أن جوانب هامة من العطب في المشروع القومي العربي إنما تعود إلى قصور فكري في المقام الأول، فهو أسقط في بناء تجربة السلطة والدولة مبدأ الديموقراطية، ولم يُعر قضية المشاركة والمساءلة والمحاسبة أي اهتمام.

والواقع أن فكرة «الدولة» بحد ذاتها قد تم تهميشها، وعانت من فقر في التنظير لها لصالح مفهوم «الأمة»، وهذه مسألة يشترك فيها الفكر

الإسلامي والفكر القومي معًا، بعض النظر عن المضمون الإيديولوجي الذي يضفيه كل منها على المفهومين.

فكلاهما يفترض أن الدولة هي الترجمة السياسية للأمة كما يراها ويتصورها، وبالتالي للأمة في النص الإسلامي والقومي كامل الحق في أن تتبلور وفق مكوناتها التاريخية والثقافية أو الدينية في «دولة»، وحيث إن هذا لم يحصل إلا بفعل فاعل، يتفق الاثنان على أنه «خارجي-استعماري»، هذا الفاعل الذي أنشأ دولةً لا مشروعة لها، أو في أحسن الحالات كانت شرعيتها منقوصة أو مؤقتة. أما من يتمتع بالشرعية الكاملة، فيقع خارج حدود الدولة الواقعية القائمة، سواء أكان نصاً الشرعي الكامل في «الأمة» ومشروع «الدولة القومية»، أم «الإسلامية» المتخيّل الذي لا يعترف بالحدود والكيانات القانونية للدول والأوطان التي صنعتها المستعمر.

لذلك، لم يتم التركيز على بناء نظرية في الدولة والمواطنة والمؤسسات وفصل السلطات، بقدر ما تم الاهتمام بالتنظير لكل ما له علاقة بالهوية والانتماء والأمة والوحدة والشريعة والأصالة والترااث، ولم يتم التعامل مع الدولة القائمة إلا باعتبار أنها وليد غير شرعي، «القيط» ومؤقت، وباعتبارها مجرد وسيلة للوصول إلى الغاية الأبعد وهي «وحدة الأمة». فالدولة التي يعيش فيها حاملو هذا الفكر لا تمثل الغاية النهائية لحملهم القومي أو الإسلامي «الشرعي». هكذا كان الفكر القومي والفكر الإسلامي، كل منها بأصالته يقدم مشروعًا ضد الدولة كمفهوم سياسي وككيان موضوعي قائم عمليًا، مما عطل إمكانية بناء وطنيات أصيلة وحقيقية، ولذلك نرى اليوم نذر تفكك ما بقي منها إلى ولاءات وهويات ما قبل وطنية، طائفية ومذهبية مع انهيار هذه الدول.

لقد نتج عن ذلك دول وطنية هشة وهجينة، والأهم أن التجربة أثبتت أن حب السلطة كان على الدوام أقوى من الإيديولوجيا بالنسبة إلى القوميين

وغيرهم سواء بسواء. فتاریخ الدولة الوطنية العربية يكاد يختزله الصراع على السلطة فيها، والصراع على السلطة بطبيعته لا يتوقف إلا بالاستحواذ على المزيد منها. وفي مجتمع الدول اليوم التوسع السلطوي الوحيد الممكن هو التوسيع الرأسي لا الأفقي. وبمعنى آخر، إن قانون تراكم السلطة هنا يبقى بالضرورة أسير حدود الدولة، يمارس مفعوله عمودياً، الأمر الذي أدى ويؤدي عملياً إلى توسيط دعائم أنظمة سلطوية استبدادية تقوم على مبدأ الحزب الواحد، والسلطة المخابراتية، وإلغاء الحريات العامة، وإحلال أنظمة الطوارئ، وقمع التعددية السياسية، ومنع أي حديث عن تداول السلطة، واعتبار الشرعية الثورية بديلاً للشرعية الشعبية، وتوسيع دائرة المستفيدين التي تسّبّح بحمد الحاكم وبأمره، وهذا الأمر كان أحد المصادر الرئيسية المغذية لعمل قانون الفساد ونظامه المنتج لكل أنواع التفاوت والتخلف والإقصاء الاجتماعي والسياسي، والذي أفضى إلى «العنف البيئي» في المجتمعات العربية بوصفه أحد مخرجات هذه الأنظمة، وانعكاساً ممّا ينادي بالعدالة المطلقة للعنف المتجلّ في سلوكها، سواء على الصعيد الرمزي أو المادي.

## جدلية المظلومية والظلمانية

لقد تم إهمال المطلب الديمقراطي في المرحلة التبشيرية، ثم في المرحلة التأسيسية والتحررية التي نشأ فيها الخطاب القومي تم تأجيله وتغييبه، وقد ساهمت في ذلك عوامل عدّة، منها الالتباس التاريخي الذي حكم نشأة الديمقراطية، كتجربة معاصرة في الغرب، والذي تجلّى في عالمنا مع ظاهرة الاستعمار والرأسمالية. كانت ذريعة أولوية الصراع مع العدو الصهيوني مبرّراً للبعض في تأجيل المطلب الديمقراطي، كما كان فشل الأحزاب الليبرالية العربية التي ارتبطت ممارساتها بالفساد من جهة، وبالعجز عن تحقيق أي إنجاز اجتماعي أو تنميوي مبرّراً لبعضها الآخر من جهة ثانية. هذا مضافاً إلى حملة التسفية المبرمجية التي تعرّضت لها

الديمقراطية تارة من بعض الإسلاميين بحججة أنها متوجّه كفري ضالٍ لا يجوز الأخذ به، وتارة أخرى من بعض أجنحة التيار الماركسي الذي لم ير فيها سوى الوسيلة الخادعة والمضللة التي تتيح للبورجوازية الاستغلال، والسلط على الطبقة الكادحة. كل هذه الاعتبارات ساهمت في إفقار الديمقراطية في الوعي الشعبي في الخمسينات والستينات، بل وحتى السبعينات، والتي استفاد منها النظام التسلطي العربي إلى أبعد الحدود.

تغير الحال اليوم، فقد أثبتت الديمقراطية كتجربة إنسانية جدارتها ونجاحها على أكثر من صعيد. فالبدائل أثقلت كاهل العرب بالدم والظلم والطغيان. فقد جرت العديد من المراجعات الفكرية، وتصاعد اهتمام النخب الثقافية العربية بالمسألة الديمقراطية. ومنذ ثمانينيات القرن الماضي بدأنا نشهد حراكاً لافتاً تجاوز الأطر الحزبية القديمة ليطال مؤسسات ثقافية وأطراً جديدة في المجتمع المدني والأهلي، حيثأخذت تلعب دوراً متزايداً في تفعيل المشروع الديمقراطي. وعلى الرغم من الصخب والسبجال الذي أثاره استدخال هذا المفهوم في بنية الخطاب العربي حينها، لم يجد هذا مساره العملي لإصلاح حال الأنظمة العربية التي تأكلت شرعيتها إلى أبعد الحدود.

العلاقة بين الاستبداد والتطرف الديني من جهة والديمقراطية من جهة أخرى ذات طابع جدلٍ؛ ذلك أن الديمقراطية لا تحارب التطرف، بل تزييل أسباب وجوده، حتى لا يجد التربة الصالحة لظهوره. أما الاستبداد السياسي، فإنه الوصفة المناسبة للتطرف؛ إذ يهيئ له المناخ والبيئة المناسبة التي تسمح له بالازدهار، فهو في قمّه واضطهاده له يدخل معه في علاقة ذات بُعدين: إذ ينفعه ويضره كما ينفع نفسه ويضرها في آنٍ معًا؛ ففي صراعه ينعش، ثم يخنقه في حركة جدلية مأساوية لا مفرّ منها، موفّراً له بذلك قضية «المظلومة» كدافع ذاتي للتضحيّة والاستمرارية، ومبّرّاً لنفسه محاربة «الظلمامية» تحت شعار الحداثة الزائفة.

والواقع أنه ساد لفترة طويلة رأي بين بعض الباحثين يعتبر أن الحركات الإسلامية عاجزة لأسباب بنوية ومعرفية عن التكيف مع المنظومة الديموقراطية، وبالتالي عن إنتاج هيكلية حزبية مرئية أو ملموسة، إلا أن بباحثين آخرين يرون خلاف ذلك؛ إذ استطاعت بعض الحركات الإسلامية أن تتكيف عملياً مع النظام الديمقراطي، وأن تحول إلى قوة ديموقراطية معارضية في بلدان مختلفة، وهو أمر يشبه المسار الذي دخلت فيه الأحزاب الشيوعية، الشمولية واليمينية المؤدلجة في أوروبا الغربية بعد الحرب العالمية الثانية<sup>(1)</sup>.

تستند هذه القراءة إلى فرضية تقول: إن الدمج السياسي للقوى المحافظة والمتشددة دينياً وإيديولوجياً، قد يؤهل إلى «إخراجها» عن سياقها الإيديولوجي وترشيد سلوكها السياسي؛ ومرد ذلك إلى أنه ثمة ميل لدى الفاعلين الاجتماعيين والسياسيين إلى إبداء قدر من المرونة في خطابهم وممارستهم، ولو تكتيكياً في البداية، من أجل تعظيم مكاسبهم وحماية مصالحهم وزيادة تأثيرهم في «المجال العام». وقد جرى اختبار هذه الفرضية إمبريقياً في الكثير من الحالات، في الدراسات السوسيوبوليتيكية، في ما بات يعرف اليوم بجدلية: «الدمج والاعتدال مقابل الإقصاء والتشدد»، وثبت أنها تتمتع بدرجة عالية من الاحتمالية<sup>(2)</sup>.

وبعيداً عن التصنيفات الجاهزة والمعلبة؛ بل وربما المؤدلجة للحركات الإسلامية، فإنه من الثابت ومن خلال تقنية «دراسة الحال» على أي مكون سياسي علماني، وجود علاقة موضوعية بين الفاعلين السياسيين ومجمل الشروط المتوافرة في الحقل الاجتماعي السياسي المحيط به،

---

(1) John Voll and John Esposito, «Islam democratic essence», Middle east quarterly, September 1994, p3-11.

(2) عبد الغني عمام، الإسلاميون بين الثورة والدولة: إشكالية إنتاج النموذج وبناء الخطاب، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 2014، ص 118.

فالإقصاء أو التهميش الذي يتعرض له أي فريق أو مكون سياسي ينعكس تشدداً في خطابه، في حين أن أولى مخرجات الاندماج والمشاركة في العملية السياسية تمثل بانخفاض وتيرة خطاب الكراهية وبولادة مسيرة الاعتدال (دمج=اعتدال)، وبالتالي نخلص إلى أنه كلما كانت الأزمات السياسية والاقتصادية والاجتماعية حادةً ومتراقبة مع شعور هذه الحركات بأنها مستهدفة بالقمع، لجأت إلى السرية وإلى الطرح الإيديولوجي الجذري، وإلى العنف.

وعلى العكس، كلما كان القمع والاضطهاد أقل ضراوة، وكلما كانت الأزمات والظروف السياسية والاقتصادية أقل حدة، لجأت هذه الحركات إلى الانحراف في الحياة السياسية العلنية، وأنشأت وبالتالي هيكليات تنظيمية مرئية، ومارست وظائف سياسية محددة، معتمدة ما يسمى في لغتها السياسية «فقه المرحلة» أو «الضرورة»، والذي يرتب عليها انتهاج الواقعية والمرونة السياسية، بدلاً من الطرح العقدي والجذري، بهدف الوصول إلى أسلمة المجتمع والدولة، والتي هي أهداف قصوى صعبة المنال.

لذلك، يمكن القول إن الثورات الشعبية العربية لم تولد من فراغ، وهي بالتأكيد ليست نبأاً شيطانياً، أو مؤامرة كما تدعى الأنظمة التسلطية. إنها الانفجار النوعي المترتب على الفشل الكمي المتراكم بفعل سياسات الأنظمة على المستوى التنموي والتربوي السياسي. فسياسات الاستبداد والإقصاء لم ينتج عنها إلا التهميش والفساد، ولم تؤد إلا إلى تمديد قوانين الطوارئ، وانتهاك الحريات والكرامات والعنف الأمني المفرط، فضلاً عن التلاعب بوحدة المجتمعات والتمييز بين طوائفه ومذاهبه بعيداً عن دولة المواطنة والعدالة، وهذه كلها مجتمعة ولد في رحمها جنين الربيع العربي.

## نموذج لم يكتمل

قدمت الثورات العربية نموذجاً جديداً، لم يكتمل بعد، وهي حيث

أسقطت الرؤساء، وبدأت رحلة التغيير بانتخابات ديموقراطية، بُرِزَ فيها بوضوح أن قوى الثورة المضادة لا تزال قوية ومتजذرة في «الدولة العميقه»، وقدرة على استعادة أنفاسها بأشكال جديدة، حتى أصبحنا أمام مشهد ينذر بتفكك الدولة في بعض الحالات، حيث وضع تعتّ حكام الاستبداد، وتغول أجهزتهم السلطوية البلاد والعباد أمام خيارات الحرب الأهلية أو التدخل الخارجي، فانكشفت المكونات السلطوية الأولية لهذه الأنظمة، ظهرت قبلية ومذهبية وطائفية أو عرقية وجهوية، معطوفة على فشل تنميـ ذريع أمام فجوة متنامية بين الأرياف والمدن وبين الضواحي المهمـة على أطراف المدن التي يتكدـس فيها الفقر والإهمـال والحرمان.

والأنكى من ذلك، أن الدولة العربية القطرية لم تكتفـ بفشلها في إدماـج مكوناتها الأولية، القبلية والطائفية والمذهبية؛ بل عـزـزـتها وعمـدت إلى توظيفـها كأدوات في صراعـها للاستـحواـذ على نـصـابـ السـلـطـةـ، ظـهـرـ الصـرـاعـ واـضـحـاـ على مـسـاحـةـ العـرـاقـ، وـعـمـدـتـ الحـكـوـمـةـ المـالـكـيـةـ إـلـىـ إـغـرـاقـهـ بـالـفـسـادـ وـالـدـمـ وـالـمـذـهـبـيـةـ، وـالـمـشـهـدـ مـغـرـقـ فـيـ طـائـفـيـتـهـ وـمـذـهـبـيـتـهـ فـيـ لـبـانـ. وـفـيـ مـصـرـ عـادـتـ الـمـؤـسـسـةـ الـعـسـكـرـيـةـ وـالـدـوـلـةـ الـعـمـيـقـةـ لـتـمـسـكـ بـكـلـ الـخـيـوطـ، وـالـمـحاـوـلـاتـ جـارـيـةـ لـاستـنـسـاخـ تـجـارـبـ مـشـابـهـةـ فـيـ كـلـ مـنـ تـونـسـ وـلـيـبيـاـ، وـفـيـ الـيـمنـ اـسـتـخـدـمـ التـحـشـيدـ الـحـوـثـيـ فـيـ حـرـبـ بـائـسـةـ وـيـائـسـةـ، حـيـثـ الـقـبـيلـةـ وـالـسـيـاسـةـ حـاضـرـةـ هـنـاكـ لـتـطـحـنـ الـكـثـيرـ مـنـ الـأـوـهـامـ الـمـؤـدـلـجـةـ كـمـاـ هـيـ فـيـ لـيـبـيـاـ<sup>(1)</sup>، وـبـيـقـىـ جـرـحـنـاـ الدـامـيـ فـيـ سـورـيـاـ، حـيـثـ اـسـتـنـدـ النـظـامـ تـكـوـينـهـاـ السـوسـيـوـلـوـجـيـ وـالـطـائـفـيـ وـالـمـذـهـبـيـ وـالـعـرـقـيـ، وـأـغـلـقـ أـبـوـابـ الإـصـالـحـ السـيـاسـيـ حـتـىـ اـنـجـرـتـ الـأـمـورـ، وـانـكـشـفـتـ عـلـىـ وـاقـعـ دـمـوـيـ مـدـمـرـ.

---

(1) انظر: الدراسة المهمـة للدكتـور محمد نـجيبـ بوـطالبـ، الأبعـادـ السـيـاسـيـةـ لـلـظـاهـرـةـ القـبـيلـةـ فـيـ الـمـجـتمـعـاتـ الـعـرـبـيـةـ: مـقارـيـةـ سـوسـيـوـلـوـجـيـةـ لـلـثـورـتـيـنـ التـونـسـيـةـ وـالـلـيـبيـيـةـ، المـرـكـزـ الـعـرـبـيـ لـلـأـبـحـاثـ وـدـرـاسـةـ السـيـاسـاتـ، 2011.

يمكن القول إن الدولة العربية الإقليمية فشلت تماماً، ليس فقط في بناء نماذجها «القومية»، بل في بناء «الدولة» كمؤسسات وإطار للمواطنة، ومرجعية للحكم والفصل في المنازعات بين الناس، الذين عادوا وقت الشدة نحو المكونات التي سبقتها، أي عادوا إلى أصولهم، تماماً كما فعل أهل السلطة حين انكشفوا فتحولوا إلى قبيلة سياسية تحتشد حول عصبية ما.

## الوعي العصبي في التحليل السوسيولوجي

في التحليل السوسيولوجي لا يمكن للوعي والسلوك الطائفي أو القبلي أو الجهوي وغيره أن يتحرّك إلا ضمن الشبكة المصلحية الاجتماعية التي ترسم حدود الصراع على السياسة والاقتصاد في البلاد. وعلى هذا الأساس، تصبح المصالح الاقتصادية شبكات الفساد والمحسوبيّة والربائنية، قوى مهيمنة، تحتاج إلى الأمن والاستقرار كي تقيم سياسة الدولة الإقليمية والدولية، بما يؤمّن ديمومة المنافع والمكتسبات، بعيداً عن حسابات المنطق الفئوي، الطائفي أو المذهبي أو القبلي أو غيره، حيث تجمع شبكات المصالح أطيافاً وشرائح من المذاهب كلها، دون أن يلغى هذا الهيمنة العليا للشريحة الأكثر نفوذاً حول الحاكم وحاشيته.

يبقى السؤال عن الكيفيات والآليات والأدوات التي استخدمها النظام العربي السلطوي للإمساك باقتصاد بلاده وتعامله مع الثروة الوطنية، والتي قادت إلى كوارث اجتماعية وإلى تهميش قلّ نظيره؟ يتبعه تساؤل عن تشابه هذه الآليات والأدوات وعلاقة ذلك بانفجار الواقع العربي وتفكيره؟ وهل إنّ التشابه في الآليات والأدوات يعني تشابهاً في النتائج؟

اتبعت معظم حكومات الدول العربية برنامجاً اقتصادياً استند في غالبه إلى وصفات برنامج الإصلاح الاقتصادي والتكييف الهيكلي لصناديق النقد الدولي؛ فعلى سبيل المثال أقدمت الحكومة المصرية على إصدار قانون

الشركات القابضة عام 1993، وبموجبه أقدمت على بيع شركات القطاع العام المملوكة للشعب، وكفّت يدها عن التدخل في العملية الإنتاجية، وفتحت الباب على مصراعيه أمام رأس المال الأجنبي، مضافًا إلى إجراءات تفضي إلى تحرير الاقتصاد المصري وشخصنته. لكن الشخصية المباشرة، أو غير المباشرة أفرزت طبقة من رجال الأعمال الجدد احتكرت ثمار النمو الاقتصادي<sup>(1)</sup>، فبرزت أسماء شهيرة في مصر كأحمد عز، وحسين سالم وآخرين، باحتكارها لقطاعات واسعة من الاقتصاد المصري. أما في سوريا، فقد احتكر مئة من رجال الأعمال الجزء الأكبر من النشاط الاقتصادي السوري، وبرز الأقرباء ومن بينهم الأكثر شهرة رامي مخلوف.

ومن المفارقات اللافتة أن الإمارات العربية المتحدة المتقدمة اقتصاديًّا حضرت تشغيل قطاع الهاتف الخلوي، ذي الربح السريع بالجهات الحكومية، بينما سوريا والجزائر الحريصتان بشدة على القطاع العام، اعتبرت هذا المجال من أولى التلزيمات للقطاع الخاص في إطار الشخصية، وحضرت التشغيل في إطار شركة أو شرتين من الشركات الخاصة المحظوظة، مما أضع فرص المنافسة، وأكّد الخلفية الربحية والسلطوية لهذه التلزيمات. وفي ليبيا، دارت الثروة بين الأبناء والعشيرة، وفي اليمن ضاع الاقتصاد بين القبيلة والعائلة وال الحرب، وفي تونس حدث أمر مشابه.

## تجريم الطبقة الوسطى

في المجمل، أنتج هذا النهج النيو ليبرالي التسلطي تحكم فئة قليلة جدًّا من رجال الأعمال في اقتصادات الدول العربية، على الرغم من أن تجارب عدّة في العالم الثالث أثبتت فشل هذا النهج في تحقيق التنمية

---

(1) انظر دراسة: خالد كاظم أبو دوح، «قراءات في الحركات الاحتجاجية العربية»، ملف المستقبل العربي، العدد 387، أيار/مايو 2000، ص 113–130.

الشاملة، حيث قد ينجح في تحقيق نمو اقتصادي، لكنه يتحقق في توزيع الثروة، الأمر الذي يخلق طبقة تزداد ثراءً، فيما الشعب يزداد فقرًا. وهو ما حدث في الدول العربية، وأدى إلى تقليل الطبقة الوسطى وتحجيمها وإيقارها<sup>(١)</sup>.

والواقع أن الطبقة الوسطى لم تندثر؛ بل حدث فيها تغيير بنوي، طال أصولها القديمة «العائلية والعرقية» من «ذوي الياقات البيض» وأصلاب الأنفالية والبورجوازية، لصالح اثناعشر شرائح وسطى جديدة من أبناء الأرياف و«ذوي الياقات الزرق»، الذين تلقوا أقساماً متفاوتة من التعليم، وتدرّجوا على مراقي الحراك الاجتماعي بأشكال مختلفة، وزحفوا من القرى النائية والبوادي القصبية، بعيدة عن المركز المديني التقليدي-المتروبول، وعملوا في أي نشاط وجده، وسكنوا في أي ركن أتيح لهم، مما سمي في ما بعد «الأحياء القصديرية» أو «الأحياء الشعبية»، أو «العشواءة»، أو «السكن الفوضوي». هذه الشرائح الوسطى الجديدة اشتغلت في جهاز الدولة، وتغلغلت في النسيج الاقتصادي المتحول حضريًا، وأصبحت عماد المجتمع الجديد. وهو ما أظهرته الحالة التونسية في التفاوت بين الفئات الاجتماعية والمناطق الجغرافية<sup>(٢)</sup>، وهو أمر مشابه، حصل في الحالة السورية والعراقية والمصرية، كما تشير العديد من الدراسات، حيث شكّل الزحف إلى «المركز» –العاصمة ممّن تم إقصاؤهم بفعل تمركز السلطة– فعل حسم نهائي في انهيار الطبقة الوسطى.

وكلنا يعلم الدور الوطني والتنويري للطبقة الوسطى في فترتها

(١) انظر في هذا المجال: تحليل جاك قبانجي، الربع العربي إلى أين؟ أفق جديد للتغيير الديمقراطي (عمل جماعي)، صادر عن مركز دراسات الوحدة العربية، 2011، ص 119.

(٢) انظر في هذا المجال: محمد عبد الشفيع عيسى، «فرض نظرية على محك الخبرة الشورية في تونس ومصر»، ملف المستقبل العربي، العدد 386، نيسان/أبريل 2000، ص 133–138.

الذهبية، فهي أَدَّت دوراً أساسياً في مواجهة الاستعمار، ثم بعد ذلك في بناء الدولة الوطنية بسبب انتشار التعليم بين أواسطها، فكانت بمثابة الرافعة التي نهضت بالتغيير الاجتماعي والاقتصادي والسياسي في مراحل معينة، وأسست القواعد الحقيقة للثقافة والتغيير الديموقратي.

ما حدث عملياً أن الدولة العربية الحديثة، إلى جانب الفشل التنموي والاقتصادي، أنتجت تهميشاً سياسياً إلى أبعد الحدود، يتمثل في عدم تمكين المواطنين من المطالبة بحقوقهم السياسية وحاجاتهم الاقتصادية، في ظل هيمنة سلطوية، مترافق مع تدني الكفاءة الداخلية والخارجية لمؤسسات الدولة، وتحولها إلى أدوات بيد البيروقراطيات السياسية، وتحول السلطات التشريعية إلى ملحق بالسلطات التنفيذية ومن يقبع خلفها من تحالف العسكر ورجال الأعمال وأباطرة السياسة، فضلاً عن تفشي الفساد في السلطة القضائية وهشاشة استقلالها.

ولعل أبرز مثال على تعطيل عمل البرلمانات العربية عن القيام بدورها، تلك التزعة البائسة لتوريث السلطة من جهة، وتغيب المعارضة من جهة أخرى، حيث لم ير مجلس الشعب المصري في بيع الغاز الطبيعي وتصديره لإسرائيل بأسعار لا نظير لها في العالم ما يستدعي اعتراضه، كما فعل نظيره مجلس الشعب السوري الذي لم يُثُر قضية دفن النفايات السامة إلا عند خروج عبد الحليم خدام من السلطة بعد سكوته طيلة الفترة السابقة عن هذا الأمر، فضلاً عن مسألة رفع الدعم عن المحروقات التي لم تلقَ اعتراضًا على الرغم من آثارها السلبية على الطبقات الفقيرة على الرغم أن نصف أعضاء المجلس يجب أن يكونوا من العمال والفلاحين وفقاً للدستور السوري.

مضافاً إلى كل ذلك، مارست النظم السياسية التسلطية العربية سياسات التحكم بـ«مفاتيح الانتظام» العام الاجتماعي والسياسي للاحتفاظ

بسياستها وتأجيل مطلب الإصلاح، وبنت سياستها هذه على أساس العنف وليس القانون، فتضخّمت مؤسساتها القمعية، وقوانين الطوارئ والمحاكم الاستثنائية، وجرى أيضًا استخدام العنف خارج هذه الآليات للتنكيل بالمعارضين وإذلالهم، حتى انتشرت فضائح وفضائع التعذيب في السجون، واضطربت معها نخب وشرائح عدّة إلى النفي الذاتي، أو التمرّد والاحتجاج، أو الهجرة، أو إنشاء طرق تعبيرية من الاحتجاج الصامت أو الرمزي أو الخفي، أو العمل عبر الجمعيات الأهلية والخيرية والتربية المسموحة، أو تأسيس جمعيات دينية تعزل المجتمع أو تنظيمات سرية متطرفة، وهو الأمر الذي تولد فيه الثقافة التي تسوّغ العنف، وتکفر السلطات والحكام ومن يدور بفلكلهم.

والأخطر من كل ذلك أن بعض هذه الأنظمة لجأ إلى سياسات تستند في ممارستها القمعية إلى عصبية أو تحالف عصبيات أهلية طائفية أو مذهبية، مستخدماً خطاباً مزدوجاً ومستترًا للاستقواء والحفاظ على النظام، وهو ما أدى إلى إنشاء مليشيات تابعة له خارج إطار المؤسسات الرسمية، تمارس العنف المباشر والعاري خارج إطار القانون. هكذا حمت الأنظمة التسلطية نفسها، لكنّها كانت تميّع الحدود بين جهاز السلطة والدولة، وتغذّي «العنف الهويّي» داخل مجتمعاتها، الذي هو أحد أبرز مظاهر «العنف البنّيوي» السائد في الأنظمة السلطوية، والذي تتجلّى أبعاده في المدرسة والأسرة كما في مؤسسات العمل والإنتاج والحياة العامة.

## متلازمة الفساد والاستبداد كمنتج موضوعي للتطرف والعنف

لقد أفرز المعطى السوسيولوجي على المستوى السياسي والاجتماعي العربي، تحالفاً واضحًا بين الاستبداد والفساد، بين التسلط والتخلف، الأمر الذي أشاع أجواءً من عدم الاستقرار السياسي الداخلي في ظل غياب كامل للديموقراطية. في مثل هذه الظروف من الطبيعي أن

تنامي الهويات الفرعية على حساب الهوية الوطنية، خصوصاً في ظل غياب المؤسسات المدنية القادرة على إدماج المواطنين وحمايتهم من تغول الأجهزة السلطوية الأمنية والاقتصادية.

لقد كان من أبرز منجزات الأنظمة السلطوية ومخرجانها بعد عقود من تراكم الأخطاء والخطايا، هزائم عسكرية، وأمراض ثقافية وانهيار شامل لمنظومة القيم الوطنية الجامعة، فضلاً عن تفكك القيم الأخلاقية والثقافية، وتراجع مستويات التعليم، وتزايد مظاهر العنف الاجتماعي، والفوضى وانتشار الجرائم والمخدرات والعشوائيات، والعجز الكامل أمام تنامي الضغوط السكانية والاقتصادية.

هذا، فضلاً عن الارتهان الكامل للسياسات الأمريكية والغربية؛ بل وحتى الصهيونية التي أصبحت سفاراتها وأعلامها في بعض العواصم العربية التي «تكافح الإرهاب!».

بين شقوق وخطوط الواقع المتredi دخلت مجتمعاتنا في مشهد مأزوم، وأصابتها الهزيمة من الداخل قبل أن تواجه ضغط الخارج، وليس عسيراً على أي باحث منصف أن يكتشف تلك العلاقة الجدلية بين ثالوث المؤسّس والشقاء العربي المتمثل بـ«الاستبداد والتخلف والتبعية» وما بينهما من ترابط عضوي وتبادل وتلاحم في الوظيفة والنتائج. فهذا الثالوث الشقي تتغذّى عناصره بعضها من بعضها الآخر، وتستقوى إحداها بالأخرى لتشكل حائط السد «المانع» لأي تغيير نحو نقاضها، ولو بالإصلاح التدريجي؛ لذلك، كان جنين «الربيع العربي» بارقة أمل تم إجهاضه بتواءٍ دوليٍّ وعربيٍّ، وهو ما شكل الفرصة الذهبية الجديدة لصعود جديد لتيار التطرف والعنف حولنا.

ثالوث المؤسّس والشقاء هذا أنتج «وعياً شقيّاً» جديداً لا يرى مانعاً من التحالف مع «الشيطان» لمواجهة منظومة التطرف الصاعدة، أو الانخراط

في دوامة التطرف والتتوحش القاتلة لمواجهة «الطغاة والغزاة» الجدد على وقع عصبيات انفجرت، وهويات تضحمت، حتى بدأت بالتشظي، واستحالت إلى سياج لا يسمح للعقل بأن يخترقه، ولا لـ«الجماعة» بأن تخرج عن طوقه.

الهويات المتشظية اليوم في العالم العربي أطاحت بالهوية الجامعة، وأصبحت هي محرك العقل الجمعي، وهي ما تجعله ذات زعامة أقلوية تتوجس من المختلف، تخونه وتشيشه حيناً، وتکفره حيناً آخر. وهذا ما يجعل من الصعوبة بمكان تصوّر الهوية الفرعية كمحدد للخصوصية ومصدر غنىًّا للمجتمع، بقدر ما يجعلها آلية لتأكيد الذات ونفي الآخر، وأداة لشد العصب والحسد الشعبي الطائفي والمذهبي والاثني. تلك هي الإشكالية التي يتأسس في مناخها «الوعي الشقي»، حيث يقع الجميع في فخ ثقافة القطيع، تلك هي إشكالية الهوية والمعايرة التي يتغذى في فضائها الخطاب الديني والمذهبي المسيّس بكل تiarاته.

التطرف الديني والمذهبي بكل أشكاله الذي انفجر حولنا بشكل وحشي، حيث الكل يكفر الكل، إنما هو ثمرة للنظام التسلطي العربي الذي لم يتردد لسنوات عن تخوين مخالفيه أو معارضيه، وبالتالي من أن يجعل مصيرهم بين القبور أو السجون أو المنافي. والأخطر أنه وعلى الرغم من العنف غير المسبوق في تاريخنا المعاصر ندخل مرحلة جديدة من محاولة إعادة إنتاج، أو تجميل للأنظمة التسلطية بذرية صدّ الإرهاب والعنف التكفيري العابر للحدود، وإعطاء الأولوية للحلول الأمنية، وكأن العقل المأزوم لم يكتشف بعد أن محاربة التشدد المذهبي والطائفي لا تتم بشدد يقابلها.

إن هذا العقل المأزوم لم يكتشف بعد أن التكفير والتخوين، والإقصاء والتهميش لا يتيح إلا وعيًا شقيًا يدور حول مثلث الموت ومخرجهاته

المتمثل بـ «الطغاة والغلة والغزا». تلك هي المتأتية التي عشنا في دوامتها سنوات القلق والدم والهزيمة، ونعيش اليوم ذروة صعودها مع مشاهد لرؤوس تقطع، وأجساد تحرق، وبراميل متفجرة تمحو أحياءً وأسواقاً ومدنًا بكاملها، وميليشيات هنا وهناك ترفع الرأيات الطائفية والمذهبية الصافية على أنفاس من بقي من إنسان عربي لا يزال يقاوم حاملاً الراية والهوية العربية الصافية.

رحم الله عبد الرحمن الكواكبي (1855-1902) في سفره الرائع «طائع الاستبداد ومصارع الاستعباد» حينما حذر من مخاطر الاستبداد السياسي والديني في مقاربة تعبر بدقة عن حالنا: «...إن لم يكن يوجد توليد بينهما، فهما أخوان، أبوهما التغلب، وأمهما الرئاسة، أو هما صنوان قويان، بينما رابطة الحاجة إلى التعاون لتذليل الإنسان...هذا التشاكل بين القوتين ينجرّ بعوام البشر، وهم السواد الأعظم، إلى نقطة أن يتبس عليهم الفرق بين الإله المعبد بحق وبين المستبد المطاع بالقهر...». وهو ما ذهب إليه وتكامل معه منظر «المشروطة» الإمام النائني (1860-1936) في كتابه: «تنبيه الأمة وتزكيه الملة في وجوب المشروطة» والذي يعتبر وثيقة فكرية راديكالية نادرة وراقية تعبر عن مدى نضج الخطاب الإصلاحي الإسلامي في المجال الشيعي، حيث اعتبر أنه لا فرق بين السجود للفرعون والطاغيت وبين الانقياد الأعمى للإكليروس الشيعي الذي يموج سلطته الاستبدادية بوظيفته الدينية، مقارناً ذلك بالإكليروس المسيحي في القرون الوسطى<sup>(1)</sup>، مؤسساً بذلك لنظرية ولاية الأمة على نفسها.

القارئ والمدقق في «طائع الاستبداد» و«تنبيه الأمة» والمقارن

(1) محمد حسين النائني، *تنبيه الأمة وتزكيه الملة في وجوب المشروطة*، القسم الثاني، ص 128؛ انظر أيضًا: تحليلاً أوسع لأفكاره في كتابنا: *حاكمية الله وسلطان الفقيه: قراءة في خطاب الحركات الإسلامية المعاصرة*، دار الطليعة، بيروت، ط 2، ص 132-142.

بينهما، يجد أشكال التناص واضحـة الدلالة بينهما، وحاضـرة على المستوى الدلالي؛ بل على المستوى اللغوي<sup>(1)</sup>؛ بل في تصديـه لمن يسمـيهـم بعض المـتعـمـمـين ولـصـوـصـ الـدـيـنـ وـعـبـدـةـ الـظـالـمـينـ «أـنـصـارـ الـمـسـبـدـةـ» وـفـيـ تـعـرـيفـهـ لـلـاسـتـبـدـادـ، الـذـيـ يـقـولـ فـيـ الـكـواـكـبـيـ: الـاسـتـبـدـادـ لـوـ كـانـ رـجـلاـ وـأـرـادـ أـنـ يـحـتـسـبـ وـيـتـسـبـ لـقـالـ: «أـنـ الشـرـ، وـأـبـيـ الـظـلـمـ، وـأـمـيـ الإـسـاءـةـ، وـأـخـيـ الغـدرـ، وـأـخـيـ الـمـسـكـنـةـ، وـعـمـيـ الـضـرـرـ، وـخـالـيـ الـذـلـ، وـابـنـيـ الـفـقـرـ، وـابـنـيـ الـبـطـالـةـ، وـعـشـيرـتـيـ الـجـهـالـةـ، وـوـطـنـيـ الـخـرابـ، أـمـاـ دـيـنـيـ وـشـرـفـيـ فـالـمـالـ الـمـالـ الـمـالـ».

لا تقلـلـ هـذـهـ مـقـارـبـةـ مـنـ أـهـمـيـةـ التـغـذـيـةـ الـفـكـرـيـةـ وـالـإـيـديـوـلـوـجـيـةـ، ذـلـكـ أـنـ تـرـاثـاـ الـدـيـنـيـ فـيـ مـبـاحـثـةـ الـمـحـورـيـةـ يـنـهـضـ عـلـىـ تـقـدـيسـ الـنـصـوـصـ وـسـيـطـرـةـ الـإـطـلـاقـيـاتـ، وـنـبـذـ الـاجـتـهـادـ الـعـقـلـيـ، وـهـوـ مـاـ أـدـىـ إـلـىـ الـتـعـصـبـ الـمـذـهـبـيـ وـسـدـ الـمـنـافـذـ أـمـامـ الـمـحاـوـلـاتـ الـإـلـصـالـحـيـةـ خـشـيـةـ الـمـسـاسـ بـالـمـقـدـسـ، وـالـخـروـجـ عـلـىـ الـثـوابـتـ غـيرـ الـقـابـلـةـ لـلـتـأـوـيلـ. لـقـدـ أـنـجـعـ كـلـ ذـلـكـ أـوـهـامـاـ تـارـيـخـيـةـ الـصـقـتـ بـالـدـيـنـ، تـدـعـيـ كـلـ مـنـهـاـ اـمـتـلـاكـ الـأـحـقـيـةـ الـتـارـيـخـيـةـ وـالـحـقـيـقـةـ الـدـيـنـيـةـ، وـتـرـفـضـ الـتـفـسـيرـاتـ وـالـتـأـوـيـلـاتـ الـأـخـرـيـ؛ بلـ إـنـ بـعـضـ الـغـلـةـ فـيـ كـلـ فـرـقةـ وـمـذـهـبـ يـفـسـقـونـ وـيـكـفـرـونـ مـنـ يـخـرـجـ عـلـىـ مـاـ يـمـكـنـ تـسـمـيـتـهـ بـ«فـقـهـ الـيـقـنـيـاتـ» الـشـائـعـةـ، وـالـتـيـ تـلـامـسـ الـأـسـاطـيـرـ وـالـأـوـهـامـ، وـالـتـيـ لـمـ تـنـفـصـلـ يـوـمـاـ عـنـ «فـقـهـ الـطـغـيـانـ السـلـطـانـيـ» بـكـلـ أـبعـادـهـ الـتـارـيـخـيـةـ وـالـسـيـاسـيـةـ وـالـتـيـ أـفـقـرـتـ «فـقـهـ الـعـقـلـانـيـ» إـلـىـ أـبـعـدـ الـحـدـودـ وـجـعـلـتـهـ أـسـيـرـاـ لـلـنـقـولـ وـالـشـرـوـحـ وـالـمـتـوـنـ وـالـحـوـاشـيـ.

فيـ الـخـلاـصـةـ، كـلـ هـذـاـ صـحـيـحـ، لـكـنـ يـقـىـ الـعـامـلـ السـوـسـيـوـلـوـجـيـ يـتـقـدـمـ عـلـىـ الـعـامـلـ الـإـيـديـوـلـوـجـيـ أوـ عـلـىـ الـأـقـلـ يـتـلـازـمـ معـهـ فـيـ أـيـ مـقـارـبـةـ

---

(1) انظر: الدراسة المهمة لمحمد جمال باروت، الكواكب والنائي: جوانب غير مكتشفة، على الرابط:

[www.daralameer.com/newsdetails.php?id=216&cid=35](http://www.daralameer.com/newsdetails.php?id=216&cid=35).

جادة وموضوعية لمواجهة وحش التطرف والتشدد الطائفي والمذهبي؛ ذلك أن التعامل مع البيئة الحاضنة ومع المدخلات والمسايبات، يتقدم على التعامل مع المخرجات والمحصلات. فالمواجهة فكرية وثقافية، كما هي أيضًا سياسية وتنموية، قبل أن تكون أمنية فقط، وتمثل في ترسیخ قيم الديموقراطية وثقافة التعددية والمساءلة والمحاسبة، وقيم المواطنة ودولة القانون والمؤسسات. أما الدولة السلطانية، فهي الحاضنة والمولدة للفساد والتخلف والتطرف، وجالة لكل أنواع التدخلات الأجنبية.



## **الجلسة الثانية**

### **المؤثرات الإقليمية والدولية وعلاقتها ببروز العنف التكفيري**

– كلمة رئيس الجلسة: التوظيف الدولي والإقليمي للعنف التكفيري  
(الأستاذ بلال حسن الل)

– الجهات الفاعلة الحكومية، والقرارات المعتمدة، والبروز الكارثي  
للتطرف التكفيري (الدكتور محمد مرندى)

– الجماعات التكفيرية والقوى الدولية: الرعاية وتقاطع المصالح  
(الدكتور جورج قرم)

– العنف التكفيري من منظور القانون الدولي  
(الأستاذ الدكتور حازم محمد عتلم)



## كلمة رئيس الجلسة

# التوظيف الدولي والإقليمي للعنف التكفيري

الأستاذ بلال حسن التل<sup>(١)</sup>

إن كل المؤشرات والدلائل تقول إن ما سمي بالحرب على الإرهاب قد فشل حتى الآن بدليل ما شهدناه في السنوات الأخيرة من ازدهار لجماعات العنف التكفيري، وأبرزها داعش وما مثلها من تنظيمات تكفيرية تفتكت في جسد الأمة.

كثيرة هي مسبيات فشل الحرب على التنظيمات الإرهابية التكفيرية، غير أن أبرزها رغبة الكثير من القوى الدولية، والإقليمية، والمحلية في توظيف المنظمات التكفيرية لخدمة أجنداتها. وكثيرة هي الشواهد والأدلة على هذا التوظيف، الذي نعتقد أنه جرى بتواء مع بعض قيادات التنظيمات التكفيرية، بعيداً عن عيون الكثير من الشباب المنخرط في صفوف المنظمات التكفيرية، فالكثير من هؤلاء الشباب مخلص وصادق تم تضليله وتربيته على أفكار منحرفة، وقراءة خاطئة للنصوص، واجتزاء للفتوى من سياقاتها التاريخية والمكانية، في ظل عجز المؤسسات الدينية الرسمية وقصورها عن القيام بدورها في تقديم خطاب مقنع لشباب هذا

---

(١) رئيس المركز الأردني للدراسات والمعلومات.

ملاحظة: لا بد من الالتفات إلى أن الأستاذ بلال التل هو رئيس الجلسة الثانية وهو أيضاً محاضر وقدّم دراسة.

العصر، ومن ثم توجيههم توجيهها سليمًا، وما ذكر هو سبب من أسباب فشل الجهود العالمية في محاربة الإرهاب؛ حيث لم تهتم هذه الجهود بالجانب الفكري للشباب الاهتمام الكافي، تاركة الميدان لقوى التكفير التي وظفته واستفادت منه؛ بل كان تقاطع المصالح بين قوى عالمية أو إقليمية أو محلية مجتمعة أو متفرقة، وبين قوى التكفير ومنظمه السبب البارز في هذا الفشل.

إن أول الشواهد على توظيف التكفير لخدمة أجندة عالمية أو إقليمية أو محلية جاءتنا من أفغانستان أثناء الاحتلال السوفيتي (الشيوعي) لذلك البلد المسلم، وهو الاحتلال الذي أثار حمية الشباب المسلم من مختلف بقاع الأرض، وهي الحمية التي جرى النفع بها، فاندفع أصحابها إلى هناك للمشاركة في تحرير (بلد مسلم) من نيران (الشيوعية الكافرة)، وهو الأمر الذي رأى فيه بعض القوى العالمية والإقليمية فرصة لتصفية حساباتها مع الاتحاد السوفيتي، فأمدّت (المجاهدين) بالمال والسلاح، وسهلت حركة مرورهم، دون أن يكون في حسبانها أنهم في مرحلة لاحقة سينقلبون عليها، وسيكونون وبالاً على من مدّهم بالسلاح والمال، فالشباب الذين ذهبوا لمحاربة الاتحاد السوفيتي، وجاءهم من أصحاب الخلفية السلفية، لا تختلف نظرتهم إلى «الشيوعية الكافرة» التي يمثلها الاتحاد السوفيatic عن نظرتهم التكفيرية إلى الذين أمدّوهم بالمال والسلاح أثناء الحرب الأفغانية.

وهكذا ولدت القاعدة التي أعلنت الجبهة العالمية لجهاد (الصلبيين واليهود)، ومع هذا الإعلان انتهت فترة تقاطع المصالح والتعاون التي فرضتها الحرب ضد الاتحاد السوفيتي، وانتقلت قوى التكفير من محيطها المحدود في أفغانستان إلى المحيط العالمي، فصار العالم كله ميداناً لعملياتها، ومع ذلك فإن القوى التي دعمت المقاتلين ضد الاتحاد السوفيتي لم تتعلم الدرس بعد، فكررته في أكثر من منطقة مثل: سوريا

والعراق ولبيا، وفي كل مرة كانت المنظمات التكفيرية تخرج أشدّ بأساً، وأمضى عزيمة، وأكثر دموية، وهي حقيقة لا بد من الاعتراف بها.

والسبب الآخر لفشل الجهود في محاربة الإرهاب هو توظيف التكفير من قبل بعض القوى العالمية والإقليمية لتحقيق أجنداتها الخاصة، ولتصفية حساباتها الإقليمية، وهنا يبرز أيضًا المثال السوري والعراقي واللبي كنموذج في استخدام المنظمات التكفيرية لتصفية الحسابات الإقليمية، أو لضعف الخصوم، وهو ما يفسّر لنا الجدل الذي مازال دائرة حول من يقف وراء داعش على سبيل المثال، فثمة من يتهم سوريا وإيران بالوقوف وراء داعش ومساندتها، مستدلين بعدم وقوع معارك بين الجانبين، وثمة من يتهم من يقف على الضفة الأخرى من الصراع بدعم داعش مثل: قطر وتركيا التي تسهل حركة المنضمين لداعش، والتي ظلت ترفض إلى أيام قليلة الانضمام للتحالف الدولي لمحاربة داعش. ومهما تكن الجهة التي تقف وراء داعش وتساندها، فإن الحقيقة الواضحة أن ثمة من يستخدمها كسائر المنظمات التكفيرية لتصفية حساباته الإقليمية.

والسبب الثالث في فشل الجهود غير تقاطع المصالح وتصفية الحسابات الخاصة والإقليمية أنّ ثمة من يوظف المنظمات التكفيرية من خلال ما تشنّه من حروب في المنطقة لإعادة رسم خرائطها على قاعدة تقسيم المقسم، وتغيير المفتت، مستخدماً ذريعة محاربة المنظمات التكفيرية لتحقيق هذا الهدف الذي بدأت خرائطه تظهر إلى العلن أكثر من ذي قبل.

وربطةً بهدف إعادة رسم خرائط المنطقة، فإنه يتم توظيف التكفير وتنظيماته لتأجيج الصراعات المذهبية والطائفية، التي صارت من محركات المعارك التي يشعلها التكفيريون في سوريا والعراق؛ بل لعل سبباً رئيساً من أسباب بروز المنظمات التكفيرية، واستبداد شوكتها أنها (وخاصة

داعش) جاءت كردة فعل على ممارسات مذهبية تذرّع بها التكفيريون لتبصير ممارساتهم، كما جرى في العراق حيث تذرّع البعض بسياسات نوري المالكي، وهكذا جرى إغراق المنطقة بحروب طائفية ومذهبية، تصب في نهاية المطاف في خانة إعادة رسم خرائط المنطقة لمصلحة إسرائيل ورعاها، الذين يدعمون التكفير تارة، ويغضبون الطرف عمن يدعمهم تارة أخرى، كل ذلك في إطار التوظيف للتطرف.

وفي الطريق إلى تحقيق هدف إعادة رسم خرائط المنطقة، جرى توظيف التكفير وتنظيماته لزعزعة وإضعاف الدولة الوطنية الحديثة، علماً بأن ثمة علاقة عضوية بين ضعف الدولة وبروز التكفير واشتداد عوده، فمن الملاحظ تاريخياً أن عود التكفير لا يشتند، وأن نابه لا يبرز إلا في ظل ضعف الدولة أو غيابها، والأمثلة على ذلك كثيرة وواضحة في هذا العصر ابتداءً من أفغانستان، مروراً بالعراق، فسوريا وصولاً إلى ليبيا، وهي حقيقة تعيناها قيادات المنظمات التكفيرية؛ بل وينظر لها مفكروها، فتسعي إلى إضعاف الدولة الوطنية... وهي بذلك تقدم خدمة كبيرة لأصحاب مخططات إعادة رسم خرائط المنطقة لمزيد من تقسيمها وإضعافها.

كثيرة هي النتائج التي يقود إليها ضعف الدولة الوطنية، أولها بروز الهويات الفرعية، المذهبية، والطائفية، والعرقية، على حساب الهوية الجامعية بدوائرها الثلاث (الوطنية والقومية والإسلامية)، وهنا يبرز هدف آخر من أهداف توظيف التكفير، يتمثل بتشويه صورة الإسلام، وهو بالضبط ما يتحقق نجاحات كبرى بفعل ممارسات التكفيريين، سواء من خلال سوء تعاملهم مع غير المسلمين، أو من خلال جرائم الذبح التي يرتكبونها، أو عمليات التفجير التي ينفذونها، وصولاً إلى حرق الأحياء، وغيرها من الصور التي تشكّل مادة رئيسة للإعلام المعادي للإسلام والمسلمين، والذي تقدم له ممارسات التكفيريين خدمة مجانية في تشويه صورة الإسلام والمسلمين، إلى الدرجة التي صار فيها كل مسلم متّهماً، وصار جلّ جهد

ال المسلمين من صرفاً للدفاع عن الإسلام والمسلمين، وفي ذلك إشغال لهم عن الكثير من القضايا الجوهرية التي يجب أن تصرف إليها جهودهم، خاصة على صعيد إحداث التنمية الحقيقية في مجتمعاتهم، فبدلاً من أن يشغل المسلمون بالتنمية، ينشغلون في الدفاع عن صورتهم، مما يشكل مزيداً من إضاعة الجهد والمال، وبدلًا من أن تنفق أموالهم على البناء والتعويض، تنفق على شراء السلاح، وهذا سبب آخر من أسباب توظيف التكفير، فبعض الجهات الداعمة والمساندة للتطرف تستفيد مررتين من هذا الدعم، مرة عندما تبيع السلاح للمتطرفين، ومرة ثانية عندما تأتي شركاتهم لبناء ما تدمّره الحروب الفرعية في المنطقة، كما هي الحال في أفغانستان وسوريا والعراق ولibia.

وعند الحروب الفرعية نحب أن نتوقف لنشير إلى سبب إضافي من أسباب توظيف التنظيمات التكفيرية، وهو صرف بوصلة عداء الأمة عن أعدائها الحقيقيين الذين يحتلون أرضها، ويسلبون إرادتها، إلى عداء داخلي يستنزف جهود شبابها في الميدان الخطأ، وتهدّر ثرواتها في المجال الخطأ، بل أكثر من ذلك هو توظيف التطرف لخدمة إسرائيل، وهو التوظيف الذي يشكل خطراً على أمتنا ويبلغ ذروته في الخدمات المجانية التي يقدمها التكفيريون لإسرائيل، ربما دون علم غالبيتهم بما يفعلون، فالتكفيريون مصافاً إلى إغراقهم الأمة في حروب داخلية تستنزف ثرواتها وقدراتها المادية والبشرية فإنهم يفرّقون صف الأمة ويسعون قدراتها على المواجهة، فهم يحرّفون بوصلة العداء إلى داخل صفوتها، بدعاوى تقديم محاربة «العدو القريب» على محاربة «العدو البعيد» وهذه خدمة كبرى لإسرائيل التي اشغلت الأمة عنها بحروبها الداخلية، بينما انصرفت إسرائيل لتحقيق أهدافها، وفي طليعتها هدم المسجد الأقصى، وإقامة هيكل سليمان مكانه، وهنا أيضاً يقدم التكفيريون خدمة كبرى لإسرائيل، فقد أقدم هؤلاء على نبش قبور أنبياء الله، مثل قبرنبي الله «يونس»، وقبـرـنبي الله «شـيت»،

كما أقدموا على نبش قبور الأولياء والصالحين والعلماء والفقهاء، مثل الإمام النووي وغيره، وتجاوزوا ذلك كله إلى هدم المساجد ذات الرمزية التاريخية، مما يعطي لإسرائيل التبرير لكل جرائمها بحق المقدسات، وفي طليعتها المسجد الأقصى وغيره من رموز وجود أمتنا وحضارتنا في فلسطين. فما دام المسلمون يهدمون مساجدهم وقبور أئمتهم، ويهدمون معالم حضارتهم فلماذا يلومون إسرائيل إن هي فعلت ذلك؟

ومثلما يعطي التكفيريون في إقدامهم على هدم قبور الأنبياء وهم المساجد، تبريراً لإسرائيل لهدم معالم الوجود الإسلامي والحضاري في فلسطين، فإنهم قد قدّموا لها أيضاً تبريراً لإزالة كل المعالم الحضارية في فلسطين المحتلة، ولها في ما فعلته داعش من خلال تدمير مقتنيات متحف نينوى، وغيرها من المعالم الحضارية في سوريا والعراق عذر وتبرير أمام المجتمع الدولي. وهم في هذا الفعل يساهمون في طمس ذاكرة الأمة والوثائق المادية الملحوظة على تاريخها، مما يسهل مهمة إسرائيل في طمس حقائق تاريخ المنطقة، تمريراً لمقولاتها في أحقيتها وأسبقيتها في امتلاك أرض فلسطين.

غير الخدمة التي يقدمها التكفيريون لإسرائيل عندما يقدمون لها نموذجاً وتبريراً سابقة في هدم المساجد، والاعتداء على الرموز الدينية، فإنهم يقدمون لها قبل ذلك وأكثر منه تبريراً لسائر تصرفاتها الأخرى، فعندما يقدم التكفيريون على تعذيب المدنيين وذبحهم، في مذابح جماعية، تذكّرنا بمذابح دير ياسين، وقانا، وبحر البقر وغيرها، فإنهم يقدمون غطاءً لكل جرائم إسرائيل، ومقاييساً تقيس عليه في تعاملها اليومي الفظ والمجرم مع أهلنا في الأراضي العربية المحتلة.

ومثل الخدمة والتبرير اللذين يقدمهما التكفيريون لإسرائيل في تعاملها الإجرامي مع أهلنا في الأراضي المحتلة فإنهم يقدمون لها خدمة

أكبر عندما يقدمون على تهجير السكان الأصليين من مناطقهم، كما فعلوا في الموصل وجبل سنجار وغيرهما من المناطق التي احتلها التكفيريون، فهم في فعلتهم هذه يبررون لإسرائيل إقدامها على تهجير أهلنا في الأرضي العربية المحتلة، ويعطونها ذريعة للاستمرار في سياسة تفريغ فلسطين من أهلها.

وастمراً للخدمة التي يقدمها التكفيريون لـ إسرائيل، من خلال تهجيرهم السكان الأصليين، فإنهم في تعاملهم المنافي للإسلام مع غير المسلمين بتهجيرهم من أرضهم، أو إجبارهم على الدخول في الإسلام، يبررون لـ إسرائيل مخططها لإقامة الدولة اليهودية الخالية من غير اليهود، وهو تميز عنصري يجعل إصرار اليمين الإسرائيلي على يهودية الدولة مبرراً، ويضعف حجج أمتنا في رفض هذه الممارسة ضد أهلنا في فلسطين، ومساعي إسرائيل لتهجيرهم من أرضهم تحقيقاً لمبدأ يهودية الدولة، وهي ممارسة عنصرية يرفضها الإسلام، مثلما يرفض إجبار الناس على الدخول فيه بالإكراه، وبذلك يسيء التكفيريون لأمتنا ولديننا عندما يمارسون باسمه عنصرية تبرر عنصرية إسرائيل وسعيها لإقامة الدولة اليهودية.

وعوداً على ذكر المجتمع الدولي، فإن من الخدمات الكبرى التي يقدمها التكفيريون لـ إسرائيل ضربهم عرض الحائط بكل القوانين والمواثيق الدولية، التي تستخدمها أمتنا في مواجهة الممارسات الإسرائيلية بحق أبناء الأرض المحتلة، ابتداءً من سوء معاملة الأسرى والمعتقلين في سجون إسرائيل، بعد أن صار التكفيريون يذبحون الأسرى ويحرقونهم أحياء، وانتهاءً بالاحتلال بالقوة العسكرية الغاشمة، مروراً بتهجير السكان الأصليين. ففي ذلك كله لم تعد إسرائيل منفردة، ولم تعد وحدها من يضرب بالقوانين والمواثيق الدولية عرض الحائط، وصار بين يديها تبرير للتنكيل بالأسرى والمعتقلين العرب لديها. وهكذا فإن التكفيريين لم يتزدروا عن ضرب تعاليم الإسلام بعرض الحائط، خاصة في آداب التعامل

مع الأسرى، تماماً مثلما لم يرتدعوا عن إدارة الظهر للمواثيق الدولية، مقدمين خدمة جليلة لإسرائيل ولمن خلفها ولرعايتها وعلى رأسهم الحركة الصهيونية.

كثيرة هي الخدمات التي يقدمها التكفيريون لإسرائيل، والتي يمكنها أن توظّفها لخدمة أهدافها، غير أن من أكثرها وضوحاً هي تبرير وإباحة التعامل مع إسرائيل، بعد أن قبل التكفيريون العلاج في المستشفيات الإسرائيليّة، وبعد أن قبّلوا الأسلحة الإسرائيليّة مما يشكّل غطاءً لكل العملاء بحيث يمكن توظيفه إسرائيلياً لتجنيد المزيد من العملاء. أليس ذلك كله خدمة لإسرائيل وتوظيفاً للتكفيريين ضدّ أمتهما من أعدائهم؟

على أن أهم وأعظم سبب من أدوات توظيف التكفير هو قطع الطريق على أي مشروع للإصلاح الحقيقي في المنطقة على المستويين الوطني والقومي. ولنا في أكذوبة الريع العربي خير برهان. فقد صارت بعض الأنظمة المستبدة تخوّف الحركات المطالبة بالإصلاح في بلدانها من مصير يشبه ما جرى في سوريا وليبيا من قتل وتدمير وتشريد، أي أن هذه الأنظمة المستبدة صارت تخوّف شعوبها من البديل الأسوأ الذي تنتظره على يد التكفيريين، وهكذا جرى ويجري توظيف التكفير لترسيخ الاستبداد وقطع الطريق على أي مساعي للإصلاح. وفي سبيل ذلك لم يتوقف الأمر عند توظيف التكفير، بل جرى توفير الحواضن لتنظيماته مما لا يتسع الوقت لل الحديث.

# **الجهات الفاعلة الحكومية، والقرارات المعتمدة، والبروز الكارثي للتطرف التكفيري<sup>(1)</sup>**

الدكتور محمد مرندي<sup>(2)</sup>

تشهد معظم دول غرب آسيا وشمال إفريقيا، منذ اندلاع الانتفاضات في تونس ومصر، اضطراباً عاماً وتغييرات جذرية في المواقف. ففي هذا الزمن المتسارعة أحدها، غالباً ما تتلازم النشوء مع اليأس. فسرعان ما تنسى أحداث البارحة المجلجلة بسبب أحداث أخرى أعنف منها وقعت اليوم. لم يعد ظواهر الابتهاج والتلهيل التي شهدتها شوارع القاهرة وتونس مع بداية «الربيع العربي» أي ذكرى، ربما بسبب قلة أهميتها مقارنةً بما هزّ المنطقة لاحقاً من اضطراباتٍ أو بسبب مرارة ما تخلّفه هذه الانتفاضات المشؤومة. لا شكّ في أن الأحداث التي انطلقت في كانون الأول 2010، كانت في غاية الأهمية، إلا أن ضخامة الخضّات اللاحقة في أنحاء المنطقة جعلت من السهل نسيان الشرارات الأولى التي أشعلت المنطقة.

يتضح أكثر فأكثر، بعد مضي أربع سنوات على انطلاق أولى

---

(1) ملاحظة: قدم الدكتور ميرندي دراسته هذه باللغة الإنكليزية بعنوان: «State Actors, Willful Decisions, and the Catastrophic Rise of Takfiri Extremism»،

وترجمتها رشا طاهر إلى اللغة العربية بطلب من مركز الحضارة لتنمية الفكر الإسلامي.

(2) أستاذ مساعد في جامعة طهران، باحث في الشؤون الاستراتيجية، من إيران.

التحرّكات الشعّبية المطالبة بمزيد من الحوكمة التمثيلية في العالم العربي، بأن المطالبات المجتمعية لإحداث تغيير سياسي قد صودرت، وشوهت، وأحبّطت من قبل القوى الغربية والأنظمة العربية غير التمثيلية المتحالفة معها. بالنتيجة، أُسْفَرَ هذا التحالف الغربي العربي السافر عن جولة أخرى مما يسمى «العنف الجهادي» في معظم دول المنطقة، إنما هذه المرة بمنعطفات خبيثة على نحو استثنائي وخاطئ على الصعد الاستراتيجية.

## كتب الربع العربي

لم يكن خافياً منذ البداية بأن الربع العربي سيواجه مخاطر جوهرية وعواقب كبيرة؛ نظراً إلى اعتراض أبرز القوى الأوروبية والأنظمة العربية الاستبدادية الغنية بالنفط في منطقة الخليج الفارسي عليه. في المقابل، أبدت الحكومة الأميركيّة، وشركاؤها الأوروبيون، دعماً شديداً للنظمتين الدكتاتوريتين في تونس ومصر. فقد صرّح نائب الرئيس الأميركي جو بايدن، في أوج الاحتجاجات في القاهرة، بأن حسني مبارك ليس دكتاتورياً وبضرورة عدم تحييده<sup>(1)</sup>، بينما وصف رئيس الوزراء البريطاني السابق، توني بلير، الزعيم المصري بـ«الشجاعة القصوى والقوة الأبدية»<sup>(2)</sup>، إلا أنه تعرض لاحقاً لانتقادات شديدة لتمضيته عطلة بازخة مع العائلة في شرم الشيخ على نفقة المُصرّين الفقراء.

كذلك أمضت وزيرة الخارجية الفرنسية السابقة، ميشال أليوت ماري، عطلة عيد الميلاد في تونس مع أسرتها، وراحت تستمتع بركرّب الطائرات النفاثة مجاناً بينما كان الناس يقتلون في الشوارع. هذا، وقد عرضت على

---

(1) <http://www.csmonitor.com/World/Backchannels/2011/0127/Joe-Biden-says-Egypt-s-Mubarak-no-dictator-he-shouldn-t-step-down>

(2) <http://www.theguardian.com/world/2011/feb/02/tony-blair-mubarak-courageous-force-for-good-egypt>

الحكومة التونسية تقديم قوّات أمنية لدعم النظام الآيل إلى الانهيار<sup>(1)</sup>. وفي وقت سابق، أثني بان كي مون، الأمين العام للأمم المتحدة، على التقدم الذي أحرزه الدكتاتور التونسي، زين العابدين بن علي، في زيادة الفرص للشباب التونسي<sup>(2)</sup>.

اتضح كذلك مدى التمسك بالوضع الراهن من خلال الدعم الغربي للنظمتين اليمني والبحريني، بالتزامن مع التأييد الغربي الضمني للتدخل العسكري لكل من السعودية والإمارات العربية المتحدة في البحرين والحصار الإسرائيلي-الصهيوني المفروض منذ زمن طويل على السّكان في غرّة<sup>(3)</sup>.

في السياق نفسه، تبيّن، بعد الإبادة الجماعية للمتظاهرين اليمنيين المناهضين للنظام في صنعاء<sup>(4)</sup>، وبينما كان يطالب الرئيس اليمني، علي عبد الله صالح، تحت ضغط شعبي عارم بالتنحي، بأن السعودية، وحلفاءها في الخليج الفارسي، والقوى الغربية جمعوها مصرّة على إبقاء النظام. فقد أراد السعوديون إضعاف اليمن مع الحفاظ على استقراره، وذلك نظراً إلى موقعه الجغرافي المهم، والتهديد الجسيم الذي يشكّله الاستياء الشعبي على النظام السعودي، والاحتمال المقلق بقيام نظام سياسي جديد ومستقل على حدودهم الجنوبيّة؛ لذلك فإن انتقال مقاليد السلطة الرئاسية عبر انتخاب

---

(1) <http://www.washingtonpost.com/wp-dyn/content/article/2011/02/27/AR2011022702972.html>

(2) <http://www.ft.com/cms/s/0/68bef0c2-232a-11e0-b6a3-00144feab49a.html#axzz3Aw2WuMaR>

(3) [http://www.nytimes.com/2012/12/26/opinion/bahrain-a-brutal-ally.html?ref=opinion&\\_r=0](http://www.nytimes.com/2012/12/26/opinion/bahrain-a-brutal-ally.html?ref=opinion&_r=0) and <http://www.raceforiran.com/american-misreading-of-iran-and-the-changing-reality-of-the-middle-east>

(4) <http://www.aljazeera.com/news/middleeast/2011/03/20113198335486248.html>

مرشح أوحد لينوب عن الرئيس صالح، عبد ربه منصور هادي، قد تمّ بدعم من القوى الغربية والأنظمة الملكية العربية الغنية بالنفط<sup>(1)</sup>.

لقد دعمت الولايات المتحدة وحلفاؤها في أوكرانيا، وسهّلت عملية الإطاحة برئيس منتخب ديمقراطياً، وأقررت على الفور بشرعية النظام الذي خلفه، واعتبرت هادي الرئيس الشرعي على الرغم من كونه المرشح الأوحد في الانتخابات الرئاسية للعام 2012، وعلى الرغم من انتهاء ولايته كرئيس انتقالي بعد ستين، هذا مضافاً إلى قلة الدعم الشعبي له، فضلاً عن تقديم استقالته في كانون الثاني، وعن فراره من عاصمته ولاده. وعندهما طلب هادي من القوى الأجنبية قصف البنية التحتية الضعيفة والجيش في بلاده، سارعت هذه الأخيرة فوراً إلى تنفيذ ذلك.

لم يمضِ وقت طويٍ حتى ظهرت الخلافات بين القوى الإقليمية المؤيدة للغرب، بحيث شكت المملكة السعودية (والنظام الإسرائيلي)، بشدة قلة دعم الولايات المتحدة لمبارك وبين علي، في وقت لم يكن فيه السعوديون راضين عن الدعمين القطري والتركي المفتوحين للإخوان المسلمين، الذي لم ينتج عنه مواجهة جوهرية أو مفتوحة إلا عندما أطاح بالرئيس مرسي في مصر بدعم من الإمارات العربية المتحدة<sup>(2)</sup>.

لقد كان الزخم الأولي للإخوان المسلمين ببساطة أكبر من أن يقاومه آل سعود صراحةً، لأن دعم العائلة الحاكمة القطرية الكبير لجماعة الإخوان، من خلال التمويل ودعم الوسائل الإعلامية النافذة لها، هو الأمر الذي أطّال المزاجمة بين آل ثاني والعائلة الملكية السعودية، وهذا ما أدى إلى تعميق الشعور بالارتباك والقلق في الرياض.

---

(1) <http://www.economist.com/node/21548292>

(2) [https://mail.ut.ac.ir/rcm/?\\_task=mail&\\_action=show&\\_uid=49740&\\_mbox=INBOX&\\_caps=pdf%3D1%2Cflash%3D1%2Ctif%3D0](https://mail.ut.ac.ir/rcm/?_task=mail&_action=show&_uid=49740&_mbox=INBOX&_caps=pdf%3D1%2Cflash%3D1%2Ctif%3D0)

مع ذلك، وعلى الرغم من هذه الخلافات، ولغاية استلام الجيش زمام السلطة في مصر، أنشأت الأنظمة التي تقودها عائلات حاكمة في المنطقة جبهة موحدة، بحيث اعتمدت سياسات مشابهة في كثير من الميادين على الرغم من خلافاتها وراء الكواليس؛ الأمر الذي قد يغير مصير المنطقة إلى حد كبير، ويرخي بظلاله على العالم بأسره.

على الرغم من أن التحالف الغربي-العربي، باستثناء قطر، كان إلى حدّ كبير عازمًا على الحفاظ على الوضع الحالي، واحتواء الأحداث في مصر وتونس، إلا أنه كان يسعى إلى إحداث تغيير في بلدان كانا يشكلان مشكلة أمام مساعي الهيمنة الغربية وتوازن القوى الإقليمي، وهما ليبيا والجمهورية العربية السورية بوجه خاص. فتغير النظام في ليبيا وسوريا لن يساعد فحسب على احتواء الريع العربي الذي كانت ترى فيه الولايات المتحدة الأمريكية والمملكة العربية السعودية تهديداً كبيراً لمصالحهما، إنما سيسمح أيضاً لتحالف الدول هذا بقيادة الأحداث مجدداً من خلال الثورة المضادة. فكان من ضمن أهداف هذا التحالف إضعاف جبهة المقاومة، من خلال غزو سوريا، والسيطرة على المزيد من الموارد النفطية، ولا سيما في ليبيا، وتعزيز سطوة إسرائيل والأنظمة الملكية العربية الغنية بالنفط.

## وحش طليق

لقد سمحت الثورة المضادة الغربية العربية، بعيداً عن الجيوسياسية المنكفة، على نطاق واسع بتمدد العقيدة الوهابية المتطرفة، وكذلك المقاتلين المدفوعين بتلك العقيدة، ولا سيما في ليبيا وسوريا. فضلاً عن ذلك، وبغض النظر عن شرعية الانقلاب في مصر الذي وقع في تموز 2013 أو عدمها، لم ينجح الإخوان المسلمين على مر التاريخ في بناء نموذج

للسياحة التشاركية قادر على تلبية الحاجات العامة وفقاً للقيم الأصلية؛ لا بل ساهموا في نشوء نموذج حوكمة تكفيري.

في بداية الاضطرابات في ليبيا، تم تشكيل المجلس الانتقالي الوطني المعين ذاتياً، والاعتراف به سريعاً من قبل التحالف الغربي - العربي باعتباره الممثل الشرعي الوحيد للشعب الليبي. أثيرت أسئلة خطيرة كثيرة حول الطبيعة الديمقراطية للمجلس، لكن في الواقع كان قادته على ارتباط سابق بنظام القذافي، وكان المجلس ممولاً من أنظمة معادية أصلاً لمفهوم السياسة التشاركية مثل قطر؛ ما عزّز الشكوك بشأن طبيعة الثورة. وما أجمع هذه الشكوك أكثر المشاركة المفتوحة لشخصيات مثل: عبد الحكيم بلحاج، أمير الجماعة الإسلامية الليبية المقاتلة، والعضو في تنظيم القاعدة سابقاً.

وكما سائر أعضاء المجلس الانتقالي الوطني الليبي، أطري هو أيضاً في إحدى المراحل على سيف الإسلام، نجل القذافي<sup>(1)</sup>. كان عبد الحكيم بلحاج، كما حال الكثير من المجاهدين الليبيين، متأثراً بالعقيدة الوهابية، وقد صنفت وزارة الخارجية الأمريكية الجماعات كافة التي تتبعه بالإرهابية. وبصرف النظر عن اعتقاله وتعذيبه على يد نظام القذافي؛ وذلك من خلال التعاون بين الحكومتين البريطانية والليبية، كان سيستخدم المجاهدين بالتعاون مع آخرين ممن يشاركونه العقيدة ذاتها كعناصر أساسية في مساعي التحالف الغربي العربي؛ للاستحواذ على العاصمة الليبية، طرابلس.

الغريب في الأمر أن بلحاج «المقوم» المنتسب إلى القاعدة بدأ يجتمع مع المسؤولين الغربيين تحت رعاية قطرية. على الرغم من أن ليبيا شكلت

---

(1) <http://www.theguardian.com/world/2011/sep/05/libyan-islamic-fighting-group-leaders>

أرضاً خصبة رئيسة للتكفيريين<sup>(1)</sup>، إلا أن الأوساط السياسية والاستخباراتية الغربية استتاجت بأن الاستعانة بقدرات «جهاديين»، كما في أفغانستان، قد تساعد في تقديم المصالح الجيوسياسية الغربية، في وقت كانت حالة من الغموض تلفّ المنطقة برمتها. لقد ثبت مدى كارثية تداعيات هذا التغيير في المواقف الأمريكية والغربية تجاه المنظمات الإرهابية التابعة للقاعدة والإرهابيين المعروفين من حيث انتشار الجهاد التكفيري في المنطقة، وفي أنحاء العالم.

هذا، وقد ساهم التأييد الغربي-العربي لتعiger النظام في سوريا أكثر فأكثر في تأصل التطرف التكفيري العنيف وانتشاره، ناهيك عن دخول الصهاينة على الخط. لقد أيد النظام الإسرائيلي سقوط الحكومة بسبب الشراكة الاستراتيجية بين سوريا والجمهورية الإسلامية الإيرانية، ودور الأولى الجوهرى في دعم جبهة المقاومة<sup>(2)</sup>. في المقابل، ثبت بالأدلة القاطعة، وعلى الرغم من مزاعم الوهابيين التكفيريين المدافعين المتواصلة التي تشير إلى العكس، حجم الدعم الذي يقدمه النظام الإسرائيلي لجبهة النصرة، أحد فروع القاعدة في سوريا، على طول حدودها مع سوريا.

لا شك في أن الوهابية الجهادية وجدت أرضاً خصبة لنموّها؛ ذلك أن المملكة العربية السعودية وغيرها من الأنظمة الغنية بالنفط والمتأثرة بالفكر الوهابي في المنطقة كانت، وعلى مدى عقود، تبث أفكار أشخاص مثل محمد بن عبد الوهاب وأراءهم في أنحاء العالم. فمنذ الارتفاع الدراماتيكي لسعر النفط في سبعينيات القرن العشرين، وبعد الثورة الإسلامية في إيران بوجه خاص، راح السعوديون ينفقون مليارات الدولارات في العام للترويج

---

(1) <http://www.foreignaffairs.com/articles/68302/david-roberts/behind-qatars-intervention-in-libya>

(2) <http://www.reuters.com/article/2013/09/17/us-syria-crisis-israel-idUSSBRE9G0DR20130917>

للحقيقة الوهابية وتصديرها، وذلك إلى حد كبير، إنما ليس بصورة دائمة، كمدرسة فكر غير سياسية إنما مليئة بالكراهية. لذلك، سرعان ما تحولت الوهابية، في عقود قليلة فقط، من عقيدة غير معروفة نسبياً متจำกدة في وسط السعودية، إلى قوة نافذة ترخي بظلالها القاتمة على بقاع كثيرة من العالم<sup>(١)</sup>.

يعتبر مفهوم التكفير إلى حد كبير من المعتقدات الجوهرية لدى ابن عبد الوهاب الذي يتبنى وجهة نظر عالمية مفادها أن كل من يخالف العقيدة كافر لا يستحق الحياة؛ لا بل يبيع أخذ زوجات هؤلاء وبناتهم كغنائم حرب، ومصادر أموالهم. لقد كانت العلاقة على مر التاريخ بين العائلة الحاكمة وأتباع الوهابية في السعودية معقدة؛ إذ إن النظام كان غالباً في نظر العلماء والمنظمات الوهابية الجهادية منحرفاً عن الإسلام، وبالتالي لا يتمتع بالشرعية الدينية؛ لا بل جرت أحياناً محاولات عنيفة لإعادة إحياء ما كان يسمى بالوهابية الفعلية في البلاد<sup>(٢)</sup>.

لقد أنتجت ثقافة الكراهية هذه التي ظلت بمعظمها بعيدة عن السياسة، والتي تم الترويج لها، وتصديرها طوال عقود من الزمن بكميات كبيرة من الوقود سريع الاشتعال، والذي انفجر عندما اخترط بالدعم الذي قدمته قطر، وتركيا، والغرب للجهاديين المتطرفين في ليبيا.

إن الذي كان له الأثر التدميري الأكبر هو التورط الإضافي والعميق للنظمتين السعودية والإماراتي في سوريا، بينما غضّت الحكومة الكويتية من جهتها البصر عن الهبات الخاصة التي حصل عليها المتطرفون التكفيريون من أفراد ومنظمات وهابية ثرية. كان للسعودية توجه مغاير عن قطر في دعمها للجماعات التكفيرية في سوريا والعراق، فيما ركزت قطر

---

(1) [http://www.huffingtonpost.com/alastair-crooke/isis-wahhabism-saudi-arabia\\_b\\_5717157.html](http://www.huffingtonpost.com/alastair-crooke/isis-wahhabism-saudi-arabia_b_5717157.html)

(2) <http://english.al-akhbar.com/content/why-isis-threat-saudi-arabia-wahhabism%E2%80%99s-deferred-promise>

اهتمامها على الإخوان المسلمين، مع العلم بأن الفرع السوري من الجماعة أكثر تطرفاً، محور تركيز السعوديين على الجماعات السلفية المتغيرة بسبب قلة ثقة المملكة العميقة بالإخوان، وهو أمر لم يتعلمه هؤلاء. ونتيجة لهذه الاختلافات، عم الدمار أرجاء المنطقة، فتغير وجه ذلك الجزء من العالم بشكل لم يكن يتخيله من قبل.

لا شك في أن الولايات المتحدة أدت دوراً جوهرياً في بروز داعش، وجبهة النصرة، وجندي الإسلام، وغيرها من الجماعات المتطرفة في محاولة مجردة من الأخلاق والمبادئ؛ لتعزيز ميزان القوى لصالحها. لقد أفادت صحيفة «نيويورك تايمز» في مطلع العام 2013 عن ضلوع وكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية الكبير منذ بدء العام 2012 في تأمين أسلحة للقوات المناهضة للأسد، ونقل الأسلحة جواً إلى المطارين الأردني والتركي، وتجنيد قادة لحركات التمرد، وذلك من أجل مساعدة حلفاء الولايات المتحدة على «دعم الجانب الفتاك للحرب الأهلية»<sup>(1)</sup>، وهي معلومات لم تكن خافية على كثيرين في المنطقة. هذا ولفت تقارير أخرى إلى أن حلفاء الولايات المتحدة هم من مولوا هذه الشحنات بطلب من إدارة أوبياما<sup>(2)</sup>.

في المقابل، عندما أخبر نائب الرئيس الأميركي جو بايدن جمهوراً من الجامعيين الأميركيين في تشرين الأول عن مسؤولية كل من تركيا، والإمارات العربية المتحدة، وال سعودية في تسليح جبهة النصرة، وداعش، وغيرهما من المتطرفين المتأصلين في تنظيم القاعدة في سوريا، وعن

---

(1) [http://www.nytimes.com/2013/03/25/world/middleeast/arms-airlift-to-syrian-rebels-expands-with-cia-aid.html?nl=todaysheadlines&emc=edit\\_th\\_20130325&\\_r=2](http://www.nytimes.com/2013/03/25/world/middleeast/arms-airlift-to-syrian-rebels-expands-with-cia-aid.html?nl=todaysheadlines&emc=edit_th_20130325&_r=2)

(2) <http://www.telegraph.co.uk/news/worldnews/middleeast/syria/9918785-US-and-Europe-in-major-airlift-of-arms-to-Syrian-rebels-through-Zagreb.html>

عدم وجود «وسط معتدل» في البلاد، لم تكن توجد تغطية لهذا الاعتراف المفاجئ في وسائل الإعلام الأمريكية الرئيسة. لقد أصحاب بайдن في بيانه حول دور حلفاء الولايات المتحدة، إلا أنه تقصد التضليل في تجاهل الدور الأميركي في دعم هذه الجماعات<sup>(١)</sup>.

من جهتها، عندما نشرت منظمة Judicial Watch مستندًا سرّياً لوكالة الاستخبارات الدفاعية في العام 2012، وتم رفع السرية عن جزء منه، انكشفت سياسة الولايات المتحدة الحقيقية في سوريا. فقد أوضح هذا المستند أن الولايات المتحدة كانت على علم بأن التمرّد كان يقوده «السلفيون، والإخوان المسلمين، والقاعدة في العراق». كذلك كانت على دراية بأن الدول الغربية، وتركيا، والأنظمة العربية الغنية بالنفط تؤيد المعارضة وتدعم الجهود الرامية إلى الاستيلاء على مناطق قرب الحدود العراقية، على الرغم من أن ذلك قد يهيئ «مناخًا مثالياً لعودة القاعدة في العراق إلى معاقلها القديمة في الموصل والرمادي»، بغية عزل الحكومة السورية عن إيران والعراق<sup>(٢)</sup>.

يشير المستند أيضًا إلى إقرار القوى الداعمة للجماعات المتطرفة بأن «تفاقم الصراع في سوريا سيعزز الطائفية والأصولية؛ ما سيزيد احتمال قيام دولة إسلامية على الحدود السورية العراقية، تحكم بها الدولة الإسلامية في العراق»<sup>(٣)</sup>. على الرغم من هذه المعلومات، أكدّ مسؤولون أمريكيون بارزون ووسائل إعلام غربية مرارًا وتكرارًا أن الحكومات الأوروبية هي

---

(1) <http://mideastshuffle.com/2014/10/04/biden-turks-saudis-uae-funded-and-armed-al-nusra-and-al-qaeda/>

(2) <http://www.judicialwatch.org/document-archive/pgs-287-293-291-jw-v-dod-and-state-14-812-2/>

(3) <http://www.rt.com/op-edge/262393-isis-us-coalition-syria-iraq/>

من أوجدت داعش، وأن معظم الجهاديين معتدون، على الرغم من اعتراف نائب الرئيس الأميركي بعدم وجود معتدلين<sup>(1)</sup>.

أما الأكثر استثنائية فهي التصريحات التي أدلى بها مايكل ت. فلين، مدير وكالة الاستخبارات الدفاعية لغاية آب 2014. لم يقر فلين فحسب بأهمية المستند الصادر عن الوكالة وبأن «المعلومات الاستخباراتية كانت واضحة جدًا»، إنما واصل القول إنه تم اتخاذ «قرار متعمد» لدعم التمرد من قبل السلفيين، والقاعدة، والإخوان المسلمين<sup>(2)</sup>.

إن المزاعم الأميركية والغربية التي تتهم الحكومة السورية باستعمال أسلحة كيماوية ضد شعبها، وعلى الرغم من الأدلة المهمة التي تشير إلى خلاف ذلك<sup>(3)</sup>، تتخذ معنىً جديداً عندأخذ السبب الفعلي وراء نشوء المنظمات المتطرفة في الاعتبار. لقد ثبت الآن أن وكالات الاستخبارات الغربية كانت على علم «منذ ربيع العام 2013، بأن بعض الوحدات المتمردة في سوريا تطور أسلحة كيمائية»<sup>(4)</sup>.

لا شك في أن استخدام الأسلحة الكيماوية كان مباًحا بالنسبة إلى القوى الغربية ووسائل الإعلام، عندما شنَّ الرئيس العراقي صدام حسين هجوماً على إيران بالأسلحة الكيمائية<sup>(5)</sup>.

ليست تلك المرة الأولى التي تخطئ فيها مساعي تحالف بقيادة

---

(1) <http://www.rt.com/op-edge/262393-isis-us-coalition-syria-iraq/>

(2) <http://www.foreignpolicyjournal.com/2015/08/07/rise-of-islamic-state-was-a-willful-decision-former-dia-chief-michael-flynn/>

(3) <http://www.mclatchydc.com/news/nation-world/world/middle-east/article24761710.html>

(4) <http://www.lrb.co.uk/v36/n08/seymour-m-hersh/the-red-line-and-the-red-line>

(5) <http://www.aljazeera.com/indepth/opinion/2014/04/antagonising-iran-strategic-mis-201442161724450258.html>

الولايات المتحدة الأمريكية لدعم قتلة متطرفين، فالطرف المدعوم من الغرب ليس مفهوماً جديداً أو مقتصرًا على منطقة. سواءً كان الأمر متعلقاً بمتمرّدي الكونترا في نيكاراغوا أو مجموعات شبيهة بالقاعدة في أفغانستان، لطالما كان الهدف تحقيق أهداف استراتيجية من خلال التسبب بمعاناة جماعية؛ ذلك أن الغاية المثالية في «العالم الحر والمتحضر» للولايات المتحدة وحلفائها، غالباً ما يبرر الوسائل الشيطانية.

في هذا الإطار، تعاونت الولايات المتحدة وحلفاؤها في منظمة حلف شمال الأطلسي بدءاً من العام 1979 ولغاية الثمانينيات ضمناً، مع الحكومتين السعودية والباكستانية للترويج للمجاهدين «المقاتلين من أجل الحرية»، وتدريلهم وتسليحهم، أو لا لتحريض الاتحاد السوفيتي على اجتياح أفغانستان، ومن ثم قتال الاحتلال السوفيتي هناك.

عمل النظام السعودي، من جهته، خلال تلك السنوات وما بعد الانسحاب السوفيتي من أفغانستان، على الاستثمار إلى حد كبير في المدارس الشرعية فضلاً عن منافذ أخرى للترويج لعقيدته العزيزة، الأمر الذي أحدث تغييرًا ثقافياً في أكثر المناطق فقرًا في باكستان وأفغانستان، في وقت كانت تموّل فيه المدارس الشرعية والمساجد السنّية الأصيلة والمحافظة غير المتعصبة، وتحوّل بشكل جذري من قبل الإسلام الوهابي الذي أصاب أيضاً باكستان في العمق، وجعل منها، فضلاً عن السعودية، مصدراً أساسياً للتطرف التكفيري<sup>(1)</sup>.

لم تظهر الولايات المتحدة وحلفاؤها أي مؤشرات قلق بشأن هذا الوضع، وذلك على الرغم من الجرائم الوحشية التي ارتكبت بحق مختلف

---

(1) <http://www.theguardian.com/commentisfree/belief/2009/aug/20/pakistan-wahhabi-islam-sufi-terrorism> and <http://www.amazon.com/Taliban-Militant-Fundamentalism-Central-Edition/dp/0300163681>

المجموعات الإثنية والعرقية، فضلاً عن الاستعباد الوحشي للنساء من قبل تلك الجماعات، ولاحقاً من قبل طالبان.

وكما في سوريا ولibia، لقد أحسّوا على ما يفترض بأن النظامين السعودي والباكستاني قادران على التحكم بهذه الآراء المتطرفة وإرشادها، وبأن تمكينهما سيخدم المصالح الغربية، إلا أن انتشار الأفكار الدينية المتطرفة هذه تخطى الحدود الأفغانية، وتسبّب في الوقت عينه، إلى جانب القوات الحكومية، بالكم الكبير من المجازر ضد المدنيين في الجزائر بعد إلغاء الانتخابات التشريعية التي فازت بها الجبهة الإسلامية للإنقاذ عام 1992. فالكثير من الجهات المسؤولة عن أعمال العنف مثل الجماعة الإسلامية المسلحة والجماعة السلفية للدعوة والقتال، والتي تحول اسمها في ما بعد إلى القاعدة في بلاد المغرب الإسلامي، كانت بداية تحت سيطرة جزائريين عادوا إلى بلادهم بعد تلقيلهم التدريب العسكري والعقدي في أفغانستان، لكن لم يكن لذلك أي تأثير على رؤية الغرب للصادرات العقدية السعودية.

أنشأت الاستخبارات الباكستانية، بعد سنوات قليلة من الانسحاب السوفيافي من أفغانستان وبدعم مالي كبير، حركة طالبان لتوحيد البلاد التي قطّعت الحرب أوصالها، وذلك تحت قيادة مؤيدة للنظام الباكستاني<sup>(1)</sup>، الأمر الذي خدم مصالح باكستان في صراعها الطويل مع الهند، وكذلك المصالح الأمريكية وال سعودية من خلال تهديد الحدود الشرقية للجمهورية الإسلامية الإيرانية وزعزعة استقرارها، وتأمين ممر لتصدير النفط والغاز في آسيا الوسطى عبر إيران وروسيا. هذا وسمح تغلب الحركة على كافة الفرقاء

---

(1) <http://www.amazon.com/Taliban-Militant-Fundamentalism-Central-Edition/dp/0300163681>

الآخرين المتقاتلين في الحرب الأهلية الأفغانية بعودة القاعدة إلى الساحة، الأمر الذي كانت له عواقب مدمرة على الأمن الأميركي والأوروبي.

على الرغم من إعراب الدول الغربية، بعد هجمات الحادي عشر من أيلول على الولايات المتحدة، عن هواجس جديدة بشأن التمويل السعودي للجماعات الوهابية المتطرفة، لم تُجرِ الدول الغربية أي تغيير يذكر في سياستها تجاه السعودية، أو أي نظام عربي آخر غني بالنفط. هذا وتحفظ منظمات حقوق الإنسان الممولة من الغرب عن توجيه انتقادات للسعودية بسبب النفط، وذلك حسبما تشير الأميرة السعودية بسمة بنت سعود<sup>(1)</sup>. من جهته، يؤيّد رئيس منظمة هيومان رايتس واتش الضربات الجوية بقيادة الولايات المتحدة ضد سوريا<sup>(2)</sup>، لكن عندما يستخدم النظام السعودي استراتيجية «الصدمة والترويع» بحق الشعب اليمني، يكون الرد مختلفاً تماماً.

في المقابل، سافر الرئيس الفرنسي إلى الرياض لبيع أسلحة للمملكة، وذلك بعد انطلاق حملة القصف السعودي في اليمن بوقت قصير، وعلى الرغم من استخدام النظام الواضح للقنابل العنقودية في مناطق مأهولة بالسكان<sup>(3)</sup>.

بنتيجـة هذا النفوذ المالي، يواصل السعوديون الترويج للوهابية في مدارسهم، وجامعاتهم، ومراكيزهم الدينية في الداخل والخارج.

ووفقاً لبرقية سرّيتها منظمة ويكيликـس، كتبـت وزيرة الخارجية السابقة هيلاري كلينتون في كانون الأول 2009 بأنـ النظام السعودي لا يزال يشكل قاعدة دعم مالية جوهرية لمجموعة منـ الجماعـات الإـرهـابـية مثلـ القـاعدة،

---

(1) <http://basmahbinsaud.com/blog/hardtalk/>

(2) <http://zcomm.org/zblogs/ken-roth-of-human-rights-watch-confronted-on-russia-today-and-lies-re-syria-by-joe-emersberger/>

(3) <http://www.english.rfi.fr/economy/20150505-saudi-eager-sign-tens-billion-deals-france-says-french-foreign-minister>

وطالبان، ومنظمة «الشكر طيبة» في باكستان<sup>(1)</sup>. مع ذلك لم تتأثر سياسة الولايات المتحدة مطلقاً تجاه النظام الوهابي، وظلت الدول الغربية غير مبالية بالدعابة الوهابيين، الذين يكررون دعواتهم لقتل «الزنادقة»، وذلك في الكتب، وعبر القنوات الفضائية، واليوتيوب، والفايسبوك، والتويتر، وغيرها من وسائل الإعلام الاجتماعي<sup>(2)</sup>.

بعد الغزو الأميركي للعراق في العام 2003، الذي حظي ولسخرية القدر بتأييد السعودية وغيرها من الأنظمة الملكية في المنطقة، بدأ التمويل الأساسي من هذه البلدان الخاضعة لصوابط صارمة بالتدفق نحو مجاهدين متطرفين منتبسين إلى القاعدة في العراق؛ وذلك بغرض إضعاف النظام السياسي العراقي الجديد<sup>(3)</sup>. وفي وقت لاحق، عندما أصدر أحد رجال الدين السعوديين فتوى في العام 2009 يدعو فيها إلى ذبح المسلمين الشيعة، التزم النظام السعودي الصمت ولم يستنكر ذلك البيان<sup>(4)</sup>. في النهاية، وفي العام 2014، صرّح رئيس الوزراء العراقي حينها، نوري المالكي، علناً بأن السعودية وقطر قد أعلنتا الحرب على العراق، مهاجماً «الموقف السعودي الخطير الداعم للإرهاب في العالم: في سوريا، والعراق، ولبنان، ومصر، ولibia وحتى في بلدان غير عربية»<sup>(5)</sup>.

مع ذلك، فإن استعداد الحكومات الغربية للتعاون مجدداً مع القاعدة

- 
- (1) <http://www.independent.co.uk/voices/comment/alqaida-the-second-act-is-saudi-arabia-regretting-its-support-for-terrorism-9198213.html>
  - (2) [http://www.huffingtonpost.com/patrick-cockburn/war-on-terror-failed\\_b\\_5697475.html?utm\\_hp\\_ref=world&ir=World](http://www.huffingtonpost.com/patrick-cockburn/war-on-terror-failed_b_5697475.html?utm_hp_ref=world&ir=World)
  - (3) [http://usatoday30.usatoday.com/news/world/iraq/2006-12-08-saudis-sunnis\\_x.htm](http://usatoday30.usatoday.com/news/world/iraq/2006-12-08-saudis-sunnis_x.htm)
  - (4) <http://www.independent.co.uk/voices/comment/alqaida-the-second-act-is-saudi-arabia-regretting-its-support-for-terrorism-9198213.html>
  - (5) <http://www.presstv.com/detail/2014/03/10/354054/role-of-saudi-arabia-qatar-in-terrorism/>

أو مجاهدين سابقين في القاعدة في ليبيا، من إقناع قطر وتركيا لها، شكل على ما يبدو نقطة تحول رئيسة بحيث إن مقتل السفير الأميركي في ليبيا لاحقاً، لم يغيّر سياسة الحكومة الأميركية بالتعاون مع المتطرفين<sup>(1)</sup>.

تبرز أيضاً في هذا السياق أهمية قيام الحكومة التركية بتسهيل لقاء عبد الحكيم بلحاج، الذي أصبح ممثلاً للرئيس الانتقالي الليبي بعد سقوط نظام القذافي، بقيادة ما يسمى «الجيش السوري الحر» في إسطنبول وعلى الحدود مع تركيا؛ إذ شكل تغييراً جوهرياً في سياسة الولايات المتحدة والاتحاد الأوروبي الخارجية. كان لذلك أهمية إضافية فضلاً عن التقارير التي تشير إلى نقل وكالتي الاستخبارات البريطانية والأميركية أسلحة من ليبيا إلى المتمردين السوريين في العام 2012 بعد سقوط القذافي<sup>(2)</sup>. فقد ناقش الزعيم السابق لتنظيم القاعدة خلال الاجتماعات مسألة دعم الجيش السوري الحر بالأموال، والأسلحة، والمقاتلين<sup>(3)</sup>. من الضروري عدم المبالغة في أهمية بلحاج كفرد؛ لكنه مجرد أحد أتباع القاعدة الكثirين المتورطين في ليبيا وسوريا<sup>(4)</sup>، لكن دوره المعترف به صراحةً يظهر مدى الصلة الوثيقة بين الجيش السوري الحر المعتمد على ما يفترض والمجاهدين المتطرفين وتغلغل هؤلاء فيه منذ بداية الحرب الأهلية السورية.

هذا وأصدر رجال دين متطرفون من مكتابهم ومساجدهم في

- 
- (1) [http://www.huffingtonpost.com/patrick-cockburn/war-on-terror-failed\\_b\\_5697475.html?utm\\_hp\\_ref=world&ir=World](http://www.huffingtonpost.com/patrick-cockburn/war-on-terror-failed_b_5697475.html?utm_hp_ref=world&ir=World)
  - (2) <http://www.lrb.co.uk/v36/n08/seymour-m-hersh/the-red-line-and-the-red-line>
  - (3) <http://www.telegraph.co.uk/news/worldnews/africaandindianocean/libya/8919057/Leading-Libyan-Islamist-met-Free-Syrian-Army-opposition-group.html>
  - (4) [http://www.longwarjournal.org/archives/2013/11/isis\\_praised\\_slain\\_c.php](http://www.longwarjournal.org/archives/2013/11/isis_praised_slain_c.php)

السعودية ومصر فتاوى متكررة بخصوص قنوات تلفزيونية فضائية ممولة بشكل كبير تجيز ذبح الأقليات<sup>(١)</sup>. منذ البداية، كان «المقاتلون من أجل الحرية» المدعومون من الغرب في سوريا ينفذون بشكل متكرر أعمال عنف متطرفة تسبّب عادةً إلى التكفيريين والقاعدة في العراق. القتل الجماعي، قطع الرؤوس حتّى من قبل الأطفال<sup>(٢)</sup>، التفجيرات الانتحارية<sup>(٣)</sup>، وحتى أكل لحوم البشر، هذه الأعمال كلّها كانت تنفذ، وتسجيّل، وتبث عبر الإنترنت من أجل بث الخوف في قلوب جنود الجيش السوري الحر<sup>(٤)</sup>. من جهةه، بات تنظيم داعش في ما بعد أكثر شهرةً من كافة الجماعات المتطرفة الأخرى؛ إذ إنّ أعمال القتل الجماعي تضاعفت، وبلغت وحشية الجرائم مستويات جديدة.

مع ذلك، وإنّه بالقانون الدولي، كانت الأنظمة الملكية الغربية بالنفط، بتنسيق ودعم لوجستي غربي شديد، على مدى أكثر من سنتين تموّل المتطرفين وأتباع القاعدة، لإسقاط النظام السوري لا سيما بسبب تحالفه مع إيران<sup>(٥)</sup>. كانت وسائل الإعلام الرئيسية، والخبراء، وصنّاع السياسة في الغرب يقلّلون من أهمية المزاعم بحصول أعمال تطرّفية؛ لا بل يستهزلون بها، بينما كانت تصدر عنهم أحياناً تقارير متعاطفة مع المسلمين الأوروبيين المسافرين إلى سوريا كمقاتلين من أجل الحرية، واستمر ذلك إلى أن

---

(1) [http://www.atimes.com/atimes/Middle\\_East/MG15Ak02.html](http://www.atimes.com/atimes/Middle_East/MG15Ak02.html)

(2) <http://www.independent.co.uk/voices/comment/syria-the-descent-into-holy-war-8420309.html>

(3) <http://www.nytimes.com/2011/12/24/world/middleeast/syria-says-suicide-bombers-attack-in-damascus.html>

(4) Face-to-face with Abu Sakkar, Syria's heart-eating... - BBC

(5) <http://www.aljazeera.com/indepth/opinion/2014/04/iran-orientalism-western-illusio-20144383631581810.html> and <http://rt.com/op-edge/syria-israel-iran-ali-527/>

تفاقمت المشكلة إلى حد بات من الصعب معه إخفاء الوحش الذي أوجده الغرب وحلفاؤه العرب والأتراك<sup>(١)</sup>.

### مواجهة المد التطرّفي

بينما استنكرت إيران جهراً العنف الممارس من قبل قوات الأمن السورية ضد المتظاهرين المسلمين عبر تقديم شكاوى قانونية، ولو أنه لا مجال للمقارنة بينه وبين المجازرة التي وقعت في القاهرة في 14 آب 2013، علمت أيضاً بوجود طرف ثالث، كما حصل في كييف، يعمل على إذكاء نار الفتنة عبر إطلاق النار على قوات الأمن والمتظاهرين على حد سواء. وهذا ما أكدته التقارير الصادرة عن بعثة المراقبين العرب إلى سوريا التي تضم 300 عضو بقيادة السفير السوداني السابق في قطر<sup>(٢)</sup>.

ضررت هذه البلدان خطة كوفي أنان، المدعومة من إيران<sup>(٣)</sup>، عرض الحائط، عوضاً عن مواصلتها، ظناً منها أنها قادرة على تدمير دمشق في غضون أسابيع أو أشهر. كان الرئيس الأسد، ولا يزال، يحظى بالتأييد الشعبي الكبير، بخلاف العديد من الأنظمة التابعة للتحالف المناهض لسوريا<sup>(٤)</sup>. ففي الوقت الذي عجزت فيه الأنظمة الديكتاتورية لابن علي، ومبارك، وآل خليفة في البحرين عن حشد الدعم في الساحات، نزلت حشود هائلة في سوريا، خلال الأشهر الأولى من النزاع، وبشكل متكرر، إلى الشوارع في مظاهرات مؤيدة للأسد في المدن الكبرى جاءت متزامنة أحياناً. فضلاً عن ذلك، ووفقاً لاستطلاع الرأي الذي أجرته المؤسسة

(1) [http://www.nytimes.com/2014/08/23/opinion/isis-atrocities-started-with-saudi-support-for-salafi-hate.html?\\_r=0](http://www.nytimes.com/2014/08/23/opinion/isis-atrocities-started-with-saudi-support-for-salafi-hate.html?_r=0)

(2) [http://www.columbia.edu/~hauben/Report\\_of\\_Arab\\_League\\_Observer\\_Mission.pdf](http://www.columbia.edu/~hauben/Report_of_Arab_League_Observer_Mission.pdf)

(3) <http://en.trend.az/iran/2053105.html>

(4) file:///G:/Downloads/YouGovSirajDoha%20Debates-%20President%20Assad%20report.pdf

التركية للدراسات الاقتصادية والاجتماعية، أفادت 88 بالمئة من الشريحة التي شملها هذا الاستطلاع في سوريا في العام 2013 بأن الحكومة التركية الحالية كانت تتصرف بشكل غير ودي تجاه بلدhem<sup>(1)</sup>، الأمر الذي يفسّر السبب وراء نجاح الحكومة السورية في البقاء على الرغم من الهجوم العسكري والإعلامي والاقتصادي الواسع النطاق الذي قاده خصومها الإقليميون والغربيون، فضلاً عن عشرات آلاف التكفيريين الأجانب.

يعتبر داعش اليوم خطراً وجودياً يهدّد الأنظمة الملكية العربية الغنية بالنفط، ولا سيما المملكة العربية السعودية، ذلك أن التنظيم يظهر نفسه كابعاث للوهابية الأصيلة، وبالتالي على أنه «الدولة الإسلامية»<sup>(2)</sup>. لقد ولّ التهديد الذي يشكّله التطرف، أحد المتنجّين الرئيسيين اللذين تصدرهما السعودية، والذي أعيد تصديره إلى مناصرين مضطربين ومتهمّسين في البلاد، قلّاً حقيقةً لدى آلاف أمراء الأسرة الحاكمة وكذلك لدى العديد من صانعي السياسة الغربيين. مع ذلك، من غير الحكمة التصور بأن جند الشام أو جبهة النصرة هما أقل خطراً من تنظيم داعش، لا سيما وأن النصرة ولدت من رحم «الدولة الإسلامية» قبل أن يصبح اسمها «الدولة الإسلامية في العراق والشام»، والتي تعود جذورها جميعها إلى تنظيم القاعدة. تملك هذه التنظيمات الثلاثة الخلفية الإيديولوجية نفسها، كما تعتقد أنصار الشريعة وبوكو حرام وحركة الشباب المجاهدين وطالبان جميعها المعتقدات التكفيرية نفسها والتي يعود مصدرها بشكل أساسى إلى المملكة العربية السعودية.

المسألة هنا لا تتعلّق بمن مول بالتحديد عشرات مليشيات

---

(1) <http://www.dailystar.com.lb/News/Middle-East/2013/Dec-04/239866-turkey-loses-popularity-in-middle-east-poll.ashx#axzz2xoWXcjFJ>

(2) [http://www.huffingtonpost.com/alastair-crooke/isis-wahhabism-saudi-arabia\\_b\\_5717157.html](http://www.huffingtonpost.com/alastair-crooke/isis-wahhabism-saudi-arabia_b_5717157.html)

الجيش السوري الحر المختلفة، أو قدم الدعم اللوجستي لها، أو من هي الحكومات التي دعمت تنظيم داعش، أو جند الشام، أو جبهة النصرة، أو من دعمها جميعها. فما يثير القلق أن مجموعة من الأنظمة العربية، والإقليمية، والغربية قد تصرفت كجهات مخربة، فسبّبت الوقود التكفيري بلا مبالاة في أنحاء الغابة وراحت توقد النيران إلى أن نشب حريق هائل بغية التخلص من خصومها. لذلك لا بد من احتواء هذا الجحيم الآن قبل فوات الأوان. فعلى الرغم من تسامي الخطر، واستمرار تحول المشهد الإقليمي، وتدمير المزيد من المجتمعات، لا يزال يوجد ما يدل على أن الولايات المتحدة الأمريكية، وحلفاءها الإقليميين والأوروبيين، جديون في إعادة النظر في سياساتها الحالية.

على الرغم من عزم واشنطن على إضعاف تنظيم داعش، وتدميره في النهاية، لا تزال إيران تشకّك بشدة في نوايا الولايات المتحدة الأمريكية. وبعد المكاسب الهائلة التي حققتها تنظيم داعش في العراق، وتشكيل التحالف الدولي بقيادة الولايات المتحدة الأمريكية لقتاله، لم ينفّذ هذا التحالف سوى تسع هجمات جوية في اليوم، كمعدل، في كل من العراق وسوريا خلال تلك الأشهر الصعبة<sup>(1)</sup>.

في المقابل، تشير التقارير الغربية إلى أن سلاح الجو السوري شنّ وحده، خلال الفترة عينها، ما يصل إلى 200 غارة خلال 36 ساعة<sup>(2)</sup>. من جهتها، تواصل الحكومة التركية، بالتزامن أيضاً مع هذه الغارات الجوية الأمريكية غير المؤثرة في العراق وسوريا، كما حدث عند سقوط

---

(1) <http://www.spiegel.de/international/world/information-graphic-on-us-and-allied-air-strikes-in-syria-and-iraq-a-1006550.html>

(2) <http://www.reuters.com/article/2014/10/21/us-mideast-crisis-syria-raids-idUSKCN0IA1YM20141021>

الرمادي<sup>(١)</sup>، تقديم الدعم اللوجستي الواسع النطاق لداعش<sup>(٢)</sup>، والجماعات المتطرفة الأخرى، غالباً تحت أسماء وهمية كجيش الفتح. هذا ويتعاون النظامان الأردني والإسرائيلي مع جبهة النصرة ويقدمان الدعم الكبير لها على طول حدودهما مع سوريا<sup>(٣)</sup>. فالأردن «تآمر مع حلفاء أثرياء يديرون أنشطتهم السرية من غرف الفنادق، ومخيمات اللاجئين، ومراكيز العمليات، ومعسكرات التدريب في عمان على طول الحدود مع سوريا»<sup>(٤)</sup>.

في ضوء هذه الواقع، لا يقتصر الإيرانيون، الذين لعبوا دوراً هاماً للحؤول دون سقوط دمشق وبغداد وحلب وإربيل<sup>(٥)</sup>، بكل بساطة، بما يُقال عن أنّ الولايات المتحدة النادمة تشنّ اليوم حرباً حقيقة ضدّ داعش وجبهة النصرة وتنظيمات متطرفة أخرى في العراق وسوريا؛ بل يلاحظون السياسة المعقّدة؛ لا بل الحمقاء، التي تتبعها واشنطن وحلفاؤها بهدف «احتواء» الجمهورية الإسلامية وجبهة المقاومة.

لاحظ الإيرانيون أيضًا بأن انطلاق عملية عاصفة الحزم ضد اليمن تزامن مع المرحلة الأكثر حساسيةً من المفاوضات بين الجمهورية الإسلامية الإيرانية ومجموعة الـ5+1 في لوزان، في سويسرا. لقد بدا جليًا

- 
- (1) <http://www.moonofalabama.org/2015/05/lack-of-us-air-support-in-ramadan-points-to-disguised-darker-aim.html>
  - (2) [http://www.al-monitor.com/pulse/security/2014/12/turkey-syria-border-mursitpinar-kobane-kurds-isis.html?utm\\_source=Al-Monitor+Newsletter+\[English\]&utm\\_campaign=76c2a5e553-Week\\_in\\_review\\_December\\_8\\_2014&utm\\_medium=email&utm\\_term=0\\_28264b27a0-76c2a5e553-93096621](http://www.al-monitor.com/pulse/security/2014/12/turkey-syria-border-mursitpinar-kobane-kurds-isis.html?utm_source=Al-Monitor+Newsletter+[English]&utm_campaign=76c2a5e553-Week_in_review_December_8_2014&utm_medium=email&utm_term=0_28264b27a0-76c2a5e553-93096621)
  - (3) <http://www.thenational.ae/world/middle-east/syrian-rebels-get-arms-and-advice-through-secret-command-centre-in-amman> and <http://www.rt.com/news/212319-israel-helps-syrian-militants/>
  - (4) <https://www.rt.com/op-edge/313792-turkey-islamic-state-syria/>
  - (5) <http://news.yahoo.com/iran-provided-weapons-iraqs-kurds-barzani-135743780.html>

لبعض الوقت بأن النظمتين الإسرائيلي وال سعودي عملاً جاهدين لمنع نجاح هذه المحادثات.

بغض النظر عن المحصلة النهائية للمجازر الجماعية المدعومة من الولايات المتحدة بحق الشعب اليمني، لا يجب نسيان ما حصل للقوات السعودية على طول الحدود السعودية اليمنية في العام 2009 عندما كانت حركة أنصار الله قوّة عسكرية أصغر حجماً، ومعزولة وأقل خبرة<sup>(1)</sup>. فمن جهة، ليس شراء فرق من المرتزقة يحل المشكلة؛ إذ إن الأنظمة التي هي بحاجة إلى الدولارات النفطية السعودية تسعى جاهدةً إلى احتواء متطرفتها. ومن جهة أخرى، سترتد عملية تمكين القاعدة على المسؤولين لطاردهم.

على الرغم من أن رشق إيران باتهامات سخيفة سيستمر حتماً، إلا أن ذلك لن يكون بخصوص ما يزعم من سيطرة إقليمية للجمهورية الإسلامية، وإنما لإخماد طموحات الشعب اليمني. فتقدير العراقيين، والسوريين، والبحرينيين، والعمانيين، واليمنيين لإيران يعود إلى استقلالية هذه الأخيرة<sup>(2)</sup>، وحكومتها الإسلامية التي تعتمد على التشارك، ولو أن الغرب يزعم العكس<sup>(3)</sup>، بالإضافة إلى تحضيرها، وتسامحها، ونبذها للطائفية. فضلاً عن ذلك، لا يجب نسيان أن هذا التحالف الغربي العربي تسبب بالألم والدمار نفسه في أنحاء شمال إفريقيا، حيث لا توجد سوى قلة قليلة من المسلمين الشيعة، أو «المجوس» و«الصفويين»، بحسب التعبير الازدرائي المتداول من قبل هذه الحكومات الوهابية ووكالاتها عبر قنوات التلفزيون المتطرفة الطائفية والمركبة العرقية.

---

(1) [http://www.nytimes.com/2009/11/07/world/middleeast/07yemen.html?\\_r=0](http://www.nytimes.com/2009/11/07/world/middleeast/07yemen.html?_r=0)

(2) <http://www.aljazeera.com/indepth/opinion/2014/04/antagonising-iran-strategic-mis-201442161724450258.html>

(3) <http://www.aljazeera.com/indepth/opinion/2014/10/isil-us-intervention-rise-irania-20141017572560286.html>

زادت الانقسامات الإقليمية تعقيداً، لا سيما بعد نجاح الثورة المضادة في العام 2013 في مصر وسقوط حكومة الإخوان المسلمين. فالحكومتان السعودية والإماراتية، في شمال إفريقيا، توصلان حالياً سياسات متعارضة مع سياسات قطر وتركيا<sup>(1)</sup>. مع ذلك، وعلى الرغم من الاعتراضات الإماراتية والمصرية، يعمل السعوديون حالياً في اليمن مع حزب الإصلاح اليمني المنقسم والموالي للوهابيين - الإخوان المسلمين على الرغم من تصنيفه كمنظمة إرهابية في العام 2014. لقد بُرِزَ التناقض في السياسات، وتعارض الأجندة، والانقسام السياسي في ظل الفوضى الحالية في عدن والجنوب. وفضلاً عن الانقسامات داخل الحركة الجنوبية، وحملة القاعدة الهجومية، والقبائل، والميليشيات الضعيفة الموالية لمنصور الهادي المكروه، باتت هذه الاشتباكات تمثل مشكلة كبيرة للسعودية، عندما انسحب أنصار الله، والجيش، واللجان الشعبية بشكل سريع من الجنوب بعد الهجوم بقيادة السعودية على عدن. فاللاعب المالي الجسيم للمغامرة السعودية في اليمن فضلأً عمّا تولّده الخسارة المتطرفة المتکبدة من ذل في حرب كان يفترض أن تستمر لبضعة أيام فقط، يؤديان إلى ما كان يمكن أن يكون تراجعاً نهائياً للنظام السعودي. ما يعمّق هذا الإحساس بالذل، النجاحات التي حققتها حركة أنصار الله جنوبي السعودية وفشل الهادي في تثبيت نفسه، أو حكومته جنوب اليمن. إلى ذلك، يعي النظام السعودي بأن الشعب اليمني لم يقبل يوماً ضمّه لمحافظات عسير، ونجران، وجيزان<sup>(2)</sup>. سواءً أكان السعوديون قادرين على وضع يدهم على العاصمة صنعاء أم

---

(1) [http://www.nytimes.com/2014/08/26/world/africa/egypt-and-unit-ed-arab-emirates-said-to-have-secretly-carried-out-libya-airstrikes.html?emc=edit\\_th\\_20140826&nl=todaysheadlines&nlid=50521018&r=0](http://www.nytimes.com/2014/08/26/world/africa/egypt-and-unit-ed-arab-emirates-said-to-have-secretly-carried-out-libya-airstrikes.html?emc=edit_th_20140826&nl=todaysheadlines&nlid=50521018&r=0)

(2) <https://www.middleeastmonitor.com/articles/middle-east/13653-is-yemen-witnessing-the-rise-of-a-new-political-giant>

لا، في ما سيشكل حرباً مميتة وكارثية لسكان المدينة الواقعين مسبقاً تحت وطأة وابل قصف التحالف، فقد خسر السعوديون الحرب مسبقاً.

من الواضح أن الكارثة في سوريا هي العامل الأهم المساهم في تراجع حظوظ هذا الحلف الغربي العربي. فعلى الرغم من تحذير الحكومة الإيرانية مراراً المجتمع العربي بشأن تلقي المتطرفين دعماً كبيراً من الخارج وتدفق سيل ثابت من المجاهدين التكفيريين إلى البلاد، واصل هذا التحالف وبقوة إنشاء شبكات من المنظمات الإرهابية، نافياً في الوقت عينه وجود متطرفين. لكن، مع بدء ظهور الحقيقة، انهار ما يسمى بجامعة أصدقاء سوريا.

ففي لقائهم الأول في مراكش في أواخر العام 2012، تم تمثيل مئة وأربعة عشر بلداً<sup>(1)</sup>، لكن عدد البلدان المشاركة تراجع بعد خمسة أشهر إلى 11<sup>(2)</sup>. لقد أقرت القوى المؤثرة في المجتمع الدولي مثل: روسيا والصين (التي شعرت بأنها خدعت في ليبيا) مضافاً إلى دول البريكس الأخرى، على نحو متزايد بالخطر العالمي الذي طرحته المنظمات المتطرفة المدعومة من قبل الأوروبيين، والأميركيين، والعرب، والأتراس<sup>(3)</sup>، الأمر الذي دفع بالقوى غير الغربية إلى الانحياز تدريجياً إلى جبهة المقاومة، وذلك على الرغم من الضغط الغربي والعقوبات المتزايدة.

لقد ساهم الدعم الغربي للانقلاب في كيف والعقوبات المفروضة لاحقاً على روسيا، فضلاً عن زيادة التوتر مع صعود الصين، لا سيما بخصوص بحر الصين الجنوبي، في هذا التحول العالمي المستمر

---

(1) [http://news.xinhuanet.com/english/world/2012-12/12/c\\_132036841.htm](http://news.xinhuanet.com/english/world/2012-12/12/c_132036841.htm)

(2) <http://www.al-monitor.com/pulse/originals/2013/04/syrian-opposition-radical-elements-wester-arms.html>

(3) <http://thebricspost.com/brics-summit-draws-clear-red-lines-on-syria-iran/#.Vek-HfmqpHw>

في ميزان القوى<sup>(1)</sup>. إن حسابات الولايات المتحدة وأوروبا الخاطئة، وسياساتهما غير الأخلاقية، وتبدل نفوذهما لاحقاً في المنطقة، هو ما أدى إلى تراجع نفوذهما الاقتصادي في العالم أكثر فأكثر وسرّعه. لقد عانت تركيا، بقيادة رجب طيب أردوغان، مشاكل جسيمة على مستويات عدّة بعد إظهار عدائها لسوريا. فسياسة «تصفير المشاكل» التي تتبعها لم تعد ناجعة، ذلك أن حكومتها أفسدت علاقاتها بشكل فعلي مع جيرانها كافة تقريرياً. فبسبب دعمها لداعش، والقاعدة وغيرها من الجماعات الإرهابية في العراق وسوريا<sup>(2)</sup>، باتت البلاد تشهد أعمال تطرف متزايدة، فضلاً عن اشتداد الصراع الطائفي والعرقي. إلى جانب هذه العوامل، أدى تدفق أعداد هائلة من اللاجئين السوريين، نتيجة الدور التركي في تدمير أجزاء واسعة من تركيا، وتحالفها مع أنظمة وهابية، والمشاكل الاقتصادية الناجمة، والاستخدام المتزايد للقوة بحق الأقلية الكردية وغيرهم من منتقدي سياسة الحكومة، إلى تراجع حظوظ حزب العدالة والتنمية.

سيكون لتقهقر أردوغان فضلاً عن السعودية، لا سيما في عهدولي العهد الشاب محمد بن سلمان، تداعيات جوهرية على المنطقة. فقد أساء الأمير السعودي الشاب لمركز النظام، بسبب إغرائه في مستنقع اليمن، وإبعاد معظم العائلة الحاكمة من خلال سيطرة غير مسبوقة على السلطة. في المقابل، ساهمت السياسات وراء هذا التقهقر في تحسين مركز إيران في المنطقة والعالم. فالجمهورية الإسلامية الإيرانية هي القوة الوحيدة التي ردعت هذا التهديد الناشئ من خلال بسط هيمنتها من دمشق إلى بغداد، وربما حتى من بيروت إلى الرياض.

تجدر الإشارة إلى أن المساعي الغربية المتواصلة الرامية إلى زعزعة

---

(1) <http://www.aljazeera.com/indepth/opinion/2014/05/china-iran-russia-restructuring-201451964119463320.html>

(2) <https://www.rt.com/op-edge/313792-turkey-islamic-state-syria/>

استقرار النموذج السياسي الإيراني باعت بالفشل، وأصبحت الجمهورية الإسلامية اليوم، بنتيجة الدعم الغربي غير المشروع للمتطرفين في سوريا والانتهاك المستمر لسيادتها، تقود الكفاح عن المنطقة ضد التطرف، والقوى العالمية الناشئة تدرك ذلك أكثر فأكثر.

إن توقيع خطة العمل الشاملة المشتركة في فيينا في 14 تموز 2015 بين إيران ومجموعة 5+1 هو خير اعتراف بهذا الواقع المتغير. فقد أجرت الولايات المتحدة وشركاؤها، على الرغم من نقاط القوة والضعف للصفقة، على قبول البرنامج النووي الإيراني السلمي. لقد فشلت العقوبات المعطلة في منع تقدم إيران العلمي فضلاً عن مقاومتها للقوى المتطرفة، التي أطلق العنان لها ضد حلفائها الإقليميين. ستستمر مفاعيل العقوبات الاقتصادية على إيران في الأشهر المقبلة بالتراجع، وبينما قد تضع بعض أسعار النفط الهابطة أسس بلدان مثل السعودية، ستغدو إيران، بفضل إنتاجها المتزايد للنفط وإصلاحاتها الاقتصادية المستوحاة من العقوبات، أقل عرضة للهجوم من خصومها.

# الجماعات التكفيرية والقوى الدولية

## الرعاية وتقطاطع المصالح<sup>(1)</sup>

الدكتور جورج قرم<sup>(2)</sup>

بداية رأيت أن أبدأ ببعض الملاحظات المنهجية، وبعد ذلك أنتقل إلى ما سميته ينبع الإرهاب الأعمى الذي يشوه ويستغل الديانة الإسلامية السامية. ثم سأتطرق إلى بعض الملاحظات من أجل تغيير الطريقة التي تعامل بها نحن كعرب في ما بيننا أو مع أصدقائنا في إيران أو دول أخرى تساند قضيائنا المشروعة.

أود أن أبرهن أن القضية الإقليمية ليست تقطاطع مصالح، بينما هي تماهي في الأهداف بين القوى الأمريكية والغربية بشكل عام وبين هذه الجماعات. ومصلحتها بشكل واضح هي نشر الفوضى والدمار بما يسهل استمرار الهيمنة الاستعمارية الأمريكية الصهيونية على منطقتنا العربية. منطقتنا كانت منطقة ضعف بسبب تبعثر العرب إلى كيانات مختلفة منذ سايكس بيكون وعدم التمكن من إنشاء دولة فدرالية ودولة الوحدة التي تعطي للعرب مكانة احترام في النظام الإقليمي والدولي، وهذا فرق كبير

---

(1) ملاحظة: لم يقدم الباحث ورقة مكتوبة، ولذلك اعتمدنا التسجيلات الصوتية مع صياغتها بما يتاسب مع طبيعة النص المكتوب.

(2) أستاذ محاضر في عدد من الجامعات (اللبنانية، الأميركية، اليهودية)، وخبير مالي واقتصادي، من لبنان.

بيننا نحن كعرب وبين الفرس أو الأتراك، فهما كيانان قويان في المنطقة منذ أقدم الأزمنة. أما نحن العرب فقد أنجزنا مع الرسالة النبوية الشريفة ومع الفتوحات الإسلامية معجزة، وكنا من دعائم الثقافة العربية الإسلامية التي ازدهرت على مدى خمسة قرون وأعطت العالم أعظم الثقافات. ثم اخترنا لأسباب نجهلها أن نستقيل من الحكم ومن إدارة الخلافة العباسية. سلمنا الأمور للفرس والأتراك وخر جنا من التاريخ. وأنا أعتقد أن الكثير من المشاكل التي نعيشها اليوم هي بسبب قلة الخبرة العربية في إدارة كيانات سياسية قوية بعد أن انقطعوا من الوجود التاريخي طوال ثمانية قرون. ولكي لا نكون عنصريين تجاه أنفسنا لا بد من الاعتراف بأن ثمة شيئاً في داخلنا يجعلنا دائمًا في حالة عجز وفشل. نحن في حالة ديناميكية فشل تحت عوامل داخلية وعوامل خارجية.

فالملاحظة المنهجية الأولى هي أن التفارق بين العوامل الداخلية والعوامل الخارجية عند الدول الضعيفة والدول التي عانت من الاستعمار والاحتلال والخروج من التاريخ، تفارق معدن للغاية والعلاقة بينهما معقدة للغاية. فالقوى المحلية تستغل القوى الخارجية وتطلب مساعدتها أو وجودها لكي تقوى. أما القوى الخارجية فهي تدعم بعض الفئات على حساب فئات أخرى لكي تحافظ على سلطتها. معظم الصراعات مرتبطة بصراعات القوى الدولية الكبرى خاصة أيام الحرب الباردة. والملاحظة المنهجية الثانية التي أعطيتها أهمية خاصة أنها يجب أن نفرق بين تكوين الأommية الإرهابية التي تدعي الإسلام وهي تجمع مسلمين من كل الجنسيات عربية وغير عربية وبين الحركات الداخلية من الإسلامية والسياسية العربية المحلية في مصر، المغرب، وكل الدول العربية. توجد قوى إسلام سياسية بتلاوين كبيرة وفي كثير من الأحيان قد تمارس العنف التكفيري في الداخل أو تقوم باغتيالات، واغتيال الرئيس السادات كان البداية. ثمة سلاح أمريكي أسميه سلاح دمار شامل تم تكوينه تحت الإشراف

المباشر للولايات المتحدة في ظروف حرب أفغانستان وظروف الحرب الباردة وبين قوى وطنية محلية تؤمن بأن الإسلام هو الحل لكل المشاكل، كمشاكل الحداثة ومشاكل التخلف في بعض الأحيان. ثمة أجهزة تعمل بالسر مثل الإخوان المسلمين في مصر وتمارس العنف في معظم الأحيان بشكل اغتيال. يجب أن يكون النظر إلى هاتين القوتين مختلفاً. ما أريد أن أزيده على ما تم ذكره الآن بالنسبة إلى السياسة الأميركية هو أن ثمة إطار فكري ثقافي قد يبرر أو يعطي شرعية لما تقوم به أميركا في بلدانا، لأن وهي المواقف النظرية التي تم وضعها وإطلاقها وعميمها منذ نهاية السبعينيات وبدايات السبعينيات بأن الطريقة الوحيدة إلى الديمقراطية في الدول العربية تمر عبر إعادة أسلمة هذه المجتمعات، هذه نظرية شهيرة قام بها من الناحية الجيوسياسية بريجنسكي ومن الناحية السوسيولوجية والإثنولوجية المستشرقون مثل جون إكسبوزتيو وليونارد باينهدر صاحب نظرية أن العلمانية تؤدي إلى الدكتاتورية في العالم العربي. وثمة ضرورة لإعادة أسلمة المجتمعات العربية التي انحرفت بداية نحو علمانية وحداثة لا تناسب بتاتاً مع العقلية الإسلامية بجوهرانية غريبة، بشكل تكون الديانة الإسلامية هي نفسها مثلما كانت في القرن السابع وكما هي اليوم، لأن التاريخ لا يؤثر على الديانة الإسلامية والشعوب العربية بشكل خاص. أعتقد أن العودة إلى هذه المصادر الفكرية والثقافية مهم للغاية؛ لأنه بعد ذلك وفي هذا الإطار طبعاً تم تدريب عشرات الآلاف من الشبان العرب، بينما فلسطين محتلة والشعب الفلسطيني مقهور ولبنان يتحمل ضربات إسرائيلية واحتلال إسرائيلي، تم تدريب عشرات الآلاف من الشبان العرب بالعقلية التكفيرية التي تتكلم عنها، وبידلاً من إرسالهم إلى فلسطين أرسلوهم إلى أفغانستان، وبعد أفغانستان أرسلوهم إلى البوسنة. ساهموا في تفكيك الدولة اليوغوسلافية التي كانت دولة قوية وكانت ناصرت القضايا العربية كلها وقضايا شعوب العالم الثالث، وبعد ذلك أرسلوها إلى الشيشان وتم تدمير الشيشان بحرب شعواء بتمويلات من السعودية

ومن باكستان. وهنا نرى أن المعلم الولايات المتحدة والجهاز التنفيذي باكستان السعودية. وكان حيوياً بالنسبة إلى الولايات المتحدة أن تتم هذه العملية لتجنيد عشرات الآلاف من الشبان العرب، وبعد ذلك من غير جنسيات مسلمة، لكي تحارب بدل الجيش الأميركي. الجيش الأميركي في السبعينيات هُزم في فيتنام بشكل مروع وهذا عمل صدمة كبيرة في أميركا وصارت الحكومات الأميركية على مدى سنتين ترفض إرسال جنود أميركيين لبسط سيطرتها على موقع مختلفة من العالم. فتحن لسوء الحظ كعرب كنا انكشارية لمصالح الدول الأمريكية؛ لهذا السبب سميت سلاح دمار شامل مستقل، وأنا لا شاك عندي بأن ما يحصل في سوريا اليوم هو إعادة توسيع هذا السلاح وتدريب هذا الجيش من الإرهابيين لإرسالهم في ما بعد إلى الأعداء الرئيسيين للولايات المتحدة؛ أي روسيا بما فيها طبعاً مناطق القوقاز، وأيضاً في مناطق المسلمين في الصين. وكما رأينا فإن هذا الجيش الأميركي ذهب إلى الفلبين وإلى مناطق أخرى من العالم بدل أن يهتم بتحرير فلسطين، وبدأ تضاؤل الاهتمام بالقضية المركزية في الوعي الجماعي العربي أي قضية الكيان الصهيوني وما يمارس إلى اليوم على أرض هذا الكيان.

وطبعاً كانت الولايات المتحدة تود أن تقضي على القومية العربية خاصة إذا كانت علمانية الهوى وعلى النزعة الاشتراكية وزرعة المعاداة للإمبريالية. الخطوة الثانية أتت مع نظرية هنتغتون وللأسف الشديد معظم المثقفين العرب دخلوا في الفخ وسعوا بشكل أو آخر إلى الرد على هذا الطرح السخيف، وكأن الحضارات هي بالفعل مصدر العنف والحروب وليس أطماع القيادات البشرية والدول في توسيع مدى هيمنتها. أنا أقول باستمرار إن المواجهة لم تكن كافية، ودعوى أن كل المستشرقين هم أعداء الأمة، يصب في موضوع صراع الحضارات، وإذا ما استدركنا فليس كل الغربيين هم كتلة ورأي واحد.

عندما نقول حوار حضارات – وقد ناقشت فخامة الرئيس خاتمي في الموضوع الذي أراد أن يساهم في تهدئة العواقب الوخيمة لنظرية صراع الحضارات –، إذا قلنا بصراع الحضارات فكأننا نسلم مسبقاً وجداً بأن سبب الحروب ليس هو الإمبريالية والاستعمار، إنما هو الحضارات. وفي الوقت نفسه رأينا مقولات جديدة تظهر في الأدباء الأكاديمية والإعلامية الغربية، فبدلاً من التذكير بالجذور الرومانية اليونانية للحضارة الغربية تحولت فجأة إلى جذور مسيحية يهودية، وأنا من خلال التربية المسيحية التي أخذتها بشكل كامل لا يمكن للمسيحية واليهودية أن ترتبط؛ فالمسيحية قامت على أنقاض اليهودية والقيم بينهما مختلفة. أيضاً من الاختراعات التي ابتدعت قضية المثلث الشيعي أو محور الشر الجديد. وأريد هنا أن الولايات المتحدة بعد انهيار الاتحاد السوفيافي كانت بحاجة إلى عدو جديد لكي يعطي الشرعية الجديدة لوجود عسكري أميركي في كل قارات العالم؛ لهذا ظهرت ظاهرة القاعدة وأخواتها. طبعاً القاعدة وأخواتها تشوّه صورة الإسلام وتلعب في ملعب نظرية صراع الحضارات، وأن أي غربي يرى الأفعال التي تقوم بها الجماعات الإرهابية التي تدعي الإسلام زوراً يقنع بوجود حرب الحضارات وأنه لا يمكن أن تتعالى مع المسلمين.

الحرب ضد الإرهاب هي مسرحية مفضوحة إنما الإعلام الدولي والإعلام العربي المتواطئ مع الإعلام الدولي يسعى إلى عدم تبني هذه الصورة. فما العمل؟ بنظري يجب أن نقوم بمجهود كبير للغاية كي ندحض مقوله حرب الحضارات ونفضح ما تعنيه من إعطاء تبرير وشرعية جديدة لما يسمى الاستعمار الأميركي الصهيوني. وأن ندحض المقوله بالقول أين حرب الحضارات؟ كل الحكومات العربية والإسلامية باستثناء سوريا وإيران التي اليوم انفتحت بالاتفاق النووي على الدول الغربية كلها حلقة الناتو، فأين هي هذه الحرب. ثانياً لاحظوا عدد الطلاب العرب الذين يدرسون في الغرب، لو كنا نعتبر أن الغرب عدو حضاري ما كنا أرسلنا

أبناءنا للتعلم في الغرب. انظروا إلى مئات الآلاف من المهاجرين الذين يسعون إلى الهجرة نحو دول غربية كل أبنائها مسيحيون ويهوديون بحثاً عن حياة أفضل، فأين هي حرب الحضارات. ثم إن رفض تحديد ماهية هذه التنظيمات الإرهابية وهل إن الإرهاب محصور بها أم يشمل أيضاً الجهات التي تحتل أراضي الآخرين، نعم حصرها بإطار ديني ضيق يدعم ما يصبو إليه الغرب ويقوي فكرة أن النزاع نزاع حضاري وديني وثقافي.

أخيراً وبنظري، ينبغي تعريب مشاكلنا العربية فنحن وللأسف مدّولون ومؤسّلون، فما هو برنامجنا العربي. نحن لدينا جامعة عربية تحولت إلى مكاتب لدوائر الناتو. إلى متى سنقبل بهذا التدويل لمجتمعاتنا وحكوماتنا وقضاياها. لا بد من إعادة البوصلة إلى مسارها والتركيز عربياً على حل مشاكلنا وأهمها تحرير فلسطين.

# العنف التكفيري من منظور القانون الدولي

الأستاذ الدكتور حازم محمد عتلم<sup>(1)</sup>

## مقدمة

من المعلوم أن تحليل أي ظاهرة اجتماعية – وهذا شأن الجماعات التكفيرية وجماعات العنف التكفيري موضوع هذه الدراسة – يتطلب ابتداءً تحديد ماهيتها؛ أي المقصود منها وعناصرها. غير أننا سوف نتجاوز – عن قصد – الانصراف إلى ذلك، لما قد سوف يرتبه مثل هذا التحديد لمصطلح الجماعات التكفيرية وقربيتها جماعات العنف التكفيري من إسقاط احتمالي حينذاك – عند بعض – على جماعات بذاتها قد يُرى في عقيدتهم انصرافها على الرغم من ذلك إلى هذه أو تلك من التنظيمات المستطلة بالشرعية القانونية وفقاً للمفهوم الدقيق لهذا الاصطلاح.

وأيّاً ما كان عليه الأمر في هذا الشأن، فمن الجدير بالذكر هنا أنَّ الانصراف إلى تحليل موقف القانون الدولي من ظاهرتي الجماعات التكفيرية، وجماعات العنف التكفيري يتمحض – ابتداءً – عن تمحيص للظاهرة ذاتها، بالنظر إلى أن الجماعات التكفيرية – حين قيامها – تعدّ في غير شك الإرهاص الأولى لتمحضها، اللاحق والمبكر، عن جماعات

---

(1) أستاذ ورئيس قسم القانون الدولي العام في كلية الحقوق في جامعة عين شمس، والوكيل السابق لكلية لشؤون الدراسات العليا ولشؤون خدمة المجتمع، من مصر.

للعنف التكفيري بل ومن جانب آخر، فإنه من المعلوم كذلك أن تحليل هذه الظاهرة لا يرتب البَيْتَةَ - في ذاته - إحداث الالتصاق بالضرورة لها مع جماعات العنف السياسي القائمة داخل بعض من الدول الإسلامية، بالنظر إلى توغلها السابق على ذلك داخل التنظير الصهيوني من جانب، وداخل التنظيرات الغربية للصهيونية غير اليهودية، من جانب آخر؛ وإن كانت هذه الورقة البحثية سوف تنصرف فحسب إلى ظاهرة جماعات العنف التكفيري الإسلامية وحدها.

ومن الجدير بالذكر في هذا الشأن أن الجماعات التكفيرية إذا كان وجودها -في ذاته- يرتب التهديد الحالي للسلم والأمن الدوليين وللتعايش السلمي داخل الدول وبينها، إلا أن تحليل موقف القانون الدولي إزاءها يشير ابتداءً -على نحو ما سوف نرى الآن- إلى كالية منهجية جد حادة ليس مردها انتهاءك هذه الجماعات لثوابت المجتمع الدولي ووعيها من ثم بانها كها للمحظور «وفقاً لمبادئ الشرعية الدولية»، وإنما مردها بصفة خاصة إلى «إنكارها» -من البداية- المشروعية القانونية لهذه المبادئ غير المهيأة لجعل هذه الجماعات منضوية تحت رايتها وحيثياتها؛ إذ ذلك التحليل هو ذاته الذي كان قد ساقه في الأرمنة السالفة وإن جيء بذلك في سياق متبادرين الفقه الدولي المُنكر للطابع الملزم لقواعد القانون الدولي، والذي كان قد أذكى في هذا الشأن على الأنظمة القانونية الداخلية على القانون الدولي العام. ولعل هذا العلو منه قبل هذه التنظيمات التكفيرية لمفترضاتها الشرعية غير المسندة إلا استثناء لنصوص القرآن الكريم والستة النبوية -سواء حال لجوئها إلى العنف المسلح أو غير المسلح- هو ما سوف يهيئة هنا لتحليل هذه الأزمة الحادة «للحوار المستحيل» التي تمثل إلى الآن صمام الدفع الأمني الأول الذي تلوذ به في هذا الشأن هذه الأخيرة؛ بل إنه لسوف يتهدأ لنا كذلك هنا أن نستحدث التأمل في قدر التوافق القائم في هذا

الشأن بين أطروحتات هذه الجماعات والأطروحتات التي ذكرّتها – قبلها – جماعات العنف الصهيونية ذاتها.

### أولاً: إنكار مبدأ سيادة الدولة

من المعلوم أن مبدأ سيادة الدول، ولو في حيّاته التي قامت داخل القانون الدولي التقليدي، ينصرف ابتداءً إلى ضمان استقلال الدولة في إدارة شؤونها الداخلية والدولية، وفي ضمان اختصاصاتها المادية والإقليمية والشخصية عن الخضوع للدول الأخرى، وخضوعها من ثم فحسب للقواعد المتفق عليها من قبلها – ولو على الصعيد الشكلي المجرد وحده – مع الدول الأخرى. غير أن الجماعات التكفيرية الإسلامية – في ما يعنيها هنا – وقد صارت إلى إذكاء الالتحام مع النظريات الفقهية غير المنسنة إلى مبادئ الشرعية الإسلامية، والمستحدثة لتقسيم المعمور إلى ثنائية دار الإسلام ودار الحرب<sup>(1)</sup>، فقد رتبت على ذلك إنكار قيام كل من مبدأ الحرمة الإقليمية للدول داخل حدودها السياسية القائمة، واستقلالها في مواجهة الدول الأخرى.

إذاً، دار الإسلام وفقاً لهذا التنظير ليس من شأنه أن يرتب إضفاء الشرعية الدولية على العدوان ذاته فحسب على نحو ما سوف نرى بعد قليل، وإنما يرتب إفراج القانون الدولي من حيّته الأولى المفترضة، أي استناده إلى وجود دول متعددة مستقلة في سيادتها بعضها عن بعضها الآخر، ومتكافئة في السيادة في ما بينها في غير اعتبار لتبني حضارتها وثقافتها. فالواقع أن المقدمة التحليلية لهذه الجماعات التكفيرية، ولو لم تكن بعد

---

(1) انظر تحليل هذا الرأي في: الشيباني، السير، تحقيق: مجید خدوری، بيروت الدار المتحدة للنشر، ص20، وما بعدها؛ حازم محمد عتلم، قانون النزاعات المسلحة الدولي، دار النهضة العربية، ط3، القاهرة، 2014، ص55 وما بعدها؛ انظر كذلك محی الدين قاسم، التقسيم الإسلامي للمعمور، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، القاهرة، 1996، ص97 وما بعدها.

قد شحذت اللجوء إلى العنف، تتصرف إلى استحداث إعلاء هامة «الوحدة القسرية للمجتمع الدولي داخل المنظومة المنسوبة من قبلها إلى الإسلام في شأن إذكاء «الحرب العادلة» في مواجهة الديار غير الإسلامية، وإلى حين الانغلاق، بعيداً عنها بالتأسيس كذلك على حتمية عدم إحداث التعاون الدولي معها إلا في ظل الخضوع إلى افتراضاتها الذاتية.

وإذا كان هذا لسان حال هذه الجماعات إزاء المعمورة غير الإسلامية، ففي الواقع أن ذات هذا التحليل لا يتباين كثيراً حال تنظيرها لطبيعة العلاقات القانونية المفترض شحذها من قبلها داخل النسيج الوطني لكل من الدول ذات السيادة التي تنسب إليها كل من هذه الجماعات بجنسياتها المتباينة؛ إذ هذه الأخيرة ينهض تحليلاً التكفيري إلى الانطباق كذلك ومن جانب آخر، في مواجهة ذات دولها الوطنية، وفي إطار صفة خاصة علاقاتها بالمؤسسات الرسمية لهذه الدول؛ وسواء في ذلك المؤسسية أو التشريعية أو التنفيذية أو القضائية<sup>(1)</sup>؛ إذ التحليل ذاته لعلاقاتها القانونية مع دولها الوطنية.

فالسيادة داخل دار الإسلام والديار الإسلامية لا تتصرف إلى الشخص الاعتباري الموسوم بالدولة التي تلتخص بها هذه السيادة، وإنما إلى الله تعالى وحده، وهو الوضع المرتب لشرعنة لجوئها إلى العنف فيسائر صوره إزاء هذه السلطات كلما جنحت عن إذكاء حياثتها النظرية، وإلى حين إنكار قيامها وإنكار الخضوع، من ثم إلى ما تفرزه هذه السلطات من مفترضات الانصهار داخل منظومة مقتضيات ضمان النظام العام داخلها. فهذا التنظير يرتب إذن هنا إضفاء «المشروعية القانونية» وفقاً

---

(1) انظر في تحليل هذا الرأي: عز الدين فودة، «فكرة السيادة في الدولة الإسلامية: نظرية على الفقهين الحنفي والشافعي»، مجلة: مصر المعاصرة، الجمعية المصرية للاقتصاد السياسي والإحصاء والتشريع، عدد يوليو 1970، ص 586، وما بعدها.

لمنظورها على ممارساته المقوضة لسيادة دولها، والمرتبة من ثم للهدم الاحتمالي لها، بغية «إعادة بعث» الدولة الإسلامية لصدر الإسلام، وهو تحليل يستحيل ترتيبه بحسب المنطق العلمي بالنظر من جانب، إلى إنكار نظم العلاقات الدولية لنظرية بعث الدول التي شدت عنها دولة موسومة بفاسد الشّرق الأوسط، ومن جانب آخر، بالنظر إلى استحالة انصهار النظريّة السياسيّة الإسلاميّة ذاتها على نحو ما سوف نرى داخل مؤديات نظرية الدولة في مفهومها المعاصر.

### ثانيًا: إنكار مبدأ الدولة المدنيّة

ومن نافلة القول إن مبدأ الدولة المدنيّة، ولو في ظل القانون الدولي التقليدي المسند إلى أنظمة الحكم الملكية الشموليّة، كانت حيّاته تسند إلى استقلال السلطة السياسيّة داخل كل من الدول الأوروبيّة عن الخضوع للسلطان السياسي للكنيسة الكاثوليكيّة. ومن الجدير بالذكر هنا أن «النظرية» السياسيّة الإسلاميّة في شأن تقسيم المعمورة، وبحق على نحو مسند لأول وهلة إلى ثلاثة دار الإسلام ودار العهد ودار الحرب لم ترتكز البُنْتَة في وجودها إلى الحِيَّات الدينية، وإنما بصفة خاصة إلى الملاعِمات التاريχية السياسيّة المسندة، أو غير المسندة إلى مبدأ الشورى الذي أعلنت هامته الشريعة الإسلاميّة الغراء.

غير أن الجماعات التكفيرية تذكّي أطروحتها النظريّة على العكس من ذلك؛ ضرورة إخضاع نظام الحكم داخل مجتمعاتها إلى حيّيات شحد حُكُومَة قضاة أهل الحل والعقد<sup>(١)</sup>، المُعَدّين كذلك اختياراً أو قسرًا من قبلها؛ إذ إن الدولة الدينية – ولو تجاوزنا هنا حين توسيم المجتمع السياسي الإسلامي بالظاهرة القانونية للدولة في مفهومها الحديث – لا تُسند

---

(١) انظر في تحليل هذا الرأي: علي عبد الرزاق، الإسلام وأصول الحكم، القاهرة، ١٩٢٥، ص ١١ وما بعدها.

البنة إلى النظرية القانونية للإسلام؛ إذ ذلك مردّه هنا من جانب الالتحام العضوي لنظرية الدولة داخل القانون الدولي العام مع نظرية الجنسية غير المعمودة في النظرية السياسية الإسلامية، بل مردّه كذلك من جانب آخر، إلى انصراف مفهوم الدولة المدنية إلى الالتصاق فحسب بالتطور التاريخي السياسي الأوروبي ذاته منذ عصر النهضة، وخلافاً لما قامت قائمته في الديار الإسلامية قاطبة.

### ثالثاً: إنكار مبدأ القوميات في مفهوم القانوني

ومن المعلوم كذلك أن مبدأ القوميات الذي أُسندت إليه في الممارسات الدولية كل من الملكيات الأوروبية منذ القرن السابع عشر بغية إحقاق الوحدة السياسية لكل منها ما لبث أن شيد صرحوه النظري في القانون الوضعي المعاصر الإيطالي مانسيني في القرن التاسع عشر لأغراض التأسيس النظري لهذه الغاية ذاتها في شأن تحقيق الوحدة الإيطالية. وهو الوضع الذي رتب في هذا الشأن البزوج المعاصر لكل من مبدأ الجنسية في مفهومه القانوني المستند إلى الانصهار السياسي للجماعة الوطنية داخل دولة الجنسية، ومبدأ القوميات المستند إلى الالتحام الاجتماعي والسياسي للجماعة الوطنية داخل الغلاف السيادي لدولة واحدة تنضوي داخلها هذه الأخيرة بجنسية مشتركة.

غير أن حيّيات الجماعات التكفيرية إذ صارت هنا كذلك إلى إفراغ العروة الوثقى القائمة بين كل من مبدأ الجنسية ومبدأ القوميات<sup>(1)</sup>، صارت من ثم إلى عقد لواء الاعتماد المتبادل بين هذا الأخير، وبين المفهوم النظري غير المستند إلى النظرية الإسلامية لكل من دار الإسلام ودار الحرب. وقد رتب ذلك هنا أن أُسندت كذلك من خلاله هذه الجماعات تقسيمها الثنائي للمعمورة إلى مبدأ القوميات وحده من حيث عدّها

---

(1) المصدر نفسه، ص 581 وما بعدها.

المجتمعات الإسلامية في مجملها وحدة سياسية وقانونية واحدة مسندة فحسب إلى «القومية الإسلامية». ومن نافلة القول إن مبدأ القوميات، في مفهومه المعاصر، يرتب في ذاته عدم التطابق الضروري بين الالتحام القانوني لهذا الأخير مع مبدأ الجنسية في حق الجماعة الوطنية ذاتها؛ وإن توحدت تاريخياً حضارتها السياسية أو الاجتماعية أو القانونية، بالنظر إلى ارتکاز مفهوم الجماعة الوطنية إلى مبدأ الجنسية وحده.

فمفهوم القومية الإسلامية وإن أُسند تحليله في هذا الشأن إلى الوحدة الدينية القائمة داخل المعمورة الإسلامية، أغفل في غير شك التباين التاريخي والحضاري والسياسي والقانوني والاجتماعي والثقافي، بل والأمانى السياسية المتباينة القائمة على الرغم من ذلك داخل كل من الجماعات الوطنية الإسلامية وإن التحتمت معًا في ظل راية المنظومة السياسية الفقهية لدراسة الإسلام.

فنظريّة القومية الإسلامية التي أنكر قيامها داخل التاريخ السياسي الإسلامي يستحيل كذلك تحقّيقها داخل السياح القانوني للمجتمعات السياسية الإسلامية ذاتها، وعلى ذات النحو الذي ترتب من ذي قبل داخل مجمل الأنظمة السياسية التي شهدت الإذابة – القسرية – للحدود السياسية بين الدول بالإسناد فحسب إلى الالتحام الاجتماعي بينها؛ إذ الانصهار القانوني بين المجتمعات الإسلامية لا ولن يمكن البتة تصوره على هذا النحو؛ اللهم إلا إذا ما ترتب – طوغاً وداخل نظم القانون الدولي الوضعي – في ضوء الاستعارة النظرية تجاوزاً لمفهوم الدولة الكونفدرالية<sup>(1)</sup> المتطلب في الأزمنة المعاصرة انصهارها بين المنظمات الدولية الإقليمية الخاضعة بالضرورة لأهداف ومبادئ ميثاق الأمم المتحدة، وهو التحليل الذي

---

(1) انظر: حازم محمد عتل، منظمة الأمم المتحدة في ضوء النظرية العامة للمنظمات الدولية، دار النهضة العربية، ط3، القاهرة، 2014، ص55 وما بعدها.

تناهضه في غير شكل المقومات التحليلية للجماعات التكفيرية ليس فحسب بالنظر إلى إنكارها كل من مبدأ سيادة الدول والمساواة في السيادة بينها (المادة 2 / 1 من ميثاق الأمم المتحدة)، فضلاً عن إنكار مبدأ الدولة المدنية، بل وعدم استنادها الضروري لمبدأ الجنسية إلى نظرية القوميات على نحو ما تقدم، وإنما كذلك بالنظر إلى إنكار هذه الجماعات لقواعد الآمرة الأخرى المنضمة داخل ميثاق الأمم المتحدة على نحو ما سوف نرى الآن.

#### **رابعاً: إنكار القواعد الآمرة الأخرى للقانون الدولي المضمنة داخل ميثاق الأمم المتحدة**

ومن المعلوم أن مبدأ سيادة الدول وقرنه مبدأ المساواة في السيادة بينها لم تصر حيشهاته إلى عدم التوافق مع المعتقدات النظرية لهذه الجماعات فحسب؛ إذ إن القواعد الآمرة الأخرى للقانون الدولي المعاصر ترتكز كذلك بالأمتياز بحسب المادتين الأولى والثانية من ميثاق الأمم المتحدة إلى كل من مبدأ حظر استخدام القوة في العلاقات الدولية من جانب، وإلى ضمان حق الشعوب سواء الخاضعة للاستعمار أو المستطلة بدولها الوطنية في تقرير المصير من جانب آخر، فضلاً عن الضمان داخل كلٍ منها وعلى نحو متكافئ للحقوق الأساسية للإنسان في غير تمييز، وفي إطار الالتحام لإنفاذ مجمل هذه الأهداف والمبادئ مع مبدأ التعاون الدولي، الذي عهد ميثاق الأمم المتحدة ذاته للمنظمة العالمية للأمم بإدارة منظوميته التشريعية والرقابية.

ومن نافلة القول إنه يصعب ابتداءً إحداث التوافق بين هذه القواعد الآمرة للقانون الدولي مع المنظومة التحليلية لجماعات العنف التكفيري؛ إذ من جانب، فإن مبدأ حظر التهديد باستخدام القوة المسلحة أو استخدامها الحال في العلاقات الدولية يصعب في غير شكل انصرافه داخل الافتراضات النظرية لهذه الجماعات المسند تحليلها إلى ذات التقسيم

الثنائي للمعمورة المرتب لدى هذه الجماعات إسباغ المشروعية القانونية – بل وفرض العين – على «الحرب العادلة للجهاد الإسلامي»<sup>(1)</sup> ذاته في مواجهة مجمل المعمورة غير الإسلامية.

ومن جانب آخر، فمبدأ حق الشعوب في تقرير المصير إذا كان على هذا النحو يستحيل إنفاذه في حق شعوب الديار غير الإسلامية وفقاً لهذا المنظور، فإنه يصعب كذلك انتصاره في إطار هذا المنظور ذاته داخل المعمورة الإسلامية ذاتها – القومية الإسلامية في مجملها – كلها لم تصر سلطاتها السياسية ذاتها إلى الاستحساث الفاعل لتشييد صرح الدولة الدينية الإسلامية داخل مجتمعاتها. فهذا الوضع يرتب من ثم التهيئة كذلك لهذه الجماعات للجوء إلى استحساث الحق المشروع لها في فرض تأسيس الدولة الدينية – ولو قسراً – داخل إقليمها، وفي غير اعتبار من قبلها لمبدأ السيادة الشعبية<sup>(2)</sup>؛ إذ العنف المسلح الذي تذكى الحرب العادلة المقدسة في مواجهة الأماني المنشورة «للأغيار» يصير من ثم مؤسساً في مواجهة الأماني المنشورة لشعوب الديار غير الإسلامية، والديار الإسلامية في غير تمييز.

ومن جانب ثالث، فإن هذا التحليل ذاته ينطبق كذلك هنا في إطار هذا المنظور حال انصراف هذه الجماعات إلى تحليل المجال الشخصي؛ لإنفاذ الحقوق الأساسية للإنسان؛ إذ في إطار هذا التنظير، فإنه من غير المتصور كفالة حقوق الإنسان وضمانها إلا من خلال إحداث عدم التكافؤ في شأن إنفاذه إلا بالارتكاز على التمييز على أساس من العقيدة الدينية، وعلى أساس من التمييز كذلك بين الرجال والنساء، بل والأطفال ذاتهم<sup>(3)</sup>.

---

(1) محى الدين قاسم، التقسيم الإسلامي للمعمورة، ص 119 وما بعدها.

(2) علي عبد الرزاق، الإسلام وأصول الحكم، ص 18 وما بعدها.

(3) انظر في تحليل هذا الرأي: محمد محمد فرات، مبادئ العلاقات الدولية في الشريعة الإسلامية، دار النهضة العربية، 1992، ص 15 وما بعدها.

## **خامسًا: إنكار القاعدة الآمرة للقانون الدولي الإنساني**

في الحقيقة إن هذا التنظير من قبل هذه الجماعات لماهية الحرب العادلة ربّأ أيضًا من جهة أخرى، إضفاء الشرعية القانونية من قبلها على نظرية الحرب الشاملة<sup>(1)</sup> الذي كان قد أعلى هامتها داخل الفقه الغربي في القرن التاسع عشر الألماني كلاوزفيتز. وإذا كان لم يخرج عن حدود هذه الدراسة تحليل مبادئ القانون الدولي، أو النزاعات المسلحة غير ذات الطابع الدولي لأغراض إضفاء الحد الأدنى من مقتضيات الإنسانية حال إدارتها بين الخصوم، فإنه لما يترتب هنا لي لإذكاء هذا المفهوم للحرب العادلة أن يستتبع إطلاق العنان «للحجّاد» الإسلامي في مواجهة خصومه الداخليين والدوليين من خلال منهاجية الحرب الشاملة، وفي غير خضوع من ثم لمبادئ القانون الدولي الإنساني – وعلى سبيل المثال وليس الحصر – في شأن التمييز بين المقاتلين وغير المقاتلين، وتقيد حرية الخصوم في استخدام أسلحة القتال، وحظر تجنيد المرتزقة، وحظر انتهاك الحرمة المطلقة للمدنيين والأعيان المدنية..

## **سادسًا: إنكار التجريم الدولي للانتهاكات الجسيمة لقواعد الآمرة الوضعية الدولية كلما صدرت عن جماعات العنف التكفيري**

ومن المعلوم أن الكثير من الأفعال الدولية غير المسوّرة الصادرة عن الأفراد تعدّ جرائم دولية بحسب قواعد القانون الدولي ذاته، وليس فحسب بالإسناد إلى التشريعات الداخلية للدول ومنها الدول الإسلامية ذاتها، بالنظر إلى تعددها بين الانتهاكات الجسيمة لأمن وسلامة الجماعة الدولية في مجملها. وهي على هذا النحو ترتب حين الإخلال بها المسائلة

---

(1) المصدر نفسه، ص 115 وما بعدها.

الدولية لمفترفيها ولو صاروا مسؤولين قياديين للدول، بالتأسيس على مبدأ الاختصاص الجنائي العالمي.

ومن نافلة القول إن الكثير من الجرائم الصادرة عن الجماعات التكفيرية، سواء حين لجوئها إلى العنف المسلح أو قبله أو في أثره، تنضوي تحت لواء الكثير من هذه الجرائم الدولية الأشد خطورة؛ إذ هذا شأن جرائم الإرهاب الدولي، وجرائم غسل الأموال، وجرائم تمويل الإرهاب، والجرائم المنظمة عبر الدول، وجرائم الحرب، وجريمة العدوان، والجرائم ضد الإنسانية، وجرائم التدخل غير المشروع في التزاعات المسلحة الدولية وغير ذات الطابع الدولي، وجرائم التدخل العسكري أو شبه العسكري بمناسبة مثل هذه التزاعات، وانتهاك الحرمة الإقليمية للدول، وجرائم التمييز العنصري، وانتهاك الحقوق الأساسية للإنسان، والتمييز ضد المرأة، وانتهاك حقوق الطفل، وجرائم تجنيد المرتزقة، والانتهاكات الجسيمة لمبادئ وقواعد القانون الدولي الإنساني.

غير أن الأزمة الحادة القائمة هنا بالنظر إلى إعلاء هذه الجماعات لتنظير الحرب العادلة من جانب، وال الحرب الشاملة من جانب آخر، يرتب في هذا الشأن عدّ هذه الممارسات الصادرة عنها - والمعدّة جرائم دولية وفقاً لمبادئ القانون الدولي المتفق عليها بين الدول. «أفعلاً دولية مباحة» بالتأسيس على منظورها الذاتي؛ إذ «القصد الخاص» المتطلب وفقاً للقانون الجزائري الداخلي والدولي لاستيفاء الركن المعنوي للتجريم، سوف يستحيل هنا، في عقيدة جماعات العنف التكفيري نسبته إليها؛ بالنظر إلى إحداثها الانفصال البرمي والعضووي بين شريعتها العادلة، والشريعة الوضعية الداخلية والدولية للدول على حد سواء، وضمانها من ثم - على نحو ما تقدم - علو عدالتها الذاتية<sup>(1)</sup> في مواجهة العدالة الوضعية.

---

(1) الشيباني، المسير، ص 27-28

## خاتمة الدراسة

لم تكن – لأول وهلة – الغاية من هذه الدراسة تحليل موقع أعمال العنف الصادرة عن الجماعات التكفيرية بالتأسيس على تمحیص التکیف القانونی لها في ضوء أحكام القانون الدولي؛ إذ الانصراف ابتداءً إلى ذلك كان سوف يفترض عدّ تمحیص هذا التکیف بمثابة إشکالیة منهاجیة تتطلب الوصول إلى تمحیصها. غير أنه من الثابت ابتداءً – وهذه هنا تعد مقدمة وضعیة غير مشکوک فيهاـ إن الممارسات الصادرة عن هذه الجماعات تتمخض عن الانتهک السافر والجسیم للقواعد الآمرة لهذا القانون؛ بل ولقواعد نفسها الآمرة للنظام العام للدول التي تخضع لاختصاصها الشخصي كل من هذه الجماعات.

بل إنه لم تكن كذلك – لأول وهلة – الغاية من هذه الدراسة تحليل موقع ممارسات هذه الجماعات للعنف التکفیري داخل منظومة الشريعة الإسلامية الغراء؛ إذ فضلاً عن أن تحليل التکیف القانونی لها وفقاً للمرجعية الإسلامية يخرج عن نطاق المحور التحليلي الذي انصرفت إليه هذه الورقة البحثية داخل هذه الندوة للمركز الاستشاري اللبناني للدراسات والتوثيق، فإنه من الثابت – كذلكـ لکل من انصرف إلى تحليل نظم العلاقات الدولية في الإسلام، وبالإسناد إلى نصوص القرآن الكريم والستة النبوية وحدهما، لا يمكن شحذ أي منها – ولو من قبل المتخصصين بين المستشرقين الغربيين المعاصرینـ لأغراض تأسيس مشروعية أعمال التروع والعنف المسلح وغير المسلح الصادرة عن هذه الجماعات.

بل وفي شأن البحث عن تأسيس شرعية أحكام القانون الوضعي الدولي والداخلي على حد سواء، فإنه من نافلة القول من جانب آخر، أن المرجعية الإسلامية لا – ولنـ تمثل البُتة المصدر الشکلی الرئیسي لقواعد القانون الدولي – وإن انصرفت عن أحد مصادرة التبعية الاحتیاطیة على

نحو ما سوف نرى - بالنظر إلى تأسيس الطابع الملزم لقواعد على ارتضاء الدول، وفي غير اعتبار لتبني حضارتها القانونية والثقافية والاجتماعية؛ خلافاً لما كان عليه الوضع في ظل القانون الدولي التقليدي.

فالواقع أن البؤرة الرئيسية التحليلية لهذه الورقة البحثية صارت -بادئ ذي بدء- إلى سبر أغوار التحليل النظري - إن صح تجاوزاً استخدام هذا المصطلح هنا - الذي تبنته جماعات العنف التكفيري في شأن التأكيد على المشروعية الدينية لإهدارها في شأن التأكيد على المشروعية الدينية لإصدارها الفج - وعن وعي - لقواعد الآمرة للقانون الدولي :

1- أُسند بادئ ذي بدء تحليل جماعات العنف التكفيري المشروعية القانونية لإهدارها الفج لقواعد الآمرة للقانون الدولي وللأنظمة القانونية الداخلية للدول إلى إذكائها علو التنظير التكفيري على هذه الثوابت للنظام العام الدولي والداخلي للدول في غير تمييز على النحو الضامن تنحية هذه الأخيرة كلما اصطدمت مع مقدمتها التنظيرية .

إذ هذا التحليل المرتب في غير شك إنكار الطابع الملزم لقواعد القانون الدولي الوضعي المتواافق عليها بين الدول رتب هنا - كذلك - بث النظريات التي سادت ما بين القرن السابع عشر والقرن التاسع عشر لدى جانب من الفقه الدولي، الذي كان قد أنكر الطابع الملزم لقواعد الارتضائية لهذا القانون كلما تعارضت مع الأنظمة القانونية الداخلية لها.

2- إن تحليل الجماعات التكفيرية لعلو افتراضاتها النظرية الدينية - ولو جاز التجاوز هنا حال استخدام هذه العبارة - رتب من جانب آخر، بعث هذه الجماعات لنظريات القانون الطبيعي التي كانت قد أُسندت فحسب الطابع الملزم لقواعد القانون الوضعي إلى توافقها مع قواعد القانون الطبيعي المضمون لها من ثم العلو على الأولى حال عدم التوافق بينها. ولا مراء في أن إسناد الطابع الملزم لقواعد القانون الوضعي في

مجملها -وفي إطار قواعد القانون الدولي والأنظمة القانونية الداخلية للدول في غير تمييز- إلى القانون الطبيعي فضلاً عن أنه يرتب التباين الحاد بين الدول في تحديد كنهه و Maheriyah، فإنه يغفل كذلك إسناد الطابع الملزم لقواعد القانون الوضعي -حال اعتمادها وحال إنفاذها في غير تمييز- إلى الترتيب الظيفي القائم داخل كل من المجتمع الدولي والمجتمعات الداخلية للدول بين أشخاصها، ودونما إغفال لاستحالة انتصاف العنف التكفيري داخل منظومة القيم الأدبية لمدارس القانون الطبيعي التي تقع بينها الشريعة الإسلامية الغراء ذاتها.

3- إن مجمل التنظير الذي ساقته جماعات العنف التكفيري استبقها إليه من جانب، إبان المرحلة الثانية العصور الوسطى منظرو الحروب الصليبية وبصفة خاصة منذ القرن التاسع عشر وإلى الآن منظرو الصهيونية العالمية في شأن التهجير القسري للشعب الفلسطيني من وطنه التاريخي، وفي شأن تعضيد قيام الدولة اليهودية داخل الإقليم الفلسطيني في مجمله. وهو وضع من شأنه يثير -في الحقيقة- التساؤل في شأن مدى قيام ثمة توافق واعتماد متبادل بين العنف التكفيري الصهيوني والإسرائيلي، والعنف التكفيري للجماعات موضوع هذه الدراسة.

4- إن حقيقة إقصاء شعوب دول العالم الثالث عن المشاركة المتكافئة في صناعة قواعد القانون الدولي في إطار التقسيم الدولي غير المتكافئ للعمل؛ بل وإقصاء هذه الشعوب ذاتها داخل دولها من قبل حكوماتها عن التمتع بالحقوق الأساسية للإنسان -وبصفة خاصة في ما يعنيها هنا- الحق في التعليم والغذاء والتعبير السلمي عن الرأي، والعقيدة من خلال إذكاء هذه الحكومات ذاتها للتقسيم الداخلي غير المتكافئ للعمل في مواجهة شعوبها لا يمكن البة عزله حين تحليل الأسباب الكامنة وراء تعاظم أطروحتات جماعات العنف التكفيري. ولعله من الجدير بالذكر في هذا الشأن، أن بين منظري هذه الجماعات من صاروا إلى ذلك فحسب منذ

«استضافتهم» في غياب المعتقلات المودع داخلها مرتكبو «جرائم» التعبير السلمي عن العقيدة والرأي. إذ لا يستغرب من ثم هنا أن أحد رواد التنظير التكفيري -السيد سابق- قد صار إلى إصدار مؤلفه ذاتع الصيت «الفرضية الغائبة» داخل هذه المعتقلات، وقبل توقع عقوبة الإعدام عليه.

5- وأخيراً وليس آخرًا، فإنه من الجدير كذلك بالذكر أن منظري العنف التكفيري -الذى يستحيل توطينه إلا خارج منظومة التاريخ- قد أغفل، وبالتأسيس على هذا التوطين الزمانى له، حقيقة انصراف مبادئ الشريعة الإسلامية السمحاء والغراء داخلها؛ بين المصادر الشكلية التكميلية التي تفرغ داخلها القواعد السلوكية الملزمة للقانون الدولي. ونقصد بذلك هنا «المبادئ العامة للقانون» الثابتة -على نحو مشترك- بين الحضارات القانونية الرئيسية الداخلية للدول؛ إذ هذه الحضارات -التي يقع داخلها كل من النظام القانوني لـ law kemen، والنظام القانوني الماركسي والنظام القانوني لدول الشرق الأقصى....- تتبوأ كذلك داخلها وعلى نحو متكافئ مبادئ الشريعة الإسلامية ذاتها التي جيء فضلاً عن ذلك إسناد أحكام القضاء الدولي إلى مبادئها وقواعدها بمناسبة المنازعات التي انصرفت بين أطرافها إحدى الدول الإسلامية.



### **الجلسة الثالثة**

## **البني التنظيمية والمالية وأنماط العمليين العسكري والاجتماعي وآليات الاستقطاب**

- كلمة رئيس الجلسة (الشيخ محمد حسن زراقط)
- العلاقة بين الجماعات: التحالفات والنزاعات  
(الأستاذ عبد الله سليمان علي)
- تنظيم الدولة الإسلامية «داعش»: البنى والهيكل التنظيمية والمالية وآليات الاستقطاب (الأستاذ مصطفى زهران)
- جماعات العنف الجهادي: البنى العسكرية وأساليب القتال  
(الأستاذ سمير الحسن)
- انحراف الفئات الشابة في جماعات العنف المتطرفة: دراسة حالي تونس وليبيا (الأستاذ نوافل صديق)



## كلمة رئيس الجلسة

الشيخ محمد حسن زراقط<sup>(١)</sup>

في سياق الكلام عن العنف التكفيري لا بد من الالتفات إلى نقاط:

أولاً: لا بد من الالتفات إلى سؤال مهم وهو حول مدى دور الدين في هذا العنف. هذا العنف الذي نشاهده والذي يقدّم ويُغَلِّف باسم الإسلام، هل الدين فعلاً بشكل حقيقي وواقعي هو الذي يقف وراءه.

وثانياً: على عبد الرزاق طرح في فترة من الفترات أنه ليس في الإسلام دولة وما زال مع الأسف بعض مثقفينا يرددون هذه الكلمة بعده بغض النظر عن صوابها، واعتراضي هو على طرحها كمسلممة من المسلمين وبديهيّة من البديهيّات مع أنه بالحد الأدنى احتمال وجود مجموعة كبيرة جدًا من القيم الإسلامية التي تضبط أو تحكم حركة الدولة يسمح لنا في وصف الدولة بأنها إسلامية.

وتجربة النبي (ص)، تعين ولاة، تعين قضاة، الحروب التي خاضها، أظن أنها تجربة كافية للحديث بالحد الأدنى عن احتمال وجود دولة دينية وعدم التعامل مع فكرة الدولة الدينية على أنها مرفوضة بشكل كامل.

---

(1) أستاذ في الحوزة العلمية وفي الجامعة اليسوعية، من لبنان.

بالنسبة إلى الدولة القومية، أعتقد أن الدولة القومية كانت فاشلة في العالم العربي؛ إذ للأسف لم نشهد دولة قومية بكل ما للكلمة من معنى، لكن العالم العربي على الرغم من عروبيه يصعب إدارته بدولة قومية، على الأقل واقعنا الحالي في لبنان وجوار لبنان يشهد على وجود قوميات أخرى لم تعد تستطيع أن تتحمل العيش تحت عنوان العروبة بالطريقة التي كان يردد لها القوميون العرب في فترة من الفترات.

ثالثاً: لا نقبل كلام من يدعي ازدياد منسوب التكفير في كتب التعليم السنوي والشيعي. فمعلوماتي أنه عند الشيعة يعتبر أهل السنة مسلمين وعدم كفرهم هو بديهية من البديهيات التي لا تستحق النقاش فيها، والعكس صحيح. نعم ربما تقدم فيها بعض الأحيان بعض الصور السلبية، إلا أن الحديث عن أن منسوب التكفير المتبادل بين السنة والشيعة مرتفع إلى هذه الدرجة فيه مبالغة ومجافاة للواقع.

# العلاقة بين الجماعات: التحالفات والنزاعات

الأستاذ عبد الله سليمان علي<sup>(1)</sup>

## ملخص الدراسة

نمت التنظيمات «الجهادية» وانتشرت فرق الأراضي التي سيطرت عليها، وكأنها «جيش الظل» الذي يعمل في الخفاء، بينما كانت عملياتها تُنسب إعلامياً إلى «الجيش الحر» الذي كان يفترض أنه الجناح العسكري للمعارضة السياسية.

وثمة حقيقةتان تؤكدهما الواقع التي انطوت عليها الأزمة السورية منذ انتلقتها:

**الحقيقة الأولى:** أن «جيش الظل» أو التنظيمات الجهادية، كان يسير في النصف الأول من عمر الأزمة السورية، بمسار مواز للمسار الذي كان يسير به «الجيش» الحر سواء من حيث الإعلان عن التأسيس، أو مصادفة إعادة هيكلته لمفاصل أساسية كانت تمر بها الأزمة السورية وأهمها مؤتمر جنيف 1 و2. وذلك قبل أن يصبح «جيش الظل» هو المهيمن الذي تتسلط عليه الأضواء منذ منتصف العام 2013.

---

(1) باحث وصحفي متابع لشؤون التنظيمات الجهادية، من سوريا.

**الحقيقة الثانية:** أنه على الرغم من التشابه العقدي والإيديولوجي بين العديد من مكوناته، إلا أن «جيش الظل» لم يكن متماسكاً. وهو اضطرَّ في بعض المنعطفات إلى أن يعيد تشكيل نفسه سواء بدخول بعض مكوناته في تحالفات في ما بينها أو الاكتفاء بتشكيل «غرف عمليات» ذات تنسيق عسكري بحت. إلا أن تقدم الأزمة السورية كشف عن وجود خلافات عميقة بين التنظيمات ذات المنبع الواحد، وصلت في أحيان كثيرة إلى درجة الاقتتال العنيف والمتواصل.

ولم تكن هذه التنظيمات في علاقاتها البنية، بعيدة عن مسار الأزمة السورية التي تحولت إلى بؤرة للتدخلات الإقليمية والدولية. فكانت بعض الاختلافات العقدية، إلى جانب تضارب المصالح، والتنافس على السيطرة والنفوذ والمناصب، من العوامل التي لعبت دوراً في صياغة تحالفاتها كما خلافاتها. إلا أن المؤكد أن المحاور الإقليمية والدولية التي نشأت حول الأزمة السورية لعبت دوراً مركزيًّا في المساهمة في هذه الصياغة عبر اللعب على حبال التناقضات التي امتدت بين هذه التنظيمات.

إلا أن خروج تنظيم «داعش» من تحت الغطاء الذي كان يتستر به وهو «جبهة النصرة»، والإعلان عن نفسه صراحة وعن طموحاته التمددية، كان بمثابة التزلزال الذي ضرب الساحة السورية، وعرض التنظيمات الجهادية لأصعب اختبار تواجهه؛ لأن هذه التنظيمات كانت تطمح لأن تكون البديل عن النظام السوري في حال سقوطه، وبعضها أجرى تعديلات واسعة على خطابه وأدبياته في محاولة لنيل الرضا الغربي. لكن دخول «داعش» على الخط وسيطرته على أجزاء واسعة من الأراضي التي كانت تحت سيطرة هذه التنظيمات، جعلها تشعر أن طموحها أصبح في خبر كان.

ونتيجة التعقيد في خريطة السيطرة على الأراضي السورية، الأمر الذي نتج عنه انقطاع خطوط الإمداد والمواصلات، وجدت هذه التنظيمات

نفسها تنزلق إلى مستنقع المناطقية، الأمر الذي حفّز في نفوسها الاقتداء بخصمها اللدود وإنشاء إمارات خاصة بها. الأمر الذي وسّع الهوة في ما بينها، وجعلها مطية أسهل للتدخلات الخارجية.

وعلى وقع عمليات التحالف الدولي، وعاصفة الحزم السعودية، والمنطقة العازلة التركية، وجدت هذه التنظيمات نفسها مضطرة إلى الانضواء تحت أحد هذه المشاريع، الأمر الذي سرع حدوث الانشطار الجهادي ليس بين التنظيمات فحسب؛ بل داخل كل تنظيم، فأصبح في كل تنظيم تياران مختلفان في الرؤية المنهجية والسياسية.

لكن هذا الانقسام ليس نهاية الطريق، فلا يزال أمام الفصائل الإسلامية مشوار طويلاً ستتخذه المزيد من محطات الافتراق والمفاصلة، لأن الرضوخ بشكل أو باخر لمتطلبات السياسة الإقليمية والدولية، لا يعني عدم وجود تيارات داخل بعض الفصائل ترفض مثل هذا الرضوخ. وقد لا يطول الوقت قبل أن تقول كلمتها حوله، وعندئذ ستكون الساحة السورية أمام منعطاف جديد قد لا تتوقف تداعياته عليها وحدها؛ بل قد تمتد وتشتت في اتجاهات مختلفة.

## تمهيد

يتسم المشهد «الجهادي» في سوريا بالتعقيد والتشابك وتدخل الأطراف المؤثرة فيه، وتعدد الآثار التي يمكن أن تنجم عنه، لدرجة أن الكثير من الباحثين يجد صعوبة في متابعة هذا المشهد والتمييز بين مكوناته وفهم العلاقة التي تربط بينها. فكيف الحال بالمتابع العادي الذي لا يجد الوقت الكافي لتلقي سيل الأخبار الذي ينهمر عليه من فضاء المحطات، أو موقع التواصل الاجتماعي، قادماً من ميادين القتال في سوريا على تعدد جبهاتها واختلاف المتقاتلين فيها؟

ولا يقتصر التعقيد، فقط، على تعدد جبهات القتال القائمة بين الجيش السوري من جهة، وبين الفصائل المسلحة منفردة أو مجتمعة من جهة ثانية. كما لا يقتصر على اختلاف الفصائل في ما بينها من حيث الإيديولوجيا والمنهج والانتماء والسلوك والارتباط الداخلي أو الخارجي. فالمشهد «الجاهادي» السوري ينطوي كذلك على تعقيدات جمّة حتى ضمن الفصيل الواحد، بحيث يمكننا أن نرى بوضوح أن بعض هذه الفصائل - وهي أهم الفصائل الموجودة في الساحة وأكثرها تأثيراً - تتصارع وتنافس في داخلها تيارات عقدية وفكريّة وسياسية وعسكرية مختلفة. وكل واحد من هذه التيارات ضمن الفصيل الواحد، له ما يشبهه ضمن فصائل أخرى، كما إنّ له ما ينافقه ويعادي. وقد انعكس ذلك بشكل مباشر على العلاقة بين الفصائل بعضها بعضاً من حيث التقارب أو التباعد؛ بل إنّ هذا التقارب والتباعد أصبح يختلف باختلاف المنطقة بحسب التيار الذي يهيمن على الفصيل في هذه المنطقة أو تلك، فهو يتقارب مع فصيل معين في منطقة ما، لكنه يعاديه ويقاتلته في منطقة أخرى.

وقد تبدو هذه الأمور مجرد تفاصيل صغيرة في اللوحة الكبيرة التي ترسم فوق الأراضي السورية منذ حوالي خمس سنوات، آخذةً شكل أخطر أزمة تمرّ على المنطقة والعالم منذ بداية القرن الحالي. ولا يوجد من يجادل في خطورة الأزمة السورية وأنها باتت تمثل نقطة جذب عالمية تمحور حولها سياسات الدول، وتقوم على أساسها تحالفات جديدة، ويتوقف عليها مصير العديد من ملفات المنطقة. وكلما أخذت النظرة إلى الأزمة السورية طابعاً استراتيجياً شاملاً، بدا معها «المشهد الجاهادي» لدى بعض صغيراً الدرجة اعتباره مجرد عنصر عابر خلفته تداعيات الأزمة نفسها، وليس مكوناً أصيلاً من مكوناتها.

والحقيقة أن «المشهد الجاهادي» السوري، في التوقيت الذي تشكّل به ضمن ظروف إقليمية ودولية تنذر بتحولات جيوسياسية كبيرة قد تطال

المنطقة بأسرها، وبما انطوى عليه من أحداث نوعية تركت تأثيراً واضحاً على عموم «المشهد الجهادي» في العالم، ونظرًا إلى ما بات يمثله من خطر محدق بالعديد من دول المنطقة بعد أن خرجم الرئيشه عن سيطرة الرسّام وأصبحت بقع الأحمر الدموي والأسود التكفيري تتشرّب بشكل فوضوي من دولة إلى أخرى، أصبح هذا المشهد يطغى على اللوحة الكبيرة، وباتت انعكاسات الألوان الحمراء والسوداء تهيمن على ألوان الأزمة السورية الأخرى، الأمر الذي ظهر جلياً في مواقف بعض الأطراف الإقليمية والدولية الفاعلة في الأزمة السورية، حيث لم يعد أحد من هذه الأطراف ينكر ضرورة مكافحة الإرهاب باعتباره أمراً لا بد منه لحل الأزمة، غير أن بعض هذه الدول ومن بينها دول مؤثرة، ما تزال تراهن على خلطة الألوان السابقة والتدخل المشهدي؛ لفرض بدورها حلاً مختلطًا يجعل مكافحة الإرهاب تسير بالتوازي مع هدفها القديم القاضي بتغيير نظام الحكم في سوريا.

لذلك، وانطلاقاً من أهمية «المشهد الجهادي» السوري وخطورته والتداعيات الكبيرة التي يمكن أن تترتب عليه سواء في سوريا أو على صعيد المنطقة بأكملها، كان من الضروري وضع هذا المشهد تحت مجهر البحث لمعرفة أهم مكوناته التي يتالف منها، وطبيعة العلاقات القائمة بين هذه المكونات، سواء على صعيد التحالف في ما بينها، أو على صعيد التخاصم والتقا�ل في ما بينها. ومثل هذه النظرة المجهرية هي ما تطمح إلى تحقيقه هذه الدراسة، التي تتوكّي من وراء ذلك الوصول إلى نتائج تتعلق بالأسباب الحقيقة لتقارب وتبعاد الفصائل «الجهادية» في ما بينها، وهل ترتبط هذه الأسباب بالإيديولوجيا أم بالسياسة؟ وهل تنبع من داخل الفصائل أم تفرض عليها من خارجها؟ وكذلك محاولة استشراف ما سيؤول إليه المشهد «الجهادي» السوري في ظل التطورات المتلاحقة، والتي كان آخرها بروز جملة من التناقضات والتباينات بين اثنتين من أبرز هذه الفصائل وهما

«جبهة النصرة» و«أحرار الشام»، وهل يوجد مدى معين يمكن أن تتوقف عنده هذه التطورات أم أن الانشطار «الجهادي» مستمر حتى إشعار آخر؟

### أولاً: البدایات: کمون الحالۃ «الجهادية» خلف الهدف المعلن

لا بدّ لفهم «المشهد الجهادي» السوري من الرجوع إلى بداياته الأولى، ومحاولة تحديد التاريخ الحقيقى الذى بدأ فيه بالتشكل؛ لأن من شأن ذلك أن يعطينا صورة واضحة عن خلفية هذا المشهد والدافع الحقيقية التي تقف وراءه، ولست هنا بقصد الدخول في سجال سياسى نضع من خلاله أنفسنا في موقع الدفاع عن هذا الطرف أو ذاك من أطراف الأزمة السورية، وإنما نتوخى فقط البحث بشكل موضوعي عن ملابسات نشوء الظاهرة «الجهادية».

وفي هذا السياق لدينا مجموعة من المعطيات التي من شأنها إثبات أن «الحالۃ الجهادية» كانت كامنة في بعض الهوامش والروايات، تترقب اللحظة المناسبة للإعلان عن نفسها والانطلاق بمشروعها، وبالتالي فإن العلاقة بين هذه الحالۃ وبين ما أطلق عليه «الربيع العربي» هي علاقة ظرفية بحتة، بمعنى أن لحظة اندلاع أولى شرارات الربيع فوق الأرضي السورية، كانت هي اللحظة المناسبة التي اقتنصها «الجهاديون» لركوب الموجة، وتوجيهها للوصول إلى الشواطئ التي يطمدون إليها. أما ما عدا ذلك فلا علاقة تربط بين الأمرين.

وأهم هذه المعطيات:

أولاً: أبرز الفصائل الإسلامية المتشددة، تشكّلت في وقت مبكر بعد اندلاع الأزمة السورية بأسابيع قليلة فقط، وقبل تحولها إلى العسكرية كما جرى تداولهإعلامياً، وهذه الفصائل هي «أحرار الشام» (كان اسمها في البداية كتائب أحرار الشام) و«جيش الإسلام» (وكان اسمه سرية الإسلام).

فقد تشكّل هذان الفصيلان قبل أشهر من تشكيل «الجيش الحر» الذي أريد له أن يكون العنوان العريض للحركة المسلح في سوريا. وقد أقرّ حسان عبود المعروف بلقب أبي عبد الله الحموي وكان يشغل منصب «الأمير العام» لـ«أحرار الشام» قبل مقتله نهاية العام الماضي، بأن «كتائب أحرار الشام» تشكّلت في شهر أيار من العام 2011 في وقت كان لا يزال يقع في سجن صيدنايا حيث أُفرج عنه بعد ذلك بشهور عدّة، وتشير المعلومات المتوفّرة إلى أن القيادي في الحركة خالد أبو أنس هو من تولى مهمة تشكيل الخلايا المسلحة الأولى التي شكلت نواة «أحرار الشام». ومن البديهي أن شهراً ونصف الشهر (بدأت الأزمة في منتصف آذار) هي مدة غير كافية لتشكيل فصيل مسلح؛ لأن عمليات التواصل مع الأشخاص الموثوقين، ومحاولة تجنيدهم ضمن خلايا متراوطة، ومن ثم تنظيمهم وتأمين السلاح لهم، كل ذلك يحتاج إلى أشهر من العمل المتواصل. إلا إذا افترضنا أن مثل هذه الخلايا كانت جاهزة بالفعل وتنتظر إشارة البدء لتبدأ بتفعيل نفسها على الأرض.

في المقابل بات من المعروف أن «سرية الإسلام» التي هي النواة الأولى لما أصبح يسمى اليوم بـ«جيش الإسلام» تشكّلت بين شهر أيار وحزيران من العام 2011، حيث بدأت عملها مع أربعة عشر عنصراً فقط، وانطلقت من مدينة دوما بريف دمشق.

ثانياً: إقرار القيادي السابق في «جبهة النصرة» وأحد مؤسسيها الأوائل أبي محمد صالح الحموي، الذي عزل من الجبهة مؤخراً، بأن زعيم «جبهة النصرة» أبو محمد الجولاني اتصل به طالباً منه مبايعته وذلك في شهر رمضان (آب) من العام 2011. وهذا له دلاله هامة لاسيما إذا علمنا أن الجولاني لم يكن هو صاحب فكرة تأسيس «جبهة النصرة»، بل جرى ندبه من قبل زعيم «دولة العراق الإسلامية» أبو بكر البغدادي، وهذا يعني أن قرار البغدادي بالتمدد إلى سوريا تحت غطاء «جبهة النصرة» كان

قد اتّخذ قبل ذلك بأشهر عدّة نتيجة الإجراءات التي يتطلّبها الشروع بمثل هذه الخطة، خاصة وأنّ الأوضاع الأمنية في سوريا لم تكن قد تدهورت بعد. ويكفي لإثبات ذلك التذكير بأنّ «جبهة النصرة» نفذت أول عملية معلنة لها في الشهر الأول من العام 2012 أي بعد حوالي ستة أشهر من بدء الجولاني بتجمّع المبایعات الأولى لنفسه، وهو ما يشير إلى أن عملية التأسيس والتنظيم تحتاج إلى وقت طويّل نسبيّاً. ومن اللافت أن الجولاني وفي زلة لسان أقرّ بشكل غير مباشر بأنّ «جهته» بدأت نشاطها في منتصف العام 2011، حيث قال في تسجيله الصوتي «أهل الشام فدينناكم بأرواحنا» ردّاً على تصنيف واشنطن للجبهة كحركة إرهابية «لقد أصبحت جبهة النصرة في الشام معادلة يصعب على الغرب حلها، وفهم طبيعتها، واستقاء المعلومات اللازمة عنها، طيلة العام والنصف المنصرمين» علمًا أن التسجيل صدر في كانون الأول من العام 2012 ما يقتضي بحسب تاريخ الإعلان عن تأسيس «جبهة النصرة» في كانون الثاني من العام نفسه أن يكون مضى عليها أقلّ من عام واحد فقط، بينما الجولاني يتحدث عن عام ونصف العام.

ثالثًا: وصول اثنين من أبرز قادة الجماعات التكفيرية إلى سوريا قبل اندلاع الأزمة فيها، وهما أبو ماريا القحطاني الذي شغل في ما بعد منصبي المسؤول الشرعي العام و«أمير» المنطقة الشرقية في «جبهة النصرة»، وذلك قبل انتقاله إلى درعاً منتصف العام الماضي بعد هزيمته على يد «الدولة الإسلامية» (داعش). وأبو عبد العزيز القطري الذي كان من قيادات «دولة العراق الإسلامية» وأحد مؤسسي «جبهة النصرة»، وشغل منصب «أمير» إدلب فيها، قبل أن ينشق عنها ويوسّس «جند الأقصى» على خلفية الخلاف الذي حصل بين الجولاني والبغدادي في شهر نيسان من العام 2013. وعلى الرغم من أنّ الغموض ما يزال يلف ملابسات وصول هذين القياديين إلى سوريا منذ العام 2010 إلا أنّ مجرد دخولهما الأراضي السورية قبل أشهر

فقط من اندلاع الأزمة فيها من شأنه أن يثير الشكوك حول طبيعة المهمة التي  
كانوا يقومان بها.

رابعاً: الأشخاص الأوائل الذين أرسلهم البغدادي إلى سوريا  
للمساعدة في تشكيل الخلايا الأولى التابعة له، انضموا فور دخولهم  
الأراضي السورية تحت جناح «كتائب أحرار الشام»، وهؤلاء قياديون  
في «دولة العراق الإسلامية»، وبعضهم أصبح قيادياً في «جبهة النصرة»  
في أعقاب الخلاف الشهير. هذا الانضواء السريع يشير إلى أن المؤسسين  
الأوائل لـ«كتائب أحرار الشام» لم يكونوا يعملون لوحدهم، بل كان ثمة  
تنسيق من وراء الحدود سواء مع «دولة العراق الإسلامية»، أو مع تنظيم  
«القاعدة» بقيادة أيمن الظواهري. فكان مندوبي البغدادي ومؤسسو «جبهة  
النصرة» الأوائل والخلايا الأولى التي تشكلت لصالحها، يعملون تحت  
غطاء وفّرته لهم «كتائب أحرار الشام»، التي كانت تتبنى في ذلك الوقت  
«السلفية الجهادية» كعقيدة أساسية لها.

في تلك البدايات، كانت الأمور ملتبسة ولم يكن من السهل التكهن  
بمسير الخلايا الأولى التي تشكلت منها «كتائب أحرار الشام» أو «سرية  
الإسلام» خصوصاً مع الإعلان عن تشكيل «الجيش الحر» في شهر آب  
من العام 2011، وبروز إرادة إقليمية ودولية ترغب في تسليمه لواء الحراك  
المسلح ضد النظام السوري. ومع ذلك أعلنت «سرية الإسلام» عن تشكيلها  
بقيادة زهران علوش في أيلول عام 2011، وتبعها الإعلان عن تشكيل  
«كتائب أحرار الشام» بقيادة أبي عبد الله الحموي في تشرين الثاني من  
العام نفسه. بينما تشكل «المجلس الوطني» كأول كيان سياسي للمعارضة  
الخارجية في تشرين الأول. في هذه الأثناء كانت «جبهة النصرة» تنفذ أولى  
عملياتها وتستعد للإعلان عن نفسها في 24 كانون الثاني من العام 2012.

بعد ذلك، مضت فترة غير قصيرة، غلب خلالها الهم العسكري على

هذه الفصائل الإسلامية التي انشغلت بمقارعة الجيش السوري ومحاولته استنزافه وإضعافه؛ تمهدًا لإسقاط النظام كما هو الهدف المعلن الذي جرى تداوله. وفي ظل هذا الهدف الموحد الذي كانت الدعاية الإعلامية والسياسية تؤكد اقتراب تحقيقه، لم يكن لدى الفصائل الإسلامية المسلحة متسع من الوقت للدخول في صراعات جانبية على خلفية الفروقات المنهجية التي كانت بوادرها قد بدأت تظهر إلى العلن رويدًا رويدًا، لكن المؤكد أن نوعية الاصطفافات التي شهدتها النصف الثاني من عام 2012 كانت تشي بأن هذه الخلافات على وشك الانفجار بأقرب وقت.

## ثانيًا: التحالفات الأولى وبروز الخلافات

### ١- التحالفات الأولى

على الرغم من كل الدعم الإعلامي والسياسي والعسكري والمادي الذي حظي به «الجيش الحر» من قبل العديد من الجهات الإقليمية والدولية، إلا أنه فشل فشلًا ذريعًا على الأرض، فلم يستطع إثبات نفسه كقوة عسكرية جامحة للفصائل المسلحة على الرغم من أن عدداً كبيراً من هذه الفصائل التي كانت تتکاثر يومياً فوق الأراضي السورية، كان يعلن عبر مقاطع فيديو انتماهه إلى الجيش الحر، إلا أن ذلك يقى ضمن الإطار الإعلامي الذي تتواخى منه الفصائل أن تؤمن لنفسها حصةً من الدعم الآتي من وراء الحدود، كما لم يتمكن الجيش الحر من منافسة الفصائل الإسلامية المسلحة التي استطاعت خلال أشهر قليلة من تحقيق تقدم كبير سواء على صعيد بنيتها التنظيمية، أو أعداد المسلمين المتممرين إليها، أو على صعيد مساحة الأراضي التي سيطرت عليها، حيث كانت هذه الفصائل قد سيطرت على مساحات واسعة من الأرياف السورية لا سيما في دمشق وإدلب وحماء وحمص وحلب.

وقد تزامن هذا التقدم العسكري للفصائل الإسلامية على الأرض

(وإن جرى آنذاك تداوله إعلامياً على أنه باسم الجيش الحر) مع تزايد الضغوط الإقليمية والدولية على النظام السوري بهدف الإسراع في إسقاطه. وتوجت هذه الجهود في منتصف العام 2012، وتحديداً في 30 حزيران بإصدار بيان جنيف (1) الذي دعا إلى تشكيل حكومة انتقالية تتمتع بكمال سلطاتها التنفيذية، لكن الجهود الإقليمية والدولية كانت تصطدم دوماً بعدم وجود كيان سياسي أو عسكري جامع يمكن الاعتماد عليه، ليكون بديلاً عن النظام المراد إسقاطه.

وعلى وقع ما شهدته الخارج آنذاك من مساعٍ ومحاولات لتوحيد صفوف المعارضة السياسية ضمن كيان موحد، كانت المناطق التي يسيطر عليها المسلحون تشهد بدورها حراكاً محموماً لتجميل الكتائب والسراباً ضمن تشكيلات أكبر وأوسع؛ تمهدًا للدخول ضمن تحالفات وتحالفات تضم الجزء الأكبر من هذه التشكيلات.

وقد كان قائداً ما أصبح يعرف باسم «لواء الإسلام» زهران علوش أول من التقى الإشارة بضرورة العمل على توحيد الصفوف، حيث شكّل مع بعض الكتائب الأخرى في شهر آب «تجمع أنصار الإسلام» الذي أُعلن في ميادق تأسيسه أن الغاية منه هي «أن نسعى لإقامة الخلافة الإسلامية الراشدة، وذلك عبر مراحل تبدأ بإسقاط النظام وبناء دولة الإسلام».

وكان هذا التجمع أول تحالف من نوعه منذ بداية الأزمة السورية، ولكن سرعان ما انفرط عقده بسبب الخلافات التي نشبت بين أطرافه، غير أن الحراك المحموم نحو التوحد تواصل ونجح قبل نهاية العام 2012 في تشكيل كيانات سياسية وعسكرية عدّة، حيث صدر في العاصمة القطرية الدوحة إعلان حول تشكيل «الائتلاف السوري المعارض» خلفاً لـ«المجلس الوطني»، كما تمت إعادة هيكلة «الجيش الحر» وتشكيل «مجلس القيادة العسكرية العليا»، وذلك بالتزامن مع الإعلان عن تشكيل

تحالفين ضخمين يضمّان أغلب الفصائل ذات التوجّه الإسلامي، وبالتاليي  
أغلب الفصائل الفاعلة على الأرض.

وهذان التحالفان هما:

1- «جبهة تحرير سوريا الإسلامية» التي أُعلن عنها في أيلول،  
ووضمّت إليها فصائل وكتائب كانت ما تزال تحمل ظاهريًّا راية الجيش  
الحر وتعمل باسمه مثل «لواء التوحيد في حلب»، ولواء الإسلام، وصقور  
الشام، وكتائب الفاروق». والمفارقة أن زهران علوش، الذي كان قد وقع  
قبل أسابيع قليلة على ميثاق «تجمع أنصار الإسلام» الذي يهدف إلى «إقامة  
خلافة راشدة»، اختار الانضمام إلى «جبهة تحرير سوريا الإسلامية» التي  
تعبر أقرب إلى الاعتدال، واكتفت في ميثاقها باعتبار الشريعة الإسلامية هي  
مرجعيتها دون أن تبني صراحةً هدف إقامة دولة إسلامية.

2- «الجبهة الإسلامية السورية» التي أُعلن عنها في كانون الأول  
من العام نفسه، وضمت إليها فصائل تبني السلفية الجهادية، وعلى رأسها  
(أحرار الشام، والطليعة الإسلامية، والفجر الإسلامي، والإيمان المقاتلة،  
ولواء الحق) كما انضمت إليها «كتائب حمزة بن عبد المطلب» بقيادة أبي  
عدنان زيتوني الناشطة في ريف دمشق وخاصةً في مدينة الزبداني، وكانت  
هذه الكتائب أحد مكونات «تجمع أنصار الإسلام»، لكنها انفصلت عنه  
نتيجة الخلافات بين أعضائه. وقد تضمن ميثاق «الجبهة السورية الإسلامية»  
أن من أهدافها «العمل على تمكين الدين في الفرد والمجتمع والدولة» في  
إشارة واضحة إلى أنها تبني هدف إقامة الدولة الإسلامية.

أما «جبهة النصرة» التي كانت ما تزال تُدار وتُقاد بكل وارد وإمكانات  
«دولة العراق الإسلامية» فلم تدخل في هذين التحالفين على الرغم من  
تحالفها العسكري المستمر مع أغلب الفصائل المشاركة فيهما، لكنها  
دخلت في كانون الأول من العام نفسه ضمن قائمة الولايات المتحدة

للتنظيمات الإرهابية، وذلك بعد أشهر فقط من وضع اثنين من أبرز قادتها على لائحة العقوبات لارتباطهما بأعمال إرهابية، وهما الشخصان نفسيهما اللذان أشرنا لدخولهما إلى الأراضي السورية قبل اندلاع الأزمة فيها، أي أبو ماريا القحطاني، وأبو عبد العزيز القطري.

لكنّ هذا النشاط التوحيدى الذي حفل به النصف الثاني من العام 2012، وعلى الرغم من أهمية النتائج التي حققها، إلا أنه لم يستطع إخفاءحقيقة ما كان يجري وراء الكواليس على صعيد بروز الخلافات بين الفصائل، وظهور التباينات الإيديولوجية في ما بينها الأمر الذي أصبح يشكل عبئاً لا يمكن الاستمرار في تجاهله، لاسيما وأن بعض الحوادث التي حصلت كانت تحمل في طياتها إنذاراً واضحاً بأن انفجار العلاقة قد يحدث في أي وقت.

فما الذي كان يجري؟

## 2- بروز الخلافات

في موازاة النشاط التوحيدى السابق والذى كان يجري بتوجيهه ودعم من بعض الأطراف الإقليمية والدولية، شهد العام 2012 مجموعة من الأحداث وال مجريات التي أعطت مؤشرات واضحة على أن ما يجري في الظاهر شيء، وما يجري في الخفاء شيء مختلف تماماً، إلا أن الضغوط التي كانت تمارسها بعض الدول الداعمة والممولة للفصائل المسلحة نجحت في إظهار الجانب الإيجابي الذي يمكنها استغلاله إعلامياً وسياسياً، بينما تركت الجانب الآخر السلبي ينمو في الظلام ويكبر بهدوء، ربما تحت تأثير الاعتقاد بأن حسم الأزمة السورية سيتم قبل أن تتحول هذه الظواهر إلى خطر داهم.

وسوف نشير في ما يأتي إلى أهم هذه الأحداث وال مجريات التي أعطت الإشارات الأولى حول ولادة الخلافات بين الفصائل:

### 1- ظهور جبهة النصرة والاعتراض عليه

جاء الإعلان عن تأسيس «جبهة النصرة» بوقت كانت الساحة السورية تشهد فيه ولادة فصيل مسلح بشكل شبه يومي، لذلك لم يحظ هذا الإعلان بالاهتمام الذي يستحقه، إلا أن أسلوب الإعلان الذي تمثل بتسجيل صوتي لأبي محمد الجولاني دون ظهور صورته، وتبنيه للتغيرات الانتخارية الأولى التي ضربت العاصمة دمشق والتي كانت الاتهامات توجه إلى النظام السوري بتدبيرها، طرح بعض التساؤلات حول الفصيل الجديد.

ولكن كان من اللافت آنذاك، أن يخرج الشيخ أبو بصير الطرسوسي، وهو من منظري الجهاد المعروفين ومقرّب من «أحرار الشام» ليتولى مهمّة الطعن في «جبهة النصرة»، وإثارة الشكوك حول حقيقتها، وحقيقة زعيمها وغایاتها من اقتحام «الساحة الشامية». وما زال الطرسوسي إلى اليوم مستمراً في مهمته السابقة، حيث أصدر مؤخراً فتوى بتحريم الانضمام إلى «جبهة النصرة»، وهو ما يشير إلى أن الصوت الاعتراضي الأول الذي أطلقه ضدها لم يكن عبئياً، ولم يكن بسبب اكتشافه علاقتها بتنظيم «دولة العراق الإسلامية» وإنما لم يكن أصدر فتواه الأخيرة؛ بل كان صوتاً مقصوداً ويخفي وراءه وجود تيار ضمن «أحرار الشام» يرفض الارتباط بتنظيمات «القاعدة»، وهذا التيار هو الذي سيجري في فترة لاحقة مراجعات على منهج الحركة.

كذلك رُصدت انتقادات ضد «جبهة النصرة» وجهها هذه المرة أبو عبد الرحمن الكعكة مفتى «لواء الإسلام»، وصف فيها عناصر «النصرة» بأنهم «خوارج»، ووصف زعيمها الجولاني بأنه «شاب متمايم ناعم يرتدي الجينز».

غير أن مثل هذه الاعتراضات والانتقادات بقيت أصواتاً شاذة لم يلتفت إليها أحد في حينه، أما على الأرض فكانت «جبهة النصرة» على وقع تزايده قوتها وتقدّمها الميداني، تدخل في مزيد من التحالفات العسكرية مع مختلف الفصائل، لكن كان من الواضح أنها تفضل التحالف مع الفصائل التي انضوت تحت جناح «الجبهة الإسلامية السورية»، والتي تهيمن عليها «أحرار الشام»؛ وذلك بسبب التشابه الفكري والمنهجي بينهما.

وهنا ينبغي التنويه إلى أنه في أعقاب تشكيل «الجبهة الإسلامية السورية» سادت في أواسط «الجهاديين» العديد من التساؤلات عن سبب استبعاد «جبهة النصرة» من هذا التشكيل، وتشير خيبة الظن التي عبر عنها بعضهم إلى وجود توقعات سابقة بإمكانية اتحاد «جبهة النصرة» وأحرار الشام» لانبعاثهما من المنبع نفسه وهو «السلفية الجهادية»، وكان الناطق الرسمي باسم «الجبهة السورية الإسلامية» على صفحته في موقع التواصل الاجتماعي قد أكد وجود خلاف مع «جبهة النصرة»، لكنه وصفه بأنه «خلاف نوع إيجابي وليس خلاف تضاد سلبي»، وحول التوحد مع «جبهة النصرة» قال: «التوحد يحتاج لخطوات لا بد من قطعها حتى يتم ويكون ناجحاً ومستمراً».

## 2- الاقتتال على معبر باب الهوى

في غمرة المساعي التوحيدية، كان معبر باب الهوى الحدودي مع تركيا شمال حلب، على موعد مع أول اقتتال شهده الفصائل في ما بينها، حيث أعلن عن سيطرة المسلمين على المعبر في 19 تموز من العام 2012، ونُسب الفضل في هذه السيطرة إلى «كتائب الفاروق في الشمال» التي كانت تعمل ضمن الجيش الحر، ولكن بعد حوالي شهرين جرى اختطاف فراس العبسي الذي كان يقود «مجلس شورى مجاهدي الدولة الإسلامية»، وتم قتله بطريقة وحشية في منطقة باب الهوى ليتبين بعد ذلك أن مجموعة

العبيسي هي التي نفذت القسم الأساسي من الهجوم على معبر باب الهوى، ثم لحقت بها «كتائب الفاروق» حيث حصلت خلافات بينهما حول السيطرة على المعبر واستثماره أدت إلى مقتل العبيسي. بعد ذلك انتقم شقيق العبيسي والمعروف باسم أبي أثير الانصاري لأخيه عبر تكليف مجموعة قتلت ثائر وقاص قائد «كتائب الفاروق».

وهنا نقطة في غاية الأهمية لها علاقة بما سيحدث لاحقاً من تمرد زعيم «جبهة النصرة» أبي محمد الجولاني على «أميره» المباشر أبي بكر البغدادي، الذي لم يكن دوره في تشكيل «جبهة النصرة» قد عرف بعد، وهي أن المعطيات المتوافرة تشير إلى أن البغدادي هو من كلف فراس العبيسي بتشكيل «مجلس شورى مجاهدي الدولة الإسلامية»، أو على الأقل كان هذا المجلس مقرّباً منه، ويعمل بتنسيق مع كوادره في سوريا، وكان أبو أثير العبيسي (الأنصاري) الذي خلف شقيقه من أوائل من بايع البغدادي بعد ذلك، وتولى منصب «والي حلب». والنقطة الهامة أنه بعد اغتيال ثائر وقاص أصدرت «جبهة النصرة»، على الرغم من تبعيتها في ذلك الوقت للبغدادي أيضاً، بياناً تعلن فيه براءتها من «مجلس شورى مجاهدي الدولة الإسلامية» وعدم علاقتها بمقتل وقاص، وذلك في مطلع عام 2013. وقد يكون هذا أحد المؤشرات النادرة على أن العلاقة بين الجولاني وأميره «أميره» كانت تتدحرج بسبب اختلاف رؤية كل منهما للساحة الشامية، وكيفية التصرف فيها.

### 3- رفض الائتلاف الوطني المعارض وإعلان «الدولة الإسلامية»

بعد ساعات فقط من الإعلان عن تأسيس «الائتلاف الوطني» ككيان يمثل المعارضة السورية، أصدرت أهم الفصائل المسلحة وبمشاركة لافته من «جبهة النصرة»، بياناً جماعياً مصوّراً، عبروا فيه عن رفضهم للائتلاف الوطني المشكّل حديثاً وإنجذابهم على تأسيس دولة إسلامية عادلة،

وأعربت الفصائل عن رفضها لأي مشروع خارجي من ائتلافات ومجالس تفرض على الداخل من أي جهة كانت، والفصائل التي أصدرت البيان هي عبارة عن مزيج من كلتا الجبهتين «الجبهة الإسلامية السورية» و«جبهة تحرير سوريا الإسلامية» علماً أن الأخيرة لم تتبّن في ميثاقها إقامة الدولة الإسلامية كهدف لها، وعلى الرغم من أن البيان الذي أطلق عليه «بيان كتائب حلب» أثار الكثير من الجدل حوله، إلا أن العديد من الفصائل سارعت إلى التنصل منه لاحقاً، الأمر الذي فُسر على أنه رضوخ لأوامر خارجية.

#### 4- الجولاني يتحدث عن الوصاية التركية والدعم الخارجي

في سياق الحديث عن بدء بروز الخلافات بين الفصائل المسلحة، تبرز شهادة متقدمة أدلى بها زعيم «جبهة النصرة» أبو محمد الجولاني حول تلقى الفصائل دعماً مالياً من الخارج، وممارسة ضغوط عليها للانضواء تحت ما أسماه «الوصاية التركية»، حيث اعتبر الجولاني في تسجيله الصوتي «أهل الشام فديناميك بآرواحنا» والمنوه عنه آنفًا، أن تصنيف جماعته على قائمة الإرهاب الأميركي جاء بعد «محاولات فاشلة متكررة لسحب قدم الجبهة إلى ساحات الوصاية في تركيا عبر الوسطاء، وبعد محاولات الضغط عليها ومنع وصول السلاح لها بشتى الوسائل» وكذلك بعد «رفض الجبهة لأي عرض مالي من الخارج من أي جهة رسمية على الرغم مما كان يمر عليها من ضيق حال».

وكلام الجولاني هذا على الرغم من أنه جاء في سياق تفسير سبب تصنيف «جبهة النصرة» على أنها تنظيم إرهابي، إلا أنه يحمل في طياته اتهامات غير مباشرة إلى فصائل أخرى بأنها قبلت الدخول في «الوصاية التركية»، أو تلقت «الدعم المالي من جهات رسمية من الخارج»، وبما أن «أحرار الشام» هي من أكثر الفصائل قرباً من السلطات التركية، فقد تكون

هي المقصودة من كلام الجولاني السابق، وما يعزز ذلك أنه بعد أن كرّر الجولاني اتهاماته حول الدعم الخارجي المشروط في لقائه الأخير مع قناة الجزيرة، انبرى بعض شرعيي «أحرار الشام» لتوضيح موقفهم من الدعم المشروط وبيان موقف الشرع منه، بينما لم يصدر عن فصائل أخرى مثل هذه التوضيحات، وهو ما يرجح أن تكون «أحرار الشام» قد فهمت أيضاً أنها هي المقصودة بكلام الجولاني.

على هذه الخلفية المتناقضة من مساعي التوحيد من جهة، وبروز الخلافات والتبنيات من جهة ثانية، دخلت الأزمة السورية العام 2013 الذي شهد حدوث انفجار لم يسبق له مثيل في عالم التنظيمات الجهادية. بعد أن قرر زعيم «دولة العراق الإسلامية» أبو بكر البغدادي في التاسع من شهر نيسان، الكشف عن دوره في تأسيس «جبهة النصرة» وأنه هو من انتدب الجولاني لهذه المهمة، مقرّراً إلغاء تسمية «جبهة النصرة» والدمج بينها وبين تنظيمه تحت مسمى جديد هو «الدولة الإسلامية في العراق والشام»، لكن الجولاني سارع في اليوم التالي إلى رفض هذا القرار وتمسّك بـ«جبهة النصرة»، معلناً للمرة الأولى يعته لزعيم تنظيم «القاعدة» أيمان الظواهري. وقد شكّل هذا الخلاف الشرارة الأولى التي أشعلت نار الاقتتال بين الفصائل الإسلامية بعضها بعضاً، وذلك في أعقاب فترة تهدئة فرضها لجوء الطرفين إلى تحكيم زعيم «القاعدة» أيمان الظواهري لحل الخلاف بينهما، وقد فوّض الظواهري هذه المهمة إلى أبي خالد السوري، وهو من قدمى الأفغان العرب، وكان يشغل منصباً قيادياً بارزاً في حركة «أحرار الشام»، إلا أن صدور قرار التحكيم لمصلحة «جبهة النصرة»، ورفض البغدادي له أنهى التهدئة التي استمرت حتى أواخر العام 2013، وجعل الاقتتال السبيل الوحيد لحل الخلاف بين «أخوة الأمس».

### ثالثاً: خلاف الجولاني-البغدادي

جاء انفجار العلاقة، التي لم تكن معروفة بعد، بين الجولاني والبغدادي في ظرف حساس كانت تمر به الأزمة السورية، حيث كانت التحضيرات الأولية لعقد مؤتمر جنيف 2 قد بدأت، وهو ما أرخى بظلالة على الأرض من حيث التصعيد العسكري، ومن حيث محاولات بذل المزيد من الجهود لتوحيد المعارضة السياسية والفصائل المسلحة، فالجيش السوري كان يجري استعداداته لخوض معركة القصير التي شكلت منعطفاً استراتيجياً آنذاك، بينما كانت الفصائل المسلحة تعيش تحت نشوة السيطرة على محافظة الرقة باعتبارها أول مركز مدينة يسقط بين أيديهم.

#### 1- خلاف الجولاني-البغدادي ودلالة

وفي الواقع، فإن القرار الذي اتخذه أبو بكر البغدادي بالكشف عن تبعية «جبهة النصرة» له، لم يكن قراراً اعتباطياً دفعته إليه المخاوف من تمدد الجولاني عليه بعد أن قوي عوده، واشتد ساعده، كما تذكر أغلب الدراسات حول الموضوع؛ بل أكثر من ذلك، يمكننا القول إن البغدادي لم يكن مهتماً كثيراً برد فعل الجولاني وقبوله أو رفضه لقرار الاندماج، وبالتالي من الخطأ توصيف الخلاف الذي حصل بينهما على أنه خلاف حول البيعة والولاء، ومن هو الأولى باليبيعة البغدادي أم الظواهري، ومن خلع بيعة أميره بدون موجب شرعي، هل البغدادي خلع بيعة الظواهري أم الجولاني هو الذي خلع بيعة البغدادي؟ لأن الدخول في هذه التفاصيل، إلى جانب كونه يعني استسلاماً لمنطق هذه التنظيمات، ينطوي على تسطيح كبير للحدث الذي جرى.

ولفهم هذه الجزئية الهامة، علينا توضيح بعض الأمور، وربط الأحداث بعضها، كي نتمكن من رسم صورة وافية عما كان يجري.

كشفت المعطيات التي توافرت بعد انفجار الخلاف، أن الجولاني لم يكن هو الشخص الوحيد الذي يتحكم بالقرار داخل «جبهة النصرة»، فقد كان في قيادة «جبهة النصرة» أشخاص موالون للبغدادي وموثوقون من قبله أبرزهم حجي بكر، وأبو علي الأنباري، وأبو محمد العدناني، وأبو يحيى العراقي، وأبو لقمان وأخرون غيرهم، وكان هؤلاء بمثابة صمام الأمان لدى البغدادي الذي جعله يتخد قراره السابق وهو واثق من أنه سينفذ بشكل أو باخر، كما كشفت المعطيات أن حوالي ثمانين بالمئة من قادة وعناصر «جبهة النصرة» تمسكوا بولائهم للبغدادي، وانضموا من حول الجولاني بعد رفضه قرار زعيمهم، ولكن من شأن مثل هذه المعطيات أن تطرح تساؤلاً حول السبب الذي دفع البغدادي إلى فضح وقوفه وراء تأسيس «جبهة النصرة» واتخاده قراراً سيعجز عليه العديد من التبعات، وهو الظهور إلى العلن والعمل باسم تنظيمه الأساسي ملгиًا اسم «جبهة النصرة» الذي كان يتختفي وراءه، خصوصاً وأنه كان على ثقة من سيطرته على مفاصل القرار فيها، فلماذا لم يستمر في العمل تحت غطاء «جبهة النصرة» ليتلafi التبعات التي جرّها القرار عليه؟

لا يوجد سوى جواب واحد على هذا التساؤل، وهو أن الغاية التي كان يسعى البغدادي لتحقيقها وأهميتها وتداعياتها على الساحة السورية والمنطقة لا تقاس بالتبعات التي يمكن أن تتسبب بها بعض التفاصيل من قبيل ردة فعل الجولاني؛ لذلك كان من الطبيعي أن يهروي نحو غايته دون التفات إلى العثرات التي تظهر في طريقه.

وهنا ينبغي التذكير، بأن البغدادي استلم إمارة تنظيم «دولة العراق الإسلامية» في العام 2010 والتنظيم في حالة يرثى لها، حيث خسر أغلب المناطق التي كان يسيطر عليها في العراق بعد ستين من الحروب ضد «صحوات العشائر»، التي كانت مدعاومة بالقوات الأمريكية الغازية، ولم يعد له من معقل سوى رمال الأنبار الحارقة، كما كان التنظيم قد خسر أميره

العام السابق أبا عمر البغدادي ووزير حربته أبا حمزة المهاجر (أبا أيوب المصري). لهذا، انخرط البغدادي، فور استلامه منصبه، في ورشة عمل تهدف إلى إعادة هيكلة التنظيم واسترجاع فاعليته القديمة، لكنه كان يفعل كل ذلك في السر وبعيداً عن الأعين، ومما له دلالته في هذا السياق أنه لم يصدر عن البغدادي أي بيان أو رسالة صوتية لا بمناسبة تعينه أميراً جديداً للتنظيم، ولا في أي مناسبة أخرى.

المرة الأولى التي قرر فيها البغدادي الخروج برسالة صوتية، كانت في شهر رمضان من العام 2012 أي بعد حوالي عامين من استلامه منصبه، ولكن الأهم أن الرسالة الأولى جاءت بعد حوالي عام ونصف من بدء الأزمة السورية، وبعد حوالي عام من تأسيس «جبهة النصرة» التي دلت مختلف المؤشرات أنها تتجه لأن تصبح الفصيل الأقوى في الساحة السورية بين الفصائل الأخرى، كما جاءت بالتزامن مع إعلان «دولة العراق الإسلامية» عن إطلاق «الموجة الأولى من عمليات «هدم الأسوار»، وهو ما يدل على أن البغدادي لم يكن يريد الخروج أمام أنصاره بأي بيان أو رسالة قبل أن يكون واثقاً بأن التنظيم استعاد جزءاً من قوته، لاسيما وأنه عنون خطابه الأول بـ«ويأبى الله إلا أن يتم نوره».

وعليه، كان البغدادي في حاجة كبيرة إلى إنجاز ميداني ضخم سواء في العراق أو سوريا، ليثبت أمام أنصاره قبل خصومه أن تنظيمه ما زال قوياً و«باقياً»، وأنه قادر على استعادة المناطق التي اضطر إلى الانحياز منها بسبب حرب الصحوات ضده؛ بل أكثر من ذلك قادر على التمدد في أراضٍ جديدة لم تكن في حسبان أحد.

وسرعان ما تحقق الإنجاز الذي كان يتنتظره، والذي تمثل بسيطرة «جبهة النصرة»، وفصائل إسلامية أخرى على مدينة الرقة مطلع شهر آذار من العام 2013، ولم يكن بوسع البغدادي الذي من المرجح أنه دخل إلى

الأراضي السورية للمرة الأولى في تلك الفترة، أن يتظر طويلاً قبل أن يستمر هذا الإنجاز ويجيئه لمصلحة تنظيمه، وهو ما فعله عندما أصدر في التاسع من نيسان أي بعد حوالي شهر من السيطرة على الرقة، رسالته الصوتية الثانية بعنوان «وبشر المؤمنين» يزف بها قراره القاضي بالارتقاء تنظيمياً وتأسيس «الدولة الإسلامية في العراق والشام»، وأما «دولة العراق الإسلامية» و«جبهة النصرة» فتصبحان مجرد ذكرى يحفظها التاريخ الجهادي.

الارتقاء التنظيمي الذي تحدث عنه البغدادي مطولاً في خطابه السابق، لم يكن مجرد ذريعة لتبرير قراره القاضي بإلغاء «جبهة النصرة»، وبالتالي ليلطّف وقع القرار على سامعيه من أصحاب الشأن، بل كان خطة متكاملة وضعها التنظيم في وقت سابق، وكانت الغاية النهائية لها هي إعلان «دولة الخلافة» باعتبارها ذروة الارقاء التنظيمي، وهو الأمر الذي حصل في 29 حزيران من العام 2014 (أول شهر رمضان من ذلك العام).

وعليه، فإن حقيقة الخلاف الذي جرى بين الجولاني والبغدادي، لم يكن حول البيعة وأحكامها الشرعية ومن هو الطرف الذي خالف هذه الأحكام، وإنما كان صراغاً على الإمارة والسلطة والنفوذ. فالبغدادي يريد أن يمدّ سلطانه إلى أرض الشام تنفيذاً لمخططه السابق، بينما كانت قيادة «القاعدة» التي بايعها الجولاني تريد أن يكون لكل بلد قيادة مستقلة عن البلد الآخر، بحيث تبقى هي بمثابة القيادة المركزية التي ترجع إليها الأفرع في البلدان المختلفة.

وما يؤكّد ذلك، أن جميع الحلول التي طرحت لاحقاً لحل الخلاف بين الطرفين كانت تركز على نقطة جوهريّة، وهي أن يعود البغدادي إلى العراق، ويتولى الجولاني أمراً الشام، وهو ما يثبت أن المشكلة مع البغدادي لم تكن في البيعة، أو في سلوكه وسلوك تنظيمه من حيث التكفير

والوحشية؛ بل كانت في تمده إلى الشام، وهو ما اعتبرته قيادة «القاعدة» خطأ أحمر لا يسمح بتجاوزه مهما كان الثمن.

هذا التوصيف لحقيقة الصراع، ولأسباب مختلفة، لن يجري تظهيره على هذا النحو؛ بل سيتم التركيز على أنه خلاف على البيعة والسلوك ومقدار التكفير المسموح به ومستوى الدماء الذي يمكن التغاضي عنه. أما على الأرض فسوف نلاحظ أن البغدادي، سواء كان يقصد ذلك أم لا يقصد، نجح في جذب خصومه إلى مربع الصراع الذي يريده، فباتت غالبية الفصائل المتناقلة معه تسعى بشكل أو باخر إلى تشكيل «إمارة» خاصة بها، وهو المسعى الذي سيميز العام 2014 وحتى وقتنا هذا. حيث ستسعى «جبهة النصرة» إلى الهيمنة على محافظة إدلب، بينما سيسعى «جيش الإسلام» للهيمنة على الغوطة الشرقية، أما «أحرار الشام» فستدخل في شراكة علنية مع الحكومة التركية لإقامة المنطقة العازلة.

## 2- استمرار مساعي التوحيد وتحالف جديد

في هذه الأثناء، كانت الساحة السورية تغلي على وقع حدفين هامين: الأول الخلاف بين الجولاني والبغدادي وتداعياته المرتقبة. والثاني مؤتمر جنيف 2 الذي كانت الاستعدادات والتحضيرات تتضاد في عقده في مطلع العام 2014.

وقد أظهرت المساعي التي سبقت عقد مؤتمر جنيف 2 وجود تيارين إقليميين يتناesan في ما بينهما، أحدهما يراهن على الجيش الحر والمعارضة السياسية، والثاني وضع كل رهانه في سلة الفصائل الإسلامية. وكان جلياً أن الغلبة كانت لتيار الثاني الذي نجح في التقدم خطوة إضافية على طريق توحيد هذه الفصائل التي باتت تشكل القوة الأكثر تأثيراً على الساحة السورية، بينما كان الجيش الحر على موعد مع ضربة قاصمة سترده من أهم معاقله المتواجدة على معبر باب الهوى الاستراتيجي.

فقد نجحت مساعي بعض الدول وأهمها السعودية وتركيا، في إقناع الفصائل التي تتكون منها جبهتا «الجبهة الإسلامية السورية» و«جبهة تحرير سوريا الإسلامية» بالتوحد ضمن جبهة واحدة أطلق عليها اسم «الجبهة الإسلامية»، وهكذا لأول مرة تجتمع الفصائل الإسلامية ضمن إطار واحد، ولأول مرة يدخل زهران علوش وحسان عبود ضمن تشكيل واحد. وقد جاء هذا التوحد بفعل الضرورة التي انطوت عليها اللحظة السياسية الحالية. فكان يوجد خطر «داعش» الذي بات يهدد الجميع، ومؤتمر جنيف<sup>2</sup> الذي أراد النظام السوري وحليفته روسيا أن يكون منصة للدعوة إلى مكافحة الإرهاب، فتقارب المحوران السعودي التركي وشكلاً جبهة واحدة كان هدفها الأساسي الإعلان عن قتال «داعش»، لسحبذرية من يدي النظام.

وعلى الرغم من أن «جبهة النصرة» لم تشارك في تشكيل «الجبهة الإسلامية»، إلا أن العديد من المعطيات تؤكد أنها كانت في أجواء المفاوضات التي سبقت تشكيلها، وأنه لو لا تصنيفها أميركيًا على قائمة الإرهاب ل كانت أحد أعضاء الجبهة الوليدة، وما يعزز من ذلك أن «جبهة النصرة» كانت أحد الموقعين على البيان رقم 1 الذي أصدرته مجموعة من الفصائل الإسلامية (ضمنها فصائل الجبهة الإسلامية الوليدة) ردًا على إعلان الائتلاف السوري المعارض تشكيل حكومة مؤقتة برئاسة أحمد طعمة، حيث رفض البيان الاعتراف بهذه الحكومة، ودعا «جميع الجهات العسكرية والمدنية إلى التوحد ضمن إطار إسلامي واضح ينطلق من سعة الإسلام، ويقوم على أساس تحكيم الشريعة وجعلها المصدر الوحيد للتشرع». ويدرك هذا البيان الانقلابي بما سمي بـ«بيان كتائب حلب»، والذي ردت فيه الكتائب ذاتها تقريرًا على تشكيل الائتلاف المعارض أواخر العام الذي سبق.

وبينما لم تتبَّن التحالفات السابقة مطلب إقامة دولة إسلامية بشكل

صريح وإنما لجأت إلى تعبير مواربة، فقد كان لا فتاً أن يتضمن بيان تأسيس «الجبهة الإسلامية» كلاماً واضحاً حول هذا الأمر، حيث أشار إلى رغبة هذه الفصائل في «بناء دولة إسلامية راشدة تكون السيادة فيها لله وحده مرجعاً ونظاماً وحاكماً لتصرفات الفرد والمجتمع والدولة». وكان من الواضح أن هذا التصريح غير المسبوق كان أحد الدوافع إليه هو محاولة الوقوف في وجه مشروع البغدادي ومنعه من التهام الساحة السورية، خاصة وأن فترة التهدئة كانت قد مضت، وكل البوادر كانت تشير إلى أن الاقتتال لم يعد منه مفر.

لكن «الجبهة الإسلامية» سرعان ما سثبت أنها لم تكن أكثر من تحالف الأمر الواقع أو تحالف الضرورة الذي فرضته توجهات بعض الدول الإقليمية، أكثر مما جاء تعبيراً عن إرادة الفصائل نفسها؛ لذلك لن يمر وقت طويلاً قبل أن تعصف الخلافات بتكوينات هذه «الجبهة» ويبعد بعضها عن بعضها الآخر على وقع ما يجري من تطورات.

#### رابعاً: الانشطار الجهادي

على الرغم من كل الحشد العسكري والإعلامي الذي قام به الفصائل الإسلامية ضد تنظيم «الدولة الإسلامية» في الربع الأخير من العام 2013، مستغلة بشكل خاص اتهامه بمقتل القائد «الجهادي» البارز أبي خالد السوري، إلا أن هذه الفصائل تعرضت لهزيمة نكراء أدت إلى انسابها بشكل مهين من الرقة وأرياف دير الزور، بينما كان تنظيم «الدولة الإسلامية» يحقق تقدماً موازيًا في العراق حيث سيطر على مدينة الموصل ومناطق أخرى، ليعلن في 29 حزيران من العام 2014 عن تأسيس «دولة الخلافة».

ولم تكن الهزيمة بالنسبة إلى الفصائل مجرد خسارة عسكرية؛ بل تجاوزت ذلك لتكون صدمة صاعقة من مختلف الجوانب النفسية والاجتماعية والاقتصادية والعقدية، والأخطر من كل ذلك أن هذه الفصائل

كانت تراقب بعينيها كيف يتحول تنظيم «الدولة الإسلامية» إلى قوة ضخمة على مستوى المنطقة بأسرها، مدركة أن مهمتها مواجهته والتصدي له ستخرج من بين يديها لتصبح مهمة عالمية يقوم بها تحالف دولي، مكون من حوالي ستين دولة على رأسها الولايات المتحدة، وبالتالي فقدت هذه الفصائل الأمل في إمكانية استعادة المدن التي خرجت من بين يديها، وأصبح هدفها الأساسي هو إيجاد مناطق نفوذ بديلة، أو حماية ما تبقى لها من مناطق.

وقد أدت هذه التطورات، إلى إحداث تغييرات جذرية في المشهد «الجاهادي» السوري، حيث تعززت الانقسامات الداخلية على وقع التدخلات الخارجية المباشرة وأهمها التحالف الدولي، ومشروع تركيا بإقامة المنطقة العازلة، وبرزت تباينات جوهيرية بين «جبهة النصرة» من جهة، وبين «أحرار الشام» من جهة ثانية حول مجمل هذه القضايا، وغابت التحالفات الكبيرة لتحل محلها «غرف العمليات العسكرية» ذات الأهداف المحددة وأبرز مثال عليها «جيش الفتح في إدلب».

وسوف نحاول في ما يلي تكثيف بعض النقاط الجوهرية التي تمثل أهم التغييرات التي طرأت على «المشهد الجهادي»، والتي ما يزال يعيش على وقع تفاعلاتها بانتظار ما مستسفر عنه من نتائج في مراحل قادمة:

## ١- تفكك الجبهة الإسلامية ونزععة الإمارات

على خلفية الهزيمة التي لحقت بها في مواجهة تنظيم «الدولة الإسلامية» وهروب قادتها وعناصرها من المنطقة الشرقية، كان من الطبيعي أن تتفكك «الجبهة الإسلامية» التي كانت تمثل أضخم تحالف جرى تشكيله فوق الأراضي السورية، وشكل توقيع الفصائل في شهر أيار من العام 2014 على «ميثاق شرف ثوري للكتائب المقاتلة» مؤسراً على انتهاء صلاحية «الجبهة الإسلامية» بسبب التناقضات بين مضمونه ومضمون

أهدافها خاصة لجهة إقامة الدولة الإسلامية، فالМИثاق اكتفى فجأة بإقامة «دولة العدل والقانون والحريات» على الرغم من أن الفصائل الموقعة عليه هي نفسها الموقعة على «الجبهة الإسلامية» التي لم يكن قد مضى على تشكيلها سوى أشهر عدّة فقط.

وكان زهران علوش أول من وَجَّه ضربة لتحالف «الجبهة الإسلامية» الذي كان يشغل فيه منصب رئيس المجلس العسكري، حيث اتجه علوش في آب 2014 إلى إنشاء تحالف خاص به في حدود الغوطة الشرقية أطلق عليه اسم «القيادة العسكرية الموحدة» ضمّ إليه كتائب الحبيب المصطفى والاتحاد الإسلامي لأجناد الشام وفيلق الرحمن، وهي تقرّيّاً الكتائب نفسها التي تشكّل منها في ما سبق «تجمع أنصار الإسلام». وقد دخل علوش من أجل فرض هيمنته على الغوطة في صراعات مع عدد من الفصائل أبرزها «جيش الأمة» و«جبهة النصرة» و«أحرار الشام». إلا أن «القيادة الموحدة» تعرّضت مؤخراً لتصدعات داخلها نتيجة الخلافات بين «جيش الإسلام» من جهة، و«أجناد الشام» من جهة ثانية حول إدارة الأنفاق واستثمارها.

أما «أحرار الشام» فقد سعت إلى تقوية نفوذها في المنطقة الشمالية، وكانت الخطوة الأبرز هي إعلان الاندماج بينها وبين «ألوية صقور الشام» بقيادة أبي عيسى الشيخ، الذي كان يشغل منصب رئيس مجلس الشورى في «الجبهة الإسلامية». وهنا، مما له دلالته على صعيد معايير التحالف غير المنضبط، أن «صقور الشام» كانت قد أعلنت اندماجها مع «جيش الإسلام» قبل ذلك بأسبوع واحد، لكن الاندماج لم يتم بينهما من دون معرفة الأسباب. علمًا أن ثمة اختلافات منهجية وسياسية وارتباطات إقليمية مغايرة بين «جيش الإسلام» و«أحرار الشام»، فكيف كانت «صقور الشام» مستعدة للاندماج مع أيٍّ منهما دون أن تكون لهذه الفوارق أهمية لديها؟

أما «جبهة النصرة» فقد حصل شرخ واسع بين قادتها وعناصرها الذين فروا على وقع الهزيمة التي حاقت بهم من معتقليهم الأخير في مدينة الشحيل بدير الزور إلى درعا وإدلب، وفي محاولة لتدارك الشرخ قبل أن يتسع لم يجد أبو محمد الجولاني ما يمكنه القيام به سوى الاقتداء بخصمه اللدود، حيث جمع عناصره وقادته وواعدهم في خطاب جرى تسريبه في رمضان 2014 بإقامة إماراة إسلامية في وقت قريب، وعلى الرغم من النفي الذي أصدرته «جبهة النصرة» لكلام الجولاني، فإن سلوك «جبهة النصرة» في ريف إدلب كان يشير بوضوح إلى أنها تسير في طريق إقامة إماراة خاصة بها، حيث دخلت في صراعات دموية مع كل من «جبهة ثوار سوريا» و«حركة حزم»، كما أسست «دار القضاء» الذي يتولى تطبيق الشريعة الإسلامية في أماكن سيطرتها.

## 2- تزايد الخلافات بين الفصائل

خاصة تجاه بعض التطورات الأخيرة التي استجدة على الساحة السورية، وأهمها التحالف الدولي بقيادة الولايات المتحدة الأميركيّة، وسعى تركيا إلى إقامة منطقة عازلة، وبالنسبة إلى التحالف الدولي برزت مواقف متناقضة بين «أحرار الشام» و«جبهة النصرة»، فقد رأى الجولاني أن «التحالف الدولي يهدف إلى تصفية «المجاهدين» في المناطق التي يسيطرون عليها، وأبرزها حلب ودير الزور والرقة، واستبدالهم بالفصائل السورية «المتواطئة مع التحالف»، واصفاً المتعاونين مع التحالف بالعملاء. أما «أحرار الشام» غير المصنفة على قائمة الإرهاب، فقد كان موقفها ملتبساً، فهي تدين غارات التحالف التي تستهدف مقارها أو مقار جماعات مقرّبة منها، ولكن عندما أغارت طائرات التحالف لتوقف زحف تنظيم «الدولة الإسلامية» باتجاه مدينة مارع شمال حلب، الشهر الماضي، أعرب ناطق باسم الحركة عن رغبته بالتنسيق مع طائرات التحالف لتكون فاعلية الغارات أكبر. علمًا أنه سبق لزعيم الحركة الراحل حسان عبود أن قال في

العام 2013 إن «كل قوة غازية تطأ الأرض السورية، تحت أي ذريعة سواء لمناصرة النظام أو بزعم إيقاف عدوانه، ستعامل كقوة احتلال».

أما بالنسبة إلى المنطقة العازلة، فقد أصدرت «أحرار الشام» بياناً تؤيد فيه إقامة هذه المنطقة، ورأت أنها «تحقق مصلحة الشعب السوري»، بينما رفضت «جبهة النصرة» التعاون مع تركيا معتبرة عن اعتقادها بأن المنطقة العازلة لا تخدم مصالح الساحة السورية وجاءت لحماية الأمن القومي التركي.

وحصل خلاف بين الطرفين كذلك على خلفية المقالات السياسية التي نشرها أحد مسؤولي «أحرار الشام» في الصحف الغربية، حيث رفض المسؤول الشرعي العام في «جبهة النصرة» سامي العريدي، أردني الجنسية، مضمون هذه المقالات وذكر «أحرار الشام» بمقدمة المنظر الجهادي العالمي أبي مصعب السوري بأنه «لا يمكن لعدو الأمس واليوم أن يكون حليف المستقبل» في إشارة واضحة إلى خشية «جبهة النصرة» من أن تنتهي الأمور إلى تنسيق فعلي بين التحالف الدولي أو بعض الدول الغربية وبين «أحرار الشام»، ويبدو أن الأمور تسير تدريجياً نحو هذه النهاية، إلا إذا وجدت الحركة نفسها لأسباب داخلية غير قادرة على قبول الشروط الأميركية والتي كان آخرها إيحاء الناطق باسم الخارجية الأميركية بوجوب ابعاد الحركة عما أسماها «الجماعات المتشددة» في إشارة إلى «جبهة النصرة».

ونتيجة هذه الخلافات أصبح الهم الأساسي الذي يشغل هذه الفصائل هو ترتيب بيتها الداخلي، ومنع الخلافات الموجودة ضمنه من أن تتحول إلى صراعات أو انشقاقات، وقد انعكس ذلك بشكل مباشر على سلوك بعض الفصائل بحيث تغيرت أولوياتها وأغراضها التي تسعى إليها، فانخفض الحديث عن مساعي التوحد وتشكيل تحالفات ضخمة؛ بل أصبحت

التحالفات القائمة غير قادرة على الاستمرار بعد أن وصلت التباينات بين أعضائها إلى درجة يصعب ردهما.

### 3- بروز تيارات ضمن الفصيل الواحد

لم تؤدّ التطورات السابقة إلى إظهار الخلافات الكامنة بين روئي بعض الفصائل للساحة السورية وكيفية التعاطي مع مستجداتها الإقليمية والدولية، فحسب؛ بل أدت كذلك إلى بروز انقسامات داخل الفصيل الواحد، ففي كل فصيل أصبح يوجد تيار يتمسك بالخطاب القديم، وتيار آخر يؤيد التغيير. وبالتالي أصبحت هذه الفصائل تجد نفسها مضطورة أمام أي اختبار تعرض له إلى إجراء توافق داخل صفوفها قبل التعبير عن موقفها الرسمي حيال أي موضوع محلي أو إقليمي، وإنما فإن الخلافات ستخرج إلى العلن. وكان هذا الانقسام جلياً في كل من «جبهة النصرة»، و«أحرار الشام».

ففي «جبهة النصرة» بُرِزَ وجود تيارات مختلفين حول عدد من القضايا، أهمها فك الارتباط مع «تنظيم القاعدة»، والمنطقة العازلة التركية. أما في «أحرار الشام» فإن الانقسام يعود إلى زمن المراجعات التي أجراها بعض قادتها حول منهج الحركة وسياستها. فشّمة فريق يؤيد المراجعات، ويرى ضرورة التخلّي عن «ضيق الحزبية إلى سعة الأمة»، وفريق آخر يرفض هذه المراجعات ويتمسّك بمنهج الحركة القديم القائم على أساس السلفية الجهادية؛ بل يمكن رصد هذا الانقسام منذ تاريخ سابق وتحديداً منذ الإعلان عن تأسيس «جبهة النصرة»، حيث تأخرت «أحرار الشام» في إصدار بيان يدين بيعة الجولاني للظواهري، واصفةً إياها بأنها تخدم مصلحة النظام السوري، لتبيّن في ما بعد أن هذا التوصيف لم يمنع الحركة من الاستمرار في التحالف العسكري مع «جبهة النصرة»، والوقوف إلى جانبها في أعقاب الخلاف مع البغدادي، حيث كادت «جبهة النصرة» تندثر بشكل نهائي لو لا وقوف «أحرار الشام» معها، وتقديم العون والمساعدة

لها. وهذا التناقض بين إدانة البيعة والاتهام بخدمة النظام السوري، وبين التحالف العسكري لا يمكن تفسيره إلا بوجود مواقف مختلفة داخل الحركة.

ويمكن القول إن «أحرار الشام» هي من أكثر الفصائل التي خضع فيها خطابها للتغييرات جذرية، وهذا ليس سرًّا؛ إذ من المعروف أن بعض قادة الحركة أجروا مراجعات على منهجها المتبعة، وبرز من هؤلاء أبو يزن الشامي الذي لم يتردد قبل مقتله بأسابيع (في حادثة القتل الجماعية التي طالت العشرات من قادة الحركة أواخر عام 2014) أن يعلن صراحةً أنه يتوب إلى الله من السلفية الجهادية التي كانت تمثل منهج الحركة في بداية انطلاقها. كما أجرت الحركة تغييرًا في شعارها فتحوّل من «مشروع أمة» إلى «ثورة شعب»، وهو يعكس تخلي الحركة عن أي طموحات إقليمية، والاكتفاء بالعمل داخل الأراضي السورية فقط.

## خاتمة

من خلال الفصول السابقة، نستطيع الاستنتاج بسهولة أن الفصائل الإسلامية في دخولها، أو خروجها من التحالفات في ما بينها، لم تكن تخضع لمعايير ثابتة واضحة، والأمر نفسه يصدق على الخصومات والعداوات في ما بينها، ففي جميع التحالفات التي جرت لم يكن يوجد مبدأ ثابت يمكن الاعتماد عليه لفهم الأسباب التي دفعت إلى تشكيل هذا التحالف أو إنهاء ذاك.

وما يعزز من ذلك أن الساحة السورية تحوي مئات الأمثلة عن وقوع عمليات اغتيال وتصفية، أو اعتقال وخطف بين الفصائل المتممية إلى تحالف واحد؛ بل كانت الأمور تصل أحياناً إلى شنّ الفصائل هجمات واسعة بعضها ضد بعضها الآخر. في المقابل ثمة أمثلة لا تقل عن الأولى، حول امتناع فرع تابع لأحد الفصائل في منطقة ما، عن المشاركة في القتال

ضد فصيل آخر تجري بينه وبين أفرع الفصيل في مناطق أخرى معارك شرسة، ومن هذا القبيل امتناع «فرع جبهة النصرة في القلمون الغربي» عن قتال تنظيم «الدولة الإسلامية» على الرغم من أن الأخير كان يقع هزيمة منكرة في صفوف «جبهة النصرة» في المنطقة الشرقية؛ بل أكثر من ذلك، كانت الأمور تتعذر مجرد الامتناع عن القتال، وتصل إلى درجة التحالف معه، كما جرى في مخيم اليرموك من تحالف بين «جبهة النصرة» و«أحرار الشام» مع تنظيم «الدولة الإسلامية»، وإذا كانت قيادة «أحرار الشام» قد أصدرت قراراً بفصل فرعها في مخيم اليرموك جراء ذلك، فإن «جبهة النصرة» لم تفعل الأمر نفسه، وما زال فرعها هناك متحالفاً مع «داعش».

كما يمكننا الاستنتاج من خلال التزامن بين تشكيل بعض التحالفات مع مفاسيل ومنعطفات تمرّ بها الأزمة السورية على الصعيد السياسي، أن الضغوط الخارجية من قبل بعض الأطراف الإقليمية والدولية كانت تلعب دوراً مهماً في صياغة التحالفات بين الفصائل الإسلامية، أو فض تحالفات أخرى؛ بل إن الضغوط الخارجية (أو التوجيهات والأوامر) لعبت دوراً أعمق من ذلك تخطى حدود صياغة التحالفات، إلى درجة التدخل في صياغة خطاب هذه الفصائل، وتحديداً المصطلحات التي ينبغي استخدامها، أو الابتعاد عنها.

بل يمكن القول إن الدور الذي تلعبه الضغوط الخارجية لم يعد يقتصر على التدخل في سياق بعض التحالفات، ومحاولات توجيهها بما يخدم هذا الطرف الإقليمي والدولي أو ذلك؛ بل تعدد ذلك، إلى أنها أصبحت هي من تفرض التحالفات التي ينبغي تشكيلها، ولها الفيتو على أي تحالف لا تريده.

وهنا يبرز مثال «جيش الفتح في إدلب» الذي تمكّن من السيطرة على محافظة إدلب بشكل شبه كامل باستثناء بعض الجيوب الصغيرة، فقد تشكّل هذا الجيش، الذي هو عبارة عن غرفة عمليات مشتركة، كأحد نتائج

التقارب السعودي القطري التركي بعد إطلاق عاصفة الحزم في اليمن، ولم يكن له أن يتشكل وينجح لو لا الغطاء الإقليمي والدعم اللامحدود الذي يتلقاه، ولكن كان من الواضح أن «جيش الفتح» له مهمة معينة في بقعة جغرافية محددة لا يمكنه تجاوزها، وهذا ما يفسّر عجز الفصائل نفسها عن استنساخ تجربة «جيش الفتح» في محافظات أخرى، لأن الغطاء الإقليمي لا يشملها.

وقد فشلت تجارب عدّة في هذا المضمار، ففي حلب انقسمت الفصائل وشكّلت غرفتي عمليات، هما: «غرفة عمليات فتح حلب» بقيادة «الجبهة الشامية»، و«غرفة عمليات أنصار الشريعة» بقيادة «جبهة النصرة». وكذلك الأمر في درعا، حيث رفضت غالبية فصائل «الجبهة الجنوبيّة» الانضمام إلى «جيش الفتح» الذي أسسته «جبهة النصرة» بمشاركة «أحرار الشام». أما في الغوطة الشرقية، فقد حاولت «جبهة النصرة» المطالبة بتأسيس «جيش فتح» لكنها لقيت اعتراضاً شديداً من قبل «جيش الإسلام» بقيادة زهران علوش.

وما يؤكّد تغلغل العامل الخارجي في صفوف الفصائل، وقدرتها على تحديد مهام كل فصيل، واستبعاد بعض الفصائل من مهام معينة، هو ما يجري في ريف حلب الشمالي على إيقاع محاولة الحكومة التركية إنشاء منطقة آمنة هناك، فغالبية الفصائل سارعت إلى تأييد الخطوة مستنفرة أجنبتها السياسية والدينية لإصدار التصريحات والفتاوی التي تبررها، بينما رضخت «جبهة النصرة» للأمر الواقع، وأعلنت انسحابها من معاقلتها لتفسح في المجال لتمرير المشروع الذي وصفته ببيانها أنه لحماية الأمن القومي التركي، ولا يخدم مصالح الساحة السورية.

ولكن ما يجري حالياً، ليس هو نهاية الطريق، وما زال أمام الفصائل الإسلامية مشوار طويلاً ستخلله المزيد من محطّات الافتراق والمفاصلة،

لأن الرضوخ بشكل أو باخر لمتطلبات السياسة الإقليمية والدولية، لا يعني عدم وجود تيارات داخل بعض الفصائل ترفض مثل هذا الرضوخ، وقد لا يطول الوقت قبل أن تقول كلمتها حوله، وعندئذ ستكون الساحة السورية أمام منعطف جديد قد لا توقف تداعياته عليها وحدها؛ بل قد يمتد وينتشر في اتجاهات مختلفة.

# تنظيم الدولة الإسلامية «داعش» البني والهيكل التنظيمية والمالية وآليات الاستقطاب

الأستاذ مصطفى زهران<sup>(1)</sup>

## مقدمة

لم يكن تعاشر الربع العربي وتراجع الإسلام السياسي بعد وثبة عرجاء في السلطة لم تدم طويلاً، سوى بداية لمرحلة جديدة للتحول صوب خريف عاصف لا زال يضرب المنطقة العربية والإسلامية بقوة، ليؤصل بذلك لمرحلة مغايرة عن سابقتها، يتراجع خلالها «السياسي» ويتقى «الراديكالي» بقوة وبسرعة منقطعة النظير، ويتجلّى ذلك بقوة من خلال ما تمخض عنه هذا الخريف من نشوء تنظيم تجاوز براديكاليته جميع من سبقه من التيارات الإسلامية التي تتبنى العنف خياراً استراتيجياً وعقدياً في آن معًا، وعلى رأسهم «القاعدة» وهو ما بات يعرف بـ«تنظيم الدولة الإسلامية، داعش».

لقد أصبح تنظيم الدولة واقعاً قائماً، لا يمكن تجاهله بعد أن شغل مساحة كبيرة على الأرض تحت مسمى دولاتي ينطلق منها لشن الحروب، أو ما يعرفه التنظيم بالغزوات والفتورات، وشيئاً فشيئاً انتشرت أفكاره

---

(1) كاتب وباحث في شؤون الحركات الإسلامية، يعمل في مركز «ستا» للدراسات والأبحاث في القاهرة، من مصر.

وأدبياته بشكل كبير، وافتشرت مواقع التواصل الاجتماعي بقوة، حتى صارت مقوله «باقية وتمدد» على ألسنة الجميع إما تندّراً، أو ألمًا وحسرة.

جاء ذلك في خضم تحولات جيوسياسية صاحبت ميلاد هذا التنظيم ودولته الناشئة، التي لعبت دوراً كبيراً في توسعه وتمدده على النحو والصورة القائمتين في هذه اللحظة، وساهمت بقدر كبير في إيجاده، وتهيئة المناخ لإنصافه ونموه بالقدر الكبير، فما بين «الاستبداد» و«الطائفية» نما وترعرع تنظيم الدولة، وانطلق من خلالها في تدشين حاضنة مجتمعية له، دفعت مرغمة إليه بعد أن انتفت الاختيارات أمامها، فارتضت أن تحتمي من الرمضاء بالنار.

ونتج عن ذلك تشكيل دولاتي ما بين العراق وسوريا تحت قيادة الخليفة «أبي بكر البغدادي» بعد أن نجح في الانتقال بدولته – «دولة الخلافة» – من التنظير إلى التجريب، ومن الخيارات إلى الواقع الفعلي على الأرض، حتى باتت تشكل تهديداً كبيراً ليس في النطاق المحلي وحسب، وإنما امتد ليشمل الإطار الإقليمي كله شرقاً وغرباً.

إن طموحات البغدادي ورغباته الجامحة في التوسيع والتمدد على حساب غيره من التنظيمات الراديكالية والجهادية الأخرى لن تقف عند أسوار العراق وحدود الشام؛ بل سيسعى جاهداً إلى أن يضم بلدان عدّة في المشرق والمغرب على حد سواء، فالرجل تملّكه روح تشعره بأنه في الإطار التكويني الأول للدولة الخلافة التي يُبشر بها الرسول – صلوات الله وسلامه عليه – وهو ما يعني أن المشهد القائم قد يطول أثراه، وتعاظم أخطاره وإشكالياته في ظل تنظيم مفعم بهوس «الفهم الراديكالي» للدين، وتدلّل عليه بقوة افتتاحيات البغدادي والعدناني «المتحدث العسكري والرسمي للدولة الإسلامية» لخطاباتهما دوماً في المقاطع التسجيلية التي تبث وتذاع على الإنترنت، التي يذكر في صدارتها قوله «والصلاوة والسلام

على من بعث بالقتل رحمة للعالمين» بعد اجتذاب الرحمة منها، والاقتصار على القتل والترهيب وحسب.

وفي مقابل ذلك، يسعى التنظيم بخطى حثيثة وأكثر تنظيماً من غيره من التنظيمات الراديكالية الأخرى إلى تكوين ولايات في كل بلد عربي وإسلامي وإفريقي ما استطاع إليه سبيلاً، في ظل رغبته الجامحة في أن تتضوّي تحت لوائه تلك الولايات داخل الدولة الإسلامية الجامعة – أو إن شئت قلت «دولة الخلافة الإسلامية». فلا تبقى توجد حدود جغرافية تحول دون وصول أتباع البغدادي إلى دولتهم تلك بعد مبايعتهم له، وهو ما يزيد الأمر تعقيداً، ويربكه بشكل كبير.

ومع تصاعد الدور الداعشي في المنطقة ككل، كان لا بد من محاولة الاقتراب بقدر ما من صلب هذا المشروع الراديكالي، من خلال ما نتطرق إليه في هذه الدراسة من خلال التوغل برفق إلى البنى والهيكل التنظيمية والمالية فضلاً عن آليات الاستقطاب لأهم وأخطر التنظيمات الإسلامية الراديكالية قاطبة في المشهد العالمي في اللحظة الراهنة، وهو ما تهدف إليه هذه الورقة لتبصرة المهتمين والمتابعين فضلاً عن المختصين بهذا الشأن حول ما يدار من علامات استفهام تبحث عن إجابة.

## أولاً: تنظيم الدولة الإسلامية: النشأة والتطور

مرت الدولة الإسلامية في العراق والشام بأطوار تكوينية ثلاثة على النحو الآتي:

الطور الأول: القاعدة في بلاد الرافدين.

الطور الثاني: الدولة الإسلامية في العراق.

الطور الثالث: الدولة الإسلامية في العراق والشام.

كان الاحتلال الأمريكي للعراق في 2003 بداية تاريخ حقيقي لتشكل النواة الراديكالية الأولى «الأكثر تشدداً» في العراق والمنطقة ككل، فبعد أن أطاح بالرئيس العراقي «صدام حسين»، وفي خضم المواجهات الدائرة بين المقاومة العراقية والاحتلال الأمريكي للعراق، كان يوجد من يعد العدة لتدشين تيار سلفي جهادي يقود المواجهة أمام المحتل الأمريكي، وتم ذلك على يد الشيخ أحمد الخاليلية المُكتَنِ بـ«أبي مصعب الزرقاوي» تحت مسمى جماعة التوحيد والجهاد ما بين الأعوام 2003–2004م. واشتهرت بعملياتها البارزة ضد المحتل الأمريكي<sup>(١)</sup>.

في موازاة ذلك، وبعد عام من الغزو الأمريكي للعراق أعلن أبو مصعب الزرقاوي بيته للشيخ أسامة بن لادن أمير تنظيم القاعدة في ذلك الوقت، وبعد أن كانت الجماعة مستقلة كحركة سلفية مقاومة للمحتل الأمريكي أصبحت فرعاً للقاعدة في العراق، وأطلق عليها اسم «القاعدة في بلاد الـAfdis»<sup>(2)</sup>.

صاحبت تلك البيعة بيعات لعدد من الجماعات والحركات المقاومة على الأرض العراقية للاحتلال الأمريكي للشيخ أسامة بن لادن وقاعدته،

(1) تاريخ الدولة الإسلامية «الموثق»، ج 1: النشأة والتكوين.

(2) المصادر نفسه.

منها على سبيل المثال لا الحصر كتيبة أبي اليمان المدائني، وجماعة سرايا الغضب الإسلامية، جماعة الفاتحين، وجماعة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وكتيبة الحسن البصري، ثم كتيبة الزبير بن العوام، جماعة البراء المجاهدة، وهذا ما زاد من قوة التنظيم العددية والقتالية بعد انصهارهم وتوحدهم في البوتفقة القاعدة الجديدة على الأرض العراقية، فصار تنظيم القاعدة في بلاد الرافدين من أكبر التنظيمات عدداً وإمكانيات من بين الجماعات المقاتلة في العراق، وكان المسئول عن نسبة كبيرة من العمليات الكبرى في العراق<sup>(١)</sup>.

وتذكر الأديبيات الداعشية أن الزرقاوي لم يكن لديه تصور واضح واستراتيجية محددة حول «الدولة» وتموضعها بتشكيلها الإسلامي الأصولي المراد به على الأرض العراقية، أو ما يسمى بأرض الرافدين<sup>(٢)</sup>، ولكنه كان يمثل حالة مختلفة في تشددها عنتنظيم الأم باعتباره رافداً منه، وهو ما كان يظهره بشدة وعلى نحو غير متعارف عليه بشكل كبير في القاعدة من جز الرؤوس وقطعها، الذي صار مشهداً مألفاً في العراق من حينها إلى اللحظة الحالية، ما دفع بالشيخ ابن لادن ومساعده الشيخ أيمن الظواهري إلى أن يعاتبه في ممارساته على الأرض العراقية، على الشكل الذي كان ظاهراً في الأفلام التسجيلية وغيرها.

وعلى الرغم من حدوث بعض بـأن الزرقاوي عادة ما كان يحدث نفسه ومن حوله برغبته الدفينـة في إنشـاء وتأسيـس دولة تكون نواة لخلافـة إسلامـية<sup>(٣)</sup>، إلا أن ندرة ما يثبت ذلك أو يؤكـده يجعلـنا لا نسلـم إلى هذه الرؤـية، حتى جاء مقتـله ليـنهـي أسطـورة الزـرقـاوـيـ، وـتـبدأ القـاعدة مرـحلة

---

(1) المصدر نفسه.

(2) المصدر نفسه.

(3) المصدر نفسه.

جديدة بقيادة خلفه «أبي حمزة المهاجر» أو «عبد المنعم عز الدين علي البدوي».

### مجلس شورى المجاهدين

وفي 15 يناير/كانون الثاني عام 2006 م أعلن عن تشكيل مجلس شورى المجاهدين في العراق تحت قيادة عبد الله بن رشيد البغدادي، وتم تشكيل هذا المجلس من اجتماع عدد من الجماعات التي قاومت الغزو الأميركي للعراق، ويُسند تأسيس هذا المجلس للزرقاوي.

كان مجلس شورى المجاهدين في العراق يسيطر على مناطق أهل السنة كافة<sup>(1)</sup>، وكان الهدف منه هو انصار التكتلات المجاهدة والمقاومة للمحتل الأميركي في بوقعة واحدة لتعزيز التعاون، أو بمعنى أدق سعت القاعدة بقيادة الزرقاوي إلى احتواء الجيوب الجهادية الأخرى التي استعانت عليه في مبايعة ابن لادن وتنظيمه، أو الاستظلال بالتنظيم والتبرؤ مما سواه.

وبعد مقتل الزرقاوي تم الإعلان عن حلف المطبيين<sup>(2)</sup> الذي كان نواة «دولة العراق الإسلامية»، وقد تشكلت الدولة من مجلس شورى المجاهدين (جميع الفصائل المقاتلة تحت رايته) مضافاً إلى بعض الكتائب الأخرى على رأسهم جماعة جند الصحابة، كتائب أنصار التوحيد والسنة، كتائب كردستان، بعض الكتائب من «كتائب ثورة العشرين»، مضافاً إلى بيعة عدد من عشائر أهل السنة<sup>(3)</sup>.

وهنا برز أبو عمر البغدادي الذي تمت مبايعته أميراً للدولة الإسلامية

---

(1) المصدر نفسه.

(2) المصدر نفسه.

(3) المصدر نفسه.

في العراق، وعلى أثرها تم الإعلان عن التشكيلة الوزارية لدولة العراق الإسلامية<sup>(1)</sup>.

في ذلك الوقت، بايع وزير الحرب آنذاك أبو حمزة المهاجر دولة العراق الإسلامية وال الخليفة البغدادي الأول «عمر البغدادي» في العسر واليسر، والمنشط والمكره، ويدرك أن عدد مقاتلي الدولة الإسلامية بالعراق في هذه المرحلة كان يضم قرابة 12 ألف مقاتل انضموا إلى تلك المباغة<sup>(2)</sup>.

وفي ذلك الوقت أيضًا، برزت مباركة الشيخ أسامة بن لادن للإلهادات الأولى للدولة الإسلامية الناشئة من خلال ثنائه عليها ووصف الأمير عمر البغدادي وإخوانه بأنهم ليسوا من يساومون على دينهم، أو يرضون بأنصاف الحلول، أو يتقوون مع الأعداء بمتناصف الطريق، ولا يخافون في الله لومة لائم -حسب وصفه-. وشاركه الأمير آنذاك الشيخ أيمن الظواهري الذي أفرط في الثناء على البغدادي ودولته، مؤكداً على أنها القوة الوحيدة لمواجهة الغرب، متعجّلاً من ينكر عليها وجودها على الأرض<sup>(3)</sup>.

### الصحوات العراقية

لعبت الصحوات العراقية دوراً كبيراً وبارزاً في استئصال شأفة القاعدة وتحجيمها بشكل كبير لسنوات عدة، ولم ينس الراديكاليون الإسلاميون الكابوس الذي لم يرحمهم، خاصة وأنه نجح في ما فشلت فيه القوات الأمريكية قاطبة بعد نجاحها في طرد مسلحي دولة العراق الإسلامية،

(1) المصدر نفسه.

(2) تاريخ الدولة الإسلامية «الموثق»، ج 2: انطلاقه الصولات المباركة.  
<http://forum.ebadalrhman.net/t19316.html>;  
[http://dawaalhaq.blogspot.com/201507//blog-post\\_6.html](http://dawaalhaq.blogspot.com/201507//blog-post_6.html).

(3) المصدر نفسه.

وأنهت حلم الإمارة، بل والخلافة أيضاً في طورها الثاني<sup>(1)</sup>. وتزعم الصحوات بالعراق عبد الستار أبو ريشة بدعم مباشر من القوات الأمريكية دعماً مادياً ولو جيسيتاً منقطع النظير<sup>(2)</sup>، وبلغ عدد الصحوات آنذاك قرابة 100 ألف جندي<sup>(3)</sup>.

وبرز خلال هذه الفترة الدور العربي خاصة الخليجي منه في إبداء الدعم المادي المباشر للصحوات، وإضفاء مسحة من الشرعية عليها من قبل مشايخ الخليج السلفيين، خاصة الذين يتبعون إلى المدرسة السلفية المدخلية التي تعنى بضرورة طاعة ولاة الأمور، وتحريم الخروج على الحاكم وما شابه<sup>(4)</sup>.

ولقد لعبت الأحزاب الإسلامية السنوية دوراً بارزاً أيضاً في نجاح دور الصحوات في القضاء على القاعدة، وإجهاض مشروع الدولة الإسلامية في طورها الثاني على يد الأمير البغدادي الأول ورفيقه أبي حمزة المهاجر، وتجلى ذلك في الدور الذي لعبه «الحزب الإسلامي بالعراق» المحسوب على جماعة الإخوان المسلمين وما رافقها من عملية سياسية بقيادة طارق الهاشمي الذي دعم الصحوات سياسياً في مواجهة القاعدة. وأضاف إلى ذلك «الجيش الإسلامي» في العراق، وكتائب «ثورة العشرين»، وغيرها، فضلاً عن الوقف السنوي، برئاسة الشيخ أحمد عبد الغفور السامرائي، وفي ذلك الوقت نجحت الدولة الإسلامية في قتل عبد الستار أبو ريشة أمير الصحوات، انتقاماً لما فعله من التنكيل بهم وبالقاعدة<sup>(5)</sup>.

---

(1) المصدر نفسه.

(2) المصدر نفسه.

(3) تاريخ الدولة الإسلامية «الموثق»، ج 3: تشكيل الصحوات وانحياز المجاهدين.  
<https://www.facebook.com/news.haq/posts/922566004484210>;  
[http://dawaalhaq.blogspot.com/201507//blog-post\\_516.html](http://dawaalhaq.blogspot.com/201507//blog-post_516.html).

(4) المصدر نفسه.

(5) المصدر نفسه.

جاء مقتل أمير دولة العراق الإسلامية أبي عمر البغدادي وبرفقة وزير الحرب أبو حمزة المهاجر في غارة جوية عام 2010، لتبدأ الدولة الإسلامية الناشئة طوراً مغايراً عن تجربتها السابقة بعد أن واصل أبو بكر البغدادي إمارة الدولة خلفاً لأخيه عمر، وذلك بعد أن تم الإجماع عليه من قبل من يطلق عليهم «أهل الحلّ والعقد» في دولة العراق الإسلامية<sup>(1)</sup>.

### الدولة الإسلامية في العراق والشام

تذكر الأديبيات الداعشية أنه ومع بدايات الثورة السورية أوائل عام 2011 م، أرسلت دولة العراق الإسلامية ما أطلقت عليه «النخبة من رجالها» إلى الشام تحت مسمى «جبهة التّنصرة» عبر الحدود العراقية-السورية لمناصرة الثورة وما شابه في مواجهة بشار الأسد والسلطة القائمة آنذاك بشكل عام، محمّلين ببعض المال، وبدأت جبهة التّنصرة بعمليات كبيرة في الداخل ضد بشار، ساهمت في جذب الكثريين من الشوام تجاهها، كما تذكر تلك الأديبيات، إلا أنه وفي عام 2013 م، سارع أبو بكر البغدادي نحو الإعلان عن تبعية «جبهة التّنصرة» له تبعية مباشرة وأنه المسؤول عن إرسالها إلى الشام، ما دفعه إلى إلغاء مسمى «النّصرة» وعوده جنودها للقتال تحت راية دولتهم الأمّ في العراق؛ ليعلن ميلاد «الدولة الإسلامية في العراق والشام» المسمى القائم في الوقت الراهن<sup>(2)</sup>.

في هذا الوقت بُرِز خطاب البغدادي الشهير الذي أُعلن فيه قيام الدولة الإسلامية في العراق والشام، والذي انتقد خلاله الجولاني، واصفاً إياه بأنه قد شقّ عصا الطاعة بعد أن كان أبو بكر البغدادي يعُدّ إماماً دولة شرعية، وذلك بعد أن انفض أبو محمد الجولاني عن البغدادي، وذهب لمبايعة

---

(1) تاريخ الدولة الإسلامية «الموثق»، ج4: تمدد الدولة وغدر الجولاني.  
[http://dawaalhaq2.blogspot.com/2015/07/blog-post\\_811.html](http://dawaalhaq2.blogspot.com/2015/07/blog-post_811.html).

(2) المصدر نفسه.

القاعدة وأميرها الحالي الشيخ أيمان الظواهري، ما جعله في نظر البغدادي دولته مارقاً وناقصاً للبيعة، وحانثاً بالعهد<sup>(1)</sup>.

وهو ما يفسر مشاهد وفصول السجالات والمعارك القائمة على المسرح الراديكالي والجهادي العالمي بين القاعدة وداعش خاصة في سوريا، وتحديداً بين جبهة النصرة وداعش.

### خلاصة استنتاجية

يفيدنا العرض السابق للأطوار التكوينية الثلاثة لنشأة ما يسمى بالدولة الإسلامية في العراق والشام منذ بدايات وضع النواة الأولى لها على يد أبي مصعب الزرقاوي، مروراً بالبغدادي الأول ثم الثاني، بأن هذا التشكيل القريب من الدولاتية في اللحظة الراهنة ومن خلال قيادته المتمثلة في أبي بكر البغدادي، قد استفادت بقدر كبير من التجارب السابقة عليه، وخضعت لاختبارات صعبة للغاية، وشهدت محطات سياسية ومواجهات عسكرية ليست بالهينة، للقضاء عليها واستئصال شأفتها، خاصة وأنه لم يغب عن البغدادي الثاني دور الصحوات العراقية في تفكيت القاعدة والمناصرين لها، والقضاء على الطور الأول للدولة الإسلامية آنذاك، والتي كانت تسعى إلى حد ما إلى الاستقلالية قبل أن تتموضع فكرة الأرض وإيديولوجيتها على النحو القائم الآن في الفكر الداعشي.

ولعل استيعاب البغدادي أن السبب الحقيقي في نجاح الصحوات القديم هو الحاضنة الشيعية التي دعمته بقدر كبير، والتي تشكلت منها بالأساس، دفعه إلى أن يفكر جدياً في أن تلعب هذه الحاضنة دوراً عكسياً في حال ظهوره عن سابقته، من خلال إظهاره وأنصاره بأنهم منقذو أهل السنة من بطش الحكومة الطائفية «الشيعية»، والتي كانت ممثلة آنذاك في رئاسة وزراء نوري المالكي، ولعله يُعزى إليه بشكل كبير سقوط الموصل

---

(1) المصدر نفسه.

في أيدي البغدادي ورفاقه في ما يسمى بالدولة الإسلامية بعدما لعب السياق العام والمحيط بالمشهد العراقي السنّي على وجه الدقة دوراً في تعزيز قدرات البغدادي في مواجهة جيش المالكي، بعد أن ذاق أهل السنة من هذه الحكومة ممارسات طائفية ندد بها بعض مراجع الشيعة العراقيين المعارضين للتواجد الإيراني بالعراق والمحسوبين على التيار الشيعي العربي، وعلى رأسهم المرجع الشيعي (الحسني الصريخي) الذي عانى التضييق والمحاصرة، بل والقصف من طائرات القوى العسكرية التابعة لرئيس الوزراء آنذاك نوري المالكي، فضلاً عن التضييق الأمني على مقلديه من العراقيين الشيعة فقط لتنديده بالتدخل الإيراني في العراق وممارسات القوى العسكرية والشرطية هناك، والتي توصف بالطائفية تجاه أهل السنة بالعراق، وهو جزء أصيل وسبب رئيس في التنازع الكبير من أهل السنة جراء مظلوميتهم تلك، وتحولاتهم حول جيش البغدادي باعتباره المنفذ من ويلات الورقة الطائفية التي لعب بها الجانب السوري، حسب زعم التنظيم.

وإيجازاً، فإن أحد أسباب نجاح الظهور الداعشي في بداياته، هو خلق حاضنة مجتمعية التفت حوله ودعمته، ظلّ منها بأنه حالة مهدوية ستقتصر لها من طائفية المالكي ورفاقه في السلطة، بعد أن بلغ السيل الزبى، وهو ما يجعلنا نعود إلى ما طرحته في مقدمة الورقة بأن عنصري الاستبداد والطائفية، كانوا عاملين رئيسيين في نمو النبتة الداعشية على الشكل والنحو القائمين.

### ثانياً: هيكلية التنظيم

تعد «الدولة الإسلامية: داعش» سابقة في تاريخ الحركات الراديكالية المتشددّة «الجهادية»، خاصة فيدائرة السنة التي يمكن وصفها بأنها معقدة في بنيتها الهيكلية والإدارية، وقد أرجعها بعض إلى ما أسموه بالموازنة بين الأشكال التنظيمية الإسلامية التقليدية، التي تكونت مع مؤسسة الخلافة على مدار تاريخها، وتنظيرات الفقه السلطاني الذي يؤسس

لمفهوم الدولة السلطانية؛ والذي يقوم على مبدأ الغلبة والشوكة والإمارة، إلى جانب الأشكال التنظيمية الحديثة لمفهوم الدولة الذي يستند إلى جهاز عسكري أمني، وأخر إيديولوجي بيروقراطي<sup>(1)</sup>.

ما يعني أن التنظيم في تشكّله الدولاتي سعى إلى مقاربة تهدف إلى الربط بين «التقليدي» و«العصري» أي الحداثي المرتبط بشكل الدولة الحديث المتعارف عليه، على الرغم من تغليفهما بمصطلحات لم تبارح مكانها من دولاب التراث الإسلامي، وخزانته القديمة.

وانطلاقاً من هذا التعقيد وصرامته يصعب على الباحث الرصد الدقيق لهذه البنية التنظيمية له؛ لكونها مبهمة بالأساس وتتسم بالكثير من التقدير، الذي يفتقر إلى المعطيات الدقيقة، وذلك لأنّه استفاد من تجارب سابقه من التيارات والحركات الراديكالية، فبدا غامضاً وسريّاً وشحيحاً في معلوماته لأعلى مستوى، حتى أن المعلن من بياناته وإصداراته كانت شاملة وجامعة في إبراز تنظيم الدولة كواقع فعليّ على الأرض دون تفاصيل محددة تُبرز هيكليته الدقيقة، اللهم سوى التقليدي منها كإبراز عدد ولاياته والقائمين عليها وسميات الوحدات القتالية وما إلى ذلك<sup>(2)</sup>.

تشكل داعش أو ما يسمى الدولة الإسلامية في العراق والشام، والتي يتزعّمها نظرياً ما سمي بال الخليفة أمير المؤمنين من إمارتين: إمارة العراق

---

(1) البناء الهيكلية لتنظيم «الدولة الإسلامية»؟

<http://studies.aljazeera.net/files/isil/20142014112363816513973/11.htm>.

(2) مم تتألف هيكلية تنظيم «الدولة الإسلامية»؟

[http://alhayat.com/Articles/5640387/%D985%/%D985-%D8%A%A%D8%AA%D8%A3%D984%/%D981-%-%D987%/%D988%A%D983%/%D984%/%D988%A%D984%/%D8%A9-%D8%A7%D984%/%D8%A5%D8%B3%D984%/%D8%A7%D985%/%D984%A%D8](http://alhayat.com/Articles/5640387/%D985%/%D985-%D8%A%A%D8%AA%D8%A3%D984%/%D981-%-%D987%/%D988%A%D983%/%D984%/%D988%A%D984%/%D8%A9-%D8%A7%D984%/%D8%AF%D988%/%D984%/%D8%A9-%D8%A7%D984%/%D8%A5%D8%B3%D984%/%D8%A7%D985%/%D984%A%D8)  
%A9-%D89%F.

وإمارة الشام، وتتألف كل إمارة من ولايات عدّة، وكل ولاية تقسم إلى قواطع عدّة (القاطع: تسمية إدارية عراقية تعني المنطقة<sup>(1)</sup>).

وما يمكن تقديمها من تصور لهيكلية التنظيم ما هو سوى اجتهادات تحليلية تسعى إلى تقديم مقاربة لفهم هذا العمق الهيكلي الغامض لتنظيم الدولة، والذي يبدأ من التصور الآتي:

### الخليفة

هو أعلى منصب بالدولة ومن يده مقاليد الحكم والإدارة عقب البيعة له من قبل جموع المسلمين، ومن ينوب عنهم من قبل مجلس الشورى الذي يمثلهم كأعلى سلطة في الدولة بعد الخليفة. ويتولاه في الوقت الحالي أبو بكر البغدادي العراقي المولود (1971)، واسمه الأصلي إبراهيم عواد إبراهيم البدرى. ويطلق عليه اسم الخليفة إبراهيم<sup>(2)</sup>، ويسعى التنظيم

(1) الدولة الإسلامية في العراق والشام داعش..البنية التنظيمية...الإعداد والتدريب  
[\(2\) مم تتألف هيكلية تنظيم «الدولة الإسلامية»؟ \(المصدر نفسه\)  
<http://alhayat.com/Articles/5640387/%D985%%D985-%D8%AA%D8%AA%D8%A3%D984%%D981%-D987%%D983%%D984%%D989%D8%A9- =>](http://www.lemaghreb.tn/%D8%B4%D8%A4%D988%D986-%D8%B9%D8%B1%D8%A8%D98%A%D8%A9-%D988-%D8%AF%D988%D984%D98%A%D8%A9%D80096/-%D8%AE%D8%A7%D8%B5-%D8%A8%D980%%D8%A7%D98-%4%D985%%D8%BA%D8%B1%D8%A8-%D8%A7%D984%%D8%A F%D988%%D984%D8%A9-%D8%A7%D984%%D8%A5%D8%B3%D984%%D8%A7%D985%%D98%A%D8%A9-%D981%%D98%A-%D8%A7%D984 %%D8%B9%D8%B1%D8%A7%D982 %%D988 %%D8%A7%D984 %%D8%B4%D8%A7%D985 %%D8%A7%D984%%D8%AA%D986%%D8%B8%D98%A%D985%%D98%A%D8%A9-%D8%A7%D984%%D8%A7%D984 %%D8%A7%D8%B9%D8%AF%D8%A7%D988%%D8%A7%D984 %%D8%A7%D984 %%D8%AA%D8%A8%D984%%D8%A8%D8%AF%D8%A7%D988%%D8%A7%D984 %%D8%A7%D8%B9%D8%AF%D8%A7%D8%AF-%D988%%D8%A7%D984 %%D984%%D8%AA%D8%AF%D8%B1%D98%A%D8%A8.</a></p></div><div data-bbox=)

دوماً إلى التأكيد على شرعة المسار السياسي لخلافته من خلال إبراز الشكل الهوياتي لمنصب الخلافة، وجذوره الممتدة في التاريخ الإسلامي، ومن الشكل الذي قامت عليه الخلافة الإسلامية الأولى.

وذلك من حيث كونه يجمع بين «العلم الشرعي» و«النسب القرشي» كإحدى مفردات وأدبيات كلاسيكيات «التراث الإسلامي» و«الحكم السلطاني» في دولاب «الإسلام السنّي»، فضلاً عن سلامة الحواس وسائر الوظائف الدينية والدنيوية. وفق ما تعارف عليه بشروط الولاية. وما يملئه ذلك عليه كقائد ديني وسياسي له حق الطاعة بعد اختياره من قبل مجلس الشورى وأهل الحل والعقد<sup>(1)</sup>، والتي اكتملت بتمامها في شخص البغدادي الخليفة الحالي لتنظيم الدولة الإسلامية.

والمتبع لبروز هذه الكينونة «الخليفة» يقف على مدى التموضع القائم لـ«الدولة» في أدبيات، وفكر وآليات تنظيم الدولة الإسلامية، والتي اختلف بها التنظيم عن تجارب سابقة عليه، بعدهما انتقل بها من الإطار النظيري إلى الواقع التجريبي «الفعلي» على الأرض، والذي كان أول من أرسى قواعدها وتشكلها على النحو الحالي وواضع أولى بذورها ونواتها هو الأمير السابق للتنظيم «أبو عمر البغدادي»، فيما عمقها وأعطى لها مسحة من السرية والدقة والغموض أخوه زعيم التنظيم الحالي «أبو بكر البغدادي» من خلال ترسيخ مبدأ البيعة والطاعة؛ الأمر الذي يضمن له مركزية التنظيم، وسيطرة الخليفة على كل مفاصله<sup>(2)</sup>.

---

= % D 8 % A A % D 9 8 6 % %D 8 % B 8 % D 9 8 %A % D 9 8 5 %- - %D8%A7%D984%%D8%AF%D988%%D984%%D8%A9-%D8%A7% D984%%D8%A5%D8%B3%D984%%D8%A7%D985%%D98%A%D8 %A9-%D89%F.

(1) المصدر نفسه.

(2) المصدر نفسه.

مجلس الشورى (الحاضر دوماً)

وفقاً لتقارير ودراسات محلية يذكر أن مجلس الشورى قد يكون مؤلفاً من مسؤولين وقادة كبار في التنظيم، واجبهم الأساسي تقديم النصائح والمشورة للبغدادي، فضلاً عن تنفيذ أوامره<sup>(1)</sup>، وتعدّ من أهم المؤسسات التابعة للتنظيم، وعلى الرغم من التطورات التي شهدتها المجلس منذ إمارة الزرقاوي، مروراً بأبي عمر البغدادي، وصولاً إلى الرعيم الحالي أبي بكر البغدادي، إلا أن مؤسسة الشورى كانت حاضرة دوماً<sup>(2)</sup>.

وتذكر بعض التقارير أن من يترأس مجلس شورى الدولة في الوقت الحالي هو رجل يدعى «أبا أركان العامري»، ومهام هذا المجلس الرئيسية تمثل في النظر في القضايا المستجدة، واتخاذ القرارات المهمة مضارفاً إلى رسم السياسات العامة، وبالطبع من المتوقع أن يضم بين دفتيه أسماء رموز ذات سبق تاريخي في العمل الجهادي والتنظيري الفقهوي أيضًا، وعلى الرغم من كثرة التأويلات عن محتوى هذا المجلس العددي، إلا أنه لا توجد وثيقة محددة تبرز أعضاءه وعدهم، اللهم سوى بعض الأوراق المسربة التي تخضع للعمل التأويلي ليس إلا.

(1) مم تتألف هكلة تنظيم «الدولة الإسلامية»؟ (المصدر نفسه)

<http://alhayat.com/Articles/5640387/%D985%D985-%D8%A%A%D8%AA%D8%A3%D984%D981%-%D987%D98%A%D983%D984%D98%A%D8%A9-%D8%A%A%D986%D8%B8%D98%A%D985%-%D8%A7%D984%D8%AF%D988%D984%D8%A9-%D8%A7%D984%D8%A5%D8%B3%D984%D8%A7%D985%D98%A%D8%A9-%D8%F>

(2) البناء الهيكلي لتنظيم «الدولة الإسلامية» (المصدر، نفسه)

<http://studies.aljazeera.net/files/isil/20142014112363816513973/11.htm>

(3) المصادر نفسه.

ويمكن لهذا المجلس أن يعزل الخليفة إذا أخفق في أداء واجباته<sup>(1)</sup>.

وتذكر بعض التقارير أن هذا المجلس يتمتع بتقديم الرأي والمشورة للبغدادي في قرار الحرب والسلم، فضلاً عن المسائل التي تمس مصالح التنظيم والدولة، وشؤون الناس العامة والخاصة وعلاقتهم مع الآخرين، ومن مهامه أيضًا تزكية المرشحين لمناصب الولاة، وأعضاء المجالس المختلفة<sup>(2)</sup>.

ويوجد داخله ما يطلق عليه «المجلس الشرعي»، والذي يحظى بأهمية خاصة نظرًا لطبيعة التنظيم الدينية، ويترأسه البغدادي شخصياً، ومن مهامه الأساسية مراقبة التزام بقية المجالس بالضوابط الشرعية، وترشيح خليفة جديد في حال موت الخليفة الحالي، أو تعرضه للأسر، أو عدم قدرته على إدارة التنظيم والدولة لأسباب طارئة كالمرض والعجز<sup>(3)</sup>.

## المجالس

تقابل «المجالس» الوزارات في المفهوم الحديث للدولة المعاصرة، وأول من أطلق هذه التسمية عليها هو الخليفة الحالي أبو بكر البغدادي، الذي أوكل لنفسه مهمة الإشراف عليها خلافاً لتسمية سلفه البغدادي

---

(1) بالصور: الهرم القيادي لتنظيم داعش وطريقة عمله الداخلية  
<http://alfetn.net/vb3/showthread.php?t=85273>.

(2) مم تتألف هيكلية تنظيم «الدولة الإسلامية»?  
<http://alhayat.com/Articles/5640387/%D985%-%D985%-%D8%A%A%D8%AA%D8%A3%D984%-%D981%-%D987%-%D98%A%D983%-%D984%-%D98%A%D8%A9-%D8%A%A%D986%-%D8%B8%D98%-%A%D985%-%D8%A7%D984%%D8%AF%D988%%D984%%D8%A9-%D8%A7%D984%%D8%A5%D8%B3%D984%%D8%A7%D985%%D98%A%D8%A9-%D89%F>.

(3) المصدر نفسه.

الأول<sup>(1)</sup>، وتعتبر «المجالس» المفاصل الأساسية لتنظيم الدولة التي تشكل «القيادة المركزية»، ويتمتع البغدادي بصلاحيات واسعة في تعيين وعزل رؤساء المجالس بعدأخذ رأي «مجلس الشورى»<sup>(2)</sup>.

واللافت في أمر المجالس أن أبا بكر البغدادي سعى بشكل أو باخر إلى إرساء حاضنة شعبية تعزز من بقائهما ووجودها وديمومتها؛ إذ اعتمد بشكل أساسي على العنصر العراقي في معظم المفاصل الرئيسية للتنظيم، فالعراقيون أدرى بشعابهم والأجدر بقيادة الدولة في مراحلها الأولى لفهم التركيبة المجتمعية لكونهم بالأساس جزءاً أصيلاً منها<sup>(3)</sup>.

وهنا يبرز بشكل دقيق دور عسكريي النظام البعثي السابق الذين تمتعوا بنفوذ عالٍ في الجانب العسكري في مواجهة قوات المالكي والجيش العراقي والحشد الشعبي بعد ذلك، وهم الذين انتقلوا من إطارهم الفكري السابق «البعثي» إلى «السلفية الجهادية»، وبشكل أدق إلى «الدعشنة» منذ اجتماعهم الأول تحت قيادة «أبي مصعب الزرقاوي» الزعيم الروحي للحالة الراديكالية الجديدة في العراق، وذلك إبان الغزو الأميركي للعراق في 2003.

وهو ما يفسّر بروز أسماء لها تاريخ «بعثي» قديم و«داعشي» حديث مثل «حجي بكر» – الذي قتل في وقت لاحق – و«عبد الرحمن البيلاوي»، والتي ساهمت بقدر كبير في احتراافية الجناح العسكري لتنظيم الدولة، الذي جمع بين الخبرة العسكرية والقتالية الكبيرة والروح الجهادية «المبعث العقدي»، الذي ساهم في تأصيل هذا الجانب وإبرازه على النحو الحالي، فبدأ متماسكاً ومتجانساً لحد كبير<sup>(4)</sup>.

---

(1) المصدر نفسه.

(2) المصدر نفسه.

(3) المصدر نفسه.

(4) المصدر نفسه.

في موازاة ذلك، توزّعت أدوار العرب والأجانب بين الأمور الإدارية الوظيفية التي تحتاج إلى خبرات متنوعة لضمان سير الأمور على النحو الدقيق والفعال، والتي تأرجحت بين الشورى والإعلام والتجنيد وجمع التبرعات، فيما احتفظ البغدادي بصلاحيات شبه مطلقة في إعلان الحرب وتسيير الغزوات<sup>(1)</sup>. ولم يفته استثمارهم أيضًا في الأجهزة الشرعية خاصة الخليجيين منهم أمثال: أبي بكر القحطاني (عمر القحطاني)، وأبي همام الأثري، المعروف بتركي البنعلي (تركي بن مبارك بن عبد الله) من البحرين، وال سعودي عثمان آل نازح العسيري<sup>(2)</sup>. وفي المواقع الأمنية الأساسية على «حلقة تلغرف التركمانية»، وبرز منهم «أبو علي الأنباري»<sup>(3)</sup>.

## الولايات

قسم التنظيم مناطق تواجده في سوريا والعراق إلى ولايات عدّة، أبرزها نينوى وديالي وبغداد وكركوك في العراق، وولايات الخير (دير الزور) والبركة (الحسكة) وحلب في سوريا، مضافاً إلى ولاية الفرات التي تجمع بين مدحبي البوكال السورية والقائم العراقية، على حدود البلدين. وتتفرّع عن كل «ولاية» أذرع عسكرية وإدارية محلية<sup>(4)</sup>.

## المتحدث العسكري

كان من الطبيعي أن يلجاً البغدادي ودولته الناشئة إلى متحدث رسمي وعسكري يكون لسان حال التنظيم في كل شاردة وواردة حينما يتطلب الأمر.

---

(1) المصدر نفسه.

(2) المصدر نفسه.

(3) المصدر نفسه.

(4) المصدر نفسه.

وبالفعل تم تعيين أبي محمد العدناني، حيث ظهر للمرة الأولى في كلمة له في مؤسسة الفرقان، عُنونت بـ«الآن الآن جاء القتال» في بدايات عام 2012. ويعد العدناني من أبرز القيادات في التنظيم، وأصدر العديد من الرسائل الصوتية أبرزها: تلك التي أعلن فيها إقامة الخلافة، إلا أن وجهه لم يظهر في أي من الأشرطة المصوره التي بثتها الأدوات الإعلامية الرسمية للتنظيم<sup>(1)</sup>. في ما يُعدّ عمر الشيشاني من أبرز القادة، وأُسند إليه الكثير من العمليات على الأرض<sup>(2)</sup>.

## النواب

عَيْن البغدادي نائبين له هما أبو مسلم التركماني، الذي يدير العمليات داخل العراق، وأبو علي الأنباري، الذي يدير العمليات داخل سوريا. ويحتلان هرم القيادة في كل منطقة ولهمما علاقات مباشرة مع الحكام المحليين، كما ينسقان مع المجالس، ويدبرون عمل الدولة الإسلامية، وفي حال موت البغدادي فإن أحد هذين النائبين سيخلفه، ووفقًا لصحيفة وول ستريت جورنال، فإن الرجلين كانوا جنرالات صدام حسين، ونواب البغدادي<sup>(3)</sup>.

---

(1) أبو محمد العدناني... «منجنيق داعش»

[http://www.islamist-movements.com/4878.](http://www.islamist-movements.com/4878)

(2) مم تتألف هيكلية تنظيم «الدولة الإسلامية»؟

[\(3\) البناء الهيكلي لتنظيم «الدولة الإسلامية»](http://alhayat.com/Articles/5640387/%D985%/%D985%-%D8%A%A%D8%AA%D8%A3%D984%/%D981%-%D987%/%D98%A%D983%/%D984%/%D98%A%D8%A9-%D8%A%A%D986%/%D8%B8%D98%A%D985%-%D8%A7%D984%/%D8%AF%D988%/%D984%/%D8%A9-%D8%A7%D984%/%D8%A5%D8%B3%D984%/%D8%A7%D985%/%D98%A%D8%A9-%D8%AF.</a></p></div><div data-bbox=)

[http://studies.aljazeera.net/files/isil/20142014112363816513973/11.htm.](http://studies.aljazeera.net/files/isil/20142014112363816513973/11.htm)

## أهل الحل والعقد

ويرجع المصطلح لجذور ضاربة في الفقه والتراجم الإسلامي، وقد تم استدعاءه لترسيخ الوجود الدولي وشرعنته في عمق تنظيم الدولة، ويتألف من أهل الحل والعقد من الأمراء والعلماء والقادة والساسة ووجوه الناس.

ويذكر الماوردي في الأحكام السلطانية شرطًا وأمورًا ثلاثة يجب أن تتوافر فيهم، وهي على النحو الآتي<sup>(1)</sup>:

1- العدالة الجامعة لشروطها.

2- العلم الذي يتوصل به إلى معرفة من يستحق الإمامة على الشروط المعتبرة في الإمام.

3- الرأي والحكمة المؤدية إلى اختيار من هو للإمامية أصلح، وبتدير المصالح أقوم وأعرف.

وقد ذكر هذا الاسم في تسجيل صوتي منسوب إلى المتحدث العسكري أبي محمد العدناني على خلفية اختيار أبي بكر البغدادي خليفة المسلمين جاء فيه:

«اجتمع مجلس شوري الدولة الإسلامية، وتباحث هذا الأمر، بعد أن باتت الدولة الإسلامية تمتلك كل مقومات الخلافة، والتي يأثم المسلمون بعدم قيامهم بها، وأنه لا يوجد مانع أو عذر شرعي لدى الدولة الإسلامية؛ يرفع عنها الإثم في حال تأخرها أو عدم قيامها بالخلافة؛ فقررت الدولة

---

(1) أهل الحل والعقد..تعريفهم..الشروط الواجب توفرها فيهم

<http://fatwa.islamweb.net/fatwa/index.php?page=showfatwa&Option=FatwaID&Id=46949>.

الإسلامية، ممثلة بأهل الحل والعقد فيها؛ من الأعيان والقادة والأمراء ومجلس الشورى: «إعلان قيام الخلافة الإسلامية»، وتنصيب خليفة المسلمين، ومبادلة الشیخ المجاهد، العالم العامل العابد، الإمام الأهمام المجدد، سلیل بيت النبوة، عبد الله: إبراهيم بن عواد بن إبراهيم بن علي بن محمد، البدری القرشی الهاشمي الحسینی»<sup>(1)</sup>.

### الهيئة الشرعية

وهي الترمومتر الشرعي للمسائل الإدارية في الدولة الإسلامية، وتحدد الكثير من القضايا وتدخلها ضمن الإطار الشرعي لما لها من طابع ديني مميز، وتنقسم إلى قسمين رئيسين، الأول: يتعلق بتنظيم المحاكم الشرعية ومؤسسة القضاء للفصل في الخصومات، وفض النزاعات وإقامة الحدود، والقيام بوظيفة الحسبة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والثاني: يقوم بوظيفة الوعظ والإرشاد والتجنيد والدعوة ومتابعة الإعلام، وتذكر بعض التقارير أن من يتولى منصب رئيس الهيئة حالياً هو أبو محمد العاني<sup>(2)</sup>.

ويُخوّل للهيئة إصدار الكتب الشرعية والخطابات المعنية بالأحكام والدلائل الدينية في مناسبات ومواسم بعينها، أو من خلال إبراز أحكام تتعلق بالحدود وغيرها، فضلاً عن البيانات والتعليق على الأفلام والأناشيد والمواد الإعلامية الخاصة بالتنظيم<sup>(3)</sup>. ويمثل العرب اللبنة الأكبر داخله خاصة الخليجي منه<sup>(4)</sup>.

---

(1) البناء الهيكلي لتنظيم «الدولة الإسلامية»

<http://studies.aljazeera.net/files/isil/20142014112363816513973/11/.htm>.

(2) المصدر نفسه.

(3) المصدر نفسه.

(4) المصدر نفسه.

## الهيئة الإعلامية

لعلّ أهم ما يبرز تنظيم الدولة هو نجاحه في ما أخفقت فيه تجارب الإسلاميين كافة، سواءً أكان داخل الإسلام السياسي أم الآخر الراديكالي، خاصة الدائرة السنّية منها. وعلى الرغم من أن تنظيم القاعدة سابق عليه في توظيف الإعلام عبر طرح عدد من منتدياته المختلفة وشبكاته الإعلامية، والتي تقف مؤسسة السحاب على رأسه، إلا أن تنظيم الدولة طور تفصيلات وجزئيات هذا الإعلام من الداخل والخارج حتى بات يضاهي إعلام الغرب كافة، في التقديم والإخراج، في ما يقارب الآلة الإعلامية الغربية؛ بل ويتفوق عليها في بعض منها<sup>(1)</sup>. ويقود المؤسسة الإعلامية لتنظيم الدولة الإسلامية اليوم هيئة موسعة بقيادة أبي الأثير عمرو العبسي<sup>(2)</sup>.

ومن بين المؤسسات التي تتوالد بسرعة الصاروخ داخل التنظيم ووسط الولايات، مؤسسة «الاعتصام» ومركز «الحياة»، ومؤسسة أعمق، ومؤسسة البثار، ومؤسسة دابق الإعلامية، ومؤسسة الخلافة، ومؤسسة أجناد للإنتاج الإعلامي، ومؤسسة الغرباء للإعلام، ومؤسسة الإسراء للإنتاج الإعلامي، ومؤسسة الصقيل، ومؤسسة الوفاء، ومؤسسة نسائم للإنتاج الصوتي، ومجموعة من الوكالات التي تتبع الولايات والمناطق التي تسيطر عليها، وكوالة أنباء «البركة» و«الخير»، وغيرها<sup>(3)</sup>.

في موازاة ذلك برزت المجلات ذات اللغات المختلفة والمتنوعة، أمثل: «دابق» و«الشامخة»، وأنشأت الهيئة إذاعات محلية، مثل: إذاعة «البيان» في مدينة الموصل في العراق، وإذاعة أخرى في مدينة الرقة في سوريا<sup>(4)</sup>. وأيضاً برز دور المدونات، ومن أهمها مدونات باللغتين الروسية

---

(1) المصدر نفسه.

(2) المصدر نفسه.

(3) المصدر نفسه.

(4) المصدر نفسه.

والإنجليزية؛ إذ ترجم الهيئة الإصدارات الإعلامية إلى لغات أجنبية عدّة، كالإنجليزية والفرنسية، والألمانية، والإسبانية، والأوردو، وغيرها<sup>(1)</sup>.

وبجانب الأشرطة الدعائية كان اللافت تلك الأفلام التي ترقى إلى العمل الوثائقي المحبك من حيث المادة والتصوير والتي عكست الحجم والقدرة الفائقة على إنتاج أفلام هوليوودية أطلق عليها: «صليل الصوaram»، بدءاً من صليل الصوaram 1 يوليو/ تموز 2012، وصليل الصوaram 2 أغسطس/ آب 2012، وصليل الصوaram 3 يناير/ كانون الثاني 2012، ثم صليل الصوaram 4 مايو/ أيار 2014<sup>(2)</sup>.

### بيت المال

يعدّ تنظيم الدولة الإسلامية الأغنى في تاريخ الحركات الجهادية، وقد تفوق على تنظيم القاعدة المركزي والفرع الإقليمية للقاعدة. وسنعرض لهذا الجانب مفصلاً.

### ثالثاً: أهداف تنظيم داعش وآليات العمل

يكون التمايز بين تنظيم الدولة وتجارب جهادية سابقة ولاحقة عليه في اختلاف الوجهة والهدف، وتتنوع الآليات والرؤى حيال الكثير من القضايا المركزية والمفصلية، التي تدور حولها كل الحركات الجهادية الأخرى، فالقفز على ممارسات تقليدية راديكالية مثل: النكارة بال العدو والإثخان به في عقر داره من خلال عمل ميليشاوي، أو عن طريق حرب العصابات والتخيّي والمراؤحة لاستهداف الخصوم بلا قاعدة ثابتة تتطلّق من خلالها، لم تألفه داعش ولم تستسغه.

---

(1) المصدر نفسه.

(2) المصدر نفسه.

ما دفعها إلى الانطلاق ببرؤية مغايرة مفادها أنه لا مناص من وجود «أرض جامعة» تنطلق منها المغازي، وهي التي ستكون أرض الخلافة في ما بعد، مصحوبة بأطر فقهية شرعية توصل لهذا التموضع وفي الوقت ذاته تبرز حجم التباين بين «تنظيم الدولة» عن غيره من الجماعات والتيارات الراديكالية والجهادية الأخرى مع التشديد على الغاية والمقصد، ألا وهي إعادة الخلافة الإسلامية بالفعل التجريبي والممارسة الواقعية دون الاقتصار على الجانب النظري منها وحسب.

### آليات تنظيم الدولة

#### التنظير الفكري والفقهي

يتسم التنظير الفكري والفقهي لتنظيم الدولة بالصرامة والتشدد الكبيرين<sup>(١)</sup>، والذي دفع بعضاً من داخلدائرة الجهادية ذاتها إلى وصفها بالنكفiriة في كثير منها، إن لم يكن جميعها، والتي جاءت فارقة عن التنظيم الأمم القاعدة، والذي كان يعد أخطر التنظيمات الجهادية قاطبة حتى أصبح محل انتقاد كبير من جانب قادة الفكر الجهادي في العالم، من أمثال أبي محمد المقدسي، وأيمن الظواهري.

#### الخضوع والانقياد لل الخليفة ودولته

«لا راية سوى العقاب ولا خليفة سوى البغدادي والدولة الإسلامية

---

(١) هل تنجح «داعش» في تأسيس دولتها في سوريا والعراق؟  
<http://www.ressmideast.org/Article/2291/%D987%-%D984%-%D8%A8%D8%A7%D8%B1%D981%-%D988%D8%A7%D984%-%D981%-%D988%D8%A7%D984%-%D988%D8%A7%D984%-%D988%D8%A7%D982%#.VYwFF0bUzIU>

في العراق والشام باقية وتمدد». بهذه الصورة تسير الدولة الإسلامية لتنتصري بقية الفصائل والجماعات والتنظيمات تحت لواءها؛ لترفع راية واحدة في دولة واحدة ومباعدة رجل واحد، فلا يصبح الهدف هو النظام السوري القائم وحسب، أو السلطة العراقية فقط، وإنما كل الأنظمة العربية بالتوالي مع بقية الدول الغربية، وعلى رأسها أمريكا «الكافرة الصليبية».

ولا يمكن القيام بذلك بأي حال من الأحوال دون أن يباع الجميع ويسلم لأبي بكر البغدادي، فإما أن يجاهد تحت لوائه وبين صفوفه، أو يقتل لمعارضته ذلك<sup>(1)</sup>.

### اختبار الدولة الصعب

يعي تنظيم الدولة جيداً مأزق قيادة الدول والأقاليم لما تحتاج في كثير منها إلى خبرة وفهم لطبيعة المكونات المجتمعية من جهة، والشكل الإداري وترسيماته المتنوعة من جهة أخرى، وهو ما دفعه إلى محاولة إثبات قدرته على إدارة الدولة، من خلال تقديم الخدمات المختلفة للسكان المحليين، مثل بناء أسواق جديدة، وإنشاء مكاتب للكهرباء، وشبكة موصلات، فضلاً عن تشغيل سد تشنرين الذي سُمي في ما بعد بـ«سد الفاروق»<sup>(2)</sup>.

### الاستقلالية المالية والاكتفاء الذاتي

كان التنظيم على علم ودرأة كبيرة بحجم التحديات التي من المتوقع أن يشهدها في مهمته لتدشين دولة «الخلافة» على مساحة تبدأ من العراق إلى سوريا، وتدعيات ذلك الاجتزاء والتوسيع على التنظيم.

---

(1) المصدر نفسه.

(2) المصدر نفسه.

وهو ما يدفعنا إلى فهم سعيه منذ انطلاقته للهجرة إلى «أرض البترول»، ومن ثم الاستيلاء على أهم الموارد الأساسية التي تتيح له البقاء وتدعيم مشروعه الوليد، وقد كُلّ مسعاه إلى بسط سيطرته على حقول النفط في شمال سوريا، تتمة للأخرى بالعراق، وبعد ترسيخ وجوده البترولي في السوق لجأ إلى موارد أخرى يعزّز بها بقاءه وقدرته على تمويل عملياته والإتفاق على المناطق التي يُسيطر عليها<sup>(1)</sup>.

### التكوينان الحركي والجيسياسي لدى تنظيم الدولة

خضع تنظيم الدولة لحالة من الترتيب والتخطيم الدقيق لمكونيه الحركي والجيسياسي، ما جعله فارقاً عن غيره من التنظيمات المماثلة، فالعقيدة القتالية التي يسير بها ويوظفها في خدمة تجنيد آخرين هي الأكثر تنظيماً والأشد تطرفاً، متكتأً على اجتزاء نصوص دينية تراشية تضفي عليها مسحة من الشرعية والتأصيل لتبرر مسلكه، وتجعله ماضياً في طريقه غير آبه بانتقادات ما دونه، سواء من داخل الدائرة الإسلامية السنوية، أو المؤسسات الدينية الأخرى المناهضة لها.

فعادة ما يطّعم التنظيم مساره الراديكالي بشواهد تاريخية يضيف فيها تأويلاً للنص الديني، ليخرج بنتيجة مفادها أنه الحامل الوحد لعودة الإسلام إلى ينابيعه الأولى، باعتباره صاحب الحق المطلق في ذلك والأجر لقيادة الأمة من خلال التفوّض الإلهي أو الحق الإلهي في السلطة<sup>(2)</sup>، وهذا ما يلقي أثراً في فئة الشباب التي تسليها تلك النصوص والتأويلاً الشارحة لها وتدفعها إلى الانضمام لصفوف مقاتلي تنظيم الدولة، نصرة لهذا الدين أو لعودة دولة الخلافة الراشدة.

---

(1) المصدر نفسه.

(2) المركز الأوروبي العربي للدراسات

وفي قلب ذلك كله تبرز «الجغرافية الواسعة» للتنظيم التي تعمّق تجربته، وتلقى قبولاً وصدقاً من قبل الآخر «المستهدف»؛ إذ إن عناصر هذا التنظيم تنتشر على رقعة جغرافية هائلة من سوريا، تمتدّ من شمال بغداد شرقاً إلى ريف اللاذقية المحاذي للبحر المتوسط غرباً؛ ما يعني قدرته على إعادة تشكيل وتنظيم قواه المنسحبة من مناطق مهادنة نحو مناطق المواجهات<sup>(1)</sup>.

فلا شك في أن داعش بات ينتشر عبر «تنظيم أفقى» يقطع مناطق وقبائل وكتائب منشقة يضمّها له، ويفضل العشائرية والامتداد من محلّيته إلى العالمية<sup>(2)</sup>، ويسيطر تماماً على الجزء الأكبر من شمال سوريا من حدود تركيا حتى الحدود مع العراق، التي سيطر التنظيم على غربها ممتدًا لمدينة الموصل في الشمال، مروراً بمدينة كركوك وتكريت وسامراء وبيجي والفلوجة إلى الجنوب بالقرب من العاصمة بغداد، إلى جانب المناوشات التي تقيّمها ولاياته في كل من ليبيا، مصر، الجزائر، المغرب ومناطق أخرى<sup>(3)</sup>.

### المرتكزات الفكرية

يتبنّى تنظيم داعش الأفكار الجهادية نفسها التي تتبنّاها التنظيمات الراديكالية الإسلامية والجهادية الأخرى مثل<sup>(4)</sup>:

ـ إعادة «الخلافة الإسلامية وتطبيق الشريعة».

(1) المصدر نفسه.

(2) بين داعش والقاعدة: خلافات الفكر والتنظيم والأيديولوجيا.  
[www.sasapost.com/comparison-isis-elqaeda/](http://www.sasapost.com/comparison-isis-elqaeda/).

(3) المصدر نفسه.

(4) الدولة الإسلامية في العراق والشام «داعش»  
<http://www.islamist-movements.com/2443>.

- 2- منع ترميم أو إعمار كنائس المسيحيين المهدّمة، وعدم العجز  
بصلواتهم، والاكتفاء بأداء شعائرهم بصمت داخل الكنيسة.
- 3- الجهاد الإسلامي العالمي، ويقوم على أن أساس قوة الإسلام  
العالمي يجب أن يرتكز على أرض إسلامية واحدة.
- 4- بالجهاد فقط يمكن الانتصار على الكافرين المعذبين.
- 5- إقامة الدولة الإسلامية على أي أرض يتم تحريرها، ثم الانتقال  
لأرض إسلامية أخرى، التي توجد فيها الظروف نفسها حتى الوصول إلى  
تحرير جميع الأراضي الإسلامية.
- 6- الجهاد يبدأ بـ «العدو القريب» وليس «العدو بعيد» ضد الحكماء  
المسلمين الكفار «العدو القريب»، وليس ضد السوفيت والأمريكيين  
«العدو بعيد».
- 7- إباحة قتال الحكماء المسلمين والمعارضين للتنظيم من المسلمين  
وغيرهم.
- 8- الجزية واجبة على الأقليات غير المسلمة في المجتمعات  
المسلمة.
- 9- جواز قتل المسلم إذا ترس به الكافر، كأساس شرعي لتبرير بعض  
العمليات العسكرية التي يترتب عليها قتل المسلمين.
- 10- قتال غير المسلمين وغزو العالم لنشر الدعوة.
- 11- واقع الدولة غير ثابت الحدود وممتد الشعوب والقبائل.
- 12- الدين كله لله وكلمته هي العليا، فمن منع هذا قوتل باتفاق  
المسلمين.
- 13- أهل الممانعة والمقاتلة كالنساء والصبيان والراهب والشيخ  
الكبير والأعمى لا يقتل إلا أن يقاتل بقوله أو فعله.

## رابعاً: آليات التمويل والاستقطاب

### 1- آليات التمويل

قدّر بعض تنظيم الدولة بأنه التنظيم الراديكالي الأغنى في العالم حالياً، فتبلغ ممتلكاته 2 مليار دولار بعد استيلائه على مصافي وحقول البترول وبيعه كميات كبيرة من النفط يومياً لعصابات تهريب بأسعار أقل بكثير من السعر العالمي، لتصل عوائد التنظيم اليومية من حقول البترول لـ3 ملايين دولار، هذا مضافاً لجمع مقاتلي التنظيم مئات الملايين من الدولارات من فرع البنك المركزي العراقي بمدينة الموصل ما أهله لأن يكون اقتصاداً قوياً<sup>(1)</sup>.

نتيجة لذلك نجح تنظيم الدولة فور سيطرته على معظم حقول النفط في سوريا، وعدد من حقول الإنتاج في العراق، في تأسيس سوق سوداء لبيع النفط بشمن زهيد في مسعى لتمويل عملياته ذاتياً، وتوسيع نطاق عملياته دون الاعتماد على أي تمويل خارجي<sup>(2)</sup>، وبعد سيطرة داعش على 60 في المئة من حقول النفط في سوريا، مضافاً إلى عدد من الحقول في العراق، سعي لتهريب البترول إلى الخارج بأسعار تراوح بين 10 و25 دولاراً

---

(1) بالقوة الناعمة..داعش «الدولة» تحترم النساء وتصنعن الأفلام

<http://www.sasapost.com/soft-power-isis>.

(2) 3 ملايين دولار يومياً مكاسب «داعش» من تهريب النفط

<http://www.alarabiya.net/ar/aswaq/201427/08//%D985%D8%B9%D987%D8%AF-3-%D985%D984%D8%A7%D98%A%D9%8A%D986-%D8%AF%D988%D984%D8%A7%D8%B1-%D985%D983%D8%A7%D8%B3%D8%A8-%D985%D986%D8%A8%D8%A7%D8%B5%D8%A8%D98%A%D8%A8%D981%D8%B7.html>.

للبرميل بدلًا من 100 دولار، وهو السعر العالمي ويحقق التنظيم من تهريب النفط، أرباحًا طائلة تصل إلى مليوني دولار في اليوم الواحد<sup>(1)</sup>.

كما نجح أيضًا في وضع القسم الأكبر من الطاقة الكهربائية في مدينة الرقة السورية ومناطق أخرى بريف المدينة والحدود السورية التركية تحت قبضته، وأجبر الجميع على شراء الكهرباء من المولدات التابعة للتنظيم باشتراكات لتعزز وجوده اقتصاديًّا على أكثر من مورد<sup>(2)</sup>، ومن الحقول النفطية التي تخضع لسيطرة التنظيم مباشرة في سوريا «غاز الشعار» القريب من تدمر، وحقول «التنك» القريب من دير الزور، وحقول «عمر» وحقول «نجمة».

وفي العراق تُسيطر داعش على حقول «عين زالة» و«بطمة» العراقيين اللذين تبلغ طاقتهما الإنتاجية اليومية حوالي 30 ألف برميل من النفط الخام، وحقول «القيارة» الذي تبلغ إنتاجيته اليومية حوالي 7000 برميل، وتقدر احتياطاته بحوالي 800 مليون برميل، وحقول «الدجيل»<sup>(3)</sup>.

وسيطر التنظيم على الحقول الموجودة في الجنوب من تكريت، كحقول «حررين» الذي يبلغ إنتاجه حوالي 5000 برميل يوميًّا، وحقول «عجيل» الذي ينتج حوالي 25 ألف برميل يوميًّا من النفط الخام، و150

---

(1) المصدر نفسه.

(2) بالقوة التاجية..داعش «الدولة» تحترم النساء وتصنعن الأفلام  
<http://www.sasapost.com/soft-power-isis/>.

(3) كيف تحول «داعش» إلى أغنى تنظيم إرهابي في العالم؟  
[http://www.cssmideast.org/Article/2668/%D983%%D98%A%D981%-%D8%A A %D8%A D %D9 8 8 % %D9 8 4 %- %D8 %A F %D8%A7%D8%B9%D8%B4-%D8%A5%D984%%D989%-%D8%A3%D8%B A%D986% %D989 %- %D8%A A%D986% %D8%B8%D985%-%D8%A5%D8%B1%D987%%D8%A7%D8%A8%D98%A-%D981%%D98%A-%D8%A7%D984%%D8%B9%D8%A7%D984%%D8%B9%D8%A7%D984%%D985%-.VYE0QkbUzIU](http://www.cssmideast.org/Article/2668/%D983%%D98%A%D981%-%D8%A A %D8%A D %D9 8 8 % %D9 8 4 %- %D8 %A F %D8%A7%D8%B9%D8%B4-%D8%A5%D984%%D989%-%D8%A3%D8%B A%D986% %D989 %- %D8%A A%D986% %D8%B8%D985%-%D8%A5%D8%B1%D987%%D8%A7%D8%A8%D98%A-%D981%%D98%A-%D8%A7%D984%%D8%B9%D8%A7%D984%%D985%-.VYE0QkbUzIU)

مليون قدم مكعب من الغاز الطبيعي. وتقدر بعض التكهنات أن داعش تستخرج وتنتج حوالي 80 ألف برميل يومياً (50 ألفاً في سوريا، 30 ألف برميل في العراق)<sup>(1)</sup>.

ولعبت التجارة البرية بين العراق والأردن وسوريا دوراً مهماً كمصدر دخل لتنظيم الدولة الإسلامية، ويدرّ عليها آلاف الدولارات<sup>(2)</sup>. فعلى سبيل المثال لا الحصر تقدّر الرحلة بين ميناء العقبة وبغداد، عبر نقطة تفتيش لـ«داعش» في منطقة الربط (450 كلم غرب بغداد)، ولا شيء يختلف في الإجراءات البيروقراطية لنقاط التفتيش داخلها سوى الرأي السوداء التي تعلو نقاط التفتيش<sup>(3)</sup>؛ إذ إن إجراءات المرور لا تختلف عن الإجراءات في أي نقطة أخرى، فالقيمة التي تدفع في منافذ داعش لا تختلف كثيراً وتخصّص لتصنيفها وفق نوع البضاعة وحجمها، وهي تتراوح بين 200 و500 دولار وتريد عندما تكون الحمولة كبيرة<sup>(4)</sup>.

وفي السياق ذاته نجح تنظيم الدولة في منع الرشاوى التي كانت تدفع في هذه المنافذ، وعندما يتم تبليغ نقطة التنظيم عن حصول رشاوى يُقتل الموظف المرتشي بعد ساعات<sup>(5)</sup>.

---

(1) المصدر نفسه.

(2) «داعش» يدير حركة التجارة بين العراق والأردن وسوريا  
<http://alhayat.com/Articles/9575320/-%D8%AF%D8%A7%D8%B9%D8%B4-%D983%D8%A9-%D8%A7%D984%D8%AA%D8%AC%D8%A7%D8%B1%D8%A9%D8%AF%D982%D988%D8%A7%D984%D8%B9%D8%B1%D8%A7%D986%D988%D8%B3%D988%D8%B1%D98A9>.

(3) المصدر نفسه.

(4) المصدر نفسه.

(5) المصدر نفسه.

على سبيل المثال لا الحصر، أدخل تنظيم داعش قطاع الماشية عبر الحدود التركية والعراقية، إلى نطاق أنشطته الاقتصادية بعد قيامه بتجميع الأغنام في نقاط حدودية تمهدًا لبيعها لاحقًا خارج دولته<sup>(1)</sup>.

يذكر أن الهيئة الشرعية في داعش، أصدرت فتاوى تضع ملكية الماشي العائدة لأشخاص غير تابعين للتنظيم في مناطق نفوذه تحت إمرة التنظيم، وذلك بعد تصنيفها على أنها «مواشن سود»، موضحاً أن هذه التسمية تطلق على القطعان التي ترعى في مناطق سيطرة التنظيم، وأنها تدخل في نطاق وصايتها، وله حق التصرف بها<sup>(2)</sup>.

في مقابل ذلك، وفي بعض المناطق العراقية الأخرى تتم مصادرة قطعان الماشي من المربيين والتجار بدعوى فرض الزكاة، ودعم الدولة، وذلك فقط من كبار الملاك الذين يمتلكون أراضي زراعية شاسعة، بعد ذلك يتم إسناد تربيتها وتسمينها إلى فلاحين يعففهم من القتال في صفوفه ولا يمتلكون الحق في التصرف بالقطعان<sup>(3)</sup>.

وتغيّب أي إحصاءات عن أرقام الماشي التي تم تهريبها إلى الخارج، وسط تقديرات بأنها بـ«الآلاف». وعائدات تلك التجارة «تعود إلى خزانة المال في كل ولاية، ولا تعود لأمراء التنظيم أو قياديه»<sup>(4)</sup>.

يمكن القول إن السياسة التي اتبعتها داعش في الإبقاء على الموظفين والإداريين ومواصلة السماح بوصول خدمات الدولة الأساسية إلى السكان المحليين، وأيضاً مواصلة دفع رواتب الموظفين الرسميين، كل ذلك أراح

---

(1) جديـد داعـش اقـتصاديـاً: تـهـربـ المـاشـيـ منـ سورـياـ إـلـىـ تـرـكـياـ وـالـعـراـقـ [http://www.orient-news.net/?page=news\\_show&id=86655..](http://www.orient-news.net/?page=news_show&id=86655..)

(2) المصـدرـ نفسهـ.

(3) المصـدرـ نفسهـ.

(4) المصـدرـ نفسهـ.

تنظيم الدولة الإسلامية من عبء توفير هذه الخدمات مباشرة بنفسه، فأدار عجلة الاقتصاد ولم يوقفها<sup>(1)</sup>. على الرغم مما قام به تنظيم الدولة من تفكك مؤسسات قائمة وتطبيقه لهياكل الحكومة الخاصة به، من خلال إقامة المحاكم، وسلك الشرطة، والمدارس، وفرض مبادئ الشريعة<sup>(2)</sup>.

وتوجد بعض الآراء التي تؤكد على أن بعض مصادر التمويل والدخل لتنظيم داعش هي أموال الفدية، والتي تأتي من عمليات الخطف كما كان متبعاً في التنظيمات الجهادية الأخرى مثل «القاعدة» ضد الأجانب، والتي ساهمت بقدر كبير في حصولها على مبالغ مالية طائلة من الدول التي يتمي إليها المختطفون، بيد أن تنظيم الدولة قد يختلف عن تلك التنظيمات في كونه انتقل من الحالة الميليشاوية إلى التصور الدولي لجماعته، وهو ما يفسر السبب الرئيس في قتله الكثير من الرهائن، والذين لديهم أهمية كبيرة عن نظرائهم الذين كانوا يأسرون ويختطفون من قبل القاعدة على سبيل المثال، فحرق الطيار الأردني معاذ الكساسبة في العراق وصحفين يابانيين آخرين، يعكس عدم اتباع تنظيم الدولة لتلك الآلية، فيفضل قتل الأسرى حال عدم استجابة ذويهم لمطالبه.

وتأتي الغنائم كأحد أهم آليات التمويل لدى التنظيم والتي لعبت دوراً كبيراً في بقاء التنظيم ودعمه في أشد مواجهاته مع النظامين العراقي والسوسي<sup>(3)</sup>، وتمثل في ما تستولى عليه التنظيمات الجهادية في أعقاب

---

(1) استراتيجية تنظيم الدولة الإسلامية: باقية وتتمدد

[http://carnegie-mec.org/201529/06//ar-60542/ibk6.](http://carnegie-mec.org/201529/06//ar-60542/ibk6)

(2) المصدر نفسه.

(3) مصادر التمويل الرئيسية للتنظيمات الجهادية في الشرق الأوسط

<http://www.ressmideast.org/Article/3105/%D985%D8%B5%D8%A7%D8%AF%D8%B1-%D8%A7%D984%D8%AA%D985%D988% %D98%A%D984%-%D8%A7%D984%D8%B1%D8%A6%D98% A%D8%B3%D98%A%D8%A9-%D984%D984%D8%AA%D9 86%D8%B8%D98%A%D985%D8%A7%D8%AA-%D8%A7% =>

المواجهات من مؤسسات عامة وبنوك ومتحف وما يوجد فيها من أموال ومقننات ثمينة في أعقاب سيطرتها على بعض المدن، مضافاً إلى ما تستولي عليه من معدات عسكرية وحرية في أعقاب انتصارها في بعض المواجهات، كما يدخل أيضاً في نطاق (الغائم) الموارد الاقتصادية من زراعة المساحات الشاسعة والاستفادة منها، وكذلك من الموارد الطبيعية التي تسيطر عليها كالبحار والأنهار<sup>(1)</sup>، أضف إلى ذلك الضرائب والجزية على المسلمين وغير المسلمين، فضلاً عن بيع ما يستولون عليه من آثار قيمة من سوريا والعراق<sup>(2)</sup>. وفي الوقت نفسه مثلاً أموال الصدقات والtributes والزكاة، مضافاً إلى الهبات من مؤيدي التنظيم ورقة دعم مباشرة للدولة الناشئة<sup>(3)</sup>.

## 2- الآليات الداعشية لاستقطاب الشباب إلى جبهات القتال

اعتمد تنظيم الدولة الإسلامية بشكل مباشر كغيره من التنظيمات الراديكالية السابقة عليه، على وسائل التواصل الاجتماعي في استقطاب وتجنيد العديد من قطاعات الشباب العربي والغربي -على حد سواء- خاصة مع انطلاق الثورات العربية وما لحقها من تطورات، كما أصبحت

---

= D984%%D8%AC%D987%%D8%A7%D8%AF%D98%A%D8%A9-  
%D981%%D98%A-%D8%A7%D984%%D8%B4%D8%B1%D982%-  
%D8%A7%D984%%D8%A3%D988%%D8%B3%D8%B7#.VZmR-  
Buqqkp.

(1) المصدر نفسه.

(2) المصدر نفسه.

(3) كيف تحول «داعش» إلى أغنى تنظيم إرهابي في العالم؟

[http://www.ressmideast.org/Article/2668/%D983%%D98%A%D981%-D8%A%D8%A%D988%D8%B4%D984%%D989%D8%A3%D8%A%D986%D8%B8%D98%A%D985%%D8%A5%D8%B1%D987%D8%A7%D8%A8%D98%A-%D981%D988%A-%D8%A7%D984%D8%B9%D8%A7%D984%D985%#.VYE0QkbUzIU](http://www.ressmideast.org/Article/2668/%D983%%D98%A%D981%-D8%A%D8%A%D988%D8%B4%D984%%D989%D8%A3%D8%B9%D8%B4%D8%A5%D984%%D989%D8%A3%D8%A%D986%D8%B8%D98%A%D985%%D8%A5%D8%B1%D987%D8%A7%D8%A8%D98%A-%D981%D988%A-%D8%A7%D984%D8%B9%D8%A7%D984%D985%#.VYE0QkbUzIU).

تلك الشبكات الأداة الأهم في يد الجماعات المسلحة لوضع خططها وتنفيذ أهدافها<sup>(1)</sup>.

وبالغ في التعويل على وسائل التواصل الاجتماعي وتوظيفها لخدمة التعبئة والتجييش وتدشين دولته الناشئة والهجرة إليها، كما كشف تقرير مؤسسة «كوليايم» لمكافحة النطرف بعنوان «الدولة الإسلامية: الوجه المتغير للجهادية الحديثة» عن اعتماد داعش لنشر فكرها وجلب المقاتلين من خلال التواصل والتفاعل المباشر بين خلايا الاستقطاب، عن طريق شبكات التواصل الاجتماعي، وتمتير هذه الطريقة بالانفلات من المراقبة الأمنية، وسرعة التواصل والتفاعل، وسهولة التغريب، ولا تبدأ مرحلة الشحن الإيديولوجي إلا بعد التحاقهم بمعسكرات متخصصة بسوريا والعراق قبل دمجهم بجهات القتال، وفي الوقت ذاته تعمل على تحسين صورتها، من خلال دعاية إعلامية هائلة تقوم بها شركتان هما: «الحياة» و«الفرقان»<sup>(2)</sup>.

فالهيئة الإعلامية لـ«داعش» شهدت تطوراً كبيراً بالشكل والمحفوٍ، كما تتمتع بدعم وإسناد كبيرين، وتعتبر مؤسسة «الفرقان» الإعلامية الأقدم والأهم، وقد ظهرت مؤخراً مؤسسات إعلامية عدّة تتبع التنظيم، مثل مؤسسة «الاعتصام»، ومركز «الحياة»، ومؤسسة «أعمق»، ومؤسسة «البستان»، ومؤسسة «دابق» الإعلامية، ومؤسسة الخلافة، ومؤسسة أجناد للإنتاج الإعلامي، ومؤسسة الغرباء للإعلام، ومؤسسة الإسراء للإنتاج

---

(1) أنماط استخدام الجماعات المسلحة للإرهاب الشبكي

<http://www.futurecenter.ae/analyse.php?analyse=251>.

(2) الآليات الداعشية لاستقطاب الشباب إلى جهات القتال

[http://www.jadidpresse.com/%D8%A7%D984%%D8%A2%D984%%D98%A%D8%A7%D8%AA-%D8%A7%D984%%D8%AF%D8%A7%D8%B9%D8%B4%D98%A%D8%A9-%D984%%D8%A7%D8%B3%D8%A%A%D982%%D8%B7%D8%A7%D8%A8-%D8%A7%D984%%D8%B4%D8%A8%D8%A7%D8%A8-%D8%A5%D984%%D989%.](http://www.jadidpresse.com/%D8%A7%D984%%D8%A2%D984%%D98%A%D8%A7%D8%AA-%D8%A7%D984%%D8%AF%D8%A7%D8%B9%D8%B4%D98%A%D8%A9-%D984%%D8%A7%D8%B3%D8%A%A%D982%%D8%B7%D8%A7%D8%A8-%D8%A7%D984%%D8%B4%D8%A8%D8%A7%D8%A8-%D8%A5%D984%%D989%)

الإعلامي، ومؤسسة الصقيل، ومؤسسة الوفاء، ومؤسسة نسائم للإنتاج الصوتي، ومجموعة من الوكالات التي تتبع الولايات والمناطق التي تسيطر عليها، كوكالة أنباء «البركة» و«الخير» وغيرها<sup>(1)</sup>.

وفي السياق ذاته أصدر التنظيم عدداً من المجلات بالعربية والإنجليزية أمثال: «دابق» و«الشامخة»، وأنشأ هيئة التنظيم إذاعات محلية مثل: إذاعة «البيان» في مدينة الموصل في العراق، وإذاعة أخرى في مدينة الرقة في سوريا، مضيفة أن التنظيم يواصل نشاطه الإعلامي من خلال العمل في المدونات، ومن أهمها مدونات باللغتين الروسية والإنجليزية؛ إذ ترجم الهيئة الإصدارات الإعلامية إلى لغات أجنبية عدّة، كالإنجليزية والفرنسية، والألمانية، والإسبانية، والأوردو، وغيرها<sup>(2)</sup>.

فيما تشير مجموعة من الدراسات إلى أن «داعش» لا تعتمد فقط على موقع التواصل الاجتماعي ووسائل الإعلام والدعائية المباشرة التقليدية وحسب، وإنما تعتمد كذلك على مكتبة إلكترونية ضخمة وواسعة تختص بـ«البيولوجيا والخطاب، وآليات التجنيد والتمويل والتدريب والتخيّي والتكتيكات القتالية وصنع المتفجرات، وكل ما يلزم «الجهاديين» في عمليات المواجهة في إطار حرب العصابات، وسياسات الاستنزاف»<sup>(3)</sup>.

## خلاصة استنتاجية

العرض السابق لهيكلاية تنظيم الدولة لا يعدّ وثيقة يتمّ البناء عليها من حيث الحصر الدقيق، وإنما الهدف منها إبراز حجم التباين والفرق بين التي تمتع هذا التنظيم المعقد في صورته الحالية عن تجارب راديكالية سابقة

---

(1) المصدر نفسه.

(2) المصدر نفسه.

(3) المصدر نفسه.

عليه، سعى من خلالها للتأكيد على تقديم نفسه كشكل دولاتي يختلف عن الآخر الميليشاوي أو الجماعي، فالأهمية تكمن في شكل الهيكلية ومضمونها، وليس حصر الأسماء التي قد تحتمل الخطأ والصواب.

ويمكنا القول إن «أبا بكر البغدادي» وأبا بكر حجي الذي كشفت الاستخبارات الغربية بعد مقتله عن وثائق بحوزته عن هيكلية التنظيم الحالي، لهما الفضل في رسم ملامح هذه الهيكلية، وإضفاء السرية والغموض عليها حتى أصبحت بناءً حقيقة يُحكم سيطرته على مساحات واسعة من العراق والشام، ما يعني ضرورة أن نفهم أننا إزاء تنظيم ليس بالهين، يسعى لتكوين دولة حقيقة وليس جماعة عابرة تسعى إلى أن تتوسع داخل دائرة جماعية لا تarry مكانها، وهو ما تبرزه أدبيات التنظيم التي ما تفك في التشديد على أن طرحه لمفهوم الدولة يختلف عن القاعدة، أو الحركات الراديكالية والجهادية الأخرى، أو دوائر الإسلام السياسي التي حتى اللحظة تمارس التقىة في رؤيتها حيال شكل الدولة الإسلامية المنشودة.

إن الإشكالية الحقيقة في التعامل مع تنظيم الدولة أنه وحتى اللحظة يتم النظر إلى تجربته بأنها مماثلة للاقاعدة أو طالبان وغيرهما، وبالتالي يتم التهوين من خطورتها على اعتبار أن تجربة القضاء على القاعدة وطالبان، أو حصر نفوذهما الميليشاوي قد نجحت خلال العقدتين الأخيرتين، ما يمكن أن تلحق بهما داعش في الوقت القريب، وهو استقراء خاطئ في ظل سياق عام يدفعها نحو التمدد والبقاء يختلف عن سابقه.

لذلك يتطلب منا عند محاولة فهم هذا التنظيم أن نضعه في إطاره البحيي الدقيق وال حقيقي؛ لكي يمكن فهم هذه الحالة، والتي تتلخص في أنه أول حالة راديكالية تسعى لتدشين دولة، وصبغها بالإطار الفقهي الذي يضفي عليها شرعة ما منبثقة من الدوائر الفقهية السنّية، لتصبح في نهاية المطاف «خلافة إسلامية» وفق منظور مؤسسيها، ويستوجب على الجميع

الهجرة إليها ومن ثم مبايعة الخليفة، وهي الفكرة الأصلية التي ينطلق منها أصحابها، ويقاتلون من أجلها، وينزدون عنها بأرواحهم وأبدانهم بشتى الوسائل، وهو أمر جدّ خطير يستوجب استئناف الفكر الصحيح لمواجهة هذا الفكر المعطل.

**خلاصة القول:** إن تراجع الإسلام السياسي ساهم عقب ثورات الربيع العربي وعرقلته في السلطة، والذي كان لديه القابلية السريعة للتطور والانسجام مع مفاهيم الدولة الحديثة والعصرانية، كان إيداناً بصعود التيارات الراديكالية والجهادية وعلى رأسها تنظيم الدولة، أو التتر الداعشي الذي بات يعصف بكل شيء أمامه بعد أن أصبحت الذخيرة بدليلاً للصندوق الذي تم الاتفاق عليه والاستهانة بمخرجاته، والتي كانت دائمًا تلك التنظيمات الراديكالية والجهادية تدعوا لعدم الاعتراف به، مع تكفير المسار الديمقراطي؛ لأنه لن يسمح للإسلاميين أن يأتوا من خالله، وكان يقف لهذه النظرية أصحاب الإسلام السياسي الذين كانوا يقولون عكس ذلك، و يؤمنون بالمسار الديمقراطي.

لقد أعطى الانقلاب على المسار الديمقراطي في بعض الدول العربية التي شهدت انتفاضات ضد أنظمة قمعية، قبلة الحياة لتنظيمات القاعدة والسلفية الجهادية، وأعطى الحجية الكاملة لداعش حتى يعيث في الأرض فساداً، تأكيداً أن الإسلاميين لن يأتوا بالسلطة إلا على أظهر الدبابات، بعد أن أصبحي المسار الديمقراطي وهما وسرايا بقية كان يحسبه الإسلاميون ماءً.

# جماعات العنف الجهادي البني العسكرية وأساليب القتال

الأستاذ سمير الحسن<sup>(1)</sup>

## مقدمة

أظهرت المعارك العسكرية التي جرت في أكثر من موضع في ساحات الصراع منذ ظهور ما يعرف بالحركات الجهادية، قدرة على القتال، وأساليب متنوعة، وصلابة مواجهة، واندفاعاً حتى حدود العمليات الانتحارية المكثفة التي لم يشهد التاريخ سابقاً لها، وقدّمت فيها أعداداً كبيرة من المقاتلين المستعدّين لتنفيذ عمليات انتحارية بداع فكري عقدي غالباً.

وإذا شئنا العودة إلى إرهاصات العمل العسكري لدى هذه الجهات المنضوية تحت عنوان: «الحركات الجهادية» نجد أن أولى تجلياتها كانت مع القاعدة، التنظيم الذي أسسه أسامة بن لادن، وهو كان النسخة الأولى في ما عرف بـ: «قاعدة خراسان».

---

(1) كاتب وخبير في الشؤون العسكرية والحركات الإسلامية، من لبنان.

تشكلت الخميرة الأولى في أفغانستان<sup>(١)</sup> مطلع الثمانينات، وأخذت طابعًا جهادياً ضد الاحتلال السوفيaticي في هذا البلد، ولعبت دول عدّة دوراً أساسياً في تجميع المقاتلين العرب بغية مقاتلة الاحتلال السوفيaticي، وكان الدور الأبرز في ذلك يعود للولايات المتحدة الأميركيّة، والمملكة العربية السعودية، وساهم مكتب الخدمات الإخواني في العالم بطبع دور لوحيدي في عملية التجميع، ولكن بقي الطابع الغالب أفغانياً، وحصرًا بالاحتلال السوفيaticي، إلى أن ساهمت حرب العراق 1991 م بإفرازات تنظيم القاعدة، فكانت النسخة الأولى للطابع الجهادي في القتال.

كما إنّه بعد حرب أفغانستان ضد الاتحاد السوفيaticي، ظهرت أعمال عسكريّة بطبع حرب العصابات على أيدي قوى إسلامية جهادية في الاتحاد اليوغوسلافي، والبوسنة والهرسك.

أنشأ أسامة بن لادن قاعدته الأولى في السودان عام 1991 بعد استدعاء الروابط من رفاق السلاح لتبدأ أولى عملياتها العسكريّة سنة 1992 ضد رعايا أميركيّين في أحد فنادق عدن، ومن ثم عملية الثانية في حزيران 1993 في الصومال، و1995 ضد موقع الحرس الوطني السعودي بالرياض، والخُبْر 1996، وعملية نيروبي ودار السلام 1998، والمدمرة كول في أكتوبر 2000 قبلة عدن. وفي بيروت، يسجل للقاعدة اغتيال أحد قادة «جمعية المشاريع الخيريّة الإسلاميّة» (الأحباش) الشيخ نزار الحلبي، وكذلك أحداث الضنيّة في الشمال اللبناني مطلع سنة 2000، وذلك استنادًا إلى ما ورد في كتاب «إدارة التوحش» لأحد منظري تنظيم القاعدة أبي بكر ناجي.

---

(1) استقطبت الحرب الأفغانية المقاتلين من بقاع الأرض وفتحت الباب للسلفية الجهادية وساهمت كل من السعودية والكويت بدعمهم، مضافاً إلى دعم كبير من أميركا، وبعد انتهاء الحرب الأفغانية ورحيل السوفيات تغيرت التحالفات ودول الدعم والمأوى وأصبح المجاهدون منبودين فتوزعوا ما بين الحرب الشيشانية والبوسنة والجزائر (هيثم مناع، من هجرات الوهم إلى بحيرات الدم).

وتوجت هذه العمليات بغزوّة 11 أيلول حيث تحقق الهدف المرجو، وهو استدراج القوات الأميركيّة إلى المنطقة لتسويّع في جغرافية انتشار الإسلام حيث سيتم استنزافها، وكانت ذروة ذلك غزوًّا أفغانستان، ومن ثم العراق.

هنا تعزّزت قاعدة ابن لادن المركبة إلى الضرب، فاتخذ القرار بالتوسيع إلى قواعد متفرقة، وقواعد محلية في بعض مناطق العالم الإسلامي، وأكبرها قاعدة العراق التي تزعمها أبو مصعب الزرقاوي، والتي طبعت مسار القاعدة ككل بصمة عراقية بارزة حيث تصرفت بوحي من المحيط، والبيئة التي نمت فيها، وتجلّى ذلك في الصدام الواسع مع الشيعة، ومخالفتها من السنة، ناهيك عن الاشتباك مع الأميركيّي بأشكال مختلفة. ومنذ أواسط 2007 بدأ العد العكسي لهزيمتها في العراق على يد الصحوّات العشائرية الطابع، والتي كانت في الأساس من غير القاعدة، وقوامها المقاومة السيئة غير المسلحة، التي كانت رفضت القاعدة ومنهجها، واتخذت من قساوتها، وسوء تعاملها مع الآخرين، حافزاًها الأساس للتحرك ضدها.

يضاف إلى ذلك الدعم المالي الواسع من السعودية للصحوّات، والتنسيق الميداني مع الأردن، ليتهيّئ المسار إلى هزيمة نكراً مع مقتل أميرها الثاني حامد داود الزواوي (أبي عمر البغدادي)، ووزير حربه المصري أبي أيوب (أبي حمزة المهاجر)، وكان أبو عمر البغدادي قد أطلق اسمًا جديداً للتنظيم، وهو «دولة العراق الإسلاميّة».

وما بين 2003 و2010 قضى أربعة آلاف قاعدي، ناهيك عن آلاف آخرين من معتقلين وجرحى، ولم يتبقَّ سوى خلايا نائمة في الشمال العراقي (الموصل)، تلك الخلايا النائمة سارت إلى مبايعة إبراهيم البدرى الذي سيعرف في ما بعد بأبي بكر البغدادي أميراً في نيسان 2010.

عادت الروح لهذا التنظيم مع بدايات الفوضى السورية، فحلّت الفرصة السانحة، وانتقلت بثقلها إلى سوريا لتقاتل تحت اسم «جبهة النصرة».

لقد ضمّت النسخة الثانية من تنظيم القاعدة بقيادة الزرقاوي أخلاطًا جهادية شتى، ومنهم من أتى من كادر الجيش والأمن العراقيين، اللذين أطلقهما صدام حسين، واللذين نقلتهما الحملة الإيمانية<sup>(1)</sup> من أجواء البعث إلى الأصولية، ومن تجمّعات أصولية أكثرها سلفي، وبعضها أخواني، وقليلها صوفي، وتكتّل الوقت بمزجها في سبيكة اتخذت تسمية «السلفية الجهادية».

وفي نيسان 2013 حرض ميسرا الجبوري<sup>(2)</sup> أسامة واحدي (أبا محمد الجولاني) على شق عصا الطاعة تحت خصوصية شامية، ويسبب شدة خصومة الجبوري مع البدرى، وقع الخلاف داخل التنظيم، وخرج أسامة واحدي ببيعته إلى خراسان (قاعدة أفغانستان) التي يتزعّمها الظواهري متّحاً رأساً بيعته السابقة لإبراهيم البدرى، ومما فاقم المشكلة، أن واحدي وضع كل أوراقه خلف السلفية غير الجهادية، إلى أن وقع الصراع المسلح بينه وبين البدرى مع الأيام الأولى عام 2014 في حرب الأخوة التي أزهقت أربعة آلاف من مقاتليهم. وكان أمل الولايات المتحدة في استعمال النوع غير الجهادي السلفي ضد نوعها الأخطر الجهادي، ولكنّها باعثت بالفشل؛ إذ سرعان ما قفز الأخير إلى الموصل 2014، وأعلن خلافته متّملاً بالسيطرة على 40 بالمئة من مساحة سوراقية العربية.

لقد ساهم مطبخ بيشاور ببلورة النواة الأولى، وهيأً أرضية للتمدد

(1) الحملة الإيمانية 1994 جمع صدام حسين كل كوادر حزب البعث بقيادة الشيخ عبد اللطيف الهميم. (رفع سيد أحمد، داعش خلافة الدم والنار).

(2) ميسرا الجبوري: مقدم في الجيش العراقي السابق.

والتوسيع نحو بلدان أخرى، ولكن النسخة الثالثة كانت مختلفة عن النسخة الأولى. لقد تبانت قاعدة العراق عن تلك في خراسان بمزجها بين الجغرافيا والديمغرافيا، واعتمادها مبدأ الخلافة، وعدم التردد في رفع الشعارات المذهبية حتى ولو أدى ذلك إلى الصدام المباشر. يضاف إلى ذلك، رؤية قاعدة العراق للربيع العربي بصورة مغايرة لتلك القاعدة الخراسانية، ومفادها أن فوضى الربيع هي البيئة النموذجية للوصول إلى أقصى حالات العنف المسلح.

لقاء ذلك، كان لخراسان الظواهري قراءة تفيد أن الربيع ذاته يشكل أرضية صالحة للاستفادة مع وصول «الأخوان المسلمين» إلى السلطة في عدد من الدول، خصوصاً في مصر وتونس، وهو وصول دغدغ عواطف الظواهري، وأيقظ خلفيه الأخوانية السابقة، مع ما تشكّله تركيا وقطر من قوة إقليمية داعمة، ناهيك عن الاختلاف في الرؤيا بين الخلافة الزمنية عند الظواهري، والمكانية عند البدرى.

## الفصل الأول: تنظيم القاعدة الهيكلية التنظيمية

### النسخة الأولى: قاعدة خراسان (أسامي بن لادن)

لم يكن التنظيم يعتمد التركيب الهرمي، إنما يعمل بأسلوب الفروع التي تموّل نفسها، وتعرف بـ«الفرانشایز». فالقاعدة تمثل أسلوبًا لا مركزياً بحيث يعمل كل فصيل بمفرده، وبمعزل عن مركزيته، فتنظيم القاعدة يختلف عن غيره من التنظيمات الإسلامية، أو غير الإسلامية بأنه لا يتبع هيكلية تنظيمية؛ بل يعتمد بناءً عنقودياً (حالياً) مرنة تتغير وفق الظروف والأوضاع.

بعد الاحتلال الأمريكي لأفغانستان، لم يعد للتنظيم قيادة مركزية محدودة، أو امتداداً مباشر؛ بل كان لكل المجموعات، والتنظيمات التي

تعمل بوحي من القاعدة، استقلالية ذاتية، وهي لا ترتبط بالضرورة مباشرة بأسامة بن لادن أو أيمن الظواهري، على الرغم من أنها تتأثر بموقفهما وخطاباتهما. كما إن المجموعات المتأثرة بتنظيم القاعدة، ولها صلة ما به، تعمل بشكل مستقل بعضها عن بعضها الآخر، وتعتمد أسلوب الخلايا العنقودية، وتقتصر مهمة كل مجموعة على تنفيذ عملية محدودة، وهي تؤمن التمويل الذاتي، والإمكانات من دون الحاجة للعودة إلى القيادة المركزية، كما إن هذه التنظيمات تتحرك وفق أجندتها الخاصة بالبلد، أو المنطقة التي تواجد فيها.

وفي ما خص تمويل مجموعات القاعدة يتبيّن أن تأمين الإمكانيات المادية، والعسكرية، واللوجستية لا يخضع لنظام محدد، ولا يأتي من جهة معينة، وأنه يوجد العديد من الدول العربية والإسلامية، وخاصة الخليجية، تؤمن التمويل بشكل مباشر، أو من خلال وسطاء. أما بقية الأفرع فإن لها خصوصية أخرى.

### **النسخة الثانية: قاعدة العراق (الزرقاوي: جماعة التوحيد والجهاد)**

وكان نسخة متطابقة مع قاعدة خراسان من حيث التنظيم باعتماد البناء العنقودي –الخلايا، أنسها أحمد فضيل الخالية، المعروف بأبي مصعب الزرقاوي عام 2003 تحت اسم «جماعة التوحيد والجهاد»، وكانت أولى مهامه الاتصال بال العراقيين بشكل مباشر، وجمع شتات المتطوعين من خارج العراق، وعاونه الأردني عمر يوسف جمعة (أبو أنس الشامي)، والعراقيون عبد الله الجبوري، وتأمر العطروز، ومحمد جاسم العيساوي في إطار مجلس شورى تتفرّع منه لجان، ومنها كتائب، وسرايا، وخلايا متباوّنة من حيث العدد، والشكل، والحجم، وترتبط به مباشرة بحيث يجمع خيوط التنظيم بالكامل.

تميّزت أعمال القاعدة في العراق بعمليات استهدفت النجف،

وكربلاء، والحجاج الشيعة، وأماكن العبادة الإسلامية، والمسيحية، والأيزيدية، وقد بدأت هذه العمليات بعملية استهدفت رئيس «المجلس الإسلامي الأعلى» محمد باقر الحكيم في 29 آب 2003 في مدينة النجف، فقتل ما لا يقل عن ثمانين ضحية، وفي آذار تفجيرات ذكرى عاشوراء أدت إلى مقتل 271 شخصاً.

بعد مقتله 2006، تولّى حامد الزواوي (أبو عمر البغدادي) جمع شatas المهاجرين والمجموعات المشتركة، وتم إعلان حلف المطبيين<sup>(١)</sup>، وهو ائتلاف يضم الحركات والمنظمات والجماعات المنضوية في إطار مجلس شوري المجاهدين، وبعض زعماء العشائر، وأبرز الفصائل كانت قاعدة الجihad في بلاد الرافدين، وجيش الطائفة المنصورة، وسرايا التوحيد، وكتائب الأهوال، وجيش أهل السنة. وفي أكتوبر من العام نفسه، تم دمج جميع الفصائل في إطار تنظيم القاعدة الذي اعتبر النواة الصلبة للمحيطة بأبي عمر البغدادي، التي اعتبرت نفسها أكثر تأهيلًا، وشروعًا، وجهاً لإعادة الخلافة.

أعلن حامد الزواوي (أبو عمر البغدادي) تأسيس «الدولة الإسلامية في العراق»، ومن ثم أعلن المتحدث الرسمي محارب الجبوري تشكيلاً حكومته، وكانت هيمنة العراقيين واضحة على التنظيم، فأنشأ لجاناً عدّة أسماؤها وزارات، وعمل أبو عمر البغدادي على تطوير هيكلية التنظيم، ومنها الهيئة الشرعية، ومجلس الشورى، والجناح العسكري، وكتيبة الأمن والاستطلاع، وقسم الإعلام، واللجنة المالية.

مع مقتل حامد الزواوي (أبي عمر البغدادي) ووزير حربه أبي أيوب

---

(١) حلف المطبيين: نسبة إلى حلف عقد قبل الإسلام بين أفراد من قريش لإعانته بنى منافبني قصي فيأخذ ما أورثته قصي بن كلاب لبني عبد الدار بن قصي.

(أبي حمزة المهاجر)<sup>(1)</sup>، في 19 حزيران 2010، بادر التنظيم إلى مبايعة إبراهيم البدرى (أبي بكر البغدادي) في 16 أيار 2010.

لا شك في أن أبو عمر البغدادي أرسى الهيكلية التنظيمية، ولكنّ الذي طورها هو أبو بكر البغدادي الذي نجح مع خريجي سجن «بوكا» بتقديم النسخة الثالثة لتنظيم القاعدة في آخر صيغة، وأكثرها تطوراً، بشكل مختلف عن سابقاتها، النسختين الأولى والثانية، وبصمةً عراقية، ونجحوا بتحويل الأخلاط الهجينة إلى جيش يزاوج بين التركيب التقليدي للجيوش النظامية، وأسلوب عمل المجموعات الأنصارية، والتنظيمات السرية. ففي سجن «بوكا»<sup>(2)</sup> تجمّعت تلك العناصر والخبرات والطاقات. يقول إبراهيم البدرى<sup>(3)</sup> (أبو بكر البغدادي): «كان سجن «بوكا» مصنوع إنتاجنا، ومكوّن نهجنا الفكري، وهؤلاء المعتقلون يحملون قدرًا عظيماً من الأهمية».

### النسخة الثالثة: تنظيم الدولة في العراق والشام (داعش)

يتّمي بدوره إلى السلفية الجهادية، وولد من رحم قاعدة خراسان، ولكنه امتلك طاقات، وإمكانات هائلة من المتحولين من البعث إلى الجهادية السلفية، وكأن التنظيم ولد في ظروف مناسبة، وتوفّرت له بيئة شعبية، وعشائرية نتيجة قرار بریمر بحل الجيش العراقي، ومن ثم التخلّي عن الصحوّات، واعتماد المحاصصات الطائفية والمذهبية التي تكرّست

(1) أبو أيوب أو أبو حمزة المهاجر (المصري عبد المنعم عز الدين البدوي كان مساعداً لأمين الطواهري).

(2) كان يضم سجن بوكا 24 معسّكراً وفي كل معسّك ألف معتقل، وفقاً لہشام الھاشمی وهو محلل مقيم في بغداد أن تقديرات الحكومة العراقية أن 17 قيادياً من داعش من بين 25 الأهم الذين يديرون الحرب في العراق وسوريا أمضوا وقتاً في السجون ما بين 2004 و2011.

(3) هيئمن المناع، خلافة داعش من هجرات الوهم إلى بحيرات الدم.

بدستور بريمر، وهيئة اجتثاث البعث، وما رافقها من تنكيل، واستنسابية، واضطهاد، مضافاً إلى الارتكابات التي جرت بحق البعشين، ومن كان في صفوف النظام السابق، وطاولت الضباط، والطيارين، والخبراء، والمديرين العاميين، والقضاة، وتعزيز الصراع المذهبي والطائفي باحتكار السلطة والنفوذ من قبل جماعة عينها، ويدعم من الأميركي، وإهمال المناطق ذات الكثافة السنية، وصعود المسألة الكردية، وعجز الدولة عن احتوائهما، إلى الجهل، والفساد، والإفقار الذي عاناه العراق عموماً، والستة خاصة، فكان الإطار التنظيمي جاهزاً لاستقطاب المطرودين من الجيش والأمن، والبعشين، والصحوات، وبدأ العمل لإيجاد صيغ توافقية بين ضباط الجيش السابق، والكوادر الجهادية، لاسيما أن عباء مقاتلة المحتل الأميركي وقعت بصورة أساسية على ضباط، وموظفي، وأعضاء حزب البعث، والسلطة السابقة، وهذا تطلب إنشاء مجلس من الضباط السابقين في إطار يجمعهم مع الهيئات الشرعية والإرشادية.

هذا التزاوج عزّز فكرة الدولة على أساس الهوية القائمة على العقيدة الدينية، وقوامها دولة ترفض الحدود، وتعتبر أن المسلم السلفي، عراقياً أو غير عراقي، هو الوسيلة الوحيدة لمواجهة التكوين المجمعي الهجين للعراق، وأن فكرة جمع العراق والشام مرتبطة بالسيطرة على أراضٍ ذات أغلبية سنية باعتبارها السبيل الوحيد للتجميع السنة، والاحتفاظ بهم كقوة، وهذا يحتاج لفكرة رفض الحدود، وهنا يبرز دور الكادر العراقي في بلورة استراتيجية التنظيم، ومنها الهيكلية التنظيمية والعسكرية، ونجاجه في إطار يجمع خليطاً من المتضادات من المعتقدات الدينية، من جهة، والحسابات الاستراتيجية، من جهة أخرى.

لقد كان سمير الخلفاوي ورفاقه علمانيين في حزب البعث، ولكن أرادوا اكتساب شرعية من الله حيث يقول سمير الخلفاوي (حجي بكر): إن «السيطرة على الشعوب يجب أن تكون بيد فئة قليلة من النخبة، لأنها تحكم

باسم الهدف الأكبر، وتكتسب شرعيتها من الله، أو من ع祌مة التاريخ». لكنّ المعتقدات الدينية المتطرفة وحدها لا تكفي للوصول إلى النصر. لقد نجحوا ببلورة نوع من التوليفة القادرة على تجميع التناقضات ما بين العلماني السابق، وما بين صاحب رؤية، فأنتجت حالة سرعان ما ترجمت نفسها بـ«الدولة الإسلامية»، وهذا ما يفسّر سرعة تعيين خليفة.

في السجن جرت اللقاءات، والتعارف، وتبادل الآراء، والأفكار بين ضباط الجيش العراقي السابقين، وبين الجهاديين، وليست بالضرورة في وقت واحد، إنما في فترات ما بين 2005 و2008 وأبرز هؤلاء العقيد سمير بن حمد الخلفاوي<sup>(١)</sup> والعميد إبراهيم الحباني، والعميد عدنان إسماعيل البلاوي<sup>(٢)</sup>، والعقيد عدنان نجم، والعقيد فاضل العفري، والعقيد عاصي العبيدي، والعقيد فاضل العيساوي، والعقيد مازن نهير، والعقيد مهند لطيف السويداوي، والعقيد نبيل المعيني، والمقدم محمد الحيالي، والمقدم ميسرا الجبوري، والشيخ إبراهيم بن عواد البدرى<sup>(٣)</sup> (أبو بكر البغدادي)، وكانت تجري بينهم حوارات، ونقاشات، واتفقوا على اللقاء خارج السجن للعمل معًا<sup>(٤)</sup>.

---

(١) أمضى سمير الخلفاوي (حجي بكر) في السجن من 2006 لغاية 2008 وتنقل ما بين سجني بوكا وأبو غريب وقتل في تل رفعت بحلب في كانون الثاني 2014.

(٢) العميد عدنان البلاوي وهو صاحب خطة الاستيلاء على الموصل ووضع الخطة في السجن وقتل قبل الهجوم على الموصل لذا سميت العملية باسمه، أمضى في السجن من 27 كانون 2005 لغاية 2008 وقتل في 2014 في الموصل.

(٣) أمضى إبراهيم البدرى (أبو بكر البغدادي) في السجن من 2006 لغاية 2008.

(٤) يقول أحد قادة داعش: اتفقنا جميعاً على أن نلتقي عندما نخرج، وكانت وسيلة الاتصال سهلة جدًا، كتبنا تفاصيل كل شخص منا على شريط الإستيك المطاط الموجود في السراويل الداخلية، كان كل شخص مهم بالنسبة إلي مكتوبًا على شريط المطاط الأبيض، كان عندي أرقام هواتفهم وقرائهم، كان الكثير منا قد عاد بحلول 2009 فتواصلنا عندما خرجنا وعدنا للقيام بما كنا نقوم به قبل اعتقالنا (انظر: مركز دراسات الجزيرة).

## حالة هجينة

كان «تنظيم الدولة في العراق والشام» محلياً مستقلاً عن «القاعدة 1» و«القاعدة 2»؛ بل جيئاً تقوم هيكليته على أسس فقهية شرعية، يرأسه خليفة توفر فيه شروط الولاية، كالعلم الشرعي، والنسب القرشي، وسلامة الحواس، وسائر الوظائف الدينية والدنوية المذكورة في التراث السياسي- الإسلامي السني كقائد ديني وسياسي، له حق الطاعة بعد اختياره من قبل مجلس الشورى وأهل الحل والعقد<sup>(1)</sup>.

وُضِّمِّن التنظيم بشكل يستطيع الخليفة إدارة شؤونه، وتدير حكمه باعتباره دولة إسلامية مكتملة الأركان، والشروط، والبناء الهيكلية من خلال ترسیخ مبدأ البيعة والطاعة، الأمر الذي يضمن مركزية التنظيم، وسيطرة الخليفة على كافة مفاصل التنظيم إشراكاً مباشراً على المجالس، بحيث تعتبر المجالس المفاصل الأساسية لتنظيم الدولة.

## بنية التنظيم

**ال الخليفة:** وهو القائد الأعلى للقوات المسلحة، ويتمتع بصلاحيات واسعة في تعيين وعزل رؤساء المجالس بعدأخذ رأي مجلس الشورى، والذي تعتبر استشارته غير ملزمة للخليفة.

**مجلس الشورى:** وهو مصدر القرارات، ورسم السياسات العامة، وتقديم التزكية لاختيار الأمراء والقادة.

**الهيئة الشرعية:** وتعتبر أحد أهم مفاصل تنظيم الدولة نظراً لطبيعته الشرعية، وتعتبر الملف الأمني من ضمنها، وتصدر الهيئة الكتب، وتصيغ الخطابات، والبيانات، وتنقسم الهيئة إلى قسمين رئيسين، الأول: يتعلق

---

(1) شروط الولاية (بوابة الحركات الإسلامية للدراسات).

بتطبيق المحاكم الشرعية، ومؤسسة القضاء، والثاني: بعملية الوعظ، والتجنيد، والتعبئة.

جهاز الأمن: هو نموذج عن المخابرات العراقية المستنسخة عن وزارة الأمن في ألمانيا الشرقية (ستاسي)، وهي تشرف على كل المجالس والهيئات، وتضع الهياكل التنظيمية، وقوائم المسؤولين، ومراقبة عمل النساء في الولايات والقطاعات، والمدن، وحماية التنظيم من الاختراق، وتشرف على الوحدات الخاصة، كوحدة الاستشهاديين، والانغماسيين، ويتولى جهاز الأمن نقل البريد، وتنسيق التواصل بين مفاصل الدولة، كما لديه مفارز خاصة للاغتيالات، والخطف، وجمع المال.

الهيئة الإعلامية: تلعب دوراً أساسياً داخل هيكل التنظيم، وتنظيم الدولة، وتهتم بالمسألة الإعلامية بشكل كبير، أنشأت جهازاً امتلك قدرات تقنية خاطبت بها اللعبة الإعلامية في النشر والتضليل، وعكس أهداف التنظيم.

المجلس العسكري: يعتبر الأهم داخل التنظيم، تولاه العقيد سمير الخلفاوي، وبعد مقتله في كانون الثاني 2014، ترأسه العقيد عدنان إسماعيل البلاوي والذي قتل بدوره في حزيران 2014، ويترأّسه حالياً العقيد فاضل الحيالي، وهو من ضباط الحرس الجمهوري العراقي السابق. والمجلس عبارة عن قادة القطاعات العسكرية، وكل قطاع يتكون من ثلاثة كتائب، وكل كتيبة تضم 350 مقاتلاً.

وينقسم المجلس إلى قيادة أركان، وقوات اقتحام، وسرية الاستشهاديين، وقوات الدعم اللوجستي، وقوات القنص، وقوات التفخيخ، ويقوم المجلس بالوظائف كافة، والمهام العسكرية، كالتخفيط الاستراتيجي، وإدارة المعارك، وتجهيز الغزوات، مضافاً لإدارة التسليح والغنائم.

ويوجد في التنظيم وزارتان للعمال والاتصالات<sup>(1)</sup>.

## ال التقسيم الإداري

تقسم الولايات إلى قواطع، وفي كل ولاية مسؤول، يعاونه مجموعة من الأمراء، مثل: الأمير العسكري، الأمير الشرعي، الأمير الأمني، ويشرف هؤلاء بدورهم على أمراء المدن. ولدى التنظيم دواعين، كديوان التعليم، والصحة، والزكاة، وهيئة خدمات المسلمين، وديوان الزراعة، والعقارات، وديوان العشائر، والممرور، والمياه، والعمل، والحساب، والمحكمة، والشرطة، والدعوة، والأوقاف، وديوان الهبات والتبرعات، وعوائد الأجانب المخطوفين<sup>(2)</sup>. ومجالس محلية أخرى<sup>(3)</sup>.

اعتمد التنظيم على العنصر العراقي في معظم مفاصيله الرئيسية، وعلى الأعضاء العرب والأجانب في إدارة الوظائف المساندة كالشوري، والإعلام، والتجنيد، وجمع التبرعات. واعتمد بشكل خاص على حلقة تلعرف التركمانية في المواقع الأمامية، وفي مقدمتهم أبو علي الأنباري<sup>(4)</sup>، وعلى العرب في المؤسسة الإعلامية السورية طه صبحي فلاحة (أبو محمد العدناني)، كناطق باسم الدولة الإسلامية، على الرغم من عملية الدمج بين العرب والأجانب، يبقى المكون العراقي متمنعاً بأرفع المناصب وأخطرها.

لقد نجح إبراهيم البدرى (أبو بكر البغدادي) بتحديث التنظيم باعتماده في الجانب العسكري على الضباط العسكريين في الجيش العراقي

---

(1) للاطلاع أكثر انظر: مركز عمران للدراسات الاستراتيجية (تاريخ الإصدار 15 أيار 2015).

(2) للاطلاع أكثر على آلية عمل المجالس انظر: مركز عمران للدراسات الاستراتيجية، تاريخ الإصدار: 15 ايار 2015.

(3) للاطلاع انظر: مركز الجزيرة للدراسات، حسن أبو هنية.

(4) حلقة تلعرف كان مسؤولاً عنها أبو علي الأنباري، علاء قدراش وهو من أسرة تركمانية من تلعرف، (هيمن المناع، خلافة داعش من هجرات الوهم إلى بحيرات الدم).

السابق، وفي مقدمتهم الخليفاوي<sup>(١)</sup>، وعبد الرحمن البلاوي، فتحّول الجناح العسكري إلى ما يشبه القوة النظامية بشكل متماسك ومحترف، ونجح البدرى في استثمار العرب والأجانب، خاصة أبناء الخليج: أمثال السعوديين عمر القحطاني، وعثمان نازح العسيري، والبحريني تركي بن مبارك (المعروف تركي البنغلي، والشيشانى باتيرا شغلى (أبو عمر الشيشانى) وأبو همام الأترة.

على الرغم من كل البني، والهياكل التنظيمية، لم يخرج تنظيم الدولة عن كونه تنظيماً ميليشائياً تسوده الفوضى والمحسوبيّة، وعلى الرغم من الترويج لفكرة تنظيم الولايات، واعتماد 18 ولاية ما بين سوريا والعراق، ظلّت هذه الولايات، والإدارات، والمجالس تفتقد إلى الضوابط والتنظيم. ولكن بدون شك نجح البغدادي في إيجاد نوع من التماسک التنظيمي؛ كونه اعتمد على عناصر أساسية في بناء «تنظيم الدولة الإسلامية»، وهذه العناصر ساهمت بضبط البناء الهيكلي، وآليات العمل، وهي الاستفادة من خبرة الضباط العراقيين السابقين على المستويات كافة: الأمنية، والعسكرية، والتنظيمية، خاصة تطوير الخطط، والأساليب القتالية.

لقد عمل البغدادي على تأمين موارد مالية ضخمة عبر السيطرة على آبار النفط، والمعادن، والآثار، والجزية، والزكاة، والخطف لتحقيق مشروعه، واعتمد على الإعلام كوسيلة مركزية خاصة في ما يعرف

---

(١) كان ما فعله الخليفاوي (حجي بكر) هو تعديل بسيط على ما تعلمه في الماضي في نظام صدام حسين وأسقطه على هيكلية تنظيم الدولة: انظر: وثائق ديرشباغل، عرفت تلك الوثائق بوثائق حجي بكر، وجدت في منزله على أثر مقتله في تل رفعت بحلب 2014، وتبين تلك الوثائق المكتوبة بخط يد حجي بكر أن التنظيم لم يكن دينياً بل مخابراتياً، خلافة يترأسها منظمة شبيهة بوزارة الأمن في ألمانيا الشرقية (ستاسي) وأن حجي بكر رجل قومي كما وصفه الصحفي العراقي هاشم الهاشمي بأنه كان ضابطاً في قاعدة العجاجنة الجوية، وكان بارعاً في الأمور اللوجستية.

بالحرب النفسية عبر بث الصور، والفيديوهات، واتبع سياسة المفاوضات مع العشائر، والبيئات الاجتماعية، والشعوبية المحلية مستفيداً من درس الصحوات، بينما مارس القتل والذبح، والترويع مع الأقليات، واعتمد سياسة التشدد مع أي فصيل، أو تنظيم يريد التعاون معه على قاعدة الندية (البيعة أو القتال)، وعمل على تنظيف المناطق التي يسيطر عليها، وأحياناً بضربات استباقية ضد أي مجموعة سكانية يمكن أن تشكل قاعدة إجماع ضلده، أو رفضاً لممارسته.

### أفرع تنظيم القاعدة

فرع سيناء2002: فهو الأقرب فكرياً وإيديولوجياً للتنظيم الأم من حيث البنية التنظيمية باعتماد الخلايا العنقودية مع توسيع بالتشكيلات العسكرية، وهو يعتمد الخلايا الصغيرة للخطف والقتل، مثل: تفجيرات طابا 2004 باسم كتائب التوحيد الإسلامية، و2005 كتائب عبد الله بن عزام، والجموعات الكبيرة لشن هجمات بأعداد كبيرة، على سبيل المثال، 200 عنصر متواطئ بالرشاشات والقذائف الصاروخية. هذا التطور النوعي كان نتيجة تبادل الخبرات، والتدريب، وتهريب الأسلحة مع قطاع غزة عبر الأنفاق، وبالتعاون مع «جيش الإسلام» في غزة، وهم سعوا إلى إنشاء إمارة الشيشخ زوايد باسم أنصار الشريعة، وساهمت الثورة الليبية بإمداد جماعة سيناء بأنواع الأسلحة كافة، ويرزت قيادات جديدة غالبيتهم من المهرّبين، ومنهم شادي المنبعي، وسلامة أبو دين، و2012 برزت قوة جديدة باسم أنصار بيت المقدس.

فرع باكستان: كان ما يشبه الدرع والملاذ والمرر اللوجستي والمراسلات بين الأفرع، ولكنه كان أقرب إلى طالبان بتركيبته، وتشكيلاته العسكرية، والتنظيمية، وهو نسخة متطابقة مع طالبان الدولة، وليس الخلايا، والجموعات السرية.

**بوكو حرام:** شكل نموذجًا مختلفاً عن بقية الأفرع حيث سعى إلى التمدد في شمال نيجيريا، وتمدد إلى غرب أفريقيا وخصوصاً مالي، بينما انتشرت «حركة الشباب الصومالية» في الصومال، وتمددت نحو أثيوبيا، وكينيا مستغلة عدم قدرة الاتحاد الأفريقي على التورط في البلاد أكثر، وهذه حركة تتمتع بهيكليه تنظيمية معززة بتحالفات قبلية، وتشكيلاتها أكبر من تشكيلات طالبان في أفغانستان وباكستان، وهي ليست تنظيماً يعتمد الخلايا، إنما هو مشروع يسعى للسيطرة على القرن الأفريقي.

**الجزائر:** وفيها ما يعرف بـ«الجماعة السلفية للدعوة والقتال»، تزعمها عبد الملك دروكدال (أبو مصعب)، وعاونه مختار بلمخطار الذي تولى الإشراف على منطقة الصحراء الكبرى على الحدود مع مالي والنيجر، وهما اتبعا أسلوب تنظيم القاعدة الأأم نفسه في تنفيذ العمليات العسكرية كالخطف، والتفجير، والعمليات الانتحارية، فكان الهجوم المزدوج بالسيارات المفخخة على قصر الحكومة، ومركز للشرطة في نيسان 2007، وعملية انتحارية استهدفت تجمعاً سكنياً في مدينة باتنة في 15 أيلول 2007، وهجوم على منطقة الأخضرية بولاية اليوبرة 2007، واحتطاف سائحتين من جنوب تونس 2008، وأربعة سياح بريطانيين 2009، وقتل ناشط أميركي في موريتانيا 2009، ومع العام 2012 بدأ التنظيم بالتوسيع إلى غرب أفريقيا، وأعلن عن تشكيلات عدة باسم جند الخلافة.

**اليمن:** وفيها ما يعرف بـ«أنصار الشريعة»، واقتصر عملها في البداية على التجنيد، ورفد التنظيم بالمتطرفين لا سيما في أفغانستان، ولاحقاً في العراق، ومن ثم التدرج إلى الأعمال العسكرية كضرب المدمرة أس-أس كول، والهجوم على فندق في عدن، وناقلة النفط الفرنسية، وقتل الأطباء الأميركيين بمحافظة إب، وإطلاق صاروخ على طائرة تابعة لشركة نفطية، ومع تصاعد الصراع في اليمن، استفاد التنظيم من حالة الفوضى، وضعف

الدولة، وبدأ بالتوسيع نحو أبين وشبوه وزنجبار بعد توحّد تنظيمي القاعدة في اليمن وال سعودية تحت لواء تنظيم القاعدة في جزيرة العرب.

ويرز ناصر الوحشي (أبو بصير) من شبوه، وكان سكرتيراً لأسامة بن لادن، وبمثابة الرجل الثاني بعد الظواهري، قُتل في يونيو 2014، وقاتل في أفغانستان وأواخر التسعينات، وشارك في «تورا بورا» قبل أن يعود إلى اليمن حيث اعتقل، ومن ثم فرّ من السجن 2006، فأسس فرع القاعدة مع قاسم الريمي الفار من السعودية، واقتصرت البنية التنظيمية على قيادة محلية معلومة، ومعلنة معزّزة بتحالفات قبلية خاصة بعد أن لجأ التنظيم إلى الأعمال الخدماتية، مستفيداً من غياب الدولة.

ولكن لا تزال القاعدة الأكثر انتشاراً على الرغم من إعلان ناصر الوحشي قبل مقتله ولاءه لإبراهيم البدرى، ولكن لم يعرف من وإلى، ومن بقي في القاعدة خصوصاً في حضرموت وأبين.

ليبيا: الفرع الأكثر تعقيداً، ولغاية الآن لم يتبلور له شكل تنظيمي، إنما يطغى عليه الطابع المناطقي، كأمير كتبية الشريعة في درنة (سفيان بن قمو)، أو كتبية الشهداء في بنغازي (سالم البراني)، أو قائد أنصار الشريعة (مفتاح الدوادي)، أو قائد جماعة التكفير والهجرة (حسن الحمر)، أو قائد الجماعة الإسلامية في درنة (عبد الباسط عزوز)، معظمهم قاتل في أفغانستان، وأبرزهم عبد الحكيم بلحاج الذي كان في طليعة المتطوعين في أفغانستان 1988. ونظرًا لحداثة التنظيمات في ليبيا، والفوضى السائدة بعد سقوط حكم القذافي، لم تتوحد بعد المجموعات تحت راية واحدة، وأبرزها الآن كتبية الشريعة التي تعتمد لجنة شرعية تهتم بضبط الكتائب، ويترأسها محمد علي الزهاوي، ويعاونه ناصر الطرشان، وفيها جناح دعوي، ويهتم بتوزيع المساعدات، ولديها فرعان في سرت، وأجدابيا،

ولديها مسؤول في سيناء وهو محمد جمال أبو أحمد، ويتولى نقل الأسلحة إلى سيناء.

### فرع الشيشان

أسسه السعودي تامر صالح السويم (خطاب) سنة 1995، والتحق خطاب بالمجاهدين سنة 1988 بأفغانستان، وشارك في أغلب معاركها، ثم كلفه أسامة بن لادن تدريب الشيشانيين، والأتراك، والطاجيك للقتال إلى جانب جوهر دودايف، وبذلك توّطدت العلاقة بين الانفصاليين الشيشان وتنظيم القاعدة، وفي 1995 غادر خطاب أفغانستان إلى الشيشان، وعمل مع شامل باسييف في أعمال عسكرية كثيرة، ومنها معركة غروزني 1996، ولكن كانت إمارة القوقاز 2007 ذات طابع خاص تسعى إلى الانفصال، والاستقلال كدولة، وليس كباقي فروع القاعدة التي تعتمد الخلايا السرية، لذلك لم تتوسع القاعدة في الشيشان كتنظيم مستقل عن إمارة القوقاز، إنما قدّمت لها إسهامات وخبرات عسكرية. بالمقابل، قدّم الشيشانيون مقاتلين لتنظيم القاعدة في أماكن كثيرة.

### جبهة النصرة لأهل الشام (فرع سوريا)

مع تفجّر الأحداث في سوريا 2011، بُرِزَ في سوريا فرع لتنظيم القاعدة انشق عن «تنظيم الدولة الإسلامية» في العراق عرف بـ«جبهة النصرة» التي بدأت أعمالها بصورة مباشرة في كانون الثاني 2012 بعد مرور أشهر على الأحداث السورية. اعتمدت الجبهة أسلوب تنظيم القاعدة نفسه من حيث الخلايا العنقودية، والأساليب، تمثّل ذلك في تفجير السيارات، ومهاجمة القواعد العسكرية، والمنشآت، والمؤسسات، واستهلت باكورة أعمالها بتفجير مبني قيادة الأركان في دمشق أوائل أكتوبر 2012، وتفجير مبني المخابرات الجوية في حرستا، والقيام بتفجيرات انتحارية في حي الميدان بدمشق، ومهاجمة محطة تلفزيونية للحكومة السورية في بلدة دروشنا

جنوب العاصمة دمشق، وتفجير ثلاث سيارات في 3 أكتوبر 2012 في ساحة عبد الله الجيري في حلب قادها انتشاريون، وتفجير فرع الأمن الجوي، وإدارة الأمن الجنائي بدمشق، قتل 13 رجلاً في دير الزور رمياً بالرصاص في 29 مايو 2012، والقيام بعدد من التفجيرات الانتحارية في مدحبي حمص ودمشق، ومن ثم تطورت أعمال الجبهة إلى شن هجمات بأعداد كبيرة على شكل كتائب وسرايا، والهجوم على قاعدة الدفاع الجوي في حلب في 12 أكتوبر، وثكنة هنانو في حلب، وقاعدة النعمان، والهجوم على قاعدة تفناز في نوفمبر 2012.

في 25 مايو 2012، أعلن أسامة واحدي (أبو محمد الجولاني) تشكيل جبهة النصرة، وكان سبق ذلك في 10 نيسان إعلان مبايعة الظواهري، وخلع يبيعة البغدادي، مما أدى إلى نشوب اقتتال بينهما، وأراد من ذلك استيعاب الخصوصية الشامية، رافضاً استنساخ تجربة الدولة الإسلامية في العراق.

سرعان ما نمت قدرات الجبهة لتصبح من أبرز التنظيمات المسلحة في سوريا، وجلّ عناصرها كانوا من السوريين الذين قاتلوا سابقاً في ساحات القتال في أفغانستان والشيشان والعراق ممّن لهم باع طويلاً في قتال الجيوش النظامية، ومنهم أبو محمد الجولاني<sup>(1)</sup>، وأبو مرايا القحطاني<sup>(2)</sup>، وأبو همام الشامي<sup>(3)</sup>، ومحمد سرور<sup>(4)</sup>.

تعتمد الجبهة هيكلية متعددة كونها جبهة، وليس إمارة كخلافاً

---

(1) أبو محمد الجولاني (السوري أسامة واحدي من إدلب-بلدة الشحيل. بعد خروجه من السجن غادر إلى العراق وعمل مع أبي مصعب الزرقاوي ومن ثم مع أبي بكر البغدادي وعاد إلى سوريا 2011).

(2) أبو ماريا القحطاني: العراقي ميسير علي موسى عبد الله الجبوري.

(3) أبو همام الشامي: السوري سمير حجازي.

(4) الشيخ محمد عبد الله سرور من حلب وهو مؤسس تجمع شباب وعلماء النهضة وهو يتولى الإشراف على الهيئة الشرعية.

سرية، ومجموعات صغيرة، ولديها تشكيلات عسكرية شبه تقليدية عبارة عن وحدات مقسمة إلى ألوية وأفواج وفصائل. أي تشكيلات تتغير حسب طبيعة المعركة، ووفق مقتضيات مسرح العمليات، وهي، كميشلاتها، تتمتع بالمرنة، والحركة، والنقل، والقدرة على التخفي. وتتمتع بالمبادرة في اتخاذ القرار باعتماد آليات عمل مرنة بفضل اللامركزية بحيث يتمتع كل أمير بصلاحيات التنفيذ، وتقدير الموقف، ويتمتع مقاتلو الجبهة بالخبرة في استخدام كل أنواع الأسلحة، وتصنيع العبوات المتفجرة، ويمتلكون خبرة في بناء الأنفاق، وكيفية استهلاك كميات قليلة من الذخائر في مواجهات كبيرة، فالتقنيين في استخدام الذخيرة يحتاج إلى مهارات، وخبرات قتالية للقيام باستنزاف الجيوش النظامية. ومن هذه الفنون الاختباء، والتمويه، والاختبارات النارية، والهجمات الوهمية، وكثرة الاستطلاع، ودقة التصويب، وخففة الحركة.

#### هيكلية تشكيلات النصرة<sup>(1)</sup>

تتكون الوحدات القتالية من «مجموعات» تتألف من 15 – 25 عنصراً يقودها أمير، و«سرايا» – ولها مسميات مختلفة – عددها بين 100 – 200 عنصر يقودها أمير يشرف على عمل المجموعات التابعة بحسب التقسيم المناطيقي، ويحاسب أمراء المجموعات على أعمالهم.

أمراء الأقاليم هم المسؤولون عن العمل العسكري، والإغاثي، والدعوي على مستوى المحافظات، ويتمتع أمراء الإقليم بصلاحيات عسكرية واسعة باستثناء القرارات الجوهرية والمهمة، فهم بحاجة للرجوع إلى مجلس شورى المجاهدين.

مع تدفق المقاتلين العرب والأجانب وزيادة انتساب السوريين

---

(1) حمزة مصطفى المصطفى، المركز العربي للأبحاث ودراسات السياسات – نوفمبر 2013.

تمددت الجبهة في ريفي حلب الغربي والشريقي، وما بين محافظتي حلب وأدلب، وريف حماة واللاذقية، وبعض مناطق القلمون وحوران.

تعتبر جبهة النصرة من أكثر التنظيمات تنظيماً وانضباطاً، وتتميز بالمرؤنة مع السكان المحليين وإقامة التحالفات مع بقية الفصائل المسلحة، وتحظى بدعم كبير من تركيا وقطر، مما عزّز حضورها على الساحة السورية، وهي تؤتمر من أيمان الظواهري بشكل مباشر.

## الفصل الثاني : داعش وأساليب القتال

أدى تراكم الخبرات العسكرية، تاريخياً، إلى بلورة أسلوب مركب، دمج بين الأسلوبين القتاليين النظمي والأنصارى، وساهمت ببلورته تجارب كثيرة في العالم، وأثمر ما يعرف بالأسلوب الهجين أو المركب. واعتمد تنظيم الدولة الدمج بين أسلوب الضباط العسكريين السابقين، مع أسلوب المجموعات الجهادية التي تعمل بأسلوب حرب العصابات، وأنجح قوات عسكرية أقرب ما تكون إلى جيوش صغيرة، أو جيش شعبي، ونجح التنظيم بتلخيص التجربة، وتطبيقها<sup>(1)</sup>. وكان لافتاً تطوير حرب العصابات في مواجهة المدرسة الكلاسيكية في العقدين الأخيرين نتيجة التفاعل بين الثقافات، والتجارب، وهذا جعلها ترتفع بوسائلها، وساحات اشتباكاتها، وقدراتها التقنية، فالحركات الجهادية مررت بعدة مراحل، وتجارب.

واعتمد تنظيم القاعدة والتنظيمات المرتبطة به بشكل مباشر أو غير مباشر، ما يعرف بالحرب الهجينة، فقدمت أسلوباً بأشكال ومستويات مختلفة طبقاً لمكان تواجدها، ونوعية مسرح العمليات. ففي داخل الدول التي تمتلك حكومات، وأنظمة قوية، ومتمسكة، كان دور القاعدة يقتصر

---

(1) كتاب «حرب المستضعفين» للسوري عمر عبد الحكيم (أبو مصعب السوري)، نسخة مصححة لروبرت تابر.

على عمليات انتشارية، وهجمات محدودة ضد منشآت حكومية وعسكرية كما في حال القاعدة اليوم في المغرب، أما الدول التي لا توجد فيها سيطرة قوية للحكومات مثل العراق، فقد شَّتَّت حرب عصابات مصحوبة بهجمات انتشارية، واعتمدت وسائل كثيرة، منها القصف المدفعي، والصاروخية ضد الأهداف الأمريكية، والعراقية.

بينما ما جرى في معركة غروزني 1996 يعتبر تحولاً في حرب المدن، وهي أصعب الحروب الحديثة كونها جرت في المناطق المأهولة بالسكان؛ لذا هي معقدة، وتحتاج إلى خبرة كبيرة.

طور الشيشانيون أساليب القتال باعتمادهم على تشكييلات خفيفة، وعلى درجة عالية من اللامركزية بحيث يمكنها الدفاع ضد قوة كبيرة. وتعتبر تكتيكات الشيشانيين في حرب المدن تطوراً خاصاً، أضاف على تجربة الحروب الهجينة أو المركبة بعدها جديداً ومتميلاً، من شأنه التأسيس إلى نسخة رابعة تحتاج إلى توسيع وبلورة.

تمثّلت استراتيجية الشيشانيين في النقاط الآتية: جرّ الجيش الروسي إلى مسرح العمليات التي تناسب مع وضعياتهم، وهي غالباً داخل غروزني، أو الهجوم على مؤخرات الجيش الروسي، وتمديد مدة المعركة لتكبيد الجيش الروسي خسائر كبيرة.

عملت القيادة الشيشانية على بلورة دفاعات فعالة ضد القصف، وأمرت القوات أن تكون الحركة دائمًا داخل غروزني حتى لا يوجد خط جبهة مستقر، وكانت خطتهم استدرج الجيش إلى وسط المدينة، حيث يصعب الانسحاب منها، ومن ثم الانقضاض عليه.

كان تكتيك الشيشانيين فعّالاً جداً بحيث كانت التشكييلات عبارة عن مجموعات تضم ثمانية مقاتلين،اثنان برشاشات ثقيلة، واثنان بمضادات

للدروع، وواحد قنّاص، وثلاثة برشاشات خفيفة. توزّعوا كـ: ممّرض ومتحدث باللّاّسلكي، وحامل ذخيرة، وتجتمع ثلاّث من هذه المجموعات لتكون وحدة من 25 فرداً حين يستدعي الأمر، وتجتمع ثلاّث وحدات لتكون كتيبة من 75 فرداً حين يكون الهجوم كبيراً.

كذلك اعتمد الشيشانيون على الالتصاق بمؤخرات الجيش الروسي بمسافات تقلّ أحياناً عن 50 متراً لمنع الطيران من استهدافهم. كما إنّ الطائرات العمودية لم تستطع المناورة داخل المدينة؛ لأن المقاتلين يمتلكون صواريخ محمولة على الأكتاف مضادة للطيران، ويمكن القول إن سلاحين أسهما في النصر الشيشاني بامتياز، وهو سلاح الـ «أر بي جي»، والذي كان يحمله اثنان من كل مجموعة، والقنّاص، وقد استعملوا هذين السلاحين بكثافة.

طور الشيشانيون قذائف الـ «أر بي جي» بنزع غطاء الصاعق، وزيادة كمية المتفجرات، مما جعله فتاكاً يدمر الدبابة. ونتيجة تطور هذه الأساليب، لم يعد ممكناً التمييز بين القوات النظامية، والقوات غير النظامية، كما إنّهم استخدموا صواريخ حديثة مضادة للدروع في إطار حرب العصابات. وفي بعض المعارك، لجأ الشيشانيون إلى عمليات انتحارية، ونصب كمائن مع هجمات مرتدة.

أما «تنظيم الدولة»، فقد استفاد من تلك التجارب، والخبرات، واعتمدها ضمن أساليبه المركبة والهجينة، ومزج أساليب القتال من تقليدية وحرب نظامية، وهو ما اصطلح على تسميته بالحرب غير المتناظرة أو اللامتكافية، وهذه الأساليب طبقها في مسرح عمليات يمتد على 40 بالمئة من جغرافيا سوريا والعراق). وتميز التنظيم باستخدام عنصر المفاجأة، والصدمة، والروع، والحركة السريعة، ومناوره القوات من بقعة إلى أخرى، وسرعة في الاختراقات، وحسن في الاستطلاع،

ودقة في تنسيق الوسائل النارية، وبراعة في الحركة والنار، وبذلك تحول من مجموعات تعتمد حرب العصابات (اضرب واهرب) إلى ميليشيا متطرفة (جيش شعبي)، وهو تطور نوعي وفعلي من الخلايا العنقودية إلى جيش يخوض مواجهات شاملة مع توظيف في التكتولوجيا، واعتماد على الانتحاريين. كما اختار في حربه الغزوات المفتوحة دائمًا كنهج أساسي.

اعتمد تنظيم الدولة الهجوم الدائم، أو التحضير لهجوم، أو تطوير هجوم، أو استغلال النجاح بهجوم جديد، ويكرر الأسلوب نفسه: الهجوم المباغت ثم التثبيت، وهدوء الجبهة ثم الهجوم، ونادرًا ما يلجأ إلى الدفاع إلا في حالات استثنائية. ويهتم تنظيم الدولة بثلاثة أمور: 1- الموقع الاستراتيجي، 2- توافر الأسلحة، 3- العناصر المدرّبة.

يعتمد التنظيم تشكيلاً على شكل كتائب يتراوح عددها ما بين 250 إلى 300 عنصر، ويتم تقسيم الكتيبة إلى سرايا، وكل سرية ما بين 50 إلى 60 عنصراً، وكل سرية تقسم إلى أربعة فصائل، وكل فصيل إلى 12 عنصراً، مضافاً للكل فصيل أمير، وشريعي، وأمني، وإداري، وهم لا يتقلّلون على شكل أرتال كبيرة، وإنما بمجموعات صغيرة، وعلى مراحل ومن طرق عدّة، ويفضّلون المناطق الوعرة والنائية، ويتمتّعون بمستوى عالٍ من التدريب الذي يقوم أساساً على معنيّات المقاتل، وسماته الشخصية الفريدة<sup>(1)</sup>، وعلى رأسها الاستعداد للتضحية في سبيل تحقيق أهداف القتال، ويركّز التنظيم في التدريب على أنواع عدّة، وهي كيفية بقاء القوات المقاتلة على قيد الحياة، وعلى الاستعداد للقتال لمدة زمنية طويلة، ويركّز على تعليم القادة كيفية امتلاك القدرة على المناورة في الميدان، وكيفية تنظيم القوات المقاتلة.

---

(1) هذه المبادئ وضعها اليمني نصر بن علي الأنصي الذي كان مدرّباً ومحاضراً في الأكاديمية العسكرية المهنية الجهادية، وفي أكاديمية الفاروق للإرشاد وهما تابعتان لتنظيم القاعدة.

### **الفصل الثالث: مبادئ العمليات الهجومية عند تنظيم الدولة (داعش)**

أسس تنظيم الدولة أساليب خاصة ومتقدمة في عملياته، تتوافق مع الظروف الجغرافية، وبنى الخصوم، ومما أضافه على الحرب الهجومية أنه شكل مجموعات صغيرة تتسلل بأسلوب الهجوم الصامت، ثم تنضم أثناء فتح التشكيلات عند نقاط الهجوم لتصبح سرايا، وتتحول نسقاً واحداً بمواجهة المدافعين، وهم مزودون بالقاذفات الصاروخية، والرشاشات الثقيلة، ومدافع الهاون 60-82 ملم، ثم تحرّك إلى أقرب نقطة من خط الاشتباك، وفي وقت واحد يستخدم المهاجمون قذائف الهاون والـ «آر بي جي»، ومدافع الـ بـ 10، ثم يعمدون إلى زج العناصر الذين يحملون القاذفات الصاروخية، والرشاشات الثقيلة (دوشكا)، ويسيطران على القوة المدافعة (راجمات الصواريخ - مدفع الميدان) على الواقع الخلفية لمنع المؤازرة، فيما تصطاد مفارز القناصة التابعين له المدافعين أثناء فورة الهجوم، وهذا يشير إلى أسلوب غزارة القوة النارية عند الهجوم<sup>(1)</sup>.

في هذه الحالة تتغيّر وظيفة القنصل من فعل هامشي خارج سياق المعركة الرئيسية إلى فعل اشتباكي داخلها، وفي ذروتها، وتبرز الرشاشة في الحركة والنار، وعادة يتم الهجوم بقوات ثانوية في النسق الأول، ويحتفظون بالقوة الرئيسية في نقاط ارتكاز خلفية، وعندما تضعف نقطة عسكرية في محور ما من خطوط الدفاع تتحرّك القوة العسكرية نحوها، وتنتقض على المدافعين، بينما تستمر القوة الثانوية في النسق الأول في المشاغلة، وفي حالة الهجوم من مسافات بعيدة مكشوفة، والاشتباك البعيد، وهم يقودون شاحنات أو سيارات مفخخة، كما يرسلون ممن يحملون أحزمة

---

(1) علاء اللامي، «نقاط الضعف والقوة عند داعش»، جريدة الأخبار، تاريخ 29/تموز/2014.

ناسبة (الانغماسيين)، أو ما يعرف بمجموعات الالتحام لبِّ الرعب في صفوف المدافعين، ثم تدخل مجموعات مسلحة بالرشاشات المتوسطة (bkc) والثقيلة (دوشكا)، وهنا نلحظ أن العمليات الانتحارية كانت بهدف الرعب، وكسر الروح المعنوية، حيث يسبق الهجوم دائمًا حرب تمويه، واستطلاع ناري، وهجوم، ثم تراجع، مع اختلاف محاور قتالية ضعيفة لتشتت التركيز عن الهدف الرئيسي، ثم يبدأ هجوم الصدمة.

مضافاً إلى ما كان يفعله المقاتلون الشيشان أثناء الهجوم بالاعتماد على القوادف الصاروخية، والرشاشات الثقيلة، والمتوسطة، والقناصة في النسق الأول، أضاف عليها «داعش» الصواريخ الموجّهة (تاو)، ومدافع بـ 10 محمولة على الأكتاف، وصواريخ الغراد 107 (فوهات فردية) لتوفير كثافة نار، ودقة في الإصابة.

وعندما يتخذ التنظيم موقف الدفاع، لا يعتمد ما يعرف بخط دفاع عميق؛ بل يجعل الخطوط الدفاعية نشطة ليصعب تحديد خط الدفاع الأول، وتعتمد وحداته إلى التفخيخ بالعبوات الناسفة، والألغام، ونشر أعداد كبيرة من القناصة، بحيث تتولى القناصة أماكن المرتفعة، بينما يتم تفخيخ المراكز المتقدمة، ويتم تحريك مجموعات حول المراكز للقضاء على أي مُدافع يحاول الانسحاب، وهذا تكتيك نفسي.

ولدى التنظيم مجموعات أخرى تقوم بحركات التفاف على المهاجمين، مع الاعتماد على الانتحاريين لصدّ الهجوم، ولكن التنظيم عموماً يعتمد الهجوم كجزء من استراتيجية الدفاع عن مناطقه، وفي كلتا الحالتين: الهجوم والدفاع يتبع التنظيم المبادئ الآتية:

- مرونة عالية في الانتشار، والمواجهة، ودينامية في تغيير الخطط وفق مقتضيات الحاجة، وحسب تطورات القتال في الميدان.

- 2- تجنب الصدام المباشر مع الجيش النظامي لحرمانه من استخدام قوته النارية، ومهاجمته في أسوأ حالاته.
- 3- اعتماد ساحة الحرب المفتوحة: الهجوم الدائم دون الاعتماد على خطوط ثابتة.
- 4- استثمار النجاح الحاصل في عمليات الإغارة، والضربات المفاجئة، واستغلال ضعف الخصم.
- 5- استثمار القليل من الأفراد والمعدات غير المكلفة نسبياً بأسلوب يمكن أن يعرقل ويوقف قوات تقليدية، أكبر عدداً، وأكثر تسليحاً.
- 6- العمل بمبدأ الانتشار المبكر للمجموعات كأسلوب الدفاع السلبي، ومقاومة الاستطلاع، وتجنب الضربات الجوية المركزية مع القدرة على اتخاذ التشكيل المناسب للتعامل مع الخصم عند وصوله إلى مناطق الاشتباك.
- 7- اعتماد مفعول النوعية بالنسبة إلى السلاح الثقيل بدلاً من الكميه، وعدم إقحامه في تشكيلات كبرى ثقيلة الحركة كي لا يصبح عبئاً عند المواجهة الحاسمة، والاستعاضة عنها بوحدات مضادة للدروع.
- 8- التوسيع في استخدام الراجمات الصاروخية، وكثافة النيران، والقوة التدميرية بحيث يجعلها أسلحة فعالة ضمن هذه المجموعات.
- 9- إعداد مراكز قيادة، وسيطرة أساسية، وبديلة متنقلة، وكذلك تخصيص موقع بديلة لضمان استمرارية القيادة أثناء التحرك والهجوم.
- 10- إخراج الخصم من منطقة الخندق، وهذا يتطلب حيوية، وهجمات مستمرة عبر الاختبارات النارية، والهجمات الوهمية.

ويلخص عبد الله بن محمد<sup>(1)</sup> القواعد الأساسية، والمبادئ الفتالية على الشكل الآتي:

لضمان تنفيذ آليات العمل العسكري، يجب العمل ككتلة متحدة، في نطاق معين ومدروس، بحيث لا تؤدي إلى تشتت القوات، فتجنّب تشتت القوة عامل مهم مهما بلغت مساحة الانتشار للمحافظة على القوات، وهذا، بنظره، من أهم مركبات الفعالية، ويضيف أن من يتقن حشد القوات هو من سيحسن التحرك.

لا شك في أن «تنظيم الدولة الإسلامية» يختلف في قيادته عن القادة العسكريين من الجيوش النظامية، وشبه النظامية، فقادته ومقاتلوه غير مقيدون بقوانين، وأنظمة الدولة، ولا يعيرون اهتماماً لتدمير الأملال العامة والخاصة، ولا يتقيدون بأية حرمات، كما لا يهتمون لسلامة الجنود، ويتمثل ذلك بكثرة العمليات الاتخارية دون موجب كبير، كما حصل في الهجوم على كوباني بأكثر من 60 انتحارياً، وعلى مصفاة بيجي 20، والحسكة 32. إنهم لا يخضعون للمساءلة من جهات الدولة والمجتمع، ومساءلة الأمير تحصل إذا لم يحصل الهجوم فقط.

إذا راقبنا معارك «داعش» و«النصرة» في سوريا والعراق نلاحظ غياب أي ضوابط على أداء القادة الميدانيين، وهذا جعلهم يتفوقون في مسرح العمليات.

ولكن تجربة «تنظيم الدولة الإسلامية» في العراق والشام ليست معياراً في تحديد نسبة النجاحات، كون الخصوم يعانون نوعاً من الإنهاك، والاستنزاف يضطرهما إلى التردد والحذر، فالنظامان السوري والعراقي

---

(1) عبد الله بن محمد، مؤلف «المذكرة الاستراتيجية»، و«استراتيجية المعركة الإقليمية على أرض الشام»، و«حرب العصابات السياسية».

استُنزفت القوة التي كانا يتمتعان بها، وذلك نتيجة ظروفهما المعروفة، فالجيش السوري يخوض حرباً مركبة ومعقدة منذ 5 سنوات، وكذلك الجيش العراقي الذي لا يزال أسيراً لظروفه منذ الاحتلال الأمريكي.

لذا أظهرت المواجهات مع داعش محدودية الجيشين خاصة أنها جرت في بيئة معقدة، كانت تتطلب وتشترط في حد ذاتها جيوشاً حديثة ومنظمة، لأن يتم رفعها بميليشيات كـ«الحشد الشعبي»، وـ«جيش الدفاع الوطني».

وعلى الرغم من قوة «داعش»، فنقط ضعفه واضحة، وهزيمته ممكنة وأكيدة، فهو يتوجب المواجهات المباشرة والجبهويةـالصادمية، كما إنه يواجه صعوبات في الدفاع إذا تعرض لهجوم من نقاط متعددة. فالجيوش النظامية عادة تستفيد من اتساع المساحات؛ كونه يسمح لها بتركيز قوات هجومية على أكثر من منطقة ومدينة. وبما أن تنظيم الدولة يفضل الهجوم، فإن اتساع الجغرافيا يفقده القدرة على التمسك بها، وهذا يعطي أفضلية للجيوش النظامية لضربه في مناطق عدّة في آن معاً.

ففي حالة هجومية على منطقة يجب معالجة الموقف بشن هجمات مضادة، ومن محاور عدّة، ومن أهم نقاط ضعفه أنه لا يقاتل سوى في المناطق المسطحة ليتنسى له استعمال السيارات المفخخة، ويعجز عن المواجهات في الجبال، أو قتال الشوارع مثل ( Kobani، الحسكة، تل أبيض)، ويمكن اختراق منظومة الاتصالات لإفقاده القيادة والسيطرة، وعزل المجموعات إحداها عن الأخرى عبر اختراق وتفكيك شبكة الاتصالات، خاصة أن وحداته تنتشر في جغرافيا واسعة وكبيرة، وذات تضاريس معقدة، وغير متصلة، ومتداخلة مع الخصوم، مما يسهل قطع الإمداد والدعم.

من هنا أهمية إعادة تصحيح مسار الجبهات إلى شكل جبهويـ

صدامي مباشر، وتنظيف البئر، والجيوب لمنعهم من التنقل من بقعة إلى أخرى. ففي كوباني نجح الأكراد في المواجهات المباشرة، وكذلك في تل أبيض، والحسكة، كما نجح «حزب الله» في شرق حمص والقلمون، كما يمكن إيقادهم عنصر المفاجأة، والمبادرة عبر الدفاع الحيوي، والإغارات المتكررة، والكمائن المتقدمة، والعمل خلف خطوطهم.

أما في الدفاع عن المراكز، والمقرات والموقع، فيجب وضع سواتر ترابية متعرجة (زيك زاك)، وحرق خنادق متقدمة عازلة للحؤول دون وصول السيارات، والشاحنات المفخخة، وهذا يفقد مهاجمي التنظيم عنصر قوة الاقتحام، ويمكن تعزيز المراكز، والمقرات بأبراج مرتفعة، وomezza بصواريخ موجهة مع قناصات «م ط»، وهذا متوفّر ومتاح لاصطياد تلك السيارات.

أما ما يعرف بمجموعات الانغماسيين، فيمكن تأمين وسائل نارية كثيفة بوضع شبكة من مدافع الهاون 60 ملم بدرجة أقل من 90 درجة، بحيث يصبح المدى 100 متر للتعامل مع المهاجمين لحظة الاختراقات والالتحام، مع نشر أعداد كبيرة من القناصة للتعامل مع المهاجمين عند فورة الهجوم بحيث تحول القناصة من فعل هامشي إلى فعل اشتباكي بداخلها. وهنا يجب أن تلعب الطائرات المروجية دوراً أساسياً في اصطياد مجموعات الدعم والمؤازرة، ومن المعروف عن تنظيم الدولة أنه عندما يتعرض لخسائر بشرية، يتراجع، ويعرض عن ذلك باختيار مناطق نائية لاقتحامها وذبحها؛ لذلك تكمن هنا أهمية مجموعات الكمان التي يجب أن تكون بانتظار خصومهم عبر توقيع المناطق التي يمكن أن يهاجمها التنظيم.

## المحصلة

قدّم تنظيم القاعدة بنسخه الثلاث، وفروعه المنتشرة في العالم،

تجربة قتالية مميزة، وقدّم إسهامات إضافية، وحول المجموعات والخلايا الصغيرة إلى جيوش عابرة للحدود، وقارع الجيوش النظامية، والأحلاف الدولية بإتقانه طرقاً وأساليب عسكرية عدّة، والتي باتت تعرف بالأسلوب المركب، ويمكن تسميتها بـ«حروب المبادرة الميدانية». هذا الأسلوب جُرّب في العراق وسوريا على نطاق واسع، ونضج في غمرة المواجهات والملاحم، فالنجاحات لم تكن وليدة اشتباك صغير وأنّي، إنما جرت المواجهات على امتداد خمس سنوات من الحرب الضروس، مما عزّز احتمالات تفوق هذا الأسلوب القتالي في العديد من الحروب والمعارك، ورفع نسبة تسجيلها لأرباح وانتصارات شتى على حساب الحرب النظامية.

والأسلوب المركب لم يعد مقتصرًا على تجربة حرب المدن (قتال الشوارع) أو الجبال؛ بل تعداها إلى المواجهات الشاملة، كاستعمال الدبابات، والطائرات الموجهة، والمنظومات الصاروخية، ونجح في كسر مفاهيم القوة التقليدية، فنجح الميداني مقابل الاستراتيجي، كونه يعطي الأفضلية للقائد الميداني، بحيث يتحرّر من الروتين المعتمد في الجيوش النظامية، التي تعتمد استراتيجية عمل تسلسلي وآلياته، تحديد الهدف، وتعمل عليه القيادة العسكرية، وينفذه القائد الميداني.

أما تنظيم الدولة فارتكتزت فكرته الأساسية على تغيير جوهري بطريقة مواكبة العمل بحيث تُعطى الأفضلية للقائد الميداني بعد أن استفاد من دمج الأسلوبين الأنصارى والنظامي، مما أفضى إلى تفوق ميداني على الجيوش النظامية، كونه يتبع دينامية ومرنة وهامشًا أوسع، ويجمع بين السيطرة المركزية، والتنفيذ على المستوى المحلي.

لقد بُرِزَ في مسرح عمليات داعش قادة ميدانيون تفوقوا على القادة الإداريين، والمخططين، حيث وجدوا بدائل سريعة في خضم المعركة مثل: الانتقال سريعاً من تل أبيض-الرقّة إلى كوباني، أو من مصفاة بيجي

إلى هيـت، هذه الدينامـية العـالية نجـحت نـتيـجة اـنتـقالـهم من روـتين التـسلـسل الإـدارـي إـلـى المـبـادـرة المـيدـانـية، أي التـخلـي عن التـنـظـير إـلـى المـمارـسة العـملـية، وهذا كان يـحـتـاج إـلـى قـوـات حـيـوـيـةــ نـشـيـطـةــ.

بدون شك لـقد حدـث تـغـيـير جـوهـري وـشـامـل في تـكتـيـكـات العمل المـسـلحـ في أـسـلـوبـ المـجـمـوعـاتـ الجـهـادـيـةـ، وـخـاصـةـ بـعـدـ إـعلـانـ تنـظـيمـ الـدـولـةـ الـخـلـافـةـ 2013ـ، وـجـمـعـ الجـغـرـافـيـاـ وـالـدـيـمـغـرـافـيـاـ، وـالـتـمـدـدـ فيـ جـغـرـافـيـاـ كـبـيرـةـ، وـتـمـثـلـ نـجـاحـهـمـ الأـكـبـرـ فيـ تـطـوـيرـ الـهـيـكـلـيـةـ التـنـظـيمـيـةـ وـالـعـسـكـرـيـةـ، وـالـانـتـقـالـ منـ مـرـحـلـةـ النـكـاـيـةـ، وـكـسـرـ الشـوـكـةـ، إـلـىـ التـمـكـنـ، وـإـعلـانـ الإـمـارـةـ، وـتـمـّ تـغـيـيرـ استـرـاتـيـجـيـةـ «ـقـاعـدـةـ خـرـاسـانـ»ـ: قـتـالـ العـدـوـ الـبعـيدـ (ـأـمـيرـكـاـ)ـ إـلـىـ استـرـاتـيـجـيـةـ قـتـالـ العـدـوـ الـأـقـرـبـ (ـالـأـنـظـمـةـ)ـ مـسـتـفـيدـيـنـ مـنـ الـانـفـلـاتـ الـأـمـنـيـ، وـضـعـفـ الدـوـلـ، وـفـرـضـيـ الرـبـيعـ الـعـرـبـيـ.

كان استـلـهـامـ الـخـلـافـةـ عـامـلـ قـوـةـ وـجـذـبـ، وـلـكـنـ تـجـربـةـ تنـظـيمـ الـدـولـةـ، وـالـقـاعـدـةـ وـفـرـوـعـهـمـ، أـحـدـثـتـ تـشـوـهـاتـ فـيـ ماـ يـعـرـفـ بـحـربـ العـصـابـاتـ، وـحـربـ التـحرـيرـ الشـعـبـيـةـ؛ كـوـنـهـمـاـ لـمـ تـرـتكـزاـ عـلـىـ خـلـفـيـاتـ أـخـلـاقـيـةـ وـثـورـيـةـ، فـالـإـسـرـافـ فـيـ القـتـلـ، وـالـتـرـوـيـعـ يـفـضـيـ إـلـىـ نـتـائـجـ سـرـيعـةـ، وـلـكـنـهـ حـرـقـ للـمـراـحلـ، وـتـالـيـاـ مـقـدـمـةـ لـلـأـفـولـ، بـيـنـمـاـ دـيـمـوـمـةـ الـبقاءـ وـالـاستـمـرارـ هوـ اـكـتسـابـ وـدـ الـجمـاهـيرـ، وـالـبـيـئـاتـ الشـعـبـيـةـ، وـالـاجـتمـاعـيـةـ، وـالـتـماـهـيـ معـهـاـ، وـلـيـسـ إـخـضـاعـهـاـ، لـذـلـكـ فـإـنـ هـذـاـ أـسـلـوبـ الـمـرـوـعـ ماـ هـوـ إـلـاـ طـفـرـةـ عـابـرـةـ، لـهـذـاـ بـدـأـتـ الشـكـوكـ حـوـلـ قـدـرـةـ تنـظـيمـ عـلـىـ الـاستـمـرارـ.

إنـ تنـظـيمـ لاـ يـمـتـلـكـ مـقـوـمـاتـ الـبقاءـ وـالـاستـمـرارـ، فـقـدرـاتـهـ العـسـكـرـيـةـ فـيـ تـضـاؤـلـ وـعـجزـ، خـاصـةـ عـلـىـ مـسـتـوـىـ تـأـمـينـ وـحـشـدـ مـقـاتـلـيـنـ جـددـ، وـهـذـاـ سـيـنـعـكـسـ سـلـيـاـ عـلـىـ قـدـرـتـهـ مـواـصـلـةـ الـقـتـالـ. لـقـدـ فـقـدـ تنـظـيمـ الـقـاعـدـةـ بـكـلـ فـروـعـهـ، رـمـوزـهـ ماـ بـيـنـ 2006ـ وـ2015ـ مـنـ الـقـيـادـاتـ الـتـيـ كـانـتـ تـحـمـلـ حـضـورـاـ قـوـيـاـ عـلـىـ مـسـتـوـىـ السـاحـةـ الـجـهـادـيـةـ الـعـالـمـيـةـ، مـمـاـ أـدـىـ إـلـىـ صـعـودـ قـيـادـاتـ

شابة دون الأربعين، لم تعاصر تلك التجارب والخبرات، حيث طغى عليها عنصر الحماسة والتهور، مما أوقعها في أخطاء فاتلة أدت إلى خسرانه بيئات حاضنة وخلفاء مساندين، خاصة بوجود عناصر أجنبية ساهمت بإحداث شرخ مع القيادات المحلية، وهذا سيؤدي لاحقاً إلى اتفاق شبيه بالذي حصل في البوسنة (اتفاق دايتون 2005) وطرد الأجانب، وهذا بدوره سيضعف الكتلة المقاتلة التي تشكلها العناصر الأجنبية كقوة، وقد بدأ هذا التباين بالظهور في سوريا إلى حد الاقتتال والتصفية في ما بين مقاتلي وقوات الصف الواحد.

لقد تحولت هذه الظاهرة إلى حصان طروادة تستخدمها الدول لتصفية الحسابات في ما يعرف بالتخادم السلي والآني. هذه الظاهرة لم تنطلق من مشروع إسلامي عام، ولا من خلفية إسلامية-جهادية، إنما من إفرازات «حرب الخليج» والاحتلال الأميركي للعراق، والواقع المنهار، والخيارات المتلاحقة، وسلوكيات أدت إلى تلاقي وتقطاع مصالح بين المطربودين من الجيش العراقي المنحل واجتثاث حزب البعث، مع بقایا تنظيم القاعدة في العراق الذي كان أوشك على الهزيمة في 2007 على يد «الصحوات» العشارية التي تخلى عنها الأميركي أيضاً، وبدورها التحقت بتنظيم القاعدة من العشرين والجند العراقيين السابقين، مما أدى إلى إنشاء تكتلات وتجمّعات كبيرة.

ذلك التجمّع الهجين لم يؤسس أو ينطلق من واقع ثوري - نضالي، تفاعلي، ويقرّ بذلك عبد الله بن محمد، ويقول: بدأت الثورات العربية بحركة ميكانيكية، تعتمد على التقليد، فهشاشة النظام التونسي شجّعت الفكرة على الخروج من سيدي بو زيد إلى بقية المناطق معتمداً على قدراتها الذاتية، وهذا التحرير يبذلاته عفوي بدون رأس، ثم انتقلت الفكرة بالتقليد إلى مصر، ثم ليبيا وسوريا، وعلى الرغم من توافر السلاح، لم يكن يوجد زعامات سياسية. وهذا ما تقصد به غياب الصحوة أو المشروع، إنما كانت

موجة طفروية مصيرها الانكفاء والضمور. إنها من ردات الفعل على محاولات الإقصاء والتهبيش.

ولا شك في أن حرب الخليج ساهمت بإفرازاتها نتيجة الاحتلال الأميركي، وقد أشار المعارض السوري هيثم المناع في كتابه: «من هجرات الوهم إلى بحيرات الدم» إلى أن «الفوضى التي حملتها قوات الاحتلال الأميركي، والقرارات المدمرة التي اتخذها بول بريمير الحاكم الأميركي في العراق بضرب بنية الدولة العراقية، وحلّ الجيش العراقي، إلى قدوم المجاهدين إلى العراق، بهذا المعنى تتحمل قوات الاحتلال الأميركي المسؤولية عن خلق كل تلك العناصر الموضوعية لتشكيلات عسكرية واسعة خارج نطاق الاحتلال بكل ما أوصلت من استئصال واجثار، وإبعاد لكل من كان على صلة عسكرية أو سياسية مع النظام السابق».

ويشير المفكر العربي الدكتور كمال خلف الطويل إلى أن «هذه الظاهرة شبه طفروية توشك على الضمور مع تلاشي المسببات»، فقاعدة خراسان هي نتاج الحرب على العراق 1991، كما إن قاعدة العراق هي نتاج لاحتلال العراق 2003.

أما على المستوى العسكري القتالي، فستبقى الأفضلية للجيوش النظامية التي طرأت تحسينات على وحداتها، والتي بدأت تعتمد على تشكيلات صغيرة كركن أساسي في تشكيلات القوات المسلحة، بدلاً من الاعتماد على الفرق الكبيرة التي تخضع لروتين تقليدي، بحيث تمتلك تشكيلات، وصنوفاً متنوعة من الدروع، والدفاع الجوي، والمدفعية، والصواريخ، والطائرات، ووحدات مجوقة، ومؤللة، وكومندوس، وتميز بالتنظيم والتدريب، والقدرة على التنسيق، بحيث تمتلك مرونة في تنفيذ التمهيد الناري، والتقدم بوحدات صغيرة تساندها خطوط إمداد، ودعم لوجيسي، وهذا يحتاج إلى تطعيم الجيوش بمناهج وأساليب مختلفة.

وتعتمد بعض الدول الآن على هذا الأسلوب المركب كالجيش السويسري، ويعتبر نموذجاً ناجحاً، حيث يعتمد على الجيش النظامي والشعبي، ويتم استنفارهما، وتعبيتهما بسرعة لمواجهة أي تهديد خارجي ضمن أنشطة محدودة للمواجهة، والتنسيق في ما بينها، وبذلك تكون القوات المسلحة السويسرية مهيأة للقتال بأسلوب تقليدي، ومنهج حرب العصابات، بآن واحد ومنذ اليوم الأول، وتعتبر أيضاً الجمهورية الإسلامية الإيرانية من الدول التي تعتمد هذا الأسلوب حيث بات الحرس الثوري الإيراني مسلحًااليوم بشكل أقرب إلى الجيش منه إلى ميليشيات تعتمد حرب عصابات، كما إنّ الباسيفج تستخدم لمهام حماية الداخل.

إن حروب المبادرة الميدانية، إذا جاز التعبير، ربحت في الكثير من المعارك على المستوى الميداني، لكنها لم تتخذ طابعًا ثابتًا، له قوانينه التي تحفظ قدرته على الاستمرار؛ بل شكلت على الدوام حالات منفصلة، لا يستفيد واحدها من التجارب الأخرى إلا لمامًا، بما ترمي لقادته من معلومات، وبما استطاعه العقل البشري من ابتداع خطوات ميدانية طارئة واجهت الجيوش الكبرى، وتمكنّت من إلحاق هزائم بها.

شكل هذا النمط من الحروب مراحل انتقالية، ويفترض أن لا يكون أكثر من ذلك، فحروب التحرير الشعبية المرادفة لحروب القاعدة، وأنماطها المختلفة، كانت محطّات استهدفت أكثر من غاية. أولاهما، في حالة ضعف القوى المقاتلة الناشئة، والناهضة للتحرر، اتبعت أساليب يمكن أن تكون عملية اختبار وتنمية للعمل العسكري، وفي ظلالها ينشأ التنظيم ويتطور، وينمو، وفي خضم المواجهة، يقوى عوده، ويستنبط أساليب جديدة، ويمتلك قدرات أفضل، ويؤمن لذاته الإمداد أن العسكري أو المادي، وهو في هذه الحال يظل في موقع دفاعي، حتى لو لجأ إلى الهجوم عملاً، في كثير من الأحيان.

غير أن هذا الأسلوب سيظل في موقع دفاعي إذا لم يتطور إلى مرحلة تتميمية القدرات على المواجهة الشاملة، واحتلال المواقع، والتوسيع، والتمرير، والحفاظ على المواقع التي يكسبها؛ لكي يواصل هجومه إلى موضع جديدة تمكّنها وبالتالي من كسر العدو، وإلحاق الهزيمة به.

في هذا الإطار، يمكن لحرب العصابات، أو حروب الأنصار، لعب دور حاسم في المواجهة، وتحقيق الانتصارات الساحقة في المعارك. فالأسلوب يزاوج بين المبادرة الفردية الميدانية، وبعض ما اكتسبه بعض القادة العسكريين من خنكة وتجربة وتدريب وعلم. وإذا شاء أي طرف الوصول إلى النصر الأخير، لا بد من العودة إلى تطوير حرب العصابات إلى حرب نظامية، تخضع لقوانين علمية، مدروسة، مدعومة بعمليات تسلیح، وتطوير، ومزيد من الاطلاع على الاختراعات الحديثة، والفكر العسكري الأكاديمي، وإلا بقيت حروب العصابات حروباً إرباكية لا تصل إلى الانتصار. يجب أن تكون حرب العصابات، التي في نسخها القاعدية، مزجت بين الأنصارية والنظامية، أن تتحول إلى حرب نظامية قادرة على تطوير المواجهة بطرق عسكرية علمية، بعد أن تكون قد استرفت الخصم، وأنهكته، وقسّأ عودها فيها.

ربما تشكل التجربة الفيتلامية نموذجاً لما يمكن أن تكونه حرب العصابات. فقد بدأ الفيتلamiون، بمواجهات اعتمدت السلاح الفردي البدائي، ثم اخترعت أساليب شعبية كأفعاخ الضباع، والنحل، ثم تطورت تجربتها، وامتلكت المزيد من الأسلحة، خصوصاً من الخصم، ونظمت المزيد من المقاتلين. وتمكن «الفيتكونغ» من إلحاق أضرار كبيرة بالجيوش المعادية، لكن في خضم حرب العصابات، كان الجنرال جياب ومن معه في حلفه، يطور أساليب المواجهة، وينظم الحركة المقاتلة الشعبية، ويحوّلها إلى حرب نظامية، استطاع بعد ذلك قياس قدراته على الهجوم الكاسح، وإمكانية تحقيق نصر نهائي، وانتهى معه دور حرب

العصابات، فاجتاح «الفيتكونغ» موقع الخصم في الجنوب الفيتنامي، إلى أن تمكنا من السيطرة النهائية التامة على العاصمة سايغون.

لم يكن الفيتكونغ ليتصروا ولو ظلوا متبعين حرب العصابات، الحرب القائمة على شيء من العلم، وشيء من المبادرة الميدانية. وعلى الرغم من أهميتها، ظلت حرب العصابات مرحلة انتقالية حتى نموّ الجيش الفيتنامي النظامي الذي بات قادته يعرفون علمياً قدراته على التقدم وفق قوانين وشروط عسكرية تدرس في المعاهد، وتطبق ميدانياً، ويجري تقييمها خطوة خطوة بالمقارنة مع ما يمكن أن يملكه جيش العدو من قدرات وتجارب خبرات، إن في الحيز البشري، أم في الحيز العسكري التقني.

تخدم حرب العصابات المعركة في بداية الطريق، وتشكل أسلوباً لا مفر منه بين قوى تعتمد المبادرة الفردية، وأخرى تمتلك الجيوش والسلاح والدول، لكنها يجب أن تخطط وتتجأ في النهاية إلى الحرب النظامية حيث كل الأمور مدرستة بقياسات علمية، وبشروط تقنية يفترض أن تكون موجودة في المدارس العسكرية، وهي تتطور وتتقدم أيضاً في مواجهة حرب العصابات التي يصعب أن تهزم، لكن يصعب أن تتصرّف النصر النهائي إذا ظلت معتمدة على الشكل الأنثاري.

كما إنه يفترض بالقوة العسكرية أن يكون لها هدف تقاتل من أجله. وإذا كان هذا الهدف هو الاحتلال السوفيتي لأفغانستان، والاحتلال الأميركي للعراق، لكنه زال بانسحاب السوفيافي والأمريكي، ولم يبق أمام مقاتلي الحركة الجهادية شعار تعبئة يقاتلون من أجله. ولا يكفي السعي غير المعلن بالحصول على موقع في السلطة هدفاً صالحًا للجهاد والقتال والتضحيات الكبيرة، بلogaً إلى نصر محقق. ومن هنا، نرى أن آفاق التنظيمات الجهادية مقلعة، ومحكومة بما ستؤول إليه الاتفاقيات الإقليمية

والدولية من حلول، مهما طالت، ويرجح أن تكون هذه الحركات أهمّ  
أئمانها.

# انحراف الفئات الشابة في جماعات العنف المتطرفة: دراسة حالة تونس وليبية<sup>(1)</sup>

الأستاذ نواف صديق<sup>(2)</sup>

بالنسبة إلى ظاهرة العنف التكفيري، أتصور أن بروز هذه الظاهرة مرتبط ارتباطاً وثيقاً جداً بأزمة الدولة في منطقتنا، أزمة الدولة القطرية كما نعرفها، ويمكن أن نسميها دولة ما بعد ساينكس ييكو، هذه الدولة هي وريثة الاستعمار؛ لكنها كذلك وريثة حركات التحرر ووريثة أشياء كثيرة متناقضة أحياناً.

هذه الدولة في منطقتنا تمر في أزمة عميقة جداً، وأظن أننا في ذروة هذه الأزمة، وأظن أن هذه الأزمة هي نفسها موجودة في إطار أعم من أزمة الدولة القطرية أو الدولة القومية الحديثة، ليس في منطقتنا فقط؛ بل في العالم بشكل عام.

تُعقد في العالم كلهاليوم وبوتيرة سريعة جداً عدد من الندوات الفكرية عن موضوع العنف، أحياناً تختلف التسمية، فثمة من يسمّيها حركات التكفيرية وثمة من يسمّيها إرهابية وثمة من يسمّيها راديكالية...

---

(1) ملاحظة: لم يقدم الباحث ورقة مكتوبة، ولذلك اعتمدنا التسجيلات الصوتية مع صياغتها بما يتاسب مع طبيعة النص المكتوب.

(2) باحث في الشؤون السياسية، رئيس جمعية المقدمة، من تونس.

ربما تعقد في الأسبوع نحو ثلات أو أربع ندوات في كل بلد عن هذا الموضوع. والمنظمون هم من الأصناف والتوجهات المختلفة. حالياً تنتج الدول الغربية عدداً كبيراً جداً من هذه الندوات تحت تسمية جديدة جاءت ما بعد تسمية مكافحة الراديكالية فأصبحت الآن مكافحة التطرف العنيف. ومن نحو شهر ألقى ديفيد كاميرون خطاباً حول الموضوع، وقال إنه يجب أن نغير من سياستنا وأن لا نكافح التطرف العنيف فحسب؛ بل كذلك التطرف غير العنيف الذي يولّد بدوره التطرف العنيف. طبعاً كل من ينظم هذه الندوات ليس له الدوافع نفسها وليس له الطبيعة نفسها.

يسألوننا في تونس كيف نكافح الراديكالية والتطرف العنيف؟ وفي كل مرة نحاول أن نحدد ما ينبغي أن نتكلم عنه، ما هي هذه الراديكالية وما هي السمات الأساسية المؤسسة فيها، يعني ما هو عرضي وما هو أساسي؟ هل إن أشكال العنف التي نراها فيها اليوم هي مكون أساسي في طبيعتها أم عنصر عرضي تحدده الظروف الجغرافية والسياسية أو غيرها. إذا حاولنا أن نتجرد تماماً من مواقفنا السياسية، وإذا تجردنا من كل شيء نجد أنه في هذه المساحة الكبيرة التي نسميها الحركات التكفيرية أو الحركات الجهادية أو السلفية الجهادية الجديدة أو غير هذا، ثمة تمظهرات مختلفة جداً. توجد حتى حركات تعتبر نفسها مكوناً وتنتهي للتيار نفسه الذي يضم القاعدة وتنظيم الدولة وغيره، لكن لا تمارس العنف ويقول بعضها إن الأرض التي أنا موجود فيها ليست أرض جهاد، بل هي أرض دعوة وأقوم بعمل دعوي واجتماعي. إذا سحبنا من ممارسته أشكال العنف الإجرامية والبشعة جداً يصبح شيئاً آخر، يعني يمكن أن يكون متميناً لهذه المساحة من دون أن يمارس هذا الشكل من العنف.

في سياق تقديم إجابة عن التساؤلات السابقة يمكن أن نقول إن ما يجمع هذه الحركات كلها هو أنها لا تعرف وتناهض النظام الإقليمي القائم على الدولة القطرية، الدولة القومية التي نعرفها. إذن لا تعرف بأسس هذه

الدولة التي تريد احتكار العنف الشرعي؛ بل بعضها يعتبر أن العنف الشرعي حكر عليه مثل داعش. لا تعرف هذه الحركات بالحدود الجغرافية التي هي من أسس الدولة ومكوناتها، ولا تعرف بموضع السيادة الوطنية التي تترجمها الحاكمة الوطنية أو الشعبية.

نحن نرى في الميدان أن ظهور هذه الحركات بكثافة وقوة يكون في المناطق التي تصل فيها أزمة الدولة إلى درجة وذروة كبيرة جدًا. بالنسبة إلى تونس يسأل بعضهم لماذا هي التي تصدر أكبر عدد من الشباب إلى ما يسمّونه بؤر التوتر، فمع أن مساحة تونس صغيرة إلا أنها من أوائل الدول في تصدير الشباب نسبة لعدد سكانها. هذا ليس شيئاً جديداً، هي ظاهرة تاريخية يجب دراستها. الجيل الذي عمره خمسون سنة في تونس حالياً هو الذي يتتصدر الأحزاب السياسية. عدد كبير جدًا منهم تدرّب في مخيمات لبنان. في آخر تبادل جثث وأسرى كان عدد التونسيين الذين استرجعواهم حزب الله من الصهاينة كبيراً. لماذا هذه الكثافة ولماذا نجد قدرًا من التأييد الواسع جدًا لهذه الحركات في تونس؟

أنا أزعم أن قسماً كبيراً من الشباب التونسي في تونس ممكّن أن يكون غداً منخرطاً أو مؤيداً لهذه الحركات، في حين أن تونس ليست البلد الأقل استقراراً ولن يستقر البلد الذي يمكن أن نقول إن الدولة فيها في أكبر أزمة، ثمة أزمات في ليبيا وفي أماكن أخرى، توجد في تونس حالة يمكن أن تعتبرها مفارقة، حيث تعتبر النجاح الوحيد لما سمي الربيع العربي ووُجِدَت صيغة استقرار نسيبي. وصيغة الاستقرار هذه كانت من خلال معادلة صعبة جدًا وجدنا فيها أن الفرقاء السياسيين الأساسيين المتنازعين تحالفوا وكوّنوا ائتلافاً حكومياً يحكم حالياً ويحظى بالتأييد، حزبُ يُعتبر تواصلاً للنظام السابق وحزب إسلام سياسي، شكلوا حكومة لها أغلبية برلمانية واسعة جداً ممكّن أن تعتبر أنها حكومة من دون معارضة. وهذه المعادلة كانت الشرط لإبقاء الاستقرار في بلد وضعه الاقتصادي كارثي وفيه تهديدات إقليمية

وأمنية كثيرة. لكن الوجه الثاني لهذه المعادلة هو أن أشكال عدم الرضا أو السخط الذي نجده في المجتمع لا يجد لنفسه تعبيراً في الساحة السياسية وفي الحكم وتعتبر أن الدولة ككل غريبة عنها. توجد الآن في تونس قطاعات كبيرة من المجتمع ومن الشباب يعتبر أن هذه الدولة دولة غريبة وأنه يعيش خارج الدولة، وموضوع إيجاد خطاب بديل عن هذا الشكل هو الشيء الأساسي الذي يمكن أن يجذبه.

عشنا في تونس تجربة مهمة جدًا هي تجربة جهادية جديدة. حركة أنصار الشريعة التي وجدت في تونس قبل أن توجد في اليمن ثم في ليبيا، أنصار الشريعة حالياً يُعتبرون في إطار القاعدة، حاولت أنصار الشريعة أن تؤسس لنمط جديد لهذه المجموعات الجهادية أو التكفيرية أو سمعها كما شئت والذي هو ليس نمطاً طلائعاً وليس حسب مقوله الفرقة الناجية الصغيرة التي تواجه باقي المجتمع. حاولت أن تحدث حركة جماهيرية وأن تؤسس لكي لا تصبح فرقاً طلائعاً تقوم بحرب عصابات معزولة عن بقية المجتمع؛ بل حاولت أن تكون مؤسسة لمجتمع يحمل قيمها. توجد اليوم مفارقات بين القاعدة وتنظيم الدولة. داعش حاول أن يؤسس مجتمعاً مجاهداً وفق عباراتهم، وهذا من خلال تنظيرات ومن خلال قواعد إجرائية واضحة جدًا ممكن أن نجد فيها كيف تعامل مع المناطق التي نسيطر عليها. المناطق المحررة نفتح فيها مجموعة من السياسات ومن المكاتب، مكتب الخدمات ومكتب الاستابة ومكتب الحماية والأمن. أرادت هذه الدولة تأسيس دولة راعية بديلة عن الدولة القطرية. في تونس ثمة أسباب عدّة لانخراط الشباب في هذه الحركات: السبب الأول وفق ما يقولونه حسب وعيهم، وقد يكون وعيهم مشوهاً، هو الارتفاع وهو قيمة أساسية بكل أشكالها بالنسبة إليهم، هؤلاء شباب يعيشون في ظروف وشرط يعتبرونها دون ظروف حياة كريمة وشروطها، يعتبرون أنهم مهانون كالحيوانات، وأن هذه فرصة كي يصبحوا مجاهدين وأن يرتقوا روحياً ومالياً. بعضهم

يذهب مع عائلته لأنه قيل له أو اقتنع بشكل أو بآخر بأن الدولة تضمن حقوق الناس وتضمن كرامتهم من خلال أن الدولة تهيئ فرصة الزواج لمن لا يجد الفرصة فتعطيه وتساعده كي يتزوج ويؤسس عائلة. في مجتمعاتنا الشاب الذي يصل إلى عمر ثلاثين سنة وهو غير قادر على تأسيس أسرة ينظر إليه باحتقار. هم مقتنعون بأن تنظيم الدولة يساعدك كي يحقق نصف دينه وأن يتحول إلى مقاتل يصبح له قيمة حتى لو كانت هذه القيمة سلبية بالنسبة إلى بعض.

موضوع الارتقاء يحضر بكثافة في خطاب الشباب. وبودي أن أسرد نموذجاً هو مدينة «سرت» التي أصبحت معقلًا لتنظيم الدولة في ليبيا.

سرت كانت معلق العقيد معمر القذافي، فقبل سقوط طرابلس أراد القذافي أن ينقل العاصمة إلى سرت. سرت مكونة من مجموعة من القبائل من بينها قبيلة معمر القذافي. وتعرضت إلى قصف رهيب من الناتو، لأن القذافي التجأ إليها وتحديداً لحي سمي الحي رقم 2، وهذا الحي حماه في حين أن القبائل التي كانت موجودة هناك لم تكن مؤيدة للقذافي، وقد انقسمت وبالخصوص قبيلة «ورفلة»؛ لأنها عملت محاولة انقلاب عام 1993 وتعرضت لقمع كبير من نظام معمر القذافي. قسم من سرت كان مستعداً لأن ينضم إلى الثوار ضد القذافي في وقت من الأوقات لكن تدخل الناتو وقصف الناتو جعلهم يتّحدون ضد حلف الناتو وانهزموا في ما بعد أمام الهجوم. بعد ثورة ليبيا أصبحت المدينة مهانة ومنهزمة تعيش عقدة فرساي حسب تسمية بعض. بعد الثورة وجدنا أن كل مدينة في ليبيا تقريراًأسست ميليشيات وكتائب لتحمي نفسها وتدبر الأمان في ظل غياب المؤسسات ما عدا سرت التي اعتبرت مهانة وأنها آخر معاقل القذافي، ولم يُعط لها الحق حتى لأن تكون كتائب لضمان أمنها، وجلبوا شباباً من مناطق أخرى للعناية بالأمن فيها. وهؤلاء الشباب كانوا أكثر اندفاعاً في الثورة وكان يراد التخلص منهم. حصلت في سرت خلطة غريبة أُنجبت تنظيم الدولة من

خلال أشياء كثيرة مثل انقسام أنصار الشريعة من ناحية ومن خلال انضمام عدد من شباب القبائل التي كانت مع القذافي. الشباب الذي التحق بتنظيم الدولة كي يرتقي من حالة شباب مهزوم ومهان إلى مجاهد. الدولة كانت تقبل الاستئناف من كل الناس ويمكن أن يتحول الإنسان من إنسان مهان وذليل في بعض دقائق إلى إنسان متساوي مع المنتصر وأن تصبح له قيمة كبيرة ويصبح له مشروع.

حسب رأيي هذه ظاهرة لن تنتهي بعد بضعة أشهر، وهي ليست ظاهرة محدودة لا جغرافياً ولا تاريخياً، وسوف تتواصل ويجب أن تجد طريقة للتعامل معها، وطريقة التعامل تكون من خلال فهمها العميق وفهم ما لن يتغير فيها وما يمكن أن يتغير فيها؛ لأنه لا يمكن استئصالها، ولا يمكن أن تستأصل نصف الجسم على الأقل في بلدنا، قد لا ينطبق هذا على بلدان أخرى لكن عندنا نحن نرى حجم التأييد لمحتوى طرحتها الأساسي، عدم الاعتراف ومكافحة الدولة الحديثة القطرية التي يعتبرونها هي مصدر الإهانة والتبعية وغياب العدل وأنه يجب أن يوجد بدليل لها، هذا يحظى بتأييد واسع جداً وهذه التنظيمات ستواصل الاستفادة من هذا التأييد إن لم ت تعرض لهذا الموضوع بتبسيط أقل مما نفعل إلى حد الآن.

## **الجلسة الرابعة**

# **الإعلام وجماعات العنف التكفيري**

- كلمة رئيس الجلسة (الدكتور عبد الله بو حبيب)
- الاستراتيجية الإعلامية لداعش: الخطاب والقدرات والوسائل  
(الأستاذ الدكتور محمد محسن)
- وسائل الإعلام العربية والغربية وموقعها من التنظيمات الدينية  
والمتطرفة (الدكتور محمد علوش)



## كلمة رئيس الجلسة

الدكتور عبد الله بوحبيب<sup>(1)</sup>

يشكل الإعلام أهم الوسائل المساعدة لامتداد العنف التكفيري في هذه المنطقة وفي العالم. إن هذه المنظمات تستعمل كل وسائل التواصل التي ظهرت في القرن الحادي والعشرين لتنفيذ عادات وأهواء قد تكون مورست في الجاهلية. لكنها تمارسها باسم الإسلام مدعية أنها تبشر بالإسلام وتنشره. إن هذه المنظمات التي تکفر كل مختلف عنها في الدين والمذهب والتقاليد والعرف، تجد للأسف من يناصرها مادياً وإعلامياً في العالم العربي، فوسائل الإعلام في هذا القرن بتقنياتها كلها تستعمل الترهيب والتخويف والتجنيد والترغيب والتتمدد والتوسيع والتفجير والقتل والدمار.

---

(1) رئيس مركز عصام فارس للشؤون اللبنانية، من لبنان.



# الاستراتيجية الإعلامية لداعش الخطاب والقدرات والوسائل

الأستاذ الدكتور محمد محسن<sup>(1)</sup>

احتلت ظاهرة داعش الإعلامية اهتماماً واسعاً وتخطية كبيرة من الإعلاميين ووسائل الإعلام العالمية والعربية، ودرساً مفصلاً من العديد من الباحثين في مجالات علوم الإعلام والاتصال والعلوم الأخرى مثل: العلوم الاجتماعية، والعلوم السياسية، وعلم النفس الاجتماعي، وتكنولوجيا وسائل الاتصال الحديثة. ظاهرة إعلامية معقدة وسمت الإسلام بالصور السيئة، والشيطانية البعيدة عن الإسلام الحنيف، المتسامح العادل الرؤوف الرحيم، وجعلت من المسلمين إرهابيين ينشرون الذعر والخوف في المناطق التي يسيطرون عليها، عبر القتل الجماعي وارتكاب المجازر والتفنن في عملية القتل من تقطيع الرؤوس والأطراف والإغراف وكل فنون التعذيب، الذي يذكر بالعصور الوسطى في أوروبا، لا بل قد فاقتها إجراماً.

سيحاول هذا البحث أن يغوص في بنية الفكر الإعلامي لداعش عبر تسليط الضوء على أبرز استراتيجيات الخطاب الإعلامي لهذا الفكر

---

(1) مدير المعهد العالي للدكتوراه في الآداب والعلوم الإنسانية والاجتماعية في الجامعة اللبنانية.

السلفي عبر استخدام وسائل الإعلام التقليدية، والإعلام الجديد؛ للوصول إلى الجمهور المستهدف بتصنيفاته وتنوعاته. وتحاول أن تضع هذا الفكر في إطاره الديني -السلفي- التكفيري الذي يسعى إلى توظيف تقنيات العمليات النفسية لتحقيق أهدافه الإجرامية في مرحلة إدارة «التوخش». وهي أيضاً عبارة عن قراءة معقّدة في الأدبيات الإعلامية حول هذا التنظيم مع محاولة رسم خارطة طريق توضيحية للوسائل الإعلامية التي تمتلكها وتستخدمها.

## الإطار الوظيفي للحركات السلفية في الإعلام العربي

اعتبرت الحركات السلفية «الجهادية» التكفيرية في الفترة المترامية مع ما يسمى «الربيع العربي» حركات ثورية تهدف إلى المشاركة في تغيير الأنظمة الديكتاتورية في العالم العربي، وتسعي إلى اعتماد الحراك الإسلامي في البداية؛ للقيام بهذه المهمة، ومشروعية اعتماد العمل المسلح للرد على قمع السلطات في مرحلة لاحقة.

اعتبر الإعلام العربي وتحديداً الإعلام الخليجي أن عملية احتلال الموصل هو عبارة عن ثورة شعبية عادلة ضد الحكومة العراقية المركزية، وما يحصل من تمدد «لدولة الخليفة البغدادي» في سوريا انطلاقاً من الرقة، وصولاً إلى تدمر وبعض المحافظات ما هو إلا خير مصدق لدعم هذا الإعلام لهذه الأعمال الإرهابية، واعتباره بأن ما يحصل هو شكل من أشكال مقاومة الاحتلال كما حدث إبان فترة الاحتلال الأميركي للعراق.

لقد استغلّ الإعلام العربي الخليجي ووظّف هذه الحركات للإفادة السياسية والجيوسياسية، ولكن عندما تتجاوز هذه الحركات الحدود المرسومة لها كما حصل مع حركة طالبان بعد الانتهاء من الاحتلال السوفيافي لأفغانستان، تحولت من حركة مقاومة شرعية وقانونية إلى حركة

إرهابية يجب محاربتها والقضاء عليها، وكما يحصل الآن مع داعش في سوريا والعراق عندما انقلب على داعميها ومموليها الأساسيين<sup>(1)</sup>.

### الفكر الذي يحكم الاستراتيجية (إدارة التوحش)

الفوضى العارمة التي تعم بعض الدول العربية في مرحلة ما بعد «الثورات»، هي نتيجة رؤى وتصورات فكرية للجماعات التكفيرية وداعميها، الذين يسعون إلى النشر المقصود للفوضى في الدول التي تقع تحت نفوذها؛ لتحقيق مفهوم التوحش الذي تحدث عنه مطولاً أبو بكر ناجي في كتابه «إدارة التوحش»<sup>(2)</sup>.

ويعتبر أبو بكر ناجي أن «إدارة التوحش» هو عنوان المرحلة المقبلة للحركات الجهادية العالمية، وهي مرحلة تقع بين مراحلتين، الأولى: تطلق عليها هذه الإدارة «شوكة النكاية»، حيث تنشر المجموعات التكفيرية والجماهير المؤيدة لها الفوضى، وتوجه الضربات العسكرية، وترتكب المجازر والتفنن بعمليات القتل والتعذيب المنظمة والممنهجة والمتأتية ضد المؤيدين للنظام وللموالين له من مدنيين وعسكريين، وتغطيتها إعلامياً وعرضها عبر الميديا الحديثة؛ لتحقيق أقصى ما يمكن من «النكاية» للأنظمة والأقليات الدينية والعرقية.

والمرحلة الثانية: هي «شوكة التمكين» التي يتم خلالها إقامة الدولة الإسلامية المرتقبة. وما بين شوكتي النكاية والتمكين تسود مرحلة «التوحش»، حيث تساهم في خلق الفوضى العارمة، والعمل على انهيار

---

(1) عبد الحسين ياسر، الحرب العالمية الثالثة: داعش وال伊拉克 وإدارة التوحش، شركة المطبوعات للتوزيع والنشر، ط1، لبنان، 2015، ص1-48.

(2) أبو بكر ناجي، إدارة التوحش: أخطر مرحلة ستمر بها الأمة، مركز الدراسات والبحوث الإسلامية، (بلا) منبر التوحيد والجهاد.

المؤسسات الحكومية، وتدمير البنى الاقتصادية والثقافية، وسيادة شريعة الغاب عندها تسقط الدول بحالة من اللااستقرار (كما في سوريا والعراق ولبيا)، وتُتعزّف السلطة المركزية مما يمكن المجموعات التكفيرية من السيطرة على مزيد من الجغرافيا؛ لتشكيل مناطق آمنة لهم يحكمونها؛ تمهدًا لإقامة دولة الخلافة<sup>(١)</sup>.

### العمليات النفسية في مرحلة التوحش

أصبح من المعروف أن العنف والرعب الذي تبَثّه الحركات الإسلامية المتطرفة مثل: داعش والنصرة، هو عبارة عن ظاهرة إعلامية تهدف إلى تأصيل الخطاب المتطرف ووضعه في إطار من الجاذبية الإعلامية، التي تعتمد على الإرهاب والقتل؛ ليبدو أشبه بمادة إعلامية تختصر عناصر القوة والسيطرة على الآخر في قالب جذاب يحاكي التقنيات الحديثة في الإنتاج التلفزيوني والسينمائي. فالقاعدة من قبل والنصرة وداعش لاحقاً يمتلكون منظومة من الوسائل الإعلامية والإعلاميين المنضوين تحت لواء هذه التنظيمات؛ لإعداد وإنتاج وتوزيع محتوى إعلامي عالي الجودة في الصناعة الإعلامية، وذي مضمون دعائي يهدف إلى شرعنة خطابهم الإعلامي المتطرف الموجّه إلى أنصارهم وإلى العالم، ويساعدهم في هذا الأمر وسائل الإعلام العربية والغربية عن قصد أو غير قصد لكي يصل صوتهم وصورتهم إلى الجميع<sup>(٢)</sup>.

وداعش لا تختلف عن القاعدة في هذا المجال خاصة في استخدام عنصر الصدمة (القتل بطريقة بشعة جديدة ومبكرة) للحصول على

---

(١) المصدر نفسه

<http://www.Tawhed.ws/ala=chr3 of2r>.

(٢) A.N Awanand M. Al-Lami. «Al-Qaida Virtual crisis», The Russijournal,2009,154/1,P56-16.

أوكسيجين<sup>(1)</sup> الدعاية؛ لنشر مواقفها وأفعالها ولخلق حالة من الربع العالمي لفت الأنظار إليها. وهنا روجت وسائل الإعلام العالمية والعربية لهذه الصورة العنيفة للإسلام، ويوجد بعض الباحثين مثل ياسر عبد الحسين الذي يعتبر أن ثمة سياسة إعلامية مقصودة من قبل العديد من الفضائيات العربية للترويج للأعمال العنيفة والتهويلية للجماعات التكفيرية الإرهابية؛ وذلك يظهر من خلال الإطالة الإيحائية والترميزية في التغطيات الإعلامية، وإظهار أعماله الإجرامية في إطار الثورة والمقاومة وتقديم آراء وتحليلات تدعم وجهة نظرهم، وتبرر أعمالهم ضد الجماعات المختلفة معهم، وتتقدّم إجرامهم بطريقة ناعمة ومحففة.

أصبح مجرد ذكر اسم تنظيم «داعش» في المجتمعات العربية والغربية مثيراً للقلق لدى جمهور وسائل الإعلام، وهو يخلق حالة من الفزع في أوساط السلطات الرسمية والأقليات الدينية والعرقية في العراق وسوريا ومصر، وهذا يعود إلى براعة هذا التنظيم الإرهابي في توظيف العمليات النفسية المتعددة المفاهيم والوسائل من دعاية عامة، وحرب نفسية، وغسل أدمغة، وإطلاق الشائعات، والمبالغة والتضخيم والكذب والتشويه عبر استخدام وسائل التواصل الاجتماعي الجديدة، مثل: توiter وفايسبوك وأستغرام وتيوب وغيرها، وعبر القيام بأفعال جرمية ضد الأسرى والأبرياء أمام عدسات الكاميرا بطريقة لم تشهدها البشرية في العصر الحديث<sup>(2)</sup>.

أصبحت العمليات النفسية في الوقت الحاضر من الاستراتيجيات والسياسات الإعلامية في الحروب والأزمات لدى الدول والجيوش

(1) A. Hoskins & B. Olauglin, **War and Media: The Emergence of Dif-fused War**, Cambridge, Polity press, 2010, p145-160.

(2) سالم، مصطفى، «تحديات جديدة: كيف تواجه الدول العمليات النفسية؟»، مجلة: مفاهيم المستقبل، العدد 12، 2015، ص14-16؛ عبد الفتاح معذري بالله، «العمليات النفسية: أبعادها وكيفية إدارتها وتطبيقاتها»، مجلة: مفاهيم المستقبل، عدد 12-2015، ص14-16.

والجماعات والتنظيمات والأحزاب والمنظمات الإرهابية، وتنظيم «داعش» يستخدم العمليات النفسية في إطار التناقضات والاختلافات والفروقات لإثارة التوترات العرقية والطائفية والمذهبية تحديداً في العراق وسوريا؛ لإعادة تشكيل اتجاهات الرأي العام في تلك البلدان وفق سياسات العنف واللين، العنف والإرهاب مع الجماعات المعادية، واللين مع المؤيدين.

وكما يعبر أحد الباحثين أن ما تقوم داعش به وغيرها من الجماعات السلفية التكفيرية في المنطقة العربية، هو عبارة عن «الجيل» الرابع من الحروب وإرهاصات لظهور «الجيل الخامس»، والتي تستهدف تفكك المجتمعات من الداخل؛ وذلك تحقيقاً لمصالح أطراف خارجية، و«مفهوم» العمليات النفسية يعدّ من المفاهيم المصاحبة لهذين الجيلين الأخيرين من الحروب، وهذا يقودنا إلى نظرية أن ما يحصل في العالم العربي من حروب واضطربات هو أكبر بكثير من قدرة طرف واحد بعينه على نشر تلك الفوضى العارمة في الدول العربية، وهو بحاجة إلى دعم خارجي لكي يقوى ويستمر ويمارس حروبه النفسية ضد الأطراف الأخرى<sup>(1)</sup>.

وهذه الحروب لا يمكن أن تتحقق التأثير الكبير في الأفراد والجماعات إلا إذا كانت توجد فجوات مجتمعية ومشاكل مركبة ومتوازية تجعلها تربة خصبة لممارسات العمليات النفسية بنجاح، ويعبر عنها أحد الباحثين في هذا المجال بنقاط الضعف الخمس: توحش التحضر، وتفاقم الانقسامات الاجتماعية، والعنصرية الثقافية، وعزلة المجتمعات الحدود وضعف الثقة الاجتماعية<sup>(2)</sup>.

---

(1) تشومسكي نعوم وآخرون، العولمة والإرهاب: حرب أميركا على العالم، ترجمة: حمزة المذيلي، القاهرة، مكتبة متولي، 2003.

(2) L. BrigitteNacos, **Terrorism and the Media**, New York, Colombia University, 1994.

## مفهوم العمليات النفسية في إدارة التوحش الإعلامي

يشير مفهوم العمليات النفسية إلى (Psychological Operations) إلى القدرات والأساليب المستخدمة الموجودة لدى الجهة القائمة بعمليات الحرب النفسية، حيث تستخدم المعلومات الكاذبة والمفبركة والمضللة والصور المشوّهة ونشر الإشاعات؛ للتأثير بأراء الجمهور المستهدف من مدنيين وعسكريين والتلاعب بإدراكاتهم؛ تمهدًا لتغيير سلوكهم بما يتناسب مع مصالح الجهات القائمة بالعملية الدعائية وأهدافها.

يلجأ تنظيم داعش إلى استخدام كل المفاهيم المتعلقة بالتأثير على معنويات الطرف الآخر مع خصوصية توظيف فطاعة عمليات القتل التي تُنقل كما هي دون تدخلات كثيرة في كثير من الأحيان على مستوى المادة الخام للحدث، وهو يركّز على جانبيّن أساسيين من جوانب العمليات النفسية:

أولاً: الدعاية بأشكالها المتعددة، ولا سيما الدعاية السوداء، حيث تُستخدم فيها الوسائل الإعلامية التقليدية خاصة الإذاعة والتلفزيون والسينما والصحف والمجلات، والوسائل الإعلامية الحديثة، وهي تهدف إلى إلحاق الهزيمة المعنوية بالأفراد والجماعات التي توجه إليهم وفق أساليب مدرورة ومنظمة.

ثانيًا: الشائعات حيث تزدهر في المجتمعات المغلقة، ويتضاعف تأثيرها في البيئة التي يسودها الاحتقان والفوضى والأعمال الوحشية وقلة الوعي من تدمير للحجر وقتل للبشر، وهي بالتعريف العلمي: القصص والروايات التي يتناولها أفراد المجتمع دون أن يكون مصدرها معروفاً أو موثقاً، وهي لا تستخدم التحليل المنطقي للأمور<sup>(1)</sup>.

---

(1) - صلاح نصر، الحرب النفسية.

## **الأهداف الاستراتيجية للعمليات النفسية**

تقوم الجهة المتخصصة في تنظيم داعش بتطوير أساليب إعلامية جديدة، وابتداع طرق مؤثرة في المجتمعات المضطربة التي تتوارد فيها، أو تسيطر عليها لتحقيق أهدافها، وهي تتلخص بالأهداف الاستراتيجية الآتية:

- **تقويض المجتمعات من الداخل:** هنا يمكننا وصف ما يحصل في دول ما يسمى الربيع العربي بأنه تقويض من الداخل؛ خدمة لأهداف خارجية.

- **إثارة الفتنة الطائفية والمذهبية:** إثارة الخوف من الآخر الشريك في الوطن والتشكيك والرفض لمعتقداته وأفكاره وشراكته؛ تمهيداً لإقصائه عن المجتمع، وإلغائه من الوطن، وهذا ما يحصل مع المسيحيين والأيزيديين والعلويين.

- **اصطناع الشرخ ما بين السلطة والمواطنين:** وهذا يتم عبر زرع بذور الشقاق بين السلطة السياسية والعسكرية والمواطنين، عبر اتهام السلطة بشكل مكثّف ومكرر أنها سلطة فاسدة لا تهتم سوى بالمحاذبين وأصحاب رأس المال المقربين منها، وتجاهل الفقراء، وتقوم بقمعهم وزجّهم بالسجون، ولا سبيل للنجاة إلا بالخلص من هذه السلطة «الظالمه» و«الكافرة» عبر إزالتها والحلول مكانها؛ لخدمة الناس وتحقيق رفاهيتهم الاجتماعية ومطالبهم الحياتية.

- **ضرب الوحدة الوطنية:** بين مكونات المجتمع؛ تمهيداً للإلغاء التعددية الحزبية، والسياسية الإعلامية الموجودة؛ للحلول مكانها بأفكارها ومعتقداتها التي تعتبرها هي لصالح المجتمع وخدمة الناس.

وللوصول إلى هذه الأهداف الاستراتيجية تسعى الجماعات الإرهابية

ومنها داعش إلى الحصول على التغطية الإعلامية المكثفة لأعمالها ونشاطاتها وذلك من أجل:

1- الحصول على الانتباه والاهتمام والرعاية الإعلامية وفق المتطلبات، والتعريفات، والقيم المهنية الإعلامية الغربية من خلال نشر الذعر والرعب، وخلق حالة دائمة من انعدام الأمن والاستقرار، والفووضى في المناطق التي تسيطر عليها، وتحكمها بالحديد والنار.

2- الحصول على الاعتراف بنفوذها وسيطرتها، والمطالب التي تنادي بها، والقضايا التي تشكل أولوياتها.

3- الحصول على احترام إرادتها في التغيير الاجتماعي بالقوة، أو باللين في المناطق التي تحكمها، واكتساب المشروعية الدينية والاجتماعية<sup>(1)</sup>.

وهنا يمكن الإشارة إلى أن تنظيم داعش يلتقي مع القاعدة وجبهة النصرة من حيث إنهم يريدون التغطية الإعلامية والاعتراف بهم، ولكنه يختلف معهم بأنه لا يولي اهتماماً كبيراً للصورة الذهنية التي يكرّونها الآخرون عنه<sup>(2)</sup>.

## الخطاب الإعلامي الاستراتيجي لتنظيم داعش

كما في كل المفاهيم في العلوم الإنسانية والاجتماعية والإعلامية يوجد تعدد في المرجعيات النظرية، والحقول المعرفية؛ لتعريف مصطلح الخطاب، ولكن التفسير الجامع بشكل عام هو أسلوب معين للتتحدث عن الواقع الذي يصطنعه أحياناً بعض الأفراد والجماعات لعرض أو لتفسير

---

(1) المصدر نفسه، ص54.

(2) F. Irshaid, **How ISIS is spreading its message online, BBC monitoring.**  
<http://www.bbc.com/news/world-middle-east-27912569>.

العلاقات الشائكة والرموز القائمة، بحيث يقدّمون صورة معينة و الخاصة عن فهم الواقع الاجتماعي، وهو أيضًا مجموعة من النصوص مثل: اللغة والصور والأفلام والفيديو والموسيقى والأناشيد؛ لتقديم وجهة نظر معينة حول الأحداث والممارسات الخاصة<sup>(1)</sup> عبر النصوص والرموز وأشكال الصناعات التقنية والجمالية والنفسية والثقافية والدينية، ويمكن تحديد معالم الخطاب الإعلامي الاستراتيجي لتنظيم داعش بالأسس الآتية:

### 1- خطاب التغيير الجذري لإقامة دولة الخلافة

وهذا الأساس في أدبيات التنظيم الذي يسحر الخطباء ورجال الدين المتشددين المنضوين تحت لوائه؛ للتنبّه للفكرة الخلافة وأهميتها بالنسبة إلى المسلمين في مواجهة الآخرين، وأهمية وجود الخليفة أبي بكر البغدادي على رأس هذه الدولة.

وأهم خطاب بـه إعلام داعش وتناقلته الوسائل الإعلامية الأخرى، هو الخطاب الملخص بشعار «باقية وتمدد» (Remaining and expanding). وهو الذي يعد من الاستراتيجيات الكبرى لمرحلة «شوكة النكبة». ولا يمكن عزل هذا الخطاب عن ثانية «المؤمنون والمجاهدون» في مواجهة «الكافرون والمرتدون»، أي بالتعبير السوسيولوجي خطاب «نحن» و«هم»، و«أنا» و«آخر».

### 2- خطاب القوة والسلطة

أي شكل من أشكال الحكم الديمقراطي أو غير الإسلامي يجب مواجهته بالقوة، وتحديداً بالعمل المسلح المباح الخارج عن استخدام ضوابط القوة المفرطة والمت渥حشة، مقدمة لتحقيق النصر واستلام زمام

---

(1) محمد الراجي، أبعاد إيديولوجيا الخطاب الإعلامي لتنظيم الدولة الإسلامية، مركز الجزيرة للدراسات، ص 3-2.

السلطة في المناطق التي يسيطرون عليها؛ وتمهيداً لإنشاء دولة الخلافة، والسيف هو الرمزية الأساسية للقوة والسيطرة، وهذا الخطاب موجّه إلى كل من لا يعمل ضمن تعاليم دولة داعش بالأخص ضد الكافر والمرتد، والعميل والرافضي، والنصريري والصفوي.

### 3- خطاب الترهيب وإثارة الرعب

يعتمد تنظيم داعش على «نظرية الرعب» التي نظر لها، واعتمدتها الكثير من الأنظمة الديكتاتورية والقادة السلطويين في العالم، وهي تهدف إلى خلق صور ذهنية لدى جمهور وسائل الإعلام مليئة بالقتل والذبح والتقطيع والحرق والتفسير والإعدام والإغراق والسب والاغتصاب والرمي من شاهق وتدمير الحضارة والأثار وتغيير الكنائس والأضرحة والمعابد والآثارات التاريخية والخطف والاعتقال والتهجير والمجازر الجماعية.

فلعة الإرهاب والعنف والدم التي تستخدم في سياق العمليات النفسية لداعش ضد الأعداء والمخالفين، لا تُصنع خارج السياق الإعلامي الفني الجذاب.

الصناعة الإعلامية الجيدة والمكونات البصرية المؤثرة، والسينما السريدي والموسيقي تساهن في نشر الرسالة الإعلامية المتقدمة إلى الجمهور المعارض والمؤيد في الوقت نفسه.

إن فيديو إعدام الطيار الأردني معاذ الكساسبة حرقاً، وفيديو إعدام الأقباط المصريين في ليبيا، ومؤخراً فيديو حرق أربعة من عناصر «الحشد الشعبي» العراقي الذي يقاتل إلى جانب القوات المسلحة العراقية، حيث يرتدون الزي البرتقالي، وهم مقيدون بأيديهم وأرجلهم في هيكل حديدي والنار تندلع أسفلهم قبل أن تبدأ بالتهمهم<sup>(1)</sup>، ما هي إلا حلقة من حلقات

---

(1) -جريدة السفير اللبنانية، العدد 13160، 9/9/2015.

خطاب بـث الرعب، المشغول على طريقة الإنتاج الدرامي السينمائي الهوليودي. وهذه الجرائم الإرهابية المرعبة لا تحصل عن عبث، ولا تنتج عن أعمال فردية مرتبطة بمجموعات تكفيرية فحسب، بل هي نتاج لإيديولوجيا إجرامية تجيز الفتاك والقتل والتشريد تحت غطاء مسوغات دينية وشرعية بمفهوم تنظيم داعش.

فالشعار الذي ترفعه تلك المجموعات الإرهابية «نصرت بالرعب»، هو شعار ديني، ولكنه أخذ إلى غير مفهومه وتطبيقاته ومجالاته.

وهو لاء الذين يطبق عليهم داعش ما يسمى «الأحكام الشرعية» بالقتل، أو القصاص يخضعون «للشيطنة» المطلقة قبل تنفيذ عملية قتلهم بوحشية، وتتضمن عملية الشيطنة حملات من التشويه الإعلامي، معتمدين الأوصاف الآتية مثل: «أعداء الله»، «أعداء الإسلام»، «مرتد़ين»، «عملاء أميركا»، «الرافضة»، «الكفرة»، «المترنقة»، «الخونة»، «عملاء النظام»، «الجيش الصفوی»، «حزب الالات»<sup>(1)</sup>.

#### 4- خطاب الحقد والكراهية

الحقد والكراهية ضد الآخر المختلف في الدين والمذهب والعقيدة والاتمام الفكري يتمظهر بأشكال وأساليب متعددة، وبطريقة منظمة في الإنتاج الفكري والثقافي والإعلامي لداعش، عبر وسائله الثقافية والإعلامية الخاصة، أو عبر الميديا الجديدة، أو عبر التغطيات الإعلامية التقليدية.

يتوجه خطاب داعش إلى نوعين من الأعداء، أو لاً: العدو البعيد المتمثل بالغرب الصليبي وحلفائه في العالم والشرق الملحد، وثانياً: العدو القريب،

---

(1) كامل القيم، «حرب الرموز وتسويق مثيرات العنف والإرهاب رؤية في تسويق الدعاية وال الحرب النفسية لتنظيم داعش»، مجلة: حمورابي للدراسات، العدد العاشر، تموز 2014،

ص.87-117

وهذا يشمل مروحة واسعة من الأعداء، منهم: أعون الصليبيين من أنظمة وسلطات وجماعات متنسبة إلى الأفكار والمفاهيم الليبرالية، والنصارى المشركين، والمرتدin والأقليات الدينية من دروز وعلويين وأيزيديين وأشوريين وشيعة رواضخ أصحاب الاعتقاد المنحرف والضال والخارج عن الإسلام حسب معتقداتهم، والفارسي المجوسي الصفوی الكافر.

فحلقات التدريس الخاصة بالتنظيم وأفراده وإنتاجهم الإعلامي تذخر بهذه الإيديولوجية التحررية، القائمة على رفض « الآخر » كلياً، وإزالته إذا استطاعوا من الوجود، والعملية الإعلامية الموجهة لجمهور داعش تحديداً في سوريا والعراق ودول الخليج ليست بحاجة إلى عملية إقناعية توظّف فيها تقنيات الإقناع للوصول إلى عقول هؤلاء، بل هي بحاجة إلى أساليب وتقنيات جديدة في إطار « العمليات النفسية »، وتحديداً في عملية غسل الأدمغة؛ للوصول إلى مبتغاها وتحويل هؤلاء المستقبليين إلى شعلة من الكراهية ضد « الآخر »، وتوجيههم وإرشادهم ليتحولوا إلى أدوات قتل وإرهاب باسم الدين.

## 5- خطاب التغيير والعدالة والرفق واللين والتسامح

وإن كان هذا النوع من الخطاب مستغرباً لدى تحليل منظومة القيم التي يؤمن بها تنظيم داعش، إلا أنه موجود ويمارس في بعض الأماكن التي يسيطرون عليها من أجل كسب معركة العقول والقلوب للمؤيدين، وإعطاء صورة مغايرة للمحايدين، عنوانها: « الإنسانية والعدالة والتسامح »، وبعض هذا الخطاب موجّه إلى الغرب حيث يدمج الخطاب الإنساني مع رموز ثقافية غربية منها ما هو مرتبط بالأغذية والمواد الاستهلاكية<sup>(1)</sup> (مثل

---

(1) Islamic state pushes social media with jihadists posing with jars of Nutella.

<http://www.wsj.com/articles/isis-pushes-social-media-battle-with-west-1408725614>.

شوكولا نوتلا وسنيكرز)، ومنها ما هو مرتبط بالرفق بالحيوان والعنایة به (طائر أبو منجل).

ويمكن تلخيص المضمون «الإنساني» الوهمي لهذا الخطاب بالنقاط الآتية:

- هو حركة دينية للتغيير نحو الأفضل.
- إقناع المسلمين بأن المعركة التي يخوضونها لإقامة دولة الخلافة العادلة هي واجب شرعي ، وعلى كل مسلم أن يسعى لإنقاذه<sup>(١)</sup>.
- التنظيم رائد في تطبيق مبادئ العدالة الاجتماعية.
- التنظيم يعامل جنوده ومقاتليه معاملة حسنة وفق التعاليم الإسلامية الأخلاقية، ويتراءرون ويتراحمون.
- التنظيم يعامل النساء والأطفال والكهول المنضوين تحت لوائه معاملة مواطني الدولة الإسلامية من حيث الرعاية والاهتمام والتعليم.
- التنظيم يساعد الفقراء والمحتاجين ويرعاهم ويؤمن لهم الحياة الكريمة، ويوزع عليهم المساعدات المالية.
- التنظيم يرفق بالحيوانات، ويعتنى بها لا سيما القطط والطيور، وهذا ما ظهر عبر موقع التواصل الاجتماعي من فيديوهات وصور تظهر اهتمام أعضاء التنظيم بالطائر النادر في العالم والمهدّد بالانقراض «أبو منجل» إثر اجتياحهم لمدينة تدمر الأثرية<sup>(٢)</sup>.

---

(1) P. James Farewell, «The media strategy of ISIS» in Survival: Global politics and strategy, dec. 2014-Jan 2015, V56, p49-55.

[http://www.isis.org/en/publication/survival/Bectrons 2014- 4667.](http://www.isis.org/en/publication/survival/Bectrons 2014- 4667)

(2) جريدة السفير اللبنانية، «إعلام داعش: صور الدمار الحصريّة»، العدد 65131، آب 2015.

- التنظيم يمتلك قدرة عالية على حكم المناطق التي يسيطر عليها، ويتقن تنظيم وتسخير أمرها، ويستطيع أن يملأ الأسواق بالمواد الغذائية والخضار والفاكهه، ويؤمن مقومات العيش الكريم، كما إنه يستخدم أسلوب الترفيه من خلال الاحتفالات الدينية والعروض والرحلات السياحية<sup>(١)</sup>.

## الوسائل الإعلامية التي يستخدمها تنظيم داعش

تتلخص الاستراتيجية الإعلامية التي يستخدمها داعش لممارسة حملاته الإعلامية، ولشنّ عملياته النفسية، والإبراز إنجازاته العسكرية والميدانية بثلاث حزمات من الوسائل.

أولاً: الوسائل الإعلامية التي يمتلكها.

ثانياً: الوسائل الإعلامية التقليدية.

ثالثاً: الميديا الاجتماعية.

ولكل حزمة من هذه الوسائل وظائف وأدوار يكمل بعضها بعضها الآخر تبعاً لقدرات التنظيم في التسويق والعلاقات العامة والإنتاج الإعلامي الجيد، وترتبط بخصوصيات الوسيلة والجمهور الذي توجه إليه.

### ١- الوسائل الإعلامية التي يمتلكها داعش

يمتلك تنظيم داعش عدداً من الوسائل الإعلامية التقليدية والشعبية ومن هذه الوسائل:

- إذاعة «البيان» التي تغطي الكثير من المناطق في العراق وسوريا، وهي تبث بشكل دائم خطب «الخليفة» البغدادي، ونشرات إخبارية محلية

---

(١) نبيل شوفان، «وزارة إعلام داعش: منظومة الترويج الفني وال الحرب النفسية»، موقع صحيفة العربي الجديد، 29 آذار 2015.

على مدار الساعة ترکز فيها على الانتصارات التي حققها التنظيم وأخبار عالمية ترکز على الحروب «الصلبية» التي تشن ضد داعش ومناطق سيطرتهم، وهي جزء أساسي من العمليات النفسية التي يشنّها التنظيم ضد العدو القريب والعدو البعيد.

- قناة «الخلافة»، وهي قناة تلفزيونية ضعيفة الإنتاج الإعلامي إلا أنها تعتمد على نشرات الأخبار والصور والأناشيد الدينية والتعبوية لتحريض «المؤمنين على القتال»، ولتدعم الجبهة الداخلية في مواجهة الحملات الجوية الغربية، ومحاولات النظام (العربي والغربي) في السيطرة على المناطق التي يحتلّونها. يبث التلفزيون ثلاثة أنواع من الصور الإعلامية: القوة والثبات، المقاتلون الأشاؤس، والنصر المؤزر.

- مجلة «دابق»، تصدر باللغات العربية والإنكليزية والفرنسية، وهي تنشر مقالات وآراء وتحليلات لسلفيين عرب وأجانب متبنين للتنظيم، يناقشون الفكر الإسلامي «الجهادي» المتطرف ويتوّجهون إلى المجتمعات الغربية بعقلية هذه المجتمعات؛ لتحقيق أكبر قدر ممكن من التأثير الإعلامي.

يتناولون في هذه المجلة انتصاراتهم وغزوّاتهم، كما إنّهم يولون الجانب الاقتصادي حيزاً مهماً من المعالجة الإعلامية.

تهدف الاستراتيجيات الإعلامية لهذه الوسائل الثلاث إلى الدعاية تحت ستار المعلومات والإقناع وعرض الواقع المضلل، والحديث عن الإنجازات وأهمية تراكمها، وتضخيم الأحداث وصولاً إلى التلاعب بالإدراكات، وتشكيل الآراء للوصول إلى التغيير السلوكي<sup>(1)</sup>.

---

(1) G. Jowett and V. O'Donnell, «Propaganda as a Form of Communication», in: S. Ted (ed), Propaganda a Pluralistic Perspective, London, Praeger, 1989.

- صناعة الأفلام السينمائية: يوجد متخصصون في مجالات كتابة السيناريو والإخراج والتصوير والмонтаж والغرافيك وإدارة الإنتاج من بين عناصر التنظيم الفارّين من الدول الغربية، وبعض الدول العربية، وهؤلاء لديهم قدرات إنتاجية كبيرة، ويملكون كاميرات سينمائية عالية الدقة (كلير) من نوع (red)، وهي تحتوي على (dslr). الإنتاج السينمائي الهولندي لحرق الطيار الأردني معاذ الكساسبة وعملية ذبح الرهائن الأمريكيين واليابانيين في سوريا، والأقباط المصريين على أحد الشواطئ الليبية، وإعدام الجنود السوريين في المعبد الروماني في تدمر، ومؤخراً حرق عناصر الحشد الشعبي في الموصل، كلها نماذج سينمائية لعمليات قتل وحشية في إطار احترافي متعدد الجوانب: السيناريو المحبوك والمخفف، التصوير بкамيرات عالية الدقة، المؤثرات البصرية والفنية، التعليق باللغة الإنكليزية وبكلغة بريطانية، هذا عدا الإنتاجات الوثائقية الأخرى التي تتمتع بمواصفات فنية جيدة، وعناصر دعائية تصب في خانة الحرب النفسية، مثل: الفيلم القصير «فتح بغداد وصليل الصوارم»، الذي يستعين فيه المخرج بمؤثرات من فيلم «Kingdom of Heaven» مرکزاً على لقطات لصلاح الدين كأنه «ال الخليفة» البغدادي.

بعض المخرجين والمتخصصين يعتبرون أن الإنتاج السينمائي لداعش هو أشبه بكليبات «وترويليرات» دعائية؛ لأن سياقها ومضمونها مفبرك ومضلل.

مؤسسات الإنتاج والنشر: يمتلك تنظيم داعش مؤسستين أساسيتين، واحدة لنشر الكتب والبيانات والمؤلفات، وأخرى لإنتاج الصوتيات كالأنشيد والخطب والمواعظ والفيديوهات مثل «الكليبات» والبرامج الوثائقية والدرامية، ومن أهم الإنتاجات الصوتية لهذه المؤسسات هو نشيد «صليل الصوارم»، الذي نجح في أوساط المؤيدين للتنظيم في العالم العربي لدرجة أن بعض الأفراح والأعراس في القاهرة تستخدم هذا النشيد للتعبير عن تأييدها وفرحتها.

**الأكشاك الإعلامية (mediakiosk):** وهي عبارة عن نقاط إعلامية متشرة في جميع المناطق التي تسيطر عليها داعش، وهي توزع مجاناً إصدارات التنظيم من جرائد وأقراص مضغوطة وبيانات وكتيبات دينية وشرعية، وهي على غرار الأكشاك التي تبيع الصحف والمجلات في معظم دول العالم.

## 2- الوسائل الإعلامية التقليدية

يسعى التنظيم إلى كسب الاعتراف والتأييد والتغطية المكثفة لأنشطته وأعماله الإرهابية من قبل الوسائل الإعلامية العربية والعالمية، ويستخدم عبر نشطائه وإعلاميه قدراته المهنية للتواصل مع الوسائل الإعلامية والصحافيين؛ ليشكل مصدرًا من مصادر الأخبار الأساسية لدى هذه الوسائل؛ وليخوض معركة التنافس والسباق مع المصادر الأخرى عبر تقديم روايته الخاصة للحدث في إطار ديني - شرعي، واجتماعي - سياسي، وعسكري - جهادي؛ ليدخل السوق الإعلامي الكبير لمبررات الأفعال التي يقوم بها. وقد يقوم بذلك عبر الناطقين الإعلاميين باسمه لتهديد الآخرين واتهامهم بخيانة التنظيم، كما فعل مؤخرًا أحد المتحدثين الأتراك باسم «الدولة الإسلامية» عبر شريط مصور عبر الإنترنت، وهو من إنتاج «المكتب الإعلامي لولاية الرقة» يتهم فيه أردوغان بالخيانة، ويهدد بفتح القسطنطينية، وبشن هجوم على الحزب الكردي (PKK) <sup>(1)</sup>.

هذا النوع من الرسائل الإعلامية تلقيته الوسائل الإعلامية العالمية، والفضائيات العربية مسلطة الضوء على التهديدات التي يشنّها داعش ضد الحلفاء الذين يتخذون عنه.

**تساهم الوسائل الإعلامية الغربية والصحافيون الغربيون الكارهون**

---

(1) جريدة السفير اللبنانية، العدد 13149، 19/8/2015.

لإسلام بالترويج السلي ل بهذه الجماعات، وإظهار الإسلام بصورة شيطانية، واستحضار الصور التاريخية دون التمييز الفعلي بين الإسلام السلفي الوهابي، وبين الإسلام الأصيل<sup>(1)</sup>، وتتوّرط الوسائل الإعلامية العربية بالأخص الفضائيات المدعومة من الدول الخليجية بالترويج للتنظيم، عندما تنقل هذه الفضائيات ما يريده هؤلاء من التغطية الإعلامية الإيجابية وفق أجندته الدعائية الموجهة بالعموم ضد الأنظمة العربية، التي تختلف مع الأنظمة الخليجية (سوريا والعراق وأحياناً تركيا) وبالاخص ضد الحركات والأحزاب والدول التي تحارب الجماعات التكفيرية بطريقة جدية وفعالة، (روسيا، إيران، حزب الله).

فموضوع العداء للشيعة كما يذكر الباحث ياسر عبد الحسين في كتابه الحرب العالمية الثالثة (2015) موضوع قد يُعتبر عنه ابن تيمية في فتواه حول الشيعة «وكذلك إذا صار لليهود دولة بالعراق وغيرها، تكون الرافضة من أعظم أعوانهم، فهم دائمًا يوالون الكفار المشركين واليهود والنصارى ويعاونونهم على قتال المسلمين ومعاداتهم»<sup>(2)</sup>.

غالباً ما تقع الوسائل الإعلامية العربية المدعومة خليجيًا في مطب الدعاية والكيل بمكيالين، فالقوات الغربية والمدعومة عربيًا التي تقاتل داعش من الجو تقوم بأعمال بطولية لخلص الدول العربية والإسلام من خطر داعش، وهي تحظى بالتطبيعية الإيجابية، بينما الجيش العراقي «والحشد الشعبي» اللذان يقاتلان داعش في العراق، «والجيش العربي السوري» «وحزب الله» اللذان يقاتلان داعش في سوريا، يقومون بأعمال مذهبية ضد «السنة»، ويرتكبون أعمال القتل بحق عناصر «الثورة السورية»،

(1) فنسان جيسير، الإسلاموفobia، المخاوف الجديدة من الإسلام في فرنسا، ترجمة: محمد صالح الغامدي ونسم السيد آدم به، كتاب المجلة العربية، ط1، 2009.

(2) المصدر نفسه، ص238؛ أحمد بن تيمية الحراني، منهاج السنة النبوية، ج8، ص378.

وهم يحظون باللغطية السلبية. وهذا لا يمكن تفسيره إعلامياً حسب الأديبيات المتعارف عليها في الدراسات الإعلامية<sup>(1)</sup> إلا بال موقف السياسي الإيجابي من الدول الغربية، والموقف السياسي والمذهبي السلبي من العراق وسوريا وحزب الله.

### 3- الميديا الاجتماعية

يشكل الإنترت الأداة الرئيسية لتنظيم داعش في الحرب الإعلامية والعمليات النفسية؛ لترهيب الناس وإلهام المتطرفين المحتملين من كل أنحاء العالم للانضمام إليه، وبعض التقارير الرسمية<sup>(2)</sup> تشير إلى سفر أكثر من 16 ألف مقاتل إرهابي إلى سوريا خلال عام 2014، وانضمائهم إلى الجبهات والمناطق التي تسيطر عليها داعش.

يسعى تنظيم داعش، وهو في مراحل متقدمة عن تنظيم القاعدة، إلى بذل أقصى الجهود لتوظيف قدراته التقنية لاستغلال الفضاء الإلكتروني والحوامل الرقمية، وتحديداً الميديا الاجتماعية التي تحولت إلى منظومة فعالة ومنظمة لنشر رسالته الإعلامية<sup>(3)</sup>.

يعتمد هذا التنظيم على العديد من هذه الوسائل بشكل مكثف مثل: «تويتر» و«فايسبوك» وإنستغرام و«يوتيوب» و«دياسبورا»، ويعتبر «تويتر» الأداة القوية والفعالة التي يستخدمها داعش في كثير من المجالات،

(1) E.S. Herman and N.Chomsky, **Manufacturing Consent: The Political Economy of the Mass Media** New York, Pantheon,1989.

(2) محمد جمال، «تقرير وزارة الخارجية الأمريكية، هذا هو سر تفوق داعش على القاعدة»، الاثنين 29 يونيو 2015.

(3) الصادق الحمامي، «الميديا الاجتماعية والإرهاب: الاستخدامات وسبل ترشيدها في التعاطي الإعلامي مع ظاهرة التطرف والإرهاب»، وقائع الورشة الدولية، اتحاد إذاعات الدول العربية، سلسلة بحوث ودراسات إذاعية (77)، 2015، ص149-165.

و خاصة في مجال التجنيد حيث يتواصل بشكل يومي مع الشباب المؤيد في أي مكان في العالم، في سلسلة متغيرة باستمرار من الوسائل مثل: الرسائل المباشرة، والهاشتاغ، والحسابات الخاصة التي تربك جهود الرقابة الثابتة.

ويشير معهد بروكينغز في دراسة أجراها أنه يتم نشر ما يقارب 133422 تغريدة يومياً من جميع المستخدمين المشتبه بارتباطهم بتنظيم داعش، ومعظم هؤلاء موجودون في المملكة العربية السعودية (866)، وسوريا (507)، والعراق (453)، والولايات المتحدة (404) مع ذلك قد لا تكون هذه البيانات دقيقة؛ لأن اختيار الموقع على «تويتر»، هو حقل نصي فارغ يمكن للمستخدمين إدخال أي موقع رمزي دون التتحقق منه<sup>(1)</sup>.

ونظراً للأدوار الخطيرة التي يمارسها تنظيم داعش على موقع التواصل الاجتماعي عمّدت الحكومات الغربية عبر أجهزة استخباراتها إلى محاولة منع التنظيم من الهيمنة على الفضاء الإلكتروني، مما دفع التكفيريين إلى البحث عن ملاذات آمنة جديدة على الإنترنت، فكانت شبكة الإنترنت المظلمة البديل المثالي؛ لأنّه لا يمكن للكثير من الأفراد الوصول إليها، ولكن يمكن لعدد قليل من المستخدمين تصفّحها، وهي سرية تماماً.

ويعتبر الخبراء أن الرسائل الإعلامية المرسلة والمستلمة على متصفح نظام «تور» (Tor) تحمي هوية المستخدمين من خلال عملية معقدة تعرف باسم «طبقات البصل» (Onionrooting)، وهي عبارة عن صنع طبقات حماية حول اتصالاتهم بحيث لا يمكن اخترافها، وبالتالي لا يمكن تعقبها من قبل أي طرف. وتبقى خدمات البريد الإلكتروني على متصفح «تور» مثل «Torbox» و«Sigaint» الأكثر شعبية لدى أعضاء تنظيم داعش؛ لأنّها تخفي هوياتهم و مواقعهم.

---

(1) بزننس إنسايدر، التقرير، «التكتيكات التي استخدمها داعش ليصبح أخطر جماعة على تويتر»، الجمعة 1 يوليو 2015

يستغل داعش نظام «تور» لإنشاء المنتديات «الجهادية» المشفرة، وغرف الدردشة وجمع التبرعات الرقمية «Bitcoins» مباشرة إلى حسابات المتطرفين. هذا الأمر دفع التنظيم إلى إنشاء دليل يوضح كيف يمكن لأي شخص أن يساعد في تمويل التنظيم عبر استخدام تطبيق «Dark Wallet»، وهو آمن لإخفاء العمليات الرقمية «Bitcoins» الخاصة<sup>(١)</sup>.

إن استخدام موقع التواصل الاجتماعي لدى التنظيم له وظائف عدّة في إطار العمليات النفسية في مرحلة التوحش، وهي تكامل مع وظائف الوسائل الإعلامية التي يمتلكها:

- الترهيب والترغيب.
- بسط السلطة والنفوذ.
- الدعوة إلى «دولة الخلافة» بقيادة البغدادي.
- إثارة الفتنة الطائفية والمذهبية.
- تقويض المجتمع من الداخل.
- ضرب السلطة المركزية.
- الدعوة إلى التجنيد.
- جمع التبرعات.
- القدرة على تدمير المقامات والأضرحة وهدم الآثار (مقامات، الشرك والكفر).
- كفالة التنظيم العسكرية<sup>(٢)</sup>.

---

(1) بنس إنسايدر، التقرير، «شبكة الإنترنت العميقة لتنظيم داعش والجانب المظلم من الإنترنت»، 2015

(2) أوين ديمقراسي، التقرير، «ثلاثة أسباب تميز تنظيم الدولة الإسلامية وربما يجعله صامداً =

- استتاب الأمن في المناطق التي يسيطر عليها، والقدرة على حكمها وتسخير أمورها.

## الخلاصة

لا شك في أن تنظيم داعش يمتلك قدرات إعلامية كبيرة تتخذ من الفكر السلفي التكفيري مرجعًا فكريًّا حاكماً ترتب منظومة خططه الإعلامية في مجالات العمليات النفسية ضد «العدو» في مرحلة التوحش، وتحدد أولويات خطابه الإعلامي الاستراتيجي القائم على خطاب التغيير والقوة والترهيب والحقد، وتستخدم الوسائل الإعلامية المتاحة بطريقة مدروسة وفعالة، لا سيما الميديا الاجتماعية التي تحتل الوسيلة الإعلامية الأولى في عمل التنظيم، وهذه الوسيلة تشكل الشكل النوعي في نشر الواقع والمعلومات المضللة، وبث الإشاعات ونقل العمليات الإرهابية والإرهابية بالصورة والصوت؛ لإلهاق الهزيمة المعنوية بالجمهور المستهدف.

تطرق الورقة في معرض معالجتها للإعلام التقليدي إلى التغطية الإيجابية للإعلام العربي الخليجي للعمليات الإرهابية التي يقوم بها داعش في العراق وسوريا، وإلى تقديم خدمة جليلة للإرهابيين من خلال شرعة حضورهم الإعلامي، وتناولهم بطريقة خبرية بعيدة عن النقد والتحليل والاستقصاء، والتعامل معهم كجزء وظيفي من المعركة الإيديولوجية والطائفية، التي تخوضها تلك الدول مع الدول والمنظمات العدّة المتمثلة بـ: إيران وسوريا وحزب الله.

---

= لسنوات»، 16 تموز 2015.

<http://www.opendemocracy.net/paul-rogers/islamic-state-Why-So-resilient>.



# وسائل الإعلام العربية والغربية وموقعها من التنظيمات الدينية المتطرفة

الدكتور محمد علوش<sup>(1)</sup>

## موجز عن الدراسة

تجادل هذه الورقة، بأن الإرهاب ظاهرة معقدة لها أسبابها النفسية والفكرية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية والتاريخية، وأن التطرف الديني يكاد يكون من أخطر وأعمق وأعقد أنواع التطرف التي تفضي إلى ممارسة الإرهاب والدعوة إليه. وهذه الظاهرة هي من بين التحديات التي تواجه العالم اليوم؛ إذ إنها تشకك بالثوابت الدينية القائمة على التسامح والتنوع الديني والمذهبي على مدار قرون من عمر البشرية، وهي تنذر بخلق عالم أحادي التفكير والسلوك الاجتماعي والنمط الثقافي، تنصهر فيها كل الإيديولوجيات الغربية المتطرفة التي شهدتها أوروبا في تاريخها الحديث، مثل «الفاشية» و«النازية»، مع تراكمات من الأفكار الدينية الشاذة والنادرة التي حكمت التاريخ الإسلامي على غفلة من أهله، وما زالت تشکل معيناً لا ينضب، لكن من يعرف من قدر التعصب والرفض طالما أن هذا التاريخ

---

(1) إعلامي وباحث في الحركات الإسلامية، من لبنان.

على أهميته المتزايدة لم تجر له غربلة توثيقية، تنفصل عنه قناع الميثولوجيا، وتنصيرات الإيديولوجيات السياسية.

كما إنّ قبضة التسلط وزيادة الاستبداد والتخلّف العلمي وتفشي الجهل وانفجار البطالة مع ما يصحبها من أزمات سياسية حادة، فضلاً عن الثورات العربية التي لها دور كبير في ولادة الجماعات الدينية المتطرفة. يضاف إلى ما سبق الأزمة المزمنة للصراع العربي- الإسرائيلي، مع فشل الدولة الوطنية في العالم العربي وبعض الدول الإسلامية في إثبات ذاتها.

وبسبب غياب المعالجة لفترة طويلة، فقد تمدد الفكر المتطرف، وتحول من حيز التنظير الثقافي الإيديولوجي إلى تنظيمات عسكرية واقعية، تمارسه واقعاً وتعيشه سلوكاً، وتفرضه نمطاً، ترى من خلاله الحياة والكون والإنسان. وجسّدت الطفرة الإعلامية، كماً ونوعاً، التي شهدتها العالم مطلع الألفية الحالية القارب الذي حمل هذا الفكر فوق أمواج المجتمع المتلاطم، ناقلاً إياه من بلاد إلى أخرى، مزيلة كل الحواجز اللغوية والجغرافية التي كانت تحول دون تمدده لولادة الإعلام اليوم.

وتجمّز الورقة بأن الإعلام بشكل عام، والعربي منه بشكل خاص، ليس مستقلاً كفاية عن التوجهات والإملاءات السياسية للقوى التي تحركها المصالح، وهو يتزلق -أي الإعلام- أحياناً ليتحول إلى بوق مزيف للواقع والتاريخ، ومزيناً لأبشع أنواع الاستبداد، ومبشراً بأحلّك أنواع الرق تحت شعارات برّاقة. وتراهن الورقة على أن الإرهاب ظاهرة عالمية لا تقتصر على دين أو مذهب أو منطقة من العالم، وأنه ليس أكبر التحديات التي تعيشها المجتمعات البشرية؛ فتوجد الأمراض الفتاكـة والتلوث البيئي، وفرض أنماط عيش محددة يبشر بها الرجل الأبيض وكأنه مسيح هذا العصر، حاملاً للعالم خلاصه من هلاكه الأبدى.

ترى الورقة أن التنظيمات الدينية المتطرفة، وفي مقدمتها تنظيم داعش،

نجح إلى حد كبير في توظيف الإعلام وأجهزته في الترويج لأطروحته المتطرفة، وأنه بات يعتمد بشكل متزايد على الإنترنت في أنشطته وأطروحاته، وأن تطبيقات الهواتف هي من أكثر الوسائل التي يجند فيها أعضاء جدًا، خلافاً لما يشاع عن دور وسائل التواصل الاجتماعي في لعب هذا الدور.

إن الإرهاب، على ما يحمله من مخاطر جمّة، يبقى محفزاً للبحث بشكل أعمق حول كيفية إعادة النظر في التعامل مع الموروث الديني والثقافي والاجتماعي داخل البيئات العربية من ناحية، وفي مقاربة جديدة ينبغي أن تغيّر نظرة الرجل الأبيض لأهل الجنوب، بما يحقق السعادة للعالم أجمع من ناحية أخرى.

الورقة تطرح تساؤلاً أساسياً مفاده: هل وسائل الإعلام الغربية والعربية، بما فيها الإعلام البديل، تساهم في نمو الإرهاب الديني وتمدده؟ ويترسّع منه جملة من الأسئلة، كما يجتهد في اجتراح عدد من الحلول، قد تساعد وسائل الإعلام للخروج من فخ، نصبه لها الإرهاب في تحويلها إلى منصة ترويج لأطروحاته الإيديولوجية.

## جدلية الصراع بين الإعلام والإرهاب والسلطة

يعيش العالم طفرات علمية وظواهر متنوعة، ساهمت في إيجادها وتسرّع نموها وسائل الإعلام التقليدية التي تطورت، مضارفاً إلى ما لحق بها من وسائل إعلامية جديدة، مثل الإعلام البديل أو الإعلام التفاعلي الذي يعتمد أساساً على شبكة الإنترنت الدولية. وهذه الطفرة العالمية في الوسائل التي تقرّب الشعوب والقارات بعضها من بعضها الآخر كان للعالم العربي نصيب منها، حيث ازدادت الوسائل الإعلامية فيه كمّا ونوعاً.

ففي تقرير صادر عام 2015 عن اتحاد الإذاعات العربية<sup>(1)</sup> بلغ عدد القنوات الفضائية العربية نحو 1320 قناة فضائية عربية، وهو ما يمثل زيادة كبيرة مقارنة بعام 2011، حيث بلغ عددها آنذاك 696 قناة فضائية. وبلغ عدد الصحف في الوطن العربي 5050 صحيفة، منها حوالي 300 صحيفة تصدر يومياً، و508 أسبوعياً، و3758 صحيفة ومجلة تصدر شهرياً ودولياً. أما موقع الإنترنت الإعلامية، فوصل عددها في الدول العربية إلى 4آلاف موقع، منها 2700 موقع باللغة العربية، والباقي بالإنجليزية ولغات أخرى.

هذا بخلاف موقع أخرى حكومية خدمية، ومواقع تسويقية إعلامية وغيرها من المواقع الإلكترونية غير الإعلامية، والتي وصل عددها إلى حوالي 200 ألف موقع، منها 30370 موقعًا بالسعودية، و28913 موقعًا بمصر، و19784 موقعًا بالمغرب، و15180 موقعًا بالإمارات.

هذا التطور الهائل في أجهزة الإعلام ووسائلها تزامن بشكل مطرد مع ازدياد في نسبة الهجمات الإرهابية وتنوعها، ما أثار الكثير من التكهنات حول العلاقة بين الأمرتين لدرجة أن بعضهم، أمثال والتر لاكيير (Walter Laqueur) رأى أن «الإرهاب لوحده لا شيء، نشره عبر وسائل الإعلام هو كل شيء»<sup>(2)</sup> في حين ذهب آخرون إلى أن «العمل الإرهابي ليس شيئاً في حد ذاته. التشهير هو كل شيء»<sup>(3)</sup>. أما الباحث التركي أسفت تلجان فيقول<sup>(4)</sup>: «يمثل العمل الإرهابي في حد ذاته بداية الإرهاب، بداية آلية أكثر تعقيداً وهي الدعاية، فالإرهاب والجماعة الإرهابية ستكون غير

(1) التقرير السنوي حول البث الفضائي العربي 2012–2013، اللجنة العليا للتنسيق بين القنوات الفضائية العربية، إصدار اتحاد إذاعات الدول العربية.

(2) محمد السماك، الإرهاب والعنف السياسي، الشركة العالمية للكتاب، بيروت، 1995، ص.5.

(3) نبيل عبد الفتاح، الإعلام والإرهاب، المركز العربي للبحوث والدراسات، 5 أبريل 2014.

(4) نصيرة تامي، «المعالجة الإخبارية لظاهرة الإرهاب من خلال الإعلام الفضائي الإخباري العربي: دراسة مقارنة بين قناتي الجزيرة والعربية»، مجلة: الإذاعات العربية، ص.24.

سعيدة على الإطلاق ومُحبطة، إذا ما عرفت أن جريمتها لن تكتشف، ولن تجذب اهتمام المجتمع».

يتناول رافيل ف. بيرل (Raphael F. Perl)<sup>(1)</sup>، وهو باحث متخصص في سياسات مواجهة الإرهاب الدولي بمكتبة الكونгрس الأمريكي، وله بحث مشور في الإنترنت، تحت عنوان «الإرهاب والميديا في القرن الحادي والعشرين» جدلية العلاقة والصراع بين السلطات الألمانية ووسائل الإعلام والتنظيمات المتطرفة، حيث تختلف رؤية كل طرف عن الآخر حول وظيفة وأدوار ومسؤوليات وسائل الإعلام عند تغطية أخبار التنظيمات المتطرفة وما يتبع عنها من تداعيات، غالباً ما يتهم التناقض بين الأطراف الثلاثة إلى تحقيق مكاسب تكتيكية واستراتيجية يحصل عليها الإرهاب.

التنظيمات المتطرفة تسعى إلى الترويج لإيديولوجيتها عبر الإعلان المجاني الذي توفره وسائل الإعلام، وهو ما يمنحها الوصول إلى أكبر شريحة ممكنة من المجتمعات البشرية بسرعة قياسية ولغات متعددة وتكلفة مجانية، مما يصعب تحقيقه بالاعتماد على وسائلها الذاتية. وهي غالباً ما تدرس إمكانية بث رسائل مشفرة وغير ملحوظة للجمهور المستهدف عبر تغطية الوسائل الإعلامية لنشاطاتها وأعمالها، في حين تسعى الحكومات وأجهزة الأمن لإيجاد أرضية للتعاون وكسب ولاء وسائل الإعلام حول تحديد أضرار الإرهاب، والترويج لإجراءات السلطة في مواجهة الإرهاب، وأحياناً تسعى الحكومات لتوجيه الإعلام بشكل غير مباشر للنيل من القوى المعاشرة لها عبر وسمها بالإرهاب، أو فرض مصطلحات صحافية على وسائل الإعلام العاملة على أراضيها. أما وسائل الإعلام، فهي عند تغطيتها

---

(1) Raphael F.Perl, **Byliner: Terrorism, the Media, and the 21st Century**, published on June 18, 1997.

الحدث الإرهابي ت يريد أن تكون أول من يعرف قصة الحدث الإرهابي، وينشره في وقته الحقيقي والفعلي تحت ضغط المنافسة الشديدة بين وسائل الإعلام، بعيداً عن أي إملاءات غير مدرجة ضمن الخط التحريري التي تعتمده الوسيلة الإعلامية<sup>(1)</sup>.

- تحقيق السمعة والربح السريع، والانفراد بالتفوق والتميز.
- زيادة المبيعات أو عدد المشاهدين، وبذلك زيادة الإعلانات وارتفاع أسعارها.
- تحقيق المنافسة في سوق مزدحم، الجميع يتتسابق فيه.
- الإثارة والغرابة والعنف والجرائم كانت دائمًا من القيم الإخبارية لوسائل الإعلام.
- الجمهور تشده أخبار العنف والإثارة.
- الجمهور يتعاطف مع الإرهابيين للانتقام من السلطة.

التباین والتضارب بين الأطراف الثلاثة وفقاً لما يرى بيرل، تؤدي إلى تزايد الاتجاه نحو سرية الحركات الإرهابية، حيث يحدث العنف، ولا يدعّي أحد مسؤوليته عنه، وبذلك تُعطى وسائل الإعلام فرصة أكبر في التخمين والتضخيم، والمبالغة في طلبات وأهداف الإرهابيين، فيزيد الخوف والرعب منهم، وتزداد الأضرار الاقتصادية وخاصة في قطاع السياحة، وبالتالي تشار ردود فعل قوية من الحكومات إلى درجة تقييد حريات الأفراد. وتضعف الثقة بوسائل الإعلام التي قد تكون لعبت دوراً غير مقصود في زيادة الإرهاب، الذي يشرع في استهداف الصحفيين والإعلاميين والمفكرين الذين يتناولون قضيائهما وتحديد المسؤولين عنه.

---

(1) مجموعة من المؤلفين، التعاطي الإعلامي مع ظاهرة التطرف والإرهاب، إصدارات اتحاد الإذاعات العربية، أبريل 2015، ص 18-19.

يذهب كُلُّ من برونو فري (Bruno S. Frey)، ودومينيك رونر (Dominic Rohner) من جامعة زيورخ في سويسرا عام 2006 في بحثهما المعنون «الدم والجمر، لعبة المصلحة المشتركة بين الإرهابيين والإعلام»<sup>(1)</sup>، أن الطرفين الإعلام والإرهابيين يستفيدان من الأفعال الإرهابية. فالإرهابيون يحصلون على دعاية مجانية لأعمالهم، والإعلام يستفيد مالياً؛ لأن التقارير التي تنشر في هذا المجال تزيد من عدد قراء الجريدة وعدد مشاهدي التلفزيون، وبالتالي تزداد مبيعات الجريدة وقيمة الدعاية المنشورة عليها وزنادة قيمة الدعاية التي يبثها التلفزيون. وفي أحد الاستطلاعات التي أجريت لمعرفة ما إذا كان يوجد دور للإعلام في تأجيج الإرهاب، أجاب 80% من مجموع المستجيبين إجابة مطلقة تفيد بأن الإعلام يلعب هذا الدور<sup>(2)</sup>.

ولا بالغ إذا قلنا إن من أرصن الدراسات التي أعدت هي دراسة مايكل جاتر (Michael Jetter)<sup>(3)</sup>، البروفيسور بكلية الاقتصاد بجامعة EAFIT في ميدلين بكولومبيا، والزميل الباحث في معهد لدراسة العمل في بون بألمانيا، حيث قدمت الدراسة في المؤتمر السنوي للجمعية الاقتصادية الأوروبية في مانهaim بألمانيا، الذي انعقد منتصف العام 2015.

وخلص الدراسة التي تم فيها تحليل أكثر من 60 ألفاً من العمليات الإرهابية وأعمال العنف حول العالم ما بين عامي 1970 و2012 أن التغطية الإعلامية المشيرة للأعمال الإرهابية حول العالم تتسبب في تشجيع ارتكاب المزيد من هذه الأفعال التي قد ترتكب، وأن الهجمات الانتحارية تأخذ

(1) Dominic Rohner & Bruno S.Frey, **Blood and Ink! The Common-Interest-Game between Terrorists and the Media**, published on 25 May 2007.

(2) هايل ودعان الدعجة، «الإعلام والإرهاب»، ورقة مقدمة إلى مؤتمر جامعة الحسين بن طلال الدولي حول الإرهاب في العصر الرقمي 12 مارس 2008.

(3) Michael Jetter, **Terrorism and the Media**, published on September 2014.

حيزاً أكبر من التغطية الإعلامية، وهو ما يعتقد أنه يزيد من شعبيتها بين الجماعات الإرهابية.

والدراسة تؤكد أن «العالم شهد على مدار الـ 15 سنة الفائتة زيادة هائلة ومرعبة في عدد الهجمات الإرهابية، ووصل إلى مستوى قياسي عام 2012، حيث سجل 8441 عملاً إرهابياً»، في حين ارتفع العدد الإجمالي للإصابات من الهجمات الإرهابية من 3387 إلى 15396 إصابة.

والمثير في الدراسة التي حذرت من الجزم بالارتباط المتلازم بين طبيعة وحجم التغطية الإعلامية، وبين تزايد الإرهاب وعمقه، من أن تكريس الإعلام للهجمات الإرهابية في منطقة ما غالباً ما يتبعها بـ«احتمالية وقوع هجمات إرهابية أخرى في البلدان المتضررة نفسها في غضون فترة زمنية معينة تصل لسبعة أيام وتنخفض التغطية بانخفاض الفترة الزمنية حتى الهجوم التالي». وبحسب جيتر فإنه بعد نشر صحيفة نيويورك تايمز تقريراً عن هجوم إرهابي في بلد معين لم يذكره، فإن الهجمات الإرهابية التي تلت الهجوم الأول زادت بنسبة تتراوح ما بين 11% إلى 15% بال معدل».

تشير الدراسة إلى وفاة 42 شخصاً يومياً مقارنة بـ 7123 فرداً يموتون من الجوع، أغلبهم من الأطفال، وعلى الرغم من هذا التفاوت الكبير في نسبة الضحايا إلا أن التغطية الإعلامية على المستوى الدولي تميل لكتفة تغطية الإرهاب من حيث حجم الوقت الممنوح له في نشرات الأخبار والبرامج على اختلاف أنواعها. وهذا الإهمال أو عدم التوازن في نقل الأحداث يتسبب بالمزيد من الضرر على المجتمعات البشرية.

## تطور التنظيمات المتطرفة في استخدام الإعلام

يتمتع الإعلام بأهمية كبيرة داخل هيكلية تنظيم داعش، وهو من أكثر التنظيمات المتطرفة إدراكاً لأهمية الإعلام على اختلاف أنواعه في

حربه الوجودية، حيث أدرك منذ فترة مبكرة من تأسيسه الأهمية الاستثنائية للوسائل الاتصالية في إيصال رسالته السياسية ونشر إيديولوجيته الجهادية، فأصبح مفهوم ما يسمى «الجهاد الإلكتروني»<sup>(1)</sup> أحد الأركان الرئيسية في فترة مبكرة منذ تأسيس جماعة «التوحيد والجهاد»، ثم «القاعدة» في بلاد الرافدين. وقد تطور تعاطي الجماعات المتشددة مع وسائل الإعلام من رفض الحديث إلى أي وسيلة مشبوهة أو موثوقة في أمانتها، إلى التعاون مع بعض الوسائل الإعلامية وتخفيضها بنشر متعجاتها مقابل شروط صارمة، وصولاً إلى ابتكار وسائل خاصة بهم، ومن ثم منافسة كبريات وسائل الإعلام في الإنتاج وصولاً إلى الاستفادة من الأفلام الأمريكية، وربمامحاكاة لما تنتجه مدينة هوليوود من أفلام.

وقد أبرز تنظيم داعش تفوّقاً على القاعدة وفروعها في توظيف وسائل الإعلام من خلال إدراكه المبكر لوسائل «الإعلام البديل»، عبر فتح موقع إلكترونية عدّة والترويج لنفسه وخطابه. وعلى ما يزعم كريستوف غونتر (Christoph gunther)<sup>(2)</sup>، الخبير الألماني في شؤون الشرق الأوسط في جامعة ليزيك (Universität Leipzig) فإن «الدولة الإسلامية أصبحت أهم وأقوى وأفضل تسلحاً وتمويلًا من القاعدة، ولها قدرة فائقة على توظيف الإعلام الجديد في الإنترن特 والشبكات الاجتماعية، مما يجعل الشباب الجهاديين ينجذبون لها أكثر.

والنجاح الذي حقّقه التنظيم، يتجلّى في بقاء أخباره على مدار الساعة في جميع أنحاء المعمورة، فهو يفعل الحدث ليقي حضوره

---

(1) دراسة حول التجنيد الإجباري للتنظيمات المتطرفة، نشرتها جريدة الرياض السعودية، 30 ديسمبر 2014

<http://www.alriyadh.com/1008390>

(2) Interview: Dr. Christoph Günther on is, <http://www.mediastudies.asia/interview-prof-dr-christoph-gunther/>.

الإعلامي قائماً، وأن « تستطيع جماعة ما الحضور الإعلامي المكثف وتتصدر شاشات التلفزيون والأخبار، أي لا تمر 24 ساعة دون أن يمر ذكر (داعش)، هذا هو النجاح الإعلامي، بعض النظر عن التقدم على الأرض »، على ما يقول أحد الخبراء الإعلاميين<sup>(١)</sup>. وهو نجاح حمل الأكاديمية الوطنية للعلوم (PNAS) ومقرها الولايات المتحدة لصك مصطلح للتعبير عن تمدد « داعش » والجماعات الإرهابية بفضل متاجرات إعلامية صغيرة وتغريدات على موقع التواصل الاجتماعي هو فيتموريسك (femtorisk). المصطلح يعني تضخم ظواهر صغيرة، عدداً وعدة، على ممارسة تأثير ضخم وكبير في العالم، وهو ما حصل للتنظيم بعدما عاد إلى الأضواء في خضم الدعاية ضده وضد وحشيته ليحصد الآلاف من الأنصار.

ويعود هذا الاهتمام المبكر بأهمية الإعلام إلى خريف العام 2006، حين أسس أبو عمر البغدادي مؤسسة الفرقان، وانتدب لها ناطقاً إعلامياً يبث كلمات صوتية لأول مرة، وكان بمثابة وزير للإعلام، المعروف باسم محارب الجبوري. وقد « لعبت المؤسسة دوراً أساسياً في التعريف بدولة العراق الإسلامية، وترسيخ فكرة الدولة في عقول الآخرين، واعتمدت المؤسسة على تقنيات متطرفة جداً أسهمت في إخراج الإصدارات المرئية لكلمات أمير الدولة، أو وزير حربيها أبي حمزة المهاجر، بشكلٍ لافتٍ شدّ انتباه وسائل الإعلام الكبرى العربية، والعالمية، كما كان كبار ساسة العالم بانتظار ما يصدر عن هذه المؤسسة التي لعبت الدور الأكبر في إقناع مناصري الدولة أنها ما زالت موجودة، وأنّ ما تغير هو فقط أسلوب خوض المعارك للتكييف مع الوضع الجديد »<sup>(٢)</sup>.

وقد شهدت الهيئة الإعلامية لتنظيم « داعش » تطوراً كبيراً بالشكل

---

(١) يوسف الدينى، « داعش لا تخطئ في الترجمة »، صحيفة الشرق الأوسط، 16 أغسطس 2015.

(٢) « تنظيم الدولة الإسلامية.. أداء إعلامي مؤازر للأداء العسكري »، صحيفة التقرير، 2 أغسطس 2015.

والمحتوى، وتعتبر مؤسسة «الفرقان» الإعلامية الأقدم والأهم، وقد ظهرت مؤخرًا مؤسسات إعلامية عدّة تتبع التنظيم<sup>(١)</sup>، مثل: مؤسسة الاعتصام، ومركز الحياة، ومؤسسة أعماق، ومؤسسة البنار، ومؤسسة دابق الإعلامية، ومؤسسة الخلافة، ومؤسسة أجناد للإنتاج الإعلامي، ومؤسسة الغرباء للإعلام، ومؤسسة الإسراء للإنتاج الإعلامي، ومؤسسة الصقيل، ومؤسسة الوفاء، ومؤسسة نسائم للإنتاج الصوتي، ومجموعة من الوكالات التي تتبع المناطق التي تسيطر عليها، وكالة أباء «البركة» و«الخير» وغيرها، كما أصدر «داعش» عدداً من المجلات بالعربية والإنجليزية أمثل: «دابق» و«الشامخة»، وأنشأت الهيئة إذاعات مثل: إذاعة «البيان» في مدينة الموصل في العراق، وإذاعة أخرى في مدينة الرقة في سوريا.

والمواد الدعائية التي تصدرها المؤسسات الإعلامية التابعة للتنظيم كمؤسسة «الفرقان» و«الاعتصام» تؤكد على التحول الكبير في بنائه وقدراته الفائقة، وتكلباته العنيفة، واستراتيجيته القتالية المرعبة؛ فقد أصدر سلسلة من الأفلام المتقدنة، أطلق عليها «صليل الصوارم»، بدءاً من صليل الصوارم 1 يوليو/تموز 2012، وصليل الصوارم 2 أغسطس/آب 2012، وصليل الصوارم 3 يناير/كانون الثاني 2012، ثم صليل الصوارم 4 مايو/أيار 2014.

## التنظيمات المتطرفة والعالم الافتراضي

يعتبر الإنترنت اليوم عالماً متكاملاً بذاته، وعالمه الافتراضي لا يقل أهمية وتأثيراً على العالم الواقعي؛ فقد كان عدد مستخدمي الإنترنت في العالم عام 1997 حوالي 70 مليون شخص بنسبة 1.7٪ من سكان العالم،

---

(١) جمال زرن، الاستراتيجية الإعلامية العربية لمكافحة الإرهاب: غموض الرؤية وقصور المقاربة، مركز الجزيرة للدراسات، 05 أغسطس 2015.

ثم ارتفع عددهم عام 2009، وفقاً للاتحاد الدولي للاتصالات<sup>(1)</sup>، إلى 1.9 مليار شخص، والآن ووفقاً لتقرير أصدره الاتحاد الدولي للاتصالات، فإن عدد مستخدمي الإنترنت عالمياً يصل عددهم هذا العام 2015 إلى حوالي 3 مليارات شخص، يمثلون 40٪ من سكان العالم، منهم 141 مليون مستخدم للإنترنت في العالم العربي.

وتكشف ورقة عمل ناقشها مؤتمر الأمم المتحدة الثاني عشر<sup>(2)</sup> لمنع الجريمة والعدالة الجنائية الذي انعقد في مدينة سلفادور البرازيلية خلال الفترة من 12 إلى 19 إبريل 2010 أن وجود خدمات الإنترنت على نطاق عالمي يتجاوز الحدود الوطنية يتطلب تعاوناً بين الدول في الوقت المناسب وبفعالية خاصة ضد استخدام تكنولوجيا المعلومات من قبل الجماعات الإجرامية المنظمة.

وقد أدركت التنظيمات المتطرفة أهمية الشبكة العنكبوتية في وقت مبكر جدّاً، وراكمت الخبرات مع نمو الشبكة وتطورها ووصولها إلى كل بقعة في الأرض، وقد زادت موقع الإنترت التي ترّقّج للتنظيمات الإسلامية المتطرفة، حيث كان عددها عالمياً 12 موقعًا عام 1998، ووصل العدد الآن إلى 5800 ألف موقع، وفقاً لتقارير صادرة عن الاتحاد الأوروبي<sup>(3)</sup>، ومن خلال رصد مجلس وزراء الداخلية العرب للموقع سالفه الذكر بالتعاون مع الدول الأعضاء، فإن عدد هذه المواقع يصل لأكثر من 720 موقعًا وصفحة، تستهدف تضليل المواطن العربي والترويج لفكرة التطرف والإرهاب على الرغم من الحجب المتكرر التي تمارسه أجهزة

---

(1) ITU World Telecommunication/ICT Indicators database.

(2) معتز صلاح الدين، «دور وسائل الإعلام في مواجهة استخدام الإرهابيين للإنترنت»، صادرة عن المركز الديمقراطي للدراسات الشرق الأوسط، فبراير 2015.

(3) انظر: المصدر نفسه؛ كذلك:

ITU World Telecommunication/ICT Indicators database.

الرقابة عربياً ودولياً. وتؤكد العديد من الأبحاث وجود أكثر من 5800 موقع على شبكة الإنترنت يُروج للفكر الإرهابي، وأنه يوجد نحو 900 موقع جديد يظهر كل عام<sup>(1)</sup>.

ويرى غيدو شتاينبرغ (Guido Steinberg)<sup>(2)</sup> الخبير الألماني في شؤون الإرهاب في حوار مع التلفزيون الألماني أن «عام 2011 مثل نوعاً من القطعية، فمنذ ذلك الحين، بات ما يسمى بالشبكات الاجتماعية عاملاً مهماً، فهـي تمنـح الإـرـهـابـيين اـمـتـياـزاـهـمـ من الصـعـبـ إـخـضـاعـهـمـ للـراـقـابـةـ».

واستخدامات التنظيمات الإرهابية لشبكة الإنترنت تتحضر في الرقابة والرصد لما يكتب عنها، والبحث عن معلومات جديدة لما ت يريد أن تستهدفه من موقع، أو لتطوير قدراتها العسكرية من خلال المواقع التي تعلم كيفية صنع الأسلحة من مواد بسيطة متوفرة في أغلب المتاجر، فضلاً عن الترويج لإيديولوجياته عبر نشر البيانات وبث الأخبار وتزيل الإصدارات المرئية والصوتية، ويعتبر الفضاء الإلكتروني بشكل عام أرضًا خصبة وأمينة في التواصل والتنسيق وإصدار التعليمات وتجنيد المتعاطفين مع التنظيم والتوسيع في الاستقطاب الجماهيري.

ويعتقد مايكل ويس (Michael Weiss)<sup>(3)</sup>، مؤلف كتاب «داعش: داخل جيش الإرهاب»، أن داعش يتعامل بعمقية مع موقع التواصل الاجتماعي، توبيخ، فهو يعلم تماماً الطريقة التي يعمل فيها الإعلام الغربي وطريقة تغطيته للأحداث. فلدينا الآلاف والآلاف من حسابات داعش على موقع توبيخ، وهي تنتشر بطريقة تشبه انتشار الفطر في الليل، وإذا ما تم

---

(1) جمال زرن، «الاستراتيجية الإعلامية العربية لمكافحة الإرهاب: غموض الرؤية وقصور المقاربة»، مركز الجزيرة للدراسات، 05 أغسطس 2015.

(2) <http://www.dw.com/en/about-dw/profile/s-30688>.

(3) <http://edition.cnn.com/Transcripts/150722/cnr.02.html>.

حذف حساب فيظهر خمسة مكانه، مضاراً إلى «حث التنظيم لعنصره على متابعة عدد معين من الحسابات الرئيسية والحسابات الثانوية وحسابات من الدرجة الثالثة وتتبعها في حال وقف الحسابات التي قبلها».

وينشط التنظيم بشكل هائل على موقع مثل الفايسبوك وتويتر ويويتيوب، ويقوم بحملات منظمة للترويج لدعایته. وعلى الرغم من الحملات المنظمة لحذف الحسابات التي تتبع للتنظيم ومناصريه إلا أن التنظيم يستمر في نشر دعایته، وهو يتسلح بعد العقدي لشحد همم أنصاره في المتابعة والإصرار على مكافحة كل أنواع الحد من نشر دعوته عبر الوسائل الاجتماعية. مثال على الإصرار حساب «ترجمان الأساورتي» على تويتر؛ إذ إنه من بين أشهر الحسابات التي تتعرض للحذف المتكرر، فقد سُجل حسابه<sup>(1)</sup> رقم 209 في 31 تموز / يوليو 2015. وللمعرف «ترجمان الأساورتي» مؤسسة ترجمان الأساورتي للإنتاج الإعلامي، التي لها العديد من الإصدارات المرئية التي يتم تداولها من خلال وسائل التواصل الاجتماعي،اليوتيوب خاصة، ويتم الترويج لها من خلال موقع تويتر.

وفي دراسة أميركية<sup>(2)</sup> أعدها معهد «بروكينغ» وموّلها «غوغل إيدياز» خلال العام 2015 أفادت أن ما لا يقل عن 46 ألف حساب على «تويتر» مرتبطة بتنظيم «داعش» حتى نهاية 2014، وبحسب تحليل للمعطيات الجغرافية للتغريدات (الموقع المعلن والمنطقة الزمنية)، فإن أغلب المشتركين يقيمون في مناطق تحت سيطرة التنظيم في سوريا والعراق. وثلاثة أرباع الحسابات المؤيدة للتنظيم ناطقة بالعربية و 20٪ بالإنكليزية و 6٪ بالفرنسية. ويتابع الحسابات المؤيدة للتنظيم 1000 مشترك في

---

(1) «تنظيم الدولة الإسلامية..أداء إعلامي مؤازر للأداء العسكري»، صحيفة التقرير، 2 أغسطس 2015

(2) Jerry Gordon, **Brookings Study of ISIS Twitter Accounts Reveals U.S. among Top Locations**, published on March 10, 2015.

المعدل، ما يعني أنها «أكثر من حساب عادي». وفي الفصل الأخير من 2014، تم إغفال ما لا يقل عن 1000 حساب من قبل «تويتر»، لكن الرقم الحقيقي قد يكون أكبر بكثير، بحسب الدراسة.

ومن المعروف أن تنظيم داعش على سبيل المثال لديه حسابات مركزية على تويتر لنشر الرسائل، مضافاً إلى حسابات محلية في كل منطقة يوجد فيها عناصر التنظيم<sup>(١)</sup>، وتقوم كل منطقة من خلالها بنشر أخبارها المحلية. وهذا ما يمكن التنظيم من تفزيذ عولمة «الجهاد» عن بعد، وإيصال خطابه إلى أوروبا والغرب. ولا يعمل التنظيم على نشر الصور في اتجاه واحد؛ بل يعمل على فهم حاجات جمهوره ومعرفة ردود أفعالهم على شكل استبيان، أي أن خطابه الإعلامي يعتمد على التفاعل. ويتمتع خطابه الإعلامي بسهولة ومرنة الحركة مع التقنية والمعلومات والتطبيقات الفنية على أجهزة الكمبيوتر والهواتف الذكية، باستغلال المقاتلين الأجانب الموجودين داخل التنظيم أكثر من المقاتلين المحليين؛ إذ يسند إليهم الدعم اللوجستي، وبخاصة في الإعلام والدعائية.

حاول داعش إطلاق موقع للتواصل الاجتماعي شبيه بفايسبروك وتويتر، يتضمن سبع لغات، وسمّاه خلافة بوك، حيث طلب من المستخدمين الذين فتحوا حساباتهم عليه، الاجتهد في نشره حتى يستطيعوا منافسة الفايسبوك بالخصوص، علمًا أنهم فتحوا موقعًا آخر شبيهًا لتويتر إلا أن الموقع أغلق بعد يوم واحد، ولا يعرف ما إذا كان التنظيم فشل في إطلاقه أم أجله إلى مرحلة لاحقة.

وعلى الرغم من أن الشائع أن موقع التواصل الاجتماعي هي المكان التي تنشط فيه عمليات التجنيد للتنظيم إلا أن بعض الخبراء يشككون

---

(١) يوسف بن أحمد الرميح، «الإرهاب والإعلام الجديد: الإرهاب الرقمي»، صحيفة الجزيرة السعودية، 8 مارس 2015.

بذلك، على أهمية ما تلعبه هذه المواقع من دور في الترويج للتنظيمات المتطرفة. وتحتل تطبيقات الهاتف المحمول مكانة خاصة في التجنيد الآمن. وفي هذا يقول أيمان دين<sup>(1)</sup>، عضو سابق في تنظيم القاعدة، إن «التجنيد لا يتم عبر توبيتر أو فايسبوك، كما يعتقد الكثيرون؛ بل يتم من خلال طريقتين: الطريقة الأولى هي عبر الفيديو؛ فالفيديو يساوي ألف صورة والصورة تساوي ألف كلمة». أما الأمر الثاني، « فهو عن طريق الأشخاص الموجودين داخل حدود الدولة الإسلامية؛ بعد حصولهم على دروس في الإيديولوجيات ومبادئ الدولة الإسلامية، يتم إعطاؤهم هوافتهم النقالة للاتصال بأقربائهم وعائلاتهم من خلال تطبيقات الاتصال كـ«واتس آب»، وإرسال صور إليهم حول حياتهم وطريقة عيشهم وأسلحتهم؛ فهم يرسلون إليهم باختصار حملات دعائية موجهة.

وفي تقرير صادر عن معهد دراسة الإعلام في الشرق الأوسط (memri) المعنى برقابة نشاط المتطرفين في موقع التواصل الاجتماعي، على ما تنقل صحيفة «واشنطن تايمز»<sup>(2)</sup> أن عناصر «داعش» يعتمدون على البرامج الآمنة في هوافتهم المحمولة بصورة متزايدة؛ إذ تسمح هذه البرامج بالتواصل عبر قنوات لا تستطيع الاستخبارات الأمريكية التجسس عليها.

وجاء في التقرير أن القياديين في «داعش» يفضلون برنامجي «Surespot» و«Kik»، لكنهم يستخدمون حزمة من البرامج الأخرى أيضاً. ويسمح برنامج «Surespot» بتشифر الرسائل النصية وهي في طريقها إلى المستلم، ويبقى المرسل وحده هو من يتحكم في الرسائل عبر هذا البرنامج. وتمكن خبراء المعهد من تحديد 115 شخصاً على الأقل يعتقد

(1) <http://arabic.cnn.com/middleeast/2015/03//me-240315-amanpour-interview-ayman-dean>.

(2) <http://www.washingtontimes.com/news/2015/jun/28/islamic-state-uses-downloadable-apps-to-hide-attack/?page=all>.

أنهم من عناصر داعش «Surespot»، يستخدمون «Surespot». وأظهرت عمليات الرقابة على موقع «تويتر» أن معظم المروجين لـ«داعش» يدعون مؤيدي التنظيم إلى الاتصال بهم عبر هذا التطبيق، إذا كانوا بحاجة إلى المساعدة للسفر بغية الانضمام إلى صفوف التنظيم.

## استراتيجية التنظيمات المتطرفة في التعامل مع وسائل الإعلام

تكاد تتطابق رؤية التنظيمات الدينية المتطرفة لطبيعة وسائل الإعلام وأهداف نشأتها، وإلى حد ما تتفق في كيفية توظيفها خدمة لمشروعها. الوسائل الإعلامية هي أذرع بيد من أسسها للتحكم والهيمنة، وليس لنشر الوعي وتنمية المجتمع. والإعلام حيّثما وجد أدى دوراً بالغاً في تزيف الوعي والتاريخ، وساهم في خلق رأي عام مناقض للواقع ومبادر له، وفي إنتاج مجتمع تحكمه غريزة الاستهلاك واللهاش وراء اللذة، مستفيداً من أحدث النظريات في العلوم الإنسانية (علم نفس، علم الاجتماع، علم إدارة، التنمية البشرية...).

ما سبق، لا يعني أن الإعلام لا يلهم وراء الربح المادي، وهو لا يترك طريقة أو وسيلة لجذب المشاهدين إلا سلكها. واستناداً إلى هذه الرؤية السردية للإعلام، تحاول التنظيمات المتطرفة العمل على مسارين متوازيين، استغلالاً لما أمكن الوسائل الإعلامية ووسائلها الجديدة بكل السبل المتاحة، والتعامل معها بذكاء يمكنها من بث رسائلها المشفرة إلى الجمهور المستهدف. يقابله في ذلك العمل بشكل حيث وبشكل احترافي على بناء منظومة إعلامية بديلة آمنة ومستقرة، شاملة ومتفرغة لتحقيق كل الأهداف التي تسعى إليها التنظيمات المتطرفة عبر أجهزة الإعلام. ولعل داعش من أبرز هذه التنظيمات التي قطعت شوطاً كبيراً في هذا المجال.

وقد دفعه الأمر بعد طول تجربة في دراية الإعلام إلى كيفية توظيفه لصالحه اعتماداً على الآليات التي يعمل بها، والمكينزمات التي تحكمه

في تغطية الأحداث والتفاعل معها. وبعد دراسة متأنية نفسياً واجتماعياً وتاريخياً للمجتمعات العربية والغربية، يسعى تنظيم داعش عبر ما ينشره من إصدارات مكتوبة ومرئية وسموعة لتمرير رسائل مشفرة وغير ملحوظة إلى الجمهور المستهدف. وبمقارنة هادئة لأغلب إصداراته على تنويعها، وبعيداً عن مستوى الاحترافية الفنية للمادة، نجد أن مضامين الرسائل غير المباشرة ترسم صورة كاملة للتنظيم ودولته وعمل أفراده والمناطق التي يحكمها.

فالتنظيم يحرص على إبراز رجاله المحاربين دائمًا بلباس أسود (جلباب) ولحى طويلة وسلاح باليد، ما يعزز الصورة النمطية الشبيهة بالصور العuelle في الأذهان عن أصحاب النبي محمد (ص)، كما رسمها فيلم الرسالة وغيره من الأفلام التي تناولت تلك الحقيقة من التاريخ. فإذا ما أتينا إلى المناطق التي يحكمها فأغلب ما يتبهّ عنها من أحوال يظهر أنها دولة آمنة مباركة، يأتيها رزقها رغداً، ففيها تحقق وعد الله فأقيمت خلافته، حيث يحكم شرع الله، لا يزاحمه قانون أو وثن، وعدالة السماء تشق طريقها إلى عدالة الأرض، فالناس سواسية، لا وجود لطبقة اجتماعية تتمايز عن أخرى. فلا فرق بين أعجمي وعربي إلا بالتفوي، ولا فضل لرجل على امرأة إلا بما فضل الله بعضهم على بعض. والأمن والأمان صفتان ملازمتان لكل من يعيش تحت راية هذه الدولة، والعالم أجمع يحارب دولـة الخلافة خوفاً من عودة سيادة الإسلام، وخوفاً على مكتسباته التي كفلت له تفوقاً على باقي الشعوب.

النظام العالمي هو نظام مستبد وفاسد ومحتكر ومزور للتاريخ ومفتر لشعوب الأرض في سبيل حفنة من رجال الأعمال والمتنفذين والذين في غالبيتهم يهود. أما شعار الخلافة «باقية وتمدد»، فهي باقية؛ لأنها الأصلح والأفضل والمؤتمنة على تطبيق حكم الله على الأرض، وهي طمأنة لكل داعم لها أو منتب، وهي تمدد، فلن تبقى حبيسة حدود مصطنعة من إنتاج تامر سايكـسـ بيـكـو على الأمة الإسلامية وتقسيمها في ما بينهم، ولن

تبقى بقعة تحت الشمس لن تصل إليها دعوة الخلافة ورأيتها تتحقق لِ وعد الله في كتابه ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيُسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا أَسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَمْ يُكِنْ لَهُمْ دِينُهُمُ الَّذِي أَرْتَهُمْ وَلَمْ يُبَدِّلْنَاهُمْ مِنْ بَعْدِ حَوْفِهِمْ أَمْنًا ﴾<sup>(1)</sup>.

وقد تلقّف متخصصون غربيون الرسالة المشفرة التي يبثها تنظيم داعش مع كل نشرة إخبارية تتناول أخباره ومعاركه. ويراهن بول كروكشانك (Paul Cruickshank)<sup>(2)</sup>، أحد محللي الإرهاب البارزين، أن داعش نجح في خلق صورة نمطية سهلة وجاذبة، فهم عبر أفلامهم ومنتجاتهم الإعلامية الموجهة للغرب يقدمون جانبًا من حياة محافظة وسهلة وبسيطة توحى بالإلفة والروح المعنوية العالية، ومظاهر البطولة والتحدي والانتصار كجزء من «احترام الذات» الذي يفتقده الإنسان المعاصر المشغول حتى أخصص قدميه بملائحة إيقاع الحياة السريع. بدوره، يرى ما西و أولسن، مدير المركز القومي لمكافحة الإرهاب في الولايات المتحدة، في هذه الصورة النمطية المريحة أعظم آلة دعاية أنتجتها المنظمات الإرهابية منذ نشأتها، فهي تنجح في جعل الغربيين يتخلّون عن حياتهم الوداعة للسفر إلى مناطق التوتر والدماء المسالمة، بحثًا عن هدف مختلف أقرب ما يكون إلى محاولة إحداث الفرق في معادلات الموت والحياة والانتماء والشعور بالواجب.

ويشير أيمان دين<sup>(3)</sup> المنشق عن تنظيم القاعدة إلى الحالة النفسية للغربيين الذين يقعون في شرك داعش. بعضهم لا يشعرون بالانتماء إلى المجتمع الذي يعيشون فيه، وبعضهم يأتون من التوادي الليلية، وبعضهم

(1) سورة النور: الآية 55.

(2) <http://edition.cnn.com/201505/05/politics/texas-attack-terror-tweets/>.

(3) <http://arabic.cnn.com/middleeast/201524/03/me-240315-amanpour-interview-ayman-dean>.

مدمنو مخدرات، يبحثون عن تجربة روحانية تضمن لهم المغفرة والتخلص من الذنب، ولأن كثيراً منهم لا يعلم الكثير عن الإسلام، فإنهم يقعون فريسة سهلة في يد التنظيم الذي يقدم لهم نفسه على أنه حامي الإسلام وناصره. كما لفت إلى أن التنظيم يجذب من لديه بداخله رغبة «انتقامية» من المجتمع.

والتابع لطائفه الإعلامية تتكشف له خطط عامة يعتمدتها تنظيم داعش في بناء منظومته الإعلامية، منها:

- الاستعanaة بالمتدينين للتنظيم من أصول غربية في الترويج الإعلامي للتنظيم وإبعادهم عن العمل العسكري أو القيادي ما أمكن.

- استقطاب أصحاب الخبرة الفنية والتقنية في احتراف الدعاية له عبر الاستعanaة بشباب حديسي السن ويعشقون التواصل عبر مواقع التواصل.

- منع أي وسيلة إعلامية لنقل أي أخبار من المناطق التي يسيطر عليها، ومحاكمة أي صحافي يمارس العمل بعيداً عن توجهات التنظيم. وتشير التقديرات<sup>(1)</sup> إلى قتل التنظيم لما يزيد عن 41 صحافياً داخل المناطق التي يسيطر عليها.

- تأسيس وكالة أعمق التي تعنى بنقل الأخبار من المناطق التي يسيطر عليها، وقد باتت المصدر الأول للوكالات الإخبارية العالمية في نقل أخبار المعارك في مناطقه. وقد نجحت وكالة أعمق في إرجاع الحكومة العراقية أكثر من مرة، كما إنها كشفت زيف وغلط بعض التغطيات الإخبارية التي كانت تروج عن انتصارات للجيش العراقي وسيطرته على مناطق<sup>(2)</sup>.

---

(1) دنيال قاسم، «إحصاءات المرصد العراقي للحربات الصحفية»، 25 أغسطس 2015.

(2) «تنظيم الدولة الإسلامية..أداء إعلامي مؤازر للأداء العسكري»، صحيفة التقرير، 2 أغسطس 2015.

كما هو الحال مع مدينة بيجي في محافظة صلاح الدين، وكانت في كل مرة تقوم وكالة أعمق ببث صور حية من تلك المدن التي تعلن الحكومة العراقية استعادتها، وهو ما سبب إحراجاً كبيراً للإعلام العراقي، وجعله أقل مصداقية لدى الوكالات العالمية في نقل الخبر من تلك المناطق.

- يعتمد التنظيم صرامة في عملياته الإعلامية التي تخضع إلى مركزية شديدة<sup>(1)</sup>، يدرس فيها كل تفصيل قبل نشره وتوزيعه، ويتخاذل الوقت المناسب للنشر بناءً على معطيات ومرام محددة. وجميع الحسابات الناشطة له على تويتر تخضع بدورها لإدارةً مركزية وعند انضمام مقاتلين جدد، يسعى التنظيم بكل جهد للحصول على حساباتهم على موقع التواصل الاجتماعي.

- ويرافق التنظيم وسائل الإعلام المتعاطفة معه<sup>(2)</sup>. وحاول استمالة الصحافيين القاطنين في المناطق التي يديرها، وفي بعض الحالات اجتهد في غسل أدمغة الصحافيين المحتجزين لديه، كما وافق على استضافة صحافيين ميدانيين أجانب كوسيلة للترويج لنفسه على المستوى الدولي. مع ذلك، لم يكن راضياً عن التقارير التي أعدّها هؤلاء الصحافيون، قائلًا إنهم شوّهوا الحقائق، فكفّ عن استقبال الصحافيين الأجانب. يساعد هذا الاحتكار للمشاهد المصوّرة والأخبار التنظيم على تجنيد أعضاء جدد على الصعيد العالمي، من خلال تقلص السرديات البديلة المختلفة عن سردّيته.

هذا في ما يتعلق بخطط داعش في التعامل مع وسائل الإعلام. وبشكل عام، يمكن القول إن جميع التنظيمات المتطرفة تشارك في الأهداف العامة

---

(1) لينا الخطيب، «استراتيجية تنظيم الدولة الإسلامية: باقية وتتمدد»، مركز كارنيجي للشرق الأوسط، 29 يونيو 2015.

(2) المصدر نفسه.

تجاه وسائل الإعلام. وتباين أولويات الأهداف بين تنظيم وآخر إلا أنها جميعها تسعى لتحقيق الأهداف الآتية<sup>(1)</sup>:

- استقطاب الرأي العام.
- الحصول على أعضاء جدد.
- نشر بياناتهم ومطالبهم.
- استخدام وسائل الإعلام كوسائل للتهديد والمطالب والتفاوض.
- الحصول على العلنية الإيجابية.
- ربط الرسالة بالصحة.
- تغليط العدو بنشر معلومات خاطئة.
- الحصول على العلنية بالموافقة على مقابلات مع الصحفيين.
- تخويف وسائل الإعلام عن طريق قتل الصحفيين أو خطفهم أو تعذيبهم.
- الإعلان عن الحركة الإرهابية وأهدافها.
- التأثير في الجمهور للحصول على تنازلات من الحكومة.
- التأكيد على خطأ وجهة نظر الطرف الآخر.
- توجيه اهتمامات الجمهور وفق أجندة الإرهابيين.
- الإعلان عن أعمال إرهابية أخرى.
- استخدام الصحفيين كمفاوضين في حالات محددة.

---

(1) مجموعة من المؤلفين، «التعاطي الإعلامي مع ظاهرة النزف والإرهاب»، إصدارات اتحاد الإذاعات العربية، أبريل 2015، ص 15-16.

- تحرير الجمّهور ضد الحكومة.
- الاستحواذ على محطات البث لتقديم رسائلهم.
- فرض أجندتهم وأفكارهم وآرائهم.
- الحصول على شبكات تواصل خارجية بين الإرهابيين.
- زرع الرعب والخوف لدى العدو من خلال تضخيم قوة الإرهابيين.
- الحصول على رد فعل الجمّهور.

### **وسائل الإعلام الغربية والموروث الثقافي**

عندما تؤسس القنوات الغربية فروعًا لها باللغة العربية، غالباً ما يكون الفرع أقل مهنية وموضوعية من الفضائية الأم في التغطيات الإخبارية كمًا ونوعًا. ومن المفارقة أن هذه الحالة تنطبق بشكل ملحوظ على الفضائيات العربية التي شرعت في تأسيس فروع لها باللغات الإنجليزية والفرنسية، حيث تحاكي الفروع الأجنبية لفضائيات العربية المذكورة نظيرتها الأجنبية في كيفية المعالجة الخبرية للأحداث وتحليلاتها السياسية لها. كما إنّ الخلفية التاريخية للدولة الراعية للقناة التلفزيونية تؤثر في تغطيتها للأخبار داخل المجتمع العربي نفسه أو للبلدان والمناطق التي للدولة الغربية سابقة احتلال لها. ففرنسا 24 مثلاً تولي أهمية لشمال أفريقيا على المشرق العربي مثلاً، وبالتالي عندما تغطي أخبار التنظيمات المتطرفة تفرد مساحة واسعة للحديث عن بوكو حرام أكثر من الحديث عن داعش مثلاً، أو تنظيم أنصار بيت المقدس في سيناء، كما إنّ هوية الإرهابي تلعب دوراً بالغ الأهمية في تغطية الخبر، وتتفاوت الأهمية بين محطة ومحطة داخل البيئة الغربية نفسها.

روسيا اليوم تهم كثيراً بالمقاتلين من أصل قوقازي مثلاً وتفرد تقارير عنهم، الإعلام الصيني يتحدث طويلاً عن المقاتلين الإيغور في

صفوف القاعدة وداعش. فرنس 24 تهم بالأصول المغاربية لهؤلاء، في حين القنوات الأمريكية تهتم لمن هو يحمل الجنسية الأمريكية أو عاش في الولايات المتحدة أو كان يخطط لاستهدافها. ونستحضر هنا أحد أبرز الأسباب التي دفعت واشنطن لإنشاء التحالف الدولي لمواجهة الإرهاب في سوريا والعراق؛ إذ إن القرار الأمريكي تزامن مع الحديث المكثف عن خلية خراسان في سوريا التي كانت تخطط لاستهدف مصالح حيوية في الولايات المتحدة علمًا أن التنظيمات المتطرفة نفسها نفت وجود هذه المجموعة بينها. كما إن لتصريحات الاستعمار في العقل الجمعي الغربي تجاه المنطقة ومشاكلها وواقع الأقليات فيها وما خلقه وحاكه الاستشراق في المخيال الغربي عن الواقع الشرقي ما يقيد تغطية أجهزة الإعلام الغربية لقضايا العرب والمنطقة، إذا ما أحسن الظن به.

و قبل الحديث عن الانتقادات التي توجه للإعلام الغربي تحديداً في تغطيتها للتنظيمات المتطرفة في العالم، لا بد من الإشارة إلى الشواهد المشيرة للريبة حول حقيقة الموضوعية التي تعتمد لها هذه الوسائل في تغطية الأحداث المرتبطة ب المسلمين وعرب. في كانون الثاني يناير في فرنسا خلال العام 2015، دخل الأخوان «شريف وسعيد الكوشي» - فرنسيان من أصل مغربي - مكاتب الصحفة الساخرة «شارلي إبدو» في باريس وقتلوا 11 موظفًا، مضافاً إلى ضابط شرطة أثناء خروجهما من المبنى. لم تمض فترة طويلة حتى قاد طيار أندرياس لوبيتز (Andreas Lubitz) طائرته متعمداً ليصطدم بجبال الألب الفرنسية قاتلاً الركاب الـ150 جميعهم. إلا أن الجريمة الأولى فقط ما تم وصفها من قبل السياسيين وتصويرها من قبل الإعلام بأنها «تهديد وجودي» و«نموذج للإرهاب».

وإذا ما ذهبنا غرباً نحو الولايات المتحدة، حيث غطى الإعلام الغربي مقتل ثلاثة مسلمين عرب على يد أمريكي بدم بارد، يلفت انتباها أن أغلب

الصحف الأمريكية<sup>(1)</sup> أحجمت عن ذكر هوية الضحايا في هذه الحادثة، كما ابعدت عن الإشارة إلى احتمالية أن تكون جريمة كراهية ضد المسلمين. قد شهدت مواقع التواصل الاجتماعي انتقاداً حاداً للแทغطية الإعلامية الغربية للحدث، وتصدر وسم هاشتاغ «Muslim Lives Matters» موقع تويتر، بما معناه «حياة المسلمين ليست رخيصة»؛ وذلك يقابل الوسم الذي انتشر على خلفية احتجاجات فيرغسون «Black Lives Matters» (حياة السود ليست رخيصة).

وهذا يعيينا بالذاكرة إلى المعالجة الإعلامية لأحداث 11 أيلول سبتمبر 2011 التي دفعت إلى تحويل الإسلام نفسه المسؤولية حينما اتهمته بقمع الحريات وممارسة العنف وإقصاء الآخر وزرع الكراهية. هذه المعالجة أتت بحرب شريرة «المثقفين الإعلاميين» التي تحولت من التحصن بالمعايير العلمي الرصين في تحليل الظواهر والأحداث إلى الكتابات التبسيطية التضليلية عن الإسلام، مستفيدين في ذلك من سياقات التوتر والقلق والخوف التي تعشه المجتمعات الغربية على ما يقول الباحث الفرنسي «فانسان جيشير»<sup>(2)</sup>.

واثمة شاهد آخر: حرق عائلة الدوابشة في الضفة الغربية عمداً على يد مجموعة من المستوطنين اليهود مطلع الشهر الثامن من العام 2015 في سيناريو لا يقل بشاعة عما فعله تنظيم داعش مع الطيار الأردني معاذ الكساسبة، تعاملت معه وسائل الإعلام الغربية بخلاف ما تعاملت مع مشهد حرق الكساسبة، وخلافاً تماماً لطبيعة التغطيات الخبرية التي تعتمدها مع أحداث تقوم بها التنظيمات المتطرفة دينياً، حيث نظر إليه من زاوية وجود

---

(1) <http://mashable.com/201511/02/muslimlivesmatter-chapel-hill/>.

(2) «دراسة: البيئة الفكرية الثقافية للإرهاب ومواجهتها»، صحيفة العرب اليومالأردنية، 7 مارس 2015.

صراع فلسطيني إسرائيلي معقد ومزمن، وأن جهة متطرفة وربما فرداً هو المسؤول عن هذا العمل، مع التأكيد على استنكار الحكومة الإسرائيلية للعمل ووصفه بالمشين، في حين كان يفترض تسليط الضوء على السياسات الإسرائيلية للحكومات المتعاقبة في حماية المستوطنين، فضلاً عن النهج العدائي الإسرائيلي بشكل عام تجاه الفلسطينيين.

وغالباً ما تقع وسائل الإعلام في فخ الترويج لخطاب التنظيمات المتطرفة على نحو يؤدي إلى تحفيز فئات اجتماعية مسحورة، أو جماعات عرقية وقومية ومذهبية مهمشة نحو الإرهاب للإعلام عن مطالبها الحقوقية. وقامت بعض وسائل الإعلام، عبر بعض أساليب تغطية الحوادث الإرهابية المتعاطفة، بلعب دور إيحائي وتخييلي وتحفيزي لعناصر تتبع إلى أجيال جديدة، وقامت إلى الانحراف في مجموعات عنف وإرهاب قائمة، أو تشكيل أخرى. كما إنَّ بعض التغطيات الإعلامية وتضارب المعلومات حول الحدث الإرهابي قد يعزز من الغموض، ويثير البلبلة مما يساعد في تحقيق أهداف الجهة المتورطة بنشر الرعب وتضخيم الحدث وإثارة الشكوك والريبة في المجتمع، فضلاً عن إفلات المجرم من توثيق جريمته. ويوجد بعض التغطيات الإعلامية التي لم تدرس بعناية ولم تدرك خطورة تناول الأحداث الإرهابية ومعالجتها بشكل كامل وعميق، ما قد يؤدي إلى خلق تعاطف بعض الجمهور مع الإرهابي.

## الانتقادات التي توجه للإعلام الغربي في تغطيته لأخبار التنظيمات المتطرفة

- تطيف النزاعات وأدلجتها دينياً، مثل تصوير الحرب في سوريا أو العراق أو اليمن على أنها حرب طائفية دينية، فالحوثيون شيعة في مقابل أغلبية سنية، والعلوية في سوريا أقلية شيعية مقابل أكثرية سنية متنفسة، وفي البحرين تقع أقلية سنية أغلبية شيعية، لكن لا يخبروننا كيف ينطبق هذا

التحليل على بلاد مثل مصر أو ليبيا، حيث تنتشر التنظيمات المتطرفة بقوة مثلاً؟ ولا كيف أن بلداً مثل تونس تعتبر من أكثر الدول المصدرة للإرهابيين والمتطرفيين عربياً إلى جانب السعودية، علمًا أن السعودية يحكمها مذهب ديني يوصف بالمتشدد وفيها تنوع مذهبى، وتونس بلد للعلمانية فيه تاريخ عريق وأغلب أهله من طائفه ومذهب واحد!

- المبالغة الغربية في حجم الجماعات المتطرفة، وهو ما يثير الريبة حين ترى تحليلات في كبريات الصحف المرموقة تطرح تساؤلات على شاكلة: هل الاحتباس الحراري قد يكون مسؤولاً عن ولادة التنظيمات المتطرفة مثل داعش؟ لماذا لو ربح داعش الحرب على العالم، هل على العالم التعايش مع دولة داعش إذا لم يهزمه؟ حديث وزير الدفاع الأمريكي عن حاجة العالم لثلاثين سنة لمواجهة التنظيم دون أن يحدثنا عن حالنا خلال هذه العقود الثلاثة التي سيواجه فيها التنظيم مثلاً؟ هل نحتاج إلى تدخل خارجي مثلاً بعد تصوير عجز الدول العربية والإقليمية مجتمعة عن مواجهة التنظيم؟

- زيادة التركيز على عمليات القتل التي تتناول المثلين جنسياً، أو الممتهنات للدعارة، وغيرها من القضايا التي تتناقض مع قيم المجتمع العربي المحافظ خلافاً للمجتمعات الغربية، إذا ما قارناها بأفعال هي أكثر إجرامية ترتكبها التنظيمات المتطرفة.

- يحظى المقاتلون الغربيون من أصل عربي ومسلم بتغطية واسعة داخل التنظيمات المتطرفة.

- التركيز بشكل مطول على الضحايا الغربيين من بينآلاف الضحايا الذين قضوا على يد داعش مع إبراز الجانب الاجتماعي لعائلة الضحية من خلال التواصل مع عائلته وتمجيد أفعاله وتكرار صرخات نداء الاستغاثة

التي ترسلها الزوجة أو الوالدان لداعش من أجل الإفراج عن الضحية. وهو أمر لا نكاد نجده إذا ما كانت الضحية عربياً مسلماً.

- التركيز على الآثار وعملية تدميرها دون إفراد مساحة واسعة لعمليات التهريب للدول الغربية وهي كثيرة.

- الحرص على إجراء مقابلات مع أطفال انتما لداعش أو تواجدوا في معسكراتهم لتصوير أن الإسلام بمجمله دين غير قابل للتعايش مع الآخرين.

- التركيز على أن مشاكل المنطقة هي صناعة أصحابها دون التنبه لمسؤولية الاحتلال الغربي للعراق مثلاً في وصول الأوضاع إلى ما هي عليه.

- نادراً ما يشير الإعلام إلى مسؤولية الحكومات الغربية عن دعم الفكر المتشدد مطلع الثمانينات وتوظيفه في خدمة مصالحه ضد المعسكر السوفيaticي في أفغانستان ومناطق أخرى.

- تغيب عن ساحات المعالجات لمواجهة التنظيمات المتطرفة أبرز قضية، وهي الاحتلال الإسرائيلي للأرض الفلسطينية وتهجير أهلها، وهذا أمر لا يوحى بالبراءة مطلقاً.

- نقل بعض المعلومات عن نوعية الأسلحة المستخدمة، وقدراتها التدميرية وخصائصها الفنية، والتكتيكات الإرهابية، على نحو يثير الخيال والإعجاب بالأعمال الإرهابية<sup>(1)</sup>.

- إظهار المخاطر الحقيقة للتنظيمات «الجهادية» بشكل متاخر أو الترويج عن قصد؛ تمهدأ لاتخاذ خطوة سياسية، مثلما ركزت التقارير

---

(1) «الإعلام والإرهاب.. استراتيجية المواجهة»، شبكة الأخبار العربية.

الاستخبارية على قلق وكالات الاستخبارات الغربية، منها الألمانية، بامتلاك «داعش» وجماعات أخرى سلاح قاذفات «مانبادس» أو «أس إي-7» و«أس إي 14» والتي تستهدف الطيران على بعد ميلين<sup>(1)</sup>.

- ظهور الرهينة قبل ذبحه بأنه مستسلم وهاديء ورابط الجأش، كما يظهر في كل الإصدارات المرئية لتنظيم داعش، يثير التكهنات حول حقيقة الهدوء الذي يتمتع به الضحية وهو يواجه الموت، والطريقة القوية التي يبعث بها رسالته إلى حكومته أو عائلته والرأي العام. كل ذلك يصور للرأي العام بأن ما يعمله هو الصواب والعالم أجمع على خطأ، وهذا ما عمل على استقطاب أكثر للتنظيم<sup>(2)</sup>.

### وسائل الإعلام العربية وتغطية الأعمال الإرهابية

في دراسة أجراها الدكتورة نصرية تامي، من كلية علوم الإعلام والاتصال في جامعة الجزائر، على أبرز قناتين فضائيتين عربيتين قبل العام 2010، تناولت قضيّاً معالجة الإرهاب في القناتين خلال الفترة الزمنية الممتدة ما بين 11 سبتمبر 2001 ونهاية ديسمبر 2007، حيث وقع الاختيار على الأربع ببرامج حوارية. اختير من قناة العربية البرامج الآتية: «صناعة الموت»، «بانوراما»، «تحت الضوء»، و«مشاهد وآراء». ومن قناة الجزيرة: «الاتجاه المعاكس»، «ما وراء الخبر»، «أكثر من رأي»، و«بلا حدود».

وبعد الرصد والتحليل لمضمون الحلقات ونوعية الضيوف وكيف تمت المعالجة خلال الفترة الزمنية المحددة بالعقب، توصلت الدراسة إلى وجود تباين كبير بين القناتين في استخدام أسلوب معالجة قضيّاً الإرهاب.

---

(1) جاسم محمد، أساليب داعش في استقطاب المؤيدين: استخدام الإعلام والفتيات، مركز بيروت لدراسات الشرق الأوسط.

(2) المصدر نفسه.

فقناة الجزيرة ركزت على استخدام أسلوب عاطفي إنساني، مدّعّم بجدال صرافي شتائي يشبه صراع الديكة. وبهذا، تكون القناة قد تبنت معالجة دعائية قائمة على مبدأ التهويل في طرح ومناقشة قضايا الإرهاب. بينما جاءت قناة العربية أكثر توازنًا، على ما تقول الدراسة التي خلصت إلى عدم جدوى فاعلية البرامج الحوارية بالقناتين، حيث يترك أطراف الحوار الفاقد مفتوحًا ما يقع المشاهد في حالة من الغموض والارتباك وعدم الفهم والعجز عن اتخاذ موقف محدد، حيث لا تقدم حلولاً في نهاية البرنامج من قبل المقدم. وأحياناً يتبنى المشاهد أفكاراً ومفاهيم غير صحيحة عن قضايا الإرهاب.

ومن أبرز ما قررته الدراسة أن القناتين اتفقا على «شخصنة الإرهاب»، حيث جرى التركيز في معالجة قضايا الإرهاب على القيادات الموصوفة بالإرهاب (أسامي بن لادن، أيمن الظواهري...); فالجزيرة من منطلق الدفاع والتأييد لهذه الشخصيات في مواجهة التوجه الأمريكي بعد ضرب أبراج التجارة العالمية في نيويورك عام 2001، بينما العربية من منظور الرفض والمعارضة للشخصيات المذكورة، متماهية مع التوجه الأمريكي. وتعمدت القناتان استخدام عملية الشخصنة بهدف التعنيف على الأسباب الحقيقة للإرهاب ولفت الأنظار عن جذوره العميقة. وبعيداً عن منطق المؤامرة، وباستقراء موضوعي بحث لأغلب ما تقدمه القنوات العربية من معالجات وتغطيات إخبارية لقضايا الإرهاب والتطرف الديني نجد أنها تقع في أخطاء كثيرة، منها:

- التركيز على الفعل الإرهابي كحدث خبري أكثر من التعاطي معه كفعل في إطار ظاهرة لها أسبابها وعواملها.

- وبما أن الحكم على الشيء فرع من تصوره، فكذلك التعامل مع المشكلات الاجتماعية، والإرهاب جزء منه. فإذا ما استمر الإعلام العربي

ينطلق من تصورات خاطئة لطبيعة الفعل الإرهابي ستظل تغطياته متوجلة وسريعة، وأحياناً سطحية.

- وتبعداً للمعالجة الخبرية المتسرعة تغيب عن البرامج السياسية والاجتماعية المعنية بالإرهاب الطرودات ذات الطابع التفسيري والتحليلي، وكذلك الطابع الاستقصائي.

- مع غياب دراسة الإرهاب كظاهرة لها أسبابها العميقة السياسية والاجتماعية والاقتصادية والدينية، تخرج المعالجة الإعلامية للإرهاب وكأنها حالة مجردة، تقع خارج حدود الزمان والمكان والمجتمع، وهذا ما يضعف قدرة التغطية على الإنقاع، لأنه يفقدها طابعها الملموس<sup>(1)</sup>.

- تسود في الغالب، معالجة العملية الإرهابية كحدث منعزل، وليس كعملية تجري في سياق معين، وتحدث في بيئة معينة.

- لا تنطلق التغطية الإعلامية العربية للظاهرة الإرهابية وللعمليات الإرهابية من الاستراتيجية الإعلامية للإرهابيين، وبالتالي تتعدد خطوات هذه التغطية في مواجهة إعلام الإرهابيين.

- لا يتوفّر لدى الكثير من وسائل الإعلام العربية قادر إعلامي مؤهل ومختص، قادر على تقديم معالجة إعلامية مناسبة لهذه الظاهرة المعقّدة والمتباينة والمتشابكة والمتعلقة بالأبعاد<sup>(2)</sup>.

- لا تعتمد وسائل الإعلام العربية، في الأعم الأغلب، على الخبراء والمختصين في المجالات الأمنية والاجتماعية والنفسية والثقافية والدينية والتربوية لمعالجة الجوانب المختلفة للظاهرة الأمنية، كما لا تتعاون،

---

(1) «الإعلام والإرهاب: استراتيجية المواجهة»، شبكة الأخبار العربية.

(2) مجموعة من المؤلفين، «التعاطي الإعلامي مع ظاهرة النظر والإرهاب»، إصدارات اتحاد الإذاعات العربية، أبريل 2015، ص 8-9.

كما يجب، مع المؤسسات التربوية والدينية والاجتماعية المعنية بمواجهة الظاهرة الإرهابية<sup>(1)</sup>.

- يغلب على التغطية الإعلامية العربية للظاهرة الإرهابية الطابع الرسمي والاعتماد، في الغالب، بشكل مطلق على مصدر واحد، وهو المصدر الرسمي، وهذا ما يضفي عليها طابعاً بالغ الرسمية، وربما الجمود، لا يتوافق مع الخصائص الذاتية للإعلام.

- تميز التغطية التي يقدمها الإعلام العربي للظاهرة الإرهابية بعدم الانظام وعدم الاستمرارية، ولذلك تأتي هذه التغطية متقطعة، وتزداد كثافة أثناء العمليات والمناسبات والمؤتمرات، ثم تضعف، وتتواتر، وربما تخفي نهائياً وهذا ما يؤثر سلبياً في قوتها تأثيره<sup>(2)</sup>.

- لا تقوم التغطية الإعلامية العربية للظاهرة الإرهابية، في كثير من الأحيان على قواعد علم الإعلام ونظرياته، ولا تستخدم مداخل إقناعية مناسبة، ولا تنطلق من نظريات تأثير مناسبة؛ بل ربما تتسم هذه التغطية بالغفوية والارتجال وعدم التخطيط، الأمر الذي يجعلها تغطية تفتقر إلى الإطار المرجعي الذي يحقق لها التماسك المنهجي.

- تقع هذه التغطية في أحيان كثيرة في فحخي التهويين أو التهويل بالظاهرة الإرهابية. وهذا ما يؤثر سلبياً على مصداقية هذه التغطية وعلى مقدرتها على الوصول والتأثير.

- تفتقر الممارسة الإعلامية العربية إلى وجود أي قدر من التعاون

---

(1) المصدر نفسه.

(2) محمد قبراط، «الإعلام العربي وتغطية الإرهاب.. التسطيح وغياب المهنية»، الشرق القطرية، 31 كانون الثاني 2015؛ مجموعة من المؤلفين، «التعاطي الإعلامي مع ظاهرة التطرف والإرهاب»، إصدارات اتحاد إذاعات العربية، أبريل 2015.

والتنسيق على مستوى عربي من أجل تقديم تغطية ذات طابع عربي عام ومشترك لهذه الظاهرة.

## توصيات

يعاني الإعلام العربي بكافة مجالاته صعوبات في جمع المعلومات الخاصة بالتنظيمات الإرهابية في الوطن العربي نتيجة السرية الشديدة التي تحرض عليها التنظيمات المتطرفة وإبرازها فقط للجانب الذي تريد الترويج له، كما إنّ من المعروف عريضاً ضعف الاعتماد على الأساليب العلمية والمتخصصة في دراسة الظاهرة الإرهابية، فضلاً عن ندرة البحوث والدراسات الرصينة والاستفتاءات واستطلاعات الرأي حول التنظيمات المتطرفة وأطروحاتها الفكرية والسياسية وهو ما يضعنا أمام واقع يتمثل في نقص الكوادر البشرية الإعلامية المتخصصة في قضايا الإرهاب مع غياب شبه عام للرؤية الإعلامية الأمنية الشاملة. وتلافياً للوقوع في شرك التنظيمات المتطرفة أثناء تغطية أخبارها على الوسائل الإعلامية والبرامج الإعلامية الراسدة الالتزام ما أمكن بالضوابط الآتية:

- الاجتهاد ما أمكن للحصول على المعلومات الخبرية من جهة مستقلة موثوقة، وعند الاضطرار لعرض خبر أو استعراض مقاطع من الإصدارات المرئية للتنظيم المتطرف على الوسيلة الإعلامية الإشارة إلى أن المعلومات الواردة لم تتأكد صحتها من جهة مستقلة وموثوقة.

- دراسة البيانات الصادرة عن التنظيمات المتطرفة وعدم التوسيع في نشرها، واقتصر النشر على الجديد فيها بمقارنتها مع البيانات السابقة، وبما لا يوحى بأي نوع من التعاطف أو التفهم.

- عدم الترويج للمواقع الإلكترونية التي تعمد التنظيمات المتطرفة

إلى نشر بياناتها وأصداراتها المرئية فيه، وإذا اقتضى الأمر يذكر اسم الموقع دون صورته أو دليل الوصول إليه.

- عدم التركيز على الجوانب الشخصية وعدم نشر صورهم إلا في حدود.

- عدم تصوير الإعلام الإرهابي صانعاً للأحداث.

- التركيز على حالة ضحايا الإرهاب وأسرهم عقب الحادث مباشرة وبعد سنوات أيضاً.

- إبراز دور المواطن ومؤسسات المجتمع المدني في مواجهة التطرف والإرهاب.

- على المعالجة الإعلامية للحدث الإرهابي ألا تقتصر على الجانب الخبري للموضوع أو تنزلق إلى دائرة رد فعل، فلا بد من تحليل الحدث من خلال متخصصين في مختلف المجالات النفسية والعسكرية والدينية لتبليان انحراف وخطورة العمل المتطرف. وهذا يتطلب توفر خطط إعلامية قائمة نابعة من واقع المجتمع وثقافته، وبعيدة عن القوالب الإعلامية الجاهزة القادمة من مجتمع آخر، يقوم على تنفيذها كادر بشري محترف فنياً، ويحظى بالدعم المالي الذي يمكنه من تنفيذ الخطط وتقييم تطبيقها كل شهور عدة.

- يضاف إلى ذلك وضع خطط استراتيجية تساعد في توجيه وسائل الإعلام في التعامل مع القضايا الإرهابية بشكل عام. وهذا قد يتطلب ما يأتي:

- إنشاء وحدة إعلام متخصصة في التعاطي مع قضايا التطرف والإرهاب.

- إنشاء وحدة رصد لدراسة التغطيات الإعلامية المختلفة لقضايا التطرف والإرهاب.
- تنظيم دورات تدريبية دورية ومستمرة لتنمية مهارات الصحفيين المتخصصين في تغطية التطرف والإرهاب والأزمات.
- إصدار مدونة سلوك وميثاق أخلاقيات يتم فيه ضبط قواعد التعامل مع الأحداث الإرهابية.
- إنتاج مضمون إعلامي تساهم في مكافحة التطرف والإرهاب (الدراما، الموسيقى، برامج الأطفال، برامج وثائقية، ومضات توعوية...).
- الاهتمام بالأنواع الصحفية المختلفة لتغطية قضايا الإعلام والإرهاب.
- التخلّي عن خطاب العنف والكراهية والتحريض في الخطاب الإعلامي الذي يعالج قضايا التطرف والإرهاب.



## **الجلسة الخامسة**

### **قراءات ختامية في ظاهرة العنف التكفيري وسبل المواجهة**

- كلمة رئيس الجلسة (الشيخ ماهر حمود)
- تنظيم القاعدة: الأجيال الثلاثة: رؤية عسكرية (الأستاذ محمد خواجة)
- التكفير عند جماعات العنف التكفيرية: الجنور والعوامل وسبل المواجهة: قراءة تاريخية وسيوسولوجية (الدكتور يحيى فرات)
- جنور الإرهاب، ومصطلحاته، والمواقف السياسية المحيطة به، وسبل معالجته (العميد المتقاعد إلياس فرات)
- إعادة صياغة مفهوم الإسلام السني ودوره في مواجهة الإرهاب (الدكتور أحمد موصللي)



## كلمة رئيس الجلسة

الشيخ ماهر حمود<sup>(1)</sup>

كيف نقل الإسلام من 14 قرناً إلى اليوم، موضوع لم يستطع لا جمال الدين الأفغاني ولا محمد عبده ولا الإخوان المسلمين ولا غيرهم حلّه.

يوجد ثابت في الإسلام ويوجد متتحول، فكيف يمكن التوفيق بين الوحي المُنزل الذي لا يعتريه تغيير وبين المتغيرات الحقيقية في أساليب حياة الإنسان ومنها الحياة السياسية في أوروبا وغيرها؟

الإمام الخميني وجد حلاً جريئاً ونجح إلى حد كبير في فكرة الإصلاح وفكرة ولادة الفقيه، وتجاوز الخلافات الشيعية الشيعية العميق، التي يمكن أن تكون أعمق من الخلافات السننية؛ لكن عباءته الكبيرة ومشروعه السياسي الناجح غطّياً التغرات الموجودة عند إخواننا الشيعة، والذي ساعد في نجاحه هو تمسكه في قضية فلسطين والعالم الإسلامي. هذه العباءة الكبيرة للأسف لم تستطع أن تغطي التغرات السننية؛ لأن ثمة تبايناً جغرافياً وفقيهاً وقومياً بين الشيعة والسنة. لذا أصبحت الأزمة سنية الآن، فالزهر عاجز وأسباب عجزه كثيرة، منها أنه مؤسسة رسمية تابعة للدولة، ومنها

---

(1) الأمين العام لاتحاد علماء المقاومة، لبنان.

العجز المالي، ومنها الحرب السلبية عليه، وغير ذلك الكثير. ثمة أزمة حقيقة في العقل السنّي، ولم يوجد خميني في الساحة السنّية ليتحقق بهذا الركب، وفي الوقت نفسه لا يستطيع السنّة أن يتّأقلموا مع هذه الإنجازات الشيعية الكبيرة. لذا يمكن أن نحمل جزءاً كبيراً من مسؤولية الخلافات الآن إلى الشيعة، فهم عليهم أن يستوعبوا السنّة طالما أنّهم يمسكون بدفع الصراع ومتقدمون كثيراً على المجتمعات والحركات السنّية، من المفروض وجود اهتمام أكبر باستيعاب السنّة.

نعم، ثمة استيعاب بعض النظر كافياً كان أو لا، ولكن على السيد علي الخامنئي لكونه قائد هذه الأمة أن ينظر كيف يتجاوز هذه الأزمات وكيف يستوعبها، هو القائد، وعليه أن يتحمل مسؤولياته، وهنا يكمن فن القيادة. وفي لبنان لم يشعر السنّة باهتمام فرقائهم الشيعة.

الآن ومع اعترافنا بعمق الخلافات، يمكن أن ندعى أن الإخوان المسلمين لا زالوا مؤهلين فكريًا وثقافياً للإمساك بالقيادة، لكن للأسف نشاطهم السياسي في هذه الآونة هزيل، ولا يعكس ما كانوا عليه سابقاً؛ ذلك أنّهم وقعوا بشكل كامل بالفخ الأميركي، وال سعودي هو عملياً أمريكي، فيما فكر الإمام حسن البنا وسيد قطب ليس كذلك على الأطلاق وهم أقطاب فكر الإخوان.

للأسف لم يعد يوجد شيء اسمه إسلام سنّي على الصعيد السياسي أبداً، ثمة إسلام تمثله إيران على الصعيدين السياسي والجهادي. وعليهم أن يستوعبوا ويأخذوا بيد المتخلفين من الساحة السنّية وإلا لا يصلحوا ليكونوا قادة.

# تنظيم القاعدة: الأجيال الثلاثة

## رؤيه عسكريه

الأستاذ محمد خواجة<sup>(1)</sup>

يُرَكِّز بحثنا على المجالين الاستراتيجي والعسكري، لتبیان الفروق والتمایزات، بين أجيال تنظيم القاعدة المتعاقبة، ولا سيما الأول والثالث منها. وأسبابها متكوّنة من متغيرات العوامل الذاتية والموضوعية الناظمة لمراحل تطور التنظيم خلال العقود الماضية. أحدثت تلك الأسباب تبدلات جوهيرية في طرائق التفكير، والبنية العسكرية، وأساليب القتال، والتسلیح والتجنيد والتمويل والإعلام... مُضافاً إليها اختلاف قراءة تلك الأجيال للأوضاع الجيوسياسية، وسبل تحقيق طموحاتها وأهدافها.

ومن نافل القول، إن القاعدة باختلاف أجيالها وفروعها تعرف من منابع فكرية، تتبع مدارس فقهية متشددّة، تکفر الآخر المختلف، وتحضُّ على إلغاء وجوده. وهي جمیعها أُسيرةٌ منهاج تفسیراتٍ جامدةٍ وضيقةٍ لنصوص وأحاديث وفتاوی، من دون لحظ تبدل الأحوال والأزمنة. وهذا يفسر سلوكياتها التي تزداد مع الوقت، غلواً وتطرفاً ووحشية تجاه مجتمعاتها، وحتى في علاقاتها البینیة.

---

(1) باحث في الشؤون الاستراتيجية، من لبنان.

## القاعدة

وُلد تنظيم القاعدة، عملياً، من رحم الجهاد الأفغاني، وإن تأخر الإعلان عن تأسيسه حتى نهاية ثمانينات القرن الماضي، على أيدي أسامة بن لادن، وأيمن الظواهري، ومدحت مرسي السيد عمر، وعبد الله عزام، وأبي مصعب السوري وآخرين. وأغلب الملحقين بصفوفه، باكرًا، هم من «الأفغان العرب» الذين شاركوا في الحرب ضد الجيش السوفيافي. وبعد عودة هؤلاء إلى ديارهم، عاملتهم أنظمة بلدانهم كضياعات متدهية الصلاحية.

وأدى الغزو العراقي لل科ويت (آب 1990) وما استتبعه من قدوم جيوش التحالف الدولي بزعامة الولايات المتحدة، وانتشارها فوق أرض الحرمين، ليثير حفيظة ابن لادن والمتشددين السعوديين؛ فوق الشقاق مع الأسرة الحاكمة التي سبق لها وشجعوهم على الجهاد في أفغانستان. وعندما نفي ابن لادن، وسحبت الجنسية منه، لم يجد مأوى له ولأنصاره سوى السودان الذي وقع تحت إغراء استثماره لحوالي 200 مليون دولار في مجالات الزراعة والمقاولات والمشاريع. وما لبث أن حطّ الرحال بهؤلاء في أفغانستان (1996)، غداة اعتقال السلطات السودانية المئات من أعضاء جماعة الجهاد التابعة للظواهري، التي اتهمت بعملية الاغتيال الفاشلة للرئيس المصري الأسبق حسني مبارك.

## نشاطات القاعدة

وفّرت أفغانستان تحت سلطة طالبان، موقعًا مثالياً لتنظيم القاعدة الذي أعلن الجهاد لطرد القوات الأجنبية من بلاد المسلمين، وعمل على نشر فروع تابعة له في المديّن الإقليمي والدولي. في تلك الحقبة، نشط التنظيم في المجال الأمني، فنفّذ سلسلة ضربات أبرزها: عملية انتحاريتان: الأولى، استهداف قاعدة للحرس الوطني في الرياض (1995)، والثانية، ضد قاعدة للمارينز في مدينة الخبر السعودية (1996). وكان قد

سبقهما مهاجمة مركز التجارة العالمي في نيويورك (1993) على يد أحد كوادره رمزي يوسف. وأدت عملية السفارتين الأميركيتين في كينيا وتنزانيا (1998) إلى مقتل نحو 300 شخص معظمهم من المدنيين. وبعد ستين، قصفت مجموعة من قاعدة اليمن المدمرة «يو أس أس كول» بالصواريخ، أسرف عن مقتل 17 بحّاراً أميركيّاً وإلحاق أضرار بالغة بها.

شكلت هجمات 11 أيلول 2001، التي أودت بحياة أكثر من 3000 شخص، الضربة الأكثر إيلاماً للولايات المتحدة، حين هاجم 19 عنصراً أغلبهم سعوديون مركز التجارة العالمي، ووزارة الدفاع (البيتاغون) بواسطة أربع طائرات بوينغ مدنية مخطوفة مع ركابها. وكان من المقرر أن تهاجم إحداها البيت الأبيض أو مبني الكابيتول، لكنها تحطمت فوق ولاية بنسلفانيا في طريقها إلى واشنطن. وبرر ابن لادن ذاك الفعل، بأن أميركا تذبح المسلمين في فلسطين وكشمير والعراق، ومن حقهم الانتقام، نافياً استهداف المدنيين؛ بل رموز القوة العسكرية والاقتصادية الأميركيّة.

قدم هذا الفعل المرّوع ذريعةً لإدارة بوش الابن، ليفتح «حروبه الصليبية» الشرق أوسطية، فكان الغزو الأطلسي لأفغانستان، الذي انخفض بعده منسوب ضربات القاعدة، التي حوصرت قيادتها، «الجيل المؤسس»، في الجبال المتاخمة لباكستان.

## الم ردود الاستراتيجي

قبل الغزو الأميركي لأفغانستان، اعتمد تنظيم القاعدة مبدأ، «مركزية القرار ولا مركزية التنفيذ»، بما يعني أن تحديد الأهداف والتخطيط والمتابعة، وتقديم المشورة والتدريب إذا لزم الأمر، هي من مهام القيادة المركزية. أما الخطوات الإجرائية، فتقع على عاتق المجموعات القتالية المولجة التنفيذ. وتميزت عمليات القاعدة، بشكل عام، بدقة التخطيط المستند إلى معلومات وفرتها الخلايا المحلية التي يُوكل إليها، عادة،

الاضطلاع بالمهمة. وساعد التباعد الزمني بين العمليات على تأمين عنصر المباغة، في اختيار المكان والتوقيت المناسبين.

أما المردود الاستراتيجي والسياسي لتلك العمليات، فصبت لمصلحة من تدعى القاعدة أنها تحاربهم، لأن أغلب ضحاياها من المدنيين. هذا الأمر ساعد على انتشار الكراهية تجاه العرب والمسلمين في الغرب، وأوجد شعوراً عاماً بالاستياء حتى بين عامة المسلمين أنفسهم، على عكس رغبة قيادة القاعدة التي أملت أن تؤدي ضرباتها إلى استقطابهم.

## الجيل الثاني

أثار غزو العراق فرصة لاستئناف تنظيم القاعدة، وتوفير ملاذ لكوادره ومقاتليه الذين تسرب جزء كبير منهم من أفغانستان إليه، عقب سقوط سلطة طالبان. وبرز في ميدانه، الجيل الثاني من التنظيم عبر جماعة التوحيد والجهاد بقيادة أحمد فضيل نزال الخالية، المعروف بأبي مصعب الزرقاوي، الذي بني قواعده ارتكاز له في المحافظات ذات الأغلبية السنّية، تحت ستار محاربة الأميركيين. وظهر تحدّ أمام الزرقاوي وجماعته، لم يعرفه التنظيم الأم من قبل، متمثلاً بالسيطرة المباشرة على مساحات جغرافية كبيرة، يقع على عاتقهم عباء الدفاع عنها. وكان حالها مختلفاً عن مناطق «الإعارة» التي وضعـت بتصـرف الجـيل الأول من القـاعدة في السـودـان وأفغانـستان.

## انقلاب الأولويات

تطلب العبء الميداني من قيادة الجيل الثاني، استنباط طرائق جديدة في مجالات التبيئة والدعائية وخطاب الاستقطاب، لتجنيد أعداد وفيرة من «الجهاديين»، لحماية مناطق سيطرتها. وقد استفادت من تفـكـك

العراق، وتفشي سومون التزعّات الاثنية والمناطقية والمذهبية؟ فعملت على تسعيرها، لجذب الشباب السنّي إلى جانبها.

ولتحقيق المبتغى، قلب الزرقاوي وجماعته أولويات تنظيم القاعدة، مستبدلاً مقاتلة العدو البعيد (الجهاد الخارجي) بالعدو القريب (الجهاد الداخلي)، وشمل النظم الحاكمة ومؤسساتها العسكرية والأمنية والقضائية... مُضافاً إليها أبناء الديانات والمذاهب الأخرى، التي اعتبرت «دفراً سورات» في بناء الأمة الإسلامية، وكذلك أهل السنة من ينادون المفاهيم والأهواء المتشددة. ولتسهيل مقاتلتهم رمياً جميعاً بتهم الكفر والردة والشرك. وباستثناء تنفيذ جماعات الجيل الثاني القاعدي بعض الهجمات ضد جنود الاحتلال الأميركي، فقد أسقطت العدو البعيد من منظومة تفكيرها وحساباتها ونشاطاتها الميدانية.

### تبّدل المفاهيم

اكتفى الجيل الأول بحماية مناطق وجوده، كقاعدة آمنة للتخطيط وإدارة العمليات البعيدة ضد العدو، وحولها إلى مراكز لاستقبال المتطوعين العجدد الوافدين من بلاد مختلفة، وإن بأعداد ليست كبيرة؛ لكي يجري تدريّبهم في المعسكرات الأفغانية على أعمال القتال واستخدام الأحزمة الناسفة (الانتحاريون)، والتفحيخ، وصناعة المتفجرات وغيرها... بينما الجيل الثاني من القاعدة الذي نبت في ميادين مضطربة كالعراق والصومال، ونما في مناطق سيطرة خاصة به، بدا له مشروع الدولة، أو أقله، الإمارة الإسلامية، هدفاً منظوراً بالإمكان الوصول إليه.

وتدرّيجياً، بترت الفروق بين الجيلين القاعديين على مستوى الهرمية العسكرية والقدرات وأساليب القتال والتجنيد، واختلاف الرؤى والمفاهيم تجاه كيفية بلوغ الهدف الاستراتيجي. وسعى الجيل الثاني، بجدية، لتحقيق فكرة الإمارة على أرض الواقع، في وقتٍ كان ما تبقى من الجيل الأول

يعاني العزلة؛ وتقلّصت نشاطاته إلى الحدود الدنيا، إثر تفكك منظومة القيادة والسيطرة لديه، والخسائر التي مُني بها.

مع الجيل الثاني، تبَدَّل مفهوم القيادة، وكيفية إدارة العمل «الجهادي» عند تنظيم القاعدة من «مركزية في القرار، ولا مركزية في التنفيذ» إلى لا مركزية في القرار والتنفيذ معاً. حينها، خرج جيل الزرقاوي، عملياً، عن إمرة التنظيم، الذي تحول، بعد مقتل ابن لادن (أيار 2011)، إلى ما يشبه الجماعات الكونفدرالية؛ فلم يعد لقيادة تورا بورا تأثير عالماني على مباعيها، في أغلب ميادين انتشارهم من شمال أفريقيا إلى بلاد الشام وشبه الجزيرة العربية...».

### الجيل الثالث

أما الجيل الثالث وهو موضع بحثنا، ولد في الميادين التي عصف بها ما سمي بالربيع العربي، وبات أغلبها مرتعًا للاستقرار والحروب الأهلية. ووجدت جماعات العنف التكفيري في تسييد الفوضى، وتراثي قبضة النظم الحاكمة، فرستها التاريخية للانتقال من مرحلة «بناء القدرات العسكرية والاستخبارية والإعلامية والطبية...» إلى مرحلة التمكين التي تقدّر القيادة فيها، أن العدو على وشك الانهيار العسكري في إقليم معين، لتبدأ عمليات الفتح والسيطرة على المناطق، بهجمات خاطفة ومتزامنة تنتهي بتطهير الإقليم»<sup>(1)</sup>.

وفقاً لتلك الرؤية، استغلت الجماعات التكفيرية الظروف الموضوعية المؤاتية؛ فتطورت قدراتها الذاتية، عبر تبني أساليب ميدانية ذات دينامية عالية، وبناء هرميات عسكرية أشبه بالجيوش الجوالة، لتلبّي متطلبات استراتيجيات وتقنيات طموحة وجريئة. عندها، توسّعت الهوة بين قياديي الجيلين

---

(1) عبد الله بن محمد، «المذكرة الاستراتيجية»، ص. 75.

الثالث والأول للتنظيم، وتعزّزت مناخات التنصل ونقض البيعة داخل البنيان القاعدي أكثر من ذي قبل. وطفت على السطح ظواهر تمرد أبرزها، «الدولة الإسلامية في العراق والشام»، المصطلح على اختصارها بتسمية، داعش، التي أعلنت بعد تشددها على مساحات شاسعة من الجغرافيا السوراقية دولة الخلافة، بزعامة إبراهيم البدرى المعروف بأبي بكر البغدادى.

خلال فترة وجيزة، حصدت داعش مبادعه الكثيرين من الجماعات «الجهادية» مثل، بوكو حرام النيجيرية، وأنصار بيت المقدس في شبه جزيرة سيناء، وعدد من التنظيمات اليمنية واللبنانية المتطرفة، وحركات أفغانية وباكستانية تزاحم طالبان في تشددتها... الذين انبهروا بعد غزوهم الموصل والسيطرة على أجزاء واسعة شرقي وشمالي سوريا، بأساليب قاتلها الصادمة وسرعة إنجازاتها الميدانية، فسحب البساط من تحت أقدام قيادة الظواهري.

أما من بقي على الولاء له، مثل جبهة النصرة وحركة أحرار الشام وتنظيم القاعدة في شبه الجزيرة العربية وغيرها؛ فيبعثه شكلية ممنوعة من الصرف على أرض الواقع. وليس خافياً، سعي النصرة (الممولة قطرياً) الشقيقة اللدددة لداعش، ومعها أحرار الشام الموالية لتركيا، وجيش الإسلام بقيادة زهران علوش التابع للسعودية وغيرها من التنظيمات «الجهادية»، إلى إقامة إمارات إسلامية في مناطق سيطرتها. وما يحول دون إعلانها رسمياً حتى الآن، تعقيدات الوضع الإقليمي وصعوبات الميدان السوري.

لقد تحولت القاعدة، فعلياً، إلى يافطة ترفعها جماعات جهادية ظرفية، غير مرتبطة برأس هرمها القيادي، بعدما أصبحت أكثر حضوراً وقدرةً وبأساً من التنظيم الأم؛ وقد صنفت تلك الجماعات، مجازاً، الجيل الثالث من القاعدة.

## لماذا داعش والنصرة؟

على الرغم من تصنيف العديد من القوى «الجهادية» الناشطة، في أكثر

من ميدان، ضمن عداد هذا الجيل، إلا أن تركيزنا سوف يقتصر على تنظيم داعش، الذي بات الشغل الشاغل لقوى دولية وإقليمية، ومعه جبهة النصرة بدرجة أقل، كونهما يشكلان الأنماذج الأوضح للجيل الثالث القاعدي، وهما اليوم مصدر الخطر الأكبر على كياناتنا ومكوناتها المجتمعية. مع التنبه إلى الفروق والتمايزات بينهما، على مستوى الأهداف الإستراتيجية والقدرات العسكرية وتكنيكات القتال؛ فداعش تنشط في العديد من الميادين المضطربة، وتتعدد أهدافها العالمين العربي والإسلامي، فيما يقتصر طموح النصرة على انتزاع إمارة في جزء من الشمال السوري.

دلّت المعارك التي خاضتها داعش في الميادين العراقي والسوسي، على مستوى عالٍ من التنظيم والتخطيط والأداء. وأظهرت، أنها ليست مجرد مليشيا مسلحة محدودة الأهداف؛ بل قوة عسكرية تملك كفاءة قتالية احترافية ذات مطامع توسيعية، يديرها عقل إستراتيجي مُدبر. والدلالة، ما شهدناه خلال فترة وجيزة نسبياً، من تمدد سريع لقواتها على ضفاف نهر دجلة والفرات، وسيطرتها على عدد من السدود الكبرى، فبات بمقدورها التحكم ببعض مصادر المياه، ومعامل إنتاج الكهرباء، ومحطات التوزيع المركزية.

كما أفردت داعش حيزاً من نشاطها، للانتشار على خطوط منابع الطاقة واحتلال المنشآت النفطية، لتوفير عوائد مالية ثابتة، وحرمان الخصم من أحد عناصر قوته الاقتصادية الإستراتيجية. هذا من دون إغفال تركيزها على المناطق الزراعية-الرعوية المحاذية لحوض نهر الفرات، وبخاصة الأرياف الشرقية من منطقة الجزيرة السورية، التي شكلت، إلى حد ما، حواضن اجتماعية لداعش وشبكياتها، بفعل عاملين أساسيين: الأول، شح الأمطار والجفاف، في السنوات الأخيرة، وتأثيرهما السلبي على الإنتاج الزراعي، مصدر رزق السكان المحليين؛ فعمّت الهجرة والبطالة. والثاني، السياسات الاقتصادية التي اتبّعتها الحكومات السورية المتعاقبة، نزوّلاً عند

«إرشادات» البنك الدولي، ما أسمهم بمزيد من إفقار الريف، لمصلحة حفنة من المالكين الجدد.

لهذه الأسباب وغيرها، يحتل تنظيم داعش المساحة الأرحب في مقابرتنا، التي تضيء على أداءه الميداني، بشقيه الاستراتيجي والتكتيكي، لإماتة اللثام عن بنية القتالية وأساليب قتاله، وتبيان مكان قوته ومفاصل ضعفه بموضوعية، دون تهويين أو تهويل. تهويلاً أسهمت في صناعته قوى دولية وإقليمية، تقصّدت إظهاره قوة لا تقدّر، ظناً منها، أنها بذلك ترعب خصومها في محور المقاومة والممانعة. والغاية من جهودنا المتواضع، تبيان عيوبه ووهناته، والبحث عن أفضل السبل لمواجهته، وصولاً إلى إلحاق الهزيمة به مع بقية جماعات العنف التكفيري، التي لا يختلف كثيراً، بنيانها العسكري وأساليبها القتالية عن ميلياتها عند تنظيم داعش.

### البنية القتالية

ما تقدّم، يُظهر ركائز البنية القتالية لتنظيم داعش التي شهدت متغيرات جوهرية، خلال فترة قصيرة نسبياً، بفعل تسارع إيقاع الميدانين السوري والعراقي، وضراوة المعارك فيما بينهما. فباتت مكونة من تشكيّلات عسكرية شبه نظامية، موزعة على ألوية وكتائب وسرايا وفصائل ومجموعات... يحتفظ أمراً بها بقدر عالٍ من المرونة، وهامش تقدير الموقف، واتخاذ القرارات الميدانية التي تقتضيها ظروف المعركة... وتبقى القرارات الكبرى، بيد المجلس العسكري لداعش، المنوط به مهام التخطيط الإستراتيجي، والإشراف على التعبئة والتدريب والتسليح والغنائم، وتحضير «الغزوات» وإدارتها... هذه المتغيرات البنوية، هي نتاج رزمة عناصر ذاتية وموضوعية، أهمها ثلاثة: الضباط العراقيون، وفرة التسلح، وطفرة التجنيد...

### الضباط العراقيون

لم يكن بمقدور داعش، إحداث نقلة نوعية في بنية القتالية، لو لا

انخراط مئات الضباط العراقيين السابقين من رتب مختلفة ضمن صفوفها، وتبؤ بعضهم موقع متقدمة فيها. فأحدثوا تبدلاً على مستوى التنظيم والهيكل العسكري والتخطيط ومنظومة القيادة والمهارات القتالية. لقد انضم عشرات الألوية والعمداء في الجيش العراقي المنحل إلى صفوف تنظيم الدولة الإسلامية في العراق، وكان لهؤلاء الدور الأكبر في رسم إستراتيجيات العسكرية للتنظيم، كما تمكنا من السيطرة على مجلس الشورى التابع له، وأصبحت لهم اليد الطولى في القرارات التي يتخذها أبو بكر البغدادي<sup>(1)</sup>. ومن أبرزهم: اللواءان محمد الدوييري وسعيد محمد الدغيمان، والعميدان محمد الندي الجبوري (الراعي) وأبومهند السويفاوي، والعقيدان سمير عبد الحميد الخليفاوي (حجي بكر) وأبو مسلم التركمانى، والمقدمان أبو عمر النعيمي وأبو عقيل الحمداني وغيرهم.

وقدمت مجلة ديرشبيغل الألمانية عينة عن دور الضباط العراقيين في نهوض داعش وتطوير قدراتها القتالية، من خلال إضافة الكاتب كريستوف رويتز على سيرة «حجي بكر» رجل الاستخبارات في زمن صدام حسين، الذي «أدار معارك السيطرة على شمالي سوريا، باستخدام تقنيات بينها المراقبة والتجسس والقتل والخطف. وحضر مجموعات من المقاتلين الأجانب، بينهم متشددون يفتقرن إلى الخبرة من السعودية وتونس وأوروبا إلى جانب مقاتلين مخضرين من الشيشان وأوزبكستان»<sup>(2)</sup>. وتقول ديرشبيغل «إن سرّ نجاح تنظيم الدولة الإسلامية هو جمعه بين المتضادين: المعتقدات المتطرفة من ناحية، والحسابات الاستراتيجية لمجموعة أخرى بقيادة حجي بكر»<sup>(3)</sup>، علمًا أن الأخير قتل في كانون الثاني 2014 على يد جبهة النصرة.

---

(1) محمد علوش، «داعش وأخواتها...»، ص 158.

(2) وكالة رويتز نقلاً عن مجلة: ديرشبيغل، 2015/04/18.

(3) وكالة رويتز نقلاً عن مجلة: ديرشبيغل، 2015/04/18.

وفي الميدان السوري، التحق ضباط منشقون عن الجيش النظامي بالجماعات المسلحة، ومنها القاعدة. وتسلّم بعضهم موقع متقدمة في هرمياتها العسكرية، سرّعت بتطوير بنيتها، وتحويلها تدريجًا، إلى جيوش شبيه كلاسيكية...

لقد أُسهم الضباط النظاميون «بتطعيم» أساليب قتال المتطرفين، المرتكزة بشكل أساسي على خبرات حرب العصابات وعمليات القتل والاغتيال والتخييب، التي اكتسبوها في ميادين الشيشان والبوسنة وأفغانستان والعراق، بأساليب القتال الكلاسيكي المعتمدة في الجيوش النظامية. وبرزت أنماط هجينة من القتال الجامع بين مزايا الأسلوبين، عند مقاتلي داعش والنصرة وأحرار الشام وجيش الإسلام وغيرها، من الجماعات التكفيرية. وباتت لديها معرفة غنية، بكيفية إشراك تشكيلات كبيرة في المعارك الجبهوية، والقتال المتحرك والمناورة الواسعة، وازداد استخدامها لوسائل النيران الثقيلة من دبابات وعربات مدرعة ومدفع ذاتية الحركة ورشاشات محمولة...

إن الخبرة المكتسبة لدى قادة وكوادر تنظيم القاعدة المخضرمين، عن فنون حروب العصابات، لا تعني جهلهم بعلوم الحرب الكلاسيكية، أقله في الجانب النظري. وإذا صحت معلومات الباحثين الإسرائيليّين دانيال كوهين وليلان أوفر (مركز دراسات الأمن القومي)، فقد أنشأ التنظيم أكاديمية عسكرية، العام 2002، «كان يؤمنها كوادر جهاديون من بلدان عدّة، لتحسين مؤهلاتهم القيادية. وتضمنت برامج التدريب في الكلية المواد الآتية: الطبوغرافيا العسكرية، الدفاع الجوي، القتال ضد الدبابات، الهندسة العسكرية، هندسة المتفجرات، الكوماندو البحري وال الحرب الكيميائية... كما تم تدريس مبادئ الحرب التقليدية لـ «كلاؤز فيتر»، وإستراتيجية الحرب غير المباشرة لـ «ليدل هارت»، وفن الحرب لـ «صن تزو»، مع التركيز على

الحرب غير المباشرة وعلاقتها بأساليب قتال العصابات، وكيفية التعامل مع الطائرات غير المأهولة، وال الحرب الإلكترونية وال الحرب النفسية»<sup>(١)</sup>.

## وفرة التسلح

لم يكن من السهل إحداث «ثورة» في الهرمية العسكرية، تُجسد أنماط القتال الجديدة ميدانياً، لولا وفرة التسلح الكبيرة التي عرفتها داعش بعد انتصارها السهل في العراق، مطلع صيف 2014، واغتنامها نحو 1500 آلية من بينها دبابات أبرامز وعربات همر مصفحة ومدافع ذاتية الحركة وصواريixx موجّهة وقدائف وذخائر، تركتها الوحدات العراقية التي انسحبت دون قتال يُذكر، من أغلب مناطق انتشارها في الشمال والوسط والغرب. ما أتاح للتنظيم التكفيري وضع يديه على أجزاءٍ واسعةٍ من محافظات نينوى وصلاح الدين وديالى وبعض نواحي الأنبار.

وفي الميدان السوري، غنمـت داعش والنصرة وأخواتهما أسلحة ثقيلة من دبابات ومدفعية وصواريixx موجّهة وقدائف وذخائر، تركها الجيش السوري في بعض مواقعه التي سقطت بأيدي الجماعات المسلّحة. فضلاً عن تلقيها مساعدات عسكرية كبيرة، أمدّتها بها دول إقليمية مثل تركيا والسعودية وقطر، مباشرةً أو بطرق متلوية، بعد حيازتها الموافقة الأميركيـة.

## طفرة التجنيد

ترافق توافر السلاح الثقيل والنوعي لدى تنظيمـي داعش والنصرة، مع تطور أساليب قتالهما، وتتدفقآلاف المتقطعين للالتحاق بصفوفهما، بعد اتساع قاعدة التجنيد والاستقطاب، داخل الميدانـين العراقي والسورـي

---

(١) دانيال كوهين وليران أوفك، دراسة صادرة عن «مركز الأمن القومي»، ترجمة: أطلس للدراسات الإسرائيليـة، 17/05/2015.

ومن خارجهم. وبالنسبة إلى داعش، فقد أظهرت الواقع أن لديها نظام تعبئة مرتّنا وفاعلاً، يستخدم وسائل الميديا الحديثة، خصوصاً موقع التواصل الاجتماعي، لاستقدام الشباب من جهات الأرض الأربع إلى ميادين «الجهاد» المشتعلة في العراق وسوريا وليبيا ومصر...»

وفي منتصف العام 2015، صدر تقرير عن اللجنة الخاصة بمكافحة الإرهاب التابعة لمجلس الأمن الدولي، «يحدّر من زيادة عدد الجهاديين الوافدين إلى الشرق الأوسط، بشكل غير مسبوق. وقدّرت أعدادهم بـ 25 ألف مقاتل أجنبي من 100 جنسية خلال تسعة أشهر فقط. ويشير التقرير إلى أن الأراضي الخاضعة لسيطرة داعش تحولت أفغانستان جديدة»<sup>(1)</sup>. في السياق، رُصد نشاط أكثر من 200 موقع تواصل اجتماعي يحثّ الشباب على الالتحاق بداعش. «ويقوم موقع الداعيّين الأميركي أحمد موسى جبريل (فلسطيني الجنسية) والأسترالي موسى أنطونيو، بنشر صور وبيانات، ومقاطع فيديو عن المعارك من مناطق القتال مباشرة»<sup>(2)</sup>.

### تركيبة داعش والنصرة

أما بخصوص تكوين تنظيم داعش، الفصيل الأقوى بين أترابه من الجيل الثالث للقاعدة، فيمكن اعتباره تنظيماً أممياً، تتشكل بنيته القتالية من عراقيين وسوريين وعرب، وعناصر أجنبية وافدة. وتكشف خسائره، كثافة وجود المقاتلين الأجانب في صفوفه. وقد أعلن قائد عمليات دجلة، الفريق عبد الأمير الزيداني، «أن قواته قتلت مسلحين يتامون إلى 53 دولة أجنبية

(1) تقرير أممي: منضمون إلى داعش يأتون من كل حدب وصوب، تاريخ الصدور .2015/05/29

(2) موقع «عروبة الإخباري»، 2015/06/01.

وعربية في قواطع دياري وصلاح الدين، خلال الأشهر الماضية، وأن أجانب من 17 جنسية يشغلون مواقع قيادية داخل التنظيم الإرهابي<sup>(1)</sup>.

بينما يغلب العنصر المحلي على الطابع العام لجبهة النصرة، التي يتزعمها السوري أسامة العبسي الوحدوي (أبو محمد الجولاني)، تلميذ أبي مصعب الزرقاوي؛ فأكثريه مقاتليها من السوريين، وتركز جهودها على تجنيد السكان في مناطق سيطرتها، حيث تفيد التقارير أنهم يشكلون 70% من بنيتها القتالية. ومع ذلك، تضم بين صفوفهاآلاف «الجهاديين» العرب والأجانب. ويفضل المقاتلون الأجانب الالتحاق بتنظيم داعش كونه إطاراً عابراً لحدود الكيانات القائمة، ويجسد في مخaliاتهم الدولة\_الأمة الصاهراة للقوميات والاثنيات ضمن بوتقة الإسلاموية.

تعتبر النصرة أكثر ليونة، من «شققتها» داعش، في نسج التحالفات مع بقية الفصائل السورية المسلحة. وقد، كانت ولا تزال موضع رهان خصوم دمشق الإقليميين للعب دور التنظيم الإسلامي المعتدل، على الرغم من إصرار قيادتها على الولاء لفكر القاعدة. وبهذا الخصوص، سعت تركيا وال السعودية وقطر لتل米يع صورتها، وتسويقها إلى جانب أحرار الشام وجيش الإسلام، كجماعات معتدلة، لدى دوائر القرار في الغرب. وتقوم فضائيات ممولة من تلك الدول، بإجراء المقابلات مع قادتها، وترويج أخبار «انتصاراتها» ضمن الحملة الدعائية، لإبرازها كقوى رئيسية لا غنى عنها لاسقاط النظام في دمشق. وازدادت حاجة الرعاة الإقليميين إلى جبهة النصرة، بعد الدخول الروسي المباشر على خط الحرب السورية.

ويتغاضى هؤلاء عن كونها شبيهة داعش بسلوكياتها المتشددة، وإن كانت أكثر خفراً في إخفاء جرائمها عن وسائل الميديا؛ فقد نفذت مئات التفجيرات الانتحارية في أحياط المدن السورية، وذبحت الجنود السوريين

---

(1) وكالة رويتز: 26/06/2015

الأسرى، وقتلت مواطنين لأسباب تتعلق «بمخالففة» الشريعة في مناطق سيطرتها. ومن مآثرها المضورة، إعدام 56 جندياً بدم بارد، وقعوا في الأسر إثر سقوط مطار أبو الضهور في الريف الإدلي.

وكانت النصرة أول من أدخل جهاد النكاح ضمن مفاهيمها، وحثّت الفتيات الملتحقات بصفوفها على ممارسة الجنس مع مقاتليها، كجزء من العمل «الجاهادي» الحربي !! وبرأي، مراسل El B.C. باتريك كوكيرن، «ليس من فرق كبير بينها وبين داعش وبقية الجماعات القاعدة، فكلها تسعى إلى دولة سنية ثيوقراطية خاضعة لقانون الشريعة»<sup>(1)</sup>.

### تبّدل بنوي

هذه القفزة الهائلة في مجال القدرات البشرية والتسليحية والتكنولوجية والمالية... فرضت، حكمًا، وتبدلاً بنويًا على الهياكل العسكرية لداعش وأخواتها، التي خرجت، خلال وقت وجيز نسبياً، من شرنقة التنظيم العنقودي الملائم لظروف العمل الغواري، نحو بنية شبه نظامية، تحوي هيئات أركانية ومراتب قيادية لصنوف الأسلحة المختلفة، وأقساماً متخصصةً بشؤون العديد والتعبئة والتجنيد والتدريب والاستخبارات واللوجستية... فهياً هذا التبدل، الشرط الذاتي الضروري لتوسيع يكár عملياتها العسكرية، ونقلها من نطاق الهجمات المتناثرة المحدودة الأهداف، إلى خوض معارك كبيرة للاستيلاء على المزيد من الجغرافيا.

وقبل الشروع بمقاربة أساليب قتال الجماعات القاعدة، لا بد من الإضاءة الموجزة على الانعطافة الروسية ( العاصفة السوخوي )، بداعفها

---

(1) باتريك كوكيرن، داعش عودة الجهاديين، دار الساقى، بيروت، الطبعة الأولى، 2015، ص.56

وحشياتها وما لاتها، واستقراء تداعياتها على سورية وبقية الميادين المشتعلة.

## عاصفة السوخوي

أنت الخطوة الروسية نتاج حسابات دقيقة لحظت الانكفاء الأميركي  
الجزئي من الشرق الأوسط، لأسباب لها علاقة بالإستراتيجية العليا  
لواشنطن، وميلها للتوجه أكثر نحو المحيط الهادئ، حيث تتشاطأ دول من  
المقدّر لها القبض على القرار الأميركي في العقود اللاحقة. وكذلك تطورات  
الوضع الميداني في سوريا، وتكثيف الحلف المعادي جهوده لإسقاطها؛  
فحانت بنظر روسيا لحظة اختبار اقتدارها، وتلمّس درجة تعافيها بعد حقبة  
من الانهيارات المتتالية.

وتقدر روسيا أن تفعيل وجودها الميداني في سوريا، ولو من خلال  
الضربات الجوية المركزية، قد يتيح لها استعادة دور في منطقة طالما شكلت  
جزءاً من فضائلها الحيوي. ويعزز حضورها وتوقيها مع قوى دولية أخرى  
للخلاص من التفرد الأميركي.

يبدو أن الروس ينشطون وفق خطة من متدرجين: الأول، حدوده  
تحصين مناطق انتشار الجيش السوري، وتطهير بؤر الاختراق داخلها،  
والاحتفاظ بالمدن الرئيسة مثل دمشق وحمص وحماء ومحافظي اللاذقية  
وطرطوس. الثاني، الانتقال إلى مرحلة توسيع مناطق سيطرة الدولة السورية  
على وقع التفاوض السياسي الذي دونه عشرات وتعقيدات، تجعله غير  
قريب المنال.

بعد مضي أشهر على انطلاق عاصفة السوخوي، بدأت تتضح  
تبشير التغيير الميداني ببطء وثبات، مع انتقال الجيش السوري من موقع  
الدفاع الذي طغى على أدائه الميداني، منذ مطلع العام 2014، إلى وضعية

الهجوم. ولأول مرة، يقدم على فتح أكثر من جبهة في آنٍ واحد، من حلب إلى القنيطرة وما بينهما. في دلالة واضحة على المفاسيل الإيجابية للخطوة الروسية، التي عزّزت ثقة الجيش السوري بقدراته، ومدّته بمعنويات إضافية. على الرغم من محدودية تلك الخطوة واقتصرارها على مشاركة نحو سبعين قاذفة وحوّامة حتى الآن. وإذا دعت الحاجة، تُردد بتدخل أسلحة استراتيجية من قاذفات عملاقة (توبوليف -95 - وتوبوليف -160)، وصواريخ كروز الجوّالة (كالبير) التي تُطلق من أماكن بعيدة.

من جهتها، ستسعى الولايات المتحدة وحلفاؤها الغربيون والإقليميون إلى استنساخ أفغانستان ثانية، بالعمل على إغراق الروس في الوجود السوري، على الرغم من اختلاف التشابه بين الحالتين. وإذا تحقق المبتغى الأميركي، تتعرض موسكو لانتكasaة قوية، تردها إلى ما قبل المرحلة «البوتينية». وتعود واثنطن انتهاج سياسة إغفال البوابات الحديدية عليها.

لذا، من غير المستبعد أن تزود واثنطن، بصورة مباشرة أو مستترة، المعارضات السورية، بما فيها التكفيريون بأسلحة نوعية، لاحت تبشيرها مع تدفق صواريخ تاو «السعودية» إلى ترساناتها، إثر انطلاق عاصفة السوخوي. وتصبح فرص حصول تلك المعارضات على صواريخ «ستنغر» ومثيلاتها من الجيل الثالث المضادة للطائرات أكثر احتمالية وواقعية. وهذا النوع من الصواريخ قادر على اصطياد الأهداف من علو 4.5 كلم، سينشل حركة سلاح الحوامات التي تلعب دوراً فعالاً في الأعمال الهجومية.

## أساليب القتال

تطلب طبيعة داعش لحفظ بقائها واستمراريتها، حركية قتالية مستدامة، تتحقق فيها إنجازات ميدانية صادمة، مثلما حدث في الموصل والرمادي والرقعة وتدمير وغيرها. وأحياناً، تحرّك «ذئابها» لتضرب أهدافاً

بعيدة خارج ميادين القتال، مثل العمليات الانتحارية على الأراضي اللبنانية، وهجمات باريس، وإسقاط الطائرة الروسية المدنية فوق صحراء سيناء... لكي تبقى أنموذجاً جاذباً للمتطوفين الإسلاميين أينما وجدوا، كونهم البيئة الرافدة التي تمدّها، بشكل متواتر، بالمتقطعين الضروريين، لتعريض خسائرها وتحقيق طموحاتها غير المحدودة. وثمة قوى «جهادية» شبّهها بها، تشاركها البيئة ذاتها، وتنافسها على استقطابها. لذا، لا يلائمها، أبداً، حال الجمود الميداني أو القتال التماسي، خشية أن يؤدي إلى استنزافها وإلحاق الهزيمة بها. لهذا، تسعى داعش، دوماً، لتسجيل انتصارات باتت أكثر صعوبة من ذي قبل، نتيجة تكيف أعدائها، وخاصة الجيش السوري مع أساليبها القتالية، التي تسعى لتفحصها وتحديد سماتها الرئيسة.

أدار تنظيم داعش منازلات في ميادين وجبهات عدّة، تحديداً في الميدانين العراقي والسوسي، إلا أن الأخير هو الأنسب للحكم على أدائه العسكري، حيث خاض عدداً وفيراً من المعارك ضد المعارضات المسلحة والجيش السوري كُلّ على حدة. كما إنّ عاصفة السوخوي المتمظّلة بالحرب الجوية الجدية على الفصائل القاعديّة، عزّزت أهمية الميدان السوري على ما عاده...

بما يخص الصراع «الجهادي»، شهدت مواجهات تنظيم داعش مع جبهة النصرة وأحرار الشام وحركة حزم والجبهة الإسلامية والجيش السوري الحر إضافات قتالية، تمثلت باستهداف قياداتها وكوادرها بواسطة الاغتيالات، والخطف، والكمائن، والسيارات المفخخة، لخلخلة هرمياتها العسكرية وكسر معنوياتها، ودفعها إلى إعلان التوبّة والالتحاق بصفوفه. وعملياً، نجح التنظيم خلال السنوات الماضية في استقطاب وحدات عسكرية، انشقت عن تلك القوى في مناطق الرقة ودير الزور وحلب والقلمون... وكان له اليد العليا في أغلب معاركه معها، حيث طردتها من مناطق شاسعة في شرق وشمال سوريا.

أما بشأن المواجهات مع الجيش السوري، فقد أظهر شريط معارك داعش أساليب قتال وتكنيك متشابهة، تحولت إلى سمات خاصة بها. وطغى عليها أربعة عناصر رئيسية، شكلت أداة الجسم في حروبه، وهي: الانتحاريون، والانغماسيون، والقناصة، والتشريح والتقطيع. مضاف إليها النشاطات الاستخبارية، وانتقاء الأهداف، وأعمال حفر الخنادق والكمائن والتمويه والخداع، وإدارة المعارك، وابتکار سلوكيات وحشية مقرّبة كجزء من الحرب النفسية...ومع الوقت لم تعد تلك السمات حكرًا عليها، فقد اعتمدت لها جبهة النصرة وأخواتها، خصوصًا خلال معارك محافظة إدلب في مواجهة الجيش السوري.

## الانتحاريون

إن الأفعال الانتحارية الناشطة في أكثر من ميدان إقليمي ودولي، ليست فعلاً منقطعاً عن السياق التاريخي، فقد عرفتها الحروب البشرية منذ القدم بأشكال مختلفة، وإن لم يكن لها المردود والنتائج ذاتها، على الدوام. ويُسجل لتنظيم القاعدة بكل أجياله وتغيراته، نقل تلك الأفعال من الحيز الحربي إلى الحيز المدني في الكثير من الهجمات التي اتخذت طابع الإجرام الإرهابي. وأتى الجيل الثالث، وبالأخص داعش، ليحوّلها من نشاطات فردية متقدمة إلى ظاهرة جماعية، لا تخloo معركة من تأثيراتها الحاسمة.

ومثلاً على ذلك، تكفي الإشارة إلى تنفيذ داعش أكثر من 70 عملية انتحارية خلال محاولتها الاستيلاء على بلدة عين عرب (كوباني) الكردية التي كلفتها نحو ثلاثة آلاف قتيل؛ بحسب ما أورده جيمس كلابر رئيس الاستخبارات الأمريكية<sup>(1)</sup>. بينما أقرت داعش بمقتل 1400 من عناصرها. ونفذت 29 هجوماً انتحارياً، خلال شهر حزيران 2015، على مدينة الحسكة

---

(1) مجلة الصياد، تقرير للاستخبارات الأمريكية عن اهتزاز «الدولة الإسلامية»، 16/03/2015.

وحدها، لكسر دفاعات الجيش السوري، الذي نجح بعد مواجهات مضنية، بإخراجها من الأحياء الجنوبية التي احتلتها. ولا ننس دور الانتخاريين خلال معارك الاستيلاء على مطارات منغ والطيبة وأبو الضهور والفرقة 17 واللواء 93...و عمليات السيطرة على مدن بيجمي والرمادي وتدمير وإدلب وجسر الشغور، واللائحة تطول...لتشمل مئات الهجمات الانتخارية، وربما الآلاف، ضد أهداف مدنية صرفة في كل من العراق وسوريا.

استخدمت داعش الانتخاريين في أعمال الدفاع، بإرسالهم مع آلياتهم المفخخة، للانقضاض على تحشيدات الخصم، خلال تحضيراته النهائية للهجوم، مثلما حصل مع القوات العراقية إبان الاستعداد لمعركة الرمادي. وأيضاً أثناء الوقفات التعبوية التي تتخللها العمليات الهجومية عادة.

لم تقتصر النشاطات الانتخارية على داعش، فقد جارتها جبهة النصرة وأحرار الشام وجند الأقصى وآخرون في أغلب معاركها، وكانت ذروتها في محافظة إدلب، حيث نفذت عشرات عمليات الانتخارية ضد موقع الجيش السوري. وكذلك خلال محاولات التقدّم نحو مدينة درعا ومطار الشعلة في الجبهة الجنوبية.

وتشير الواقع إلى «إسراف جبهة النصرة باللجوء إلى العمليات الانتخارية، وسبق لها تنفيذ المئات منها خلال الأعوام الماضية، غالبيتها في مناطق مدنية، كالشوارع والأسواق»<sup>(1)</sup>. ولهذا، وصفها سياسي سوري معارض «بأنها أحد مكونات الثورة، وتمتّع بشعبية كبيرة في وسط الفصائل المسلحة التي ترى في النصرة قوة ضاربة تمتلك سلاح القتل الفعال (الانتخاريين)، الأمر الذي أسهم في الانتصار بعدد كبير من المعارك مع الجيش السوري»<sup>(2)</sup>.

---

(1) عبد الله سليمان علي، السفير، 10/04/2015.

(2) تقرير السفير، 29/06/2015.

باتت العمليات الانتحارية مفتاح هجمات داعش وأخواتها، حيث استعاضت بها عن استخدام التمهيد الناري الذي تعتمده الجيوش النظامية غالباً، «لتللين» خطوط دفاع الخصم وفتح ثغرات فيه. ودلت تجرب الميدان على أن تأثيرات الأولى تصاهي فعالية الثانية بأضعاف مضاعفة... وتحول الانتحاريون إلى سلاح فتاك في يد هؤلاء، يستخدمونه بكثافة، لخلخلة تراص العدو في حالي الهجوم والدفاع، وفي عمليات استهداف المدنيين العزل، لزعزعة استقرار الجبهة الداخلية للخصم، وحتى أثناء صراعاتهم البينية.

لقد نجحت داعش والنصرة وبقية الجماعات التكفيرية، بإعداد أرقام غير مسبوقة من الانتحاريين، وتخدير عقولهم بأفيون التكفير، وقولبها وفق منطق الكراهية والحقن تجاه الآخر من أبناء الوطن والدين الواحد، وإيهامهم بأن طريق الجنة يمرّ عبر القضاء على هذا الآخر، ولو تطلب الأمر تفجير الذات... تستدعي هذه الظاهرة الخطيرة عدم اقتصار مكافحتها على الميدان العسكري فحسب؛ إذ المطلوب تدخل فعال من المؤسسات الدينية لمعالجة التشوه المعرفي والعقدي الذي شاب بعض جوانب التراث الإسلامي. وكذلك من علماء الاجتماع والنفس لتفكيك طلاسمها، ومعرفة سر الاستحواذ على النفس البشرية، وتسييرها نحو الانتحار.

## الانغماسيون

يمكن وصفهم بأنصار انتشاريين، كونهم يتزرون بأحزمة ناسفة خلال المعركة، ويندفعون، فوراً، بمجموعات صغيرة (قوة الصدم) كرأس سهم نحو أماكن حدوث التفجيرات الانتحارية، لاستغلال حال الصدمة والارتباك عند الخصم. ويتركز دورهم على التعامل مع ما تبقى من نقاط دفاعية صامدة، لشقّ الطريق أمام كتلة الهجوم الرئيسة التي تتقدم، تباعاً، للسيطرة على الموقع المستهدف.

في بعض الأحيان، يتسلل الانغماسيون تحت غطاء نيران مدافع الهalon والرشاشات الثقيلة المحمولة على عربات، كما جرى في الهجوم على مقر الفرقة 17 ومطار الطبقة، وعمليات الاستيلاء على الرمادي وأحياء من مدينة بييجي. ويتم تدريبهم على القتال التلاحمي الذي يتطلب جسارة وقدرة بدنية عاليتين، ويتحمّل هؤلاء، عادة، القسط الأكبر من الإصابات التي تقع في صفوف المهاجمين. ويتحوّل بعضهم إلى انتحاريين، مع لجوئهم إلى استخدام الأحزمة الناسفة، وتفجير أنفسهم لتدمير موقع مستعصية، يُعيق بقاوئها نجاح المهمة.

### القتناصة

تعتمد داعش والنصرة على القناصين المزودين ببنادق ذات مدى بعيد، وأجهزة رؤية متطرورة. ويتقدّم هؤلاء محمولين على عربات مدرعة خلف القوات في وضعية الهجوم، وعندما يصبح الهدف ضمن مدى بنادقهم، يتذبذبون نقاط رمي تسمح لهم بالتسديد باتجاه أفراد طواقم الصواريخ الموجّهة والرشاشات الثقيلة، وقناصي الخصم المتدرّبين داخل دشمنهم الحصينة.

وفي وضعية الدفاع، يصبح القناصون المختبئون خلف مواقع حاكمة أكثر فعالية، حيث بإمكانهم اصطياد العناصر المهاجمة، بسهولة نسبية، متى أصبحوا ضمن مجال الرمي المجدّي لبنادقهم. وقد استفاد التنظيمان القاعديان من خبرات الشيشانيين المنضوين ضمن صفوفهم، الذين سبق وشاركوا في معارك غروزني (1996). حينذاك، نجح القناصون الشيشانيون الموزّعون على المجموعات القتالية باصطياد الجنود الروس الذين اضطروا للالتحام خلف آلياتهم خلال عمليات الاقتحام.

لقد بُرِزَ دور قناصي داعش، جلّيًّا، في معركة تحرير تكريت من قبل الجيش العراقي والحسد الشعبي وأبناء العشائر، الذين لحقت بصفوفهم

إصابات كثيرة. حينها، أُسهم القناصون المتشرون بكثافة على أسطح المبني، بوقف الهجوم لنحو عشرة أيام، قبل استئنافه وتحرير المدينة.

وكان أبو موسى، أحد الجنود العراقيين، الذي ذاع صيت شجاعته خلال خوضه العديد من المعارك، قد دعا قيادته إلى محاكاة أساليب داعش في عمليات الهجوم، لا سيما استخدام الآليات المصفحة المسلحة برشاشات ثقيلة وقناصات، أثناء حرب الشوارع الصعبة. والإقلاع عن اللجوء إلى الأسلوب التقليدي، بدفع كتل من رجال المشاة المتراسة، الذين سرعان ما يتحولون إلى أهداف سهلة، لقناصي داعش المتمركزين في موقع مُشرفة. ويقول أبو موسى «من يُرُد هزيمة داعش، عليه الاعتماد على القناصين، فمقتل بعض عناصرها برصاص هؤلاء، يفقدهم توازنهم، ويدفعهم إلى ارتكاب أخطاء تقودهم إلى ما يشبه الانتحار، حيث يكتشفون أماكن تواجدهم، ويصبحون صيداً سهلاً للقوات المهاجمة»<sup>(1)</sup>.

## التفخيخ والتشريك

تحتل أعمال التفخيخ والتشريك، ركناً أساسياً في العقيدة القتالية لداعش والنصرة، وغيرهما من الفصائل القاعدية، التي يتلقى أغلب كوادرها دورات تخصصية في هذا المجال. وتُعتمد خصوصاً في وضعية الدفاع، حيث يتم تلغيم الطرق والمسارات الإجبارية والبيوت القرية من المواقع القتالية، بالعبوات الناسفة والألغام والأشراك. وقال جواد الصليباوي المتحدث باسم عصائب أهل الحق، أحد فصائل الحشد الشعبي عن معركة تكريت: «زرعوا العبوات في جميع الشوارع والمبني والجسور، فخخوا كل شيء تقريباً. توافت قواتنا بسبب هذه الإجراءات الدفاعية، مشدداً على الحاجة إلى قوات مدربة على حرب المدن»<sup>(2)</sup>. في تلك

(1) علاء اللامي، الأخبار، 31/10/2014.

(2) وكالة الصحافة الفرنسية، 17/03/2015.

المعركة، نجح الأسلوب الدفاعي المرتكز على القنص والتلغيم والهجمات الانتحارية التي استهدفت الكتل الرئيسة لقوى الخصم في إفشال أكثر من هجمة، وتكميد المهاجمين خسائر مقابل كل إنجاز حقّقه.

وبعد تحرير مدينة سنجار، عاصمة الأيزيديين، متصف تشرين الثاني 2015، فكّكت وحدات الهندسة في قوات البشمركة، ما يزيد عن 30 طنًا من العبوات والتشريكات والألغام، زرعتها داعش في كل مكان قبيل انسحابها من المدينة.

إلى جانب الركائز الأربع الرئيسة (الانتحاريون-الأنغماسيون-القتناصة-التفخيخ والتشريح) ثمة عناصر أخرى رافدة لأساليب قتال الجماعات القاعدية، تلعب دور المكمل لتحسين حظوظ النجاح في المعركة، مثل: أداء منظومة القيادة والسيطرة، وحرفر الأنفاق والخنادق، والتمويه والخداع، وحسن انتقاء الأهداف... وسنكتفي بتناول فقرات إدارة المعارك، وأشكال الهجوم، وتقنيات القتال، التزامًاً منا بالهامش المحدد لبحثنا.

## إدارة المعارك

أما عن طريقة إدارة داعش وأخواتها لمعاركها المستمرة، فهي تتحاشى قدر الإمكان، فتح جبهات كبرى عدّة في آن واحد، على الرغم من القدرات البشرية والتسللية التي راكمتها في السنوات الماضية. وإن كانت على سبيل المناورة، وتخفييف الضغط عن جبهة معينة، تلجأ لفتح جبهات ثانية، بقصد تشتيت جهود العدو وصرف ناظريه عن هدفه الرئيسي. ولوحظ تكرار استخدام هذا الأسلوب، عندما يكون الخصم في حالة تحضير لهجوم كبير على منطقة ما، كما حدث في جسر الشغور، حين باعث «جيش الفتح» بقيادة جبهة النصرة الجيش السوري خلال تحضيراته لاسترداد مدينة إدلب.

وفي الميدان العراقي، هاجمت داعش مدينة بيجي في محافظة صلاح الدين، ربما للمرة الرابعة أو الخامسة، مطلع صيف 2015، لمنع الجيش والحسد الشعبي من استكمال استعداداته لتحرير مدينة الرمادي. وفي نهاية شهر تشرين أول من العام ذاته، نجح هؤلاء بطرد مقاتلي داعش من بيجي (210 كلم من العاصمة) التي تبنت أهميتها من وجود مصفاة لتكرير النفط فيها، وموقعها على الخط الدولي الواصل بين بغداد والموصل ...

أحياناً، في حال تعرض تنظيم داعش لهجوم قوي يطال إحدى مناطق سيطرته، يُنْفَذ تحت الضغط انسحاباً تكتيكياً، بالتزامن مع محاولته حرف اتجاه المعركة نحو جبهة أخرى. لكن ما أن يشعر بтраخي قبضة الخصم في المنطقة التي سبق وانسحب منها، حتى يبادر إلى مهاجمتها فوراً، للسيطرة عليها من جديد.

## أشكال الهجوم

تتحمّل بأشكال الهجوم، جغرافية مسرح العمليات كموقع وتضاريس، وطبيعة الخصم الداعية، وقدرات القوة المهاجمة، والأهداف المرسومة للمعركة... ففي المدن تهاجم الجماعات القاعدية، عادة، على طريقة حرب العصابات، بجموعات صغيرة خفيفة التسلیح تشكّل النسق الأول، نظراً لصعوبة الحركة، وتعقيدات قتال الشوارع. وتحتفظ بالقوة الرئيسة ضمن الأنساق الخلفية التي تتحرك، تباعاً، عند فتح ثغرات في الجدار الداعي للخصم.

بينما تندفع بقوات كبيرة محمولة في المناطق المفتوحة، متّخذة وضعية السهم، حيث يتشكّل الرأس من قوة الاقتحام (الانتخاريون والانغماسيون) المستندة من الخلف إلى قاعدة عريضة (القوة الرئيسة)، التي تتحرك بسرعة لتعزيز محاور الاختراق وتوسيع جبهتها. وفي كلتا

الحالتين، تستفيد القوة المهاجمة من نيران الدعم المدفعي والصاروخية، والاستخدام المكثف «للسلاح» الانتحاريين.

وإذا انتقينا مطار الطبقة مثلاً، لتبيان أحد أشكال الهجوم عند داعش، فقد سقط بيدها إثر معارك ضارية تكبدت فيها نحو 700 إصابة خلال ستة أيام بلياليها من القتال. وفي اليوم الأخير، أقدم التنظيم على إرسال خمسة انتحاريين بشاحنات مفخخة في اللحظة ذاتها، نجحت إحداها بتدمر بوابة رئيسية، ما سمح للانغماسيين وبقية مجموعات الهجوم، باختراق حرم المطار الذي شهد قتالاً تل阿ميًّا. ولو فُدر لحماته الصمود لبضعة أيام أخرى، لتضاعفت خسائر القوة المهاجمة.

ولضمان نجاح المهمة، تعمل الجماعات القاعدية متى تيسّر لها الأمر، على تجميع أعداد كبيرة من المهاجمين تفوق بأضعاف عديد القوة المدافعة عن الموقع المستهدف، مثلما جرى أثناء الهجوم على مطار أبو الظهور، حيث احشد الآلاف من مقاتلي النصرة وحلفائها، قبالة كتيبة من الجيش السوري، أنهكها الاستنزاف والحصر الطويلان...

أحياناً، تلجأ داعش والجماعات القاعدية إلى أسلوب الموجات البشرية المتلاحقة لأحد أشكال الهجوم، لإنهاك الخصم، مثلما حدث في معركة مطار منغ العسكري. وترکز تلك الموجات، على فكرة إسقاط الهدف، غير عابئة بحجم الخسائر التي تلحق بها، وذلك لتبهير صورة أسطورية عنها، تبرز قدرتها على تحطيم أي قوة تواجهها.

هذا الأسلوب القتالي ينمّ عن جرأة وتصميم عاليين، لكسب المعركة بأي ثمن، لكن في المقابل، سرعان ما تظهر عوارضه السلبية، بخاصة سرعة النزف وفداحة الخسائر البشرية لدى القوى المحدودة القدرات. وبالتالي تتحمل كلفته جيوش دول لديها فائض عديد، تقوم مفاهيمها القتالية على إنهاء المعركة بسرعة قصوى. وقد شهدنا في القرن العشرين، أنموذج قتال

الموحّات المتلاحقة، أثناء الحرب الصينية-الفيتنامية (1979)، وال الحرب العراقية-الإيرانية (1980-1988).

ولو حظ بعد معارك كوباني وأمرلي وجُرف الصخر ومطارات دير الزور ومنع الطبقة، التي حمّلت داعش خسائر يصعب تعييّضها، إقلاعها إلى حد كبير، عن أسلوب قتال الموجات المرهقة والمكلفة في آن واحد.

على مقلب آخر، إذا تفحّصنا خارطة المعارك التي خاضتها داعش فوق الأرضي السورية، لوجندا، بعضها استهدف موقع كبيرة، لكنها معزولة ومقطعة الأوصال، ويتم تزويدتها، غالباً، بالمؤن والذخائر من الجو. وأحياناً، تبعد عشرات أو مئات الكيلومترات عن نقاط ارتكاز القوات السورية، كحال مطارات الطبقة ودير الزور وكويرس والفرقة 17 واللواء 93 وغيرها...

ولم تحظَ داعش في تلك المعارك بالنجاح دوماً، فلا يزال مطار دير الزور ومعيّنه بيد القوات السورية، على الرغم من تعرضه لعشرات الهجمات الفاشلة. أما حامية مطار كويرس الواقع في الريف الشرقي لحلب، فقد صمدت لنحو ثلاثة سنوات، قبل فك الحصار عنها. حين انطلقت القوات السورية من بلدة السفيرة، لتحرر قرى ريان والرضوانية وأم أركيلة والشيخ أحمد ورسم العبد وكويرس شرقاً. لقد قطعت تلك القوات مسافة 23 كلم في محيط معادٍ، وأمنت مجّباتها بعمق 3-5 كلم حتى وصلت إلى المطار.

من جهتها، حذت جبهة النصرة حذو نظيرتها القاعدة في انتقاء الأهداف، واعتمد أشكال الهجوم ذاتها تقريباً؛ فعلى مدى سنة ونصف، شنت هجمات متالية ضد مسكنري وادي الضيف والحامدية المعزولين في ريف إدلب، اللذين تحولاً إلى مركز لتجمع الوحدات السورية التي انسحبّت من مدينة معرب النعمان والقرى المحيطة بها. وفتح سقوطهما،

نهاية العام 2014، الباب أمام النصرة وحلفائها، لمهاجمة جسر الشغور ومديتي إدلب وأريحا ومعسكري القرميد والمسطومة التي تهافت، تدريجًا، في ربيع العام 2015. ومن دون الغوص عميقاً في أسباب السقوط، فالقصور والثغرات كانوا في خطط الدفاع السلبية، وأداء حامياتها المكلفة الذود عنها.

لقد تبدل الوضع بعد عاصفة السوخوي، فشنّ الجيش سلسلة هجمات على جبهات عدّة، بمؤازرة الطيران الروسي. وكان من أهدافه توسيع رقعة انتشار قواه في محافظة حلب، وفتح أكثر من طريق إمداد إليها، واستعادة قرى سهل الغاب، وطرد الجماعات المسلّحة من الريف اللاذقي. وهذه خطوات لا بدّ منها، لتحسين سيطرة الجيش في مناطق الساحل والوسط والشمال، قبل الشروع بتطوير خرائط الهجوم لانتزاع المزيد من الأراضي من أيدي تلك الجماعات.

وفي خطوة مضادة، هاجم مقاتلو داعش والنصرة حاجزَ للجيش السوري موزّعةً على طريق خناصر-السفيرة-حلب من محوري بلدة عقيربات شرقاً، ومنطقة تل مراغة غرباً، الواقعة بين أثريا وخناصر. «واستخدموا في هجماتهم الدبابات والمدرعات والانتحاريين، ما أدى إلى سيطرتهم على مسافة 30 كلم من الطريق الدولي»<sup>(1)</sup>. وعمل الجيش بدعم من الطائرات الروسية وال السورية على طرد المهاجمين، واستعادة الطريق وتوسيع سيطرته على مجنباته.

لقد أراد المهاجمون قطع شريان الإمداد الوحيد الواصل بين حماه وحلب، وتخفيف ضغط هجوم الجيش السوري على محاور جنوبي

---

(1) سائر إسلام، «داعش والنصرة يقطعن طريق الإمداد إلى حلب»، صحفة الأخبار،

2015 / 10 / 24

وشرقي الريف الحلبـي، حيث حقق إنجازات ميدانية، في حال تتابعها ستؤسس لمشهد ميداني مختلف عن مجريات السنة الماضية.

كما هاجم مقاتلو داعش بلدة السفيرة الواقعة على طريق حلب الدولية، التي تعد منطقه استراتيجية للصناعات الدفاعية. لكن الجيش السوري وحلفاءه نجحوا بدعم كثيف من سلاح الجو في صدهم وتكتيدهم خسائر كبيرة. وكل ذلك حدث قبل فك الحصار عن مطار كويرس، وتحرير أكثر من 50 بلدة ومزرعة في الريف الجنوبي لحلب، من بينها مدينة الحاضر المعقل الحيوي لجبهة النصرة.

لقد أجرت التعقيدات الميدانية التي أفرزتها الحرب، الجيش السوري على نشر قواته في جبهات متباينة، من القامشلي والحسكة ودير الزور وتدمير شرقاً، إلى حمص وحماء وإدلب واللاذقية في الوسط والشمال، وجبهات القنيطرة ودرعا والسويداء في الجنوب. فضلاً عن المحاور التي ترتب العاصمة دمشق. وأغلب هذه الجبهات مفتوحة على حدود دول معادية للنظام السوري، مثل تركيا والأردن والكيان الصهيوني وخلافة البغدادي. وترتكز على خطوط مواصلات طويلة، عرضية لالإغارات والكمائن ومحاولات تقطيع الأوصال، نتيجة تمركز المسلمين في بلدات ومواقع قرية منها.

هذا الوضع الجيوستراتيجي غير المرجح، فرض أعباءً إضافية على كاهل الجيش الذي اضطر للحفاظ على موقعه الرئيسة، والدفاع عن مئات البؤر القتالية المتباشرة، بعضها محاصرٌ منذ سنوات، إلى جانب تأمين مئات الكيلومترات من طرق الإمداد المتفرعة في كل الاتجاهات.

## تکنیکات داعش و اخواتها

عادة، تكون إشارة بدء المعركة كنهاية عن إقدام انتخاري أو أكثر على

مهاجمة نقاط الاختراق الأولى (سور أو بوابة رئيسة) بواسطة آلية محمّلة بأطنان من المواد المتفجرة. وتحت تأثير حال الهلع والصدمة الناجمين عن هول الانفجار، تندفع فرق من المقاتلين الانغماسيين، لخلخلة النظام الدفاعي، وكسر الروح المعنوية لدى الخصم، مثلما حدث في معارك ييجي والرمادي والحسكة وكوباني، ومطاري منغ والطبقة وغيرها من الأهداف. وبعد التأكيد من نجاح الانغماسيين «بتكسير» القشرة الدفاعية الصلبة، تبدأ كتلة الهجوم الرئيسية بالاندفاع من محاور رئيسة وثانوية، مستخدمة تكتيك الوثبات المصحوبة بالحركة والنار للانتقضاض والسيطرة على الموقع المستهدف.

أحياناً، يتزامن مع العمليات الانتحارية، تمهيد ناري كثيف بالمدفعية والراجمات، كما جرى، مراراً، أثناء محاولات الانقضاض الفاشلة على مطار دير الزور، وهجمات الاستيلاء على معسكرات الجيش في محافظة إدلب. وقبل الهجوم على معسكريٍّ وادي الضيف والجامدية، الواقعين غرب مدينة معرة النعمان، على بعد نحو خمسمئة متر من طريق دمشق- حلب الدولية، تعرضها لقصف تمهيدي عنيف لثلاثة أيام متالية، تدفق على أثرها آلاف المهاجمين من النصرة وجند الأقصى وأحرار الشام، بينهم عشرات الانتحاريين ومئات الانغماسيين. وعقب الصمود لعدة أيام، انسحبت القوة المدافعة (800 جندي تقريباً) بشكل منظم إلى بلدة مورك، عبر مسيرة شاق اخترق بلدات التح وبابولين والعامرية التي يسيطر المسلحون عليها.

في المعركة الكلاسيكية، إذا تعذر هجوم قوة نظامية ضد هدف معاد، تطلب منها قيادتها، الثبات والتمسك بالموقع التي وصلت إليها، إفساحاً في المجال لنيران الطيران والمدفعية، لكي تصبّ حممها على نقاط الدفاعية للخصم، المعيبة لمسالك التقدم. وبعد التأكيد من «تللين» تلك النقاط العصبية وتخلخل تحصيناتها، تستأنف القوة المهاجمة تقدّمها نحو

أهدافها. في حين نجد داعش والنصرة، تلجان في وضعية كهذه إلى تكتيك الاستعانة بالمزيد من الاتحاريين، لفتح مسارات الانسداد و«تسليكها» أمام اندفاعات مقاتليها. وأوضح مثال، ما حدث في كوباني، في اليوم الخامس والسبعين لبدء المعركة، حيث أقدم تنظيم داعش إثر تعّشر هجماته، على إرسال خمسة اتحاريين دفعة واحدة، عبر الحدود التركية، بقصد كسر إرادة المقاتلين الأكراد الذين سطّروا ملحمة في الصمود والثبات. وتفتضي الموضوعية، لفت الانتباه إلى الدور الفعال للطيران الأميركي والدولي في معارك كوباني، وبقية مواقع القوات الكردية التي شهدت مواجهات مع داعش، على امتداد الجغرافيا العراقية والسورية.

### تكتيكات مضادة

إن اعتماد تكتيكات مضادة لتكتيكات الجماعات القاعدية تخفّف من فعاليتها، وتوهن اندفاعتها، وتسرّع إلتحق الهزيمة بها. وهي بعض خلاصات تجارب المعارك السابقة التي دارت رحاها في أكثر من ميدان وجبهة، ومنها:

١- اعتماد مفهوم المشاغلة والضربيات الاستباقية، بواسطة النيران والهجمات المباغطة، لنزع المبادرة من يد التكفيريين، ومنعهم من تجميع قواهم وإقدامهم على أعمال هجومية. وفقاً لهذا المفهوم، يبادر الجيش اللبناني بين الحين والآخر إلى استخدام المدفعية الثقيلة، لقصف مواقع المسلحين وتجمعاتهم في جرود عرسال ورأس بعلبك...

في هذا السياق، اندرجت المعارك الاستباقية التي شتّتها مجتمعات المقاومة، ربيع 2015، ضد مقاتلی داعش والنصرة وأخواتهما في جبال القلمون وتلالها. وأفضت إلى تحرير نحو 700 كلم<sup>2</sup> من مناطق سيطرتهم، وحصر تواجدهم ضمن مساحة لا تزيد عن 300 كلم<sup>2</sup>، ممتدة ما بين جرود

رسال ورأس بعلبك المتصلة ببعض مسارب «التهريب» على الحدود الشرقية لسوريا.

2- تكليف وحدة الدعم المدفعي التابعة للموقع المعنى، وضع خطة مسبقة تلحظ إقامة السدود الناريه على خطوط التجمع والانطلاق المحتملة، بهدف بعثرة القوى المعادية قبل شروعها بالهجوم.

3- تشكيل قوة احتياطية في كل قطاع عسكري، تكون جاهزة لنجدية أي موقع يتعرض لهجمة مباغته. يكون من مهامها الرئيسة، إغفال الثغرات في حال حدوثها، وتدعم القوة المدافعة، وشن هجمات معاكسة لرد المهاجمين خارج نطاق الموقع المستهدف.

4- تحصين المسارب الإجبارية إلى مداخل الموقع الدفاعية، بخطوط متعرجة من الدشم الخراسانية، لتصعيب دخول الآليات المفخخة إليها. ووضع عوارض حديدية قوية (بوابات احتياطية) عند متعرجات تلك المسارب، تقع تحت مرمى رشاشات ثقيلة ومتوسطة منصوبة في نقاط مشرفة. وقد تعلم المقاتلون الأكراد من تجارب معاركهم في كوباني، الإسراع بإطلاق النيران، فوراً، على نقاط التفجيرات الانتخارية، حيث يتقدم، عادة، الانغماسيون نحوها، للتسرب إلى عمق الموقع المستهدف.

5- استخدام الصواريخ الموّجهة العالية الدقة مثل صاروخ كورنيت الروسي، لاصطياد الآليات المفخخة وتفجيرها على بعد كيلومترات (3.5-5 كلم) قبل الوصول إلى أهدافها. علماء، أنه من ضمن التكتيكات التي تتبعها داعش والنصرة، إرسال أكثر من آلية مفخخة باتجاه هدف واحد، لضمان نجاح إحداها بتخطي شبكة النيران المضادة والوصول إليه.

## مفاصل الضعف

كما أبرزنا نقاط قوة جماعات الجيل الثالث من القاعدة على مستوى

البنية وأساليب القتال والتكتيكات والعناصر المرادفة لها، سينسلط الضوء على مفاصيل ضعفها البنوية وما أكثرها...

1- إن تركيبة الجماعات «الجهادية»، قابلة بطبيعتها للتشقّقات الدورية الناتجة من الاختلافات الفقهية، وتضارب المصالح والأهواء، التي تؤدي إلى بروز أمراء جدد على الساحة، سرعان ما يقتطعون حصصهم من بناء التنظيم الأم. ولا يقف الأمر عند هذا الحد؛ بل يعمدون إلى رمي بعضهم بعضاً بتهم الكفر والردة التي لا يُظهر رجسها إلا بالسيف. وأدق مثال، تجربة جبهة النصرة التي ولدت، عملياً، من رحم الدولة الإسلامية في العراق، وحينما كبرت وتمددت على مساحات من الشمال السوري، رفضت مبايعة خلافة البغدادي؛ فكانت الفتنة الكبرى التي لا تزال نيرانها مستعرة بينهما. هذا فضلاً عن التصفيات والإقصاءات المتتالية التي تطال القادة والكوادر داخل التنظيم الواحد.

2- إذا كان الاستيلاء على المزيد من الأراضي يؤشر إلى امتلاك عنصري التفوق والغلبة، فإن الحفاظ عليها أمرٌ شاقٌ يحتاج الكثير من الجهد، وتجنيد قوات إضافية؛ لأن القوة العسكرية أشبه بقطعة العجين، كلما مددت على طارة أكبر رقت وضفت، بمعنى أن اتساع مساحة انتشار الوحدة القتالية، بما يفوق إمكانياتها، يجعلها هشةً يسهلُ اختراقها وتدميرها. وال الحرب المفتوحة التي تخوضها داعش وأخواتها على جبهات عدّة تستنزف قدراتها، وسوف تظهر آثارها السلبية مع جفاف سيل تدفق المقاتلين إليها.

3- يتيح التجنيد على عجل، الذي تمارسه الجماعات «الجهادية»، لأجهزة الاستخبارات الدولية والإقليمية والمحلية، اختراق بنيتها القتالية، على الرغم من وسائل الحماية الذاتية، المولجة التدقيق بأوضاع المتطوعين

الجدد. لذا، لا يمر أسبوع واحد من دون تسرّب خبر إعدام عناصر « الجهادية »، بتهم الجبن أو نقص الولاء، والتعاون مع العدو.

وفي نهاية العام 2014، « أعدمت داعش والي الموصل « معمّر توحلة » وتسعة من مقاتليها بتهمة التجسس لصالح الحكومة العراقية والتحالف الدولي »<sup>(1)</sup>. هذه عينة من عشرات حالات الإعدام التي نفذها التنظيم بحق كوادره وعناصره، بسبب هروبهم من المعارك أو الشك بولائهم.

4- إن تحول البنية القتالية لتلك الجماعات إلى جيوش جوالة ذات هرمية واضحة المعالم والمفاسد، في مواجهة أعداء يمتلكون أسلحة متقدمة، وكثافة نيران عالية الدقة ليس لمصلحتها؛ فانكشف هياكلها القيادية والعسكرية، يجعلها عرضة لضربات مؤذية، لا سيما بعد انغماس وسائل النيران الروسية الحديثة من طائرات ومنظومات صاروخية متنوعة في معارك الميدان السوري. وقد نجحت هذه الوسائل، بتدمير عدد كبير من المقرات ومراكز القيادة ومعسكرات التدريب ومخازن الأسلحة والموقع القتالية ومصافي النفط وقوافل الصهاريج ومنازل قيادات داعش وأخواتها.

5- ينفر السكان المحليون من السلوكيات الإجرامية للجماعات التكفيرية، تحديداً داعش التي قتلت الآلاف، ومن يفترض أنها يبيتها الحاضنة في العراق وسوريا. وأثبتت برهان، ما حلّ بعشيرة الشعيبات السورية، وعشائر الجبوري والبوههد والبونمر العراقية، واللائحة تطول... ولضمان الإمداد الميداني بتلك البيئة، فهي مُجبرة على تجميد جزء من قواتها في مناطق نفوذها، لقمع أي حراك تمرد ضدّها.

6- إن تظهير مشاهد العنف والإفراط في التوحش، يدب الرعب في قلوب الخصوم، بحسب ما تنشد داعش وأخواتها، لكنه في المقابل قد يحفّز

---

(1) صحيفة الشرق الأوسط، 10/12/2014.

هؤلاء على القتال المستميت، لكي لا يكونوا فرائس سهلة للتوحش الذي يثير اشمئزاز حتى البيئة المحيطة بها. وكتب الخبر بالجماعات الإسلامية، الفرنسي جيل كيبل، «بأن حرية التحرك النسبية المترفة للعناصر، في غياب عقيدة استراتيجية تسيطر عليها سلسلة من القادة، شجعت على ارتكاب أعمال وحشية جداً، إلى درجة أنها أشارت نفور المتعاطفين المحتملين. ولهذا، بعد حرق الطيار الأردني حياً، الذي يتميّز إلى عشيرة سنّية كبيرة، دعا شيخ الأزهر إلى قتل هؤلاء البغاء وصلبهم وتشويبهم، لأنّهم يهددون جماعة المؤمنين عبر تعميق خطوط التصدع في وسطها»<sup>(1)</sup>.

7- يعني تنظيم داعش، وجبهة النصرة بدرجة أقل، صعوبة التوليف داخل بنianهما القتالي. وتشير التقارير الاستخبارية المتعددة المصادر، إلى انقسامات حادة بين المناصرين (المقاتلين المحليين) والمهاجرين (المقاتلين الأجانب). ويتحدث أبو ليلى أحد الكوادر المنشقين عن داعش بالقول: «يهيمن المقاتلون الأجانب على المراكز القيادية العسكرية والإدارية في التنظيم، وأنهم لم ينقو الحظة واحدة في العناصر المحلية»<sup>(2)</sup>.

وتعرو صحيفة نيويورك تايمز التوترات والاضطرابات داخل التنظيم «إلى الضغوط العسكرية والمالية، وتزايد معاناة التنظيم اللامركزي الذي يحاول الحفاظ على تماسك الدولة الناشئة، وإدماج آلاف المقاتلين الأجانب في صفوف المقاتلين العراقيين والسوريين»<sup>(3)</sup>.

## طرق المواجهة

إن مواجهة جماعات التطرف والتکفير، تتطلب تضافر جهود كل

(1) جيل كيبل، الجيل الثالث من الجهاديين، النهار، 10/03/2015.

(2) الشرق الأوسط نقاً عن نيويورك تايمز، هيلين كوبر وآن برنارد وإيريك شميت، 14/03/2015.

(3) الشرق الأوسط نقاً عن: نيويورك تايمز، المصدر نفسه، 14/03/2015.

الدول والمجتمعات المتضررة من وبائيها المستشري، وإقلاع بعضها عن تبني نظرية «الاحتواء والاستثمار»، أي محاربتها في الداخل، ورعايتها في الخارج، دون الاعتزاز من التجارب السابقة. ولكي تؤتي تلك الجهود ثمارها، يجب صوغ استراتيجية مواجهة موحدة، تسيّل خططاً طويلة المدى متدرجة زمنياً، تشمل معالجة الكثير من السياسات المتبعة في مجالات عدّة.

وانسجاماً مع النطاق المحدد لبحثنا، سوف تنحصر مقترحتانا بالميدان العسكري دون غيره:

**1- وحدة الجبهات**، تقاتل الجماعات التكفيرية، خصوصاً داعش، في كل من العراق وسوريا، وبعض جرود السلسلة الشرقية للبنان. ما يستدعي تعزيز التعاون والتنسيق الميداني بين جيوش هذه البلدان، لمواجهة الأخطار المشتركة. وليس خفياً دور دول كبرى وإقليمية، عملت جاهدةً ولا تزال لمنع التعاون، بقصد إطالة أمد الصراع وإنهاك القوى المتحاربة على ضفتّيه.

ونرجح مع تفعيل الدور الروسي، ارتفاع مستوى التنسيق بين الجبهتين العراقية والسورية؛ فالأمر بات أكثر من ضروري، لمنع داعش من المناورة على ضفتّي حدودهما. وخصوصاً، غداة «إنشاء مركز معلوماتي في بغداد، يضم ممثلي هيئات أركان الجيوش الروسية والإيرانية والسويسرية والعراقية لمحاربة الإرهاب»<sup>(1)</sup>.

**2- التأكيد على امتلاك المبادرة الهجومية قبلة الجماعات القاعدية** التي لا تناسبها وضعيات الدفاع المخالفة لطبيعتها البنوية والقتالية. وإذا جرّدنا أحداث الميدانين العراقي والسوسي، لوجدنا تلك الجماعات متفوقة في معاركها الهجومية غالباً، ومهزومة حين تُجبر على اللجوء إلى الدفاع.

---

(1) صحيفة السفير، 27/09/2015

وأدق برهان، ما جرى في معارك ديالى وجرف الصخر وأمرلي وتكريت وسنجر وأرياف حلب واللاذقية وغيرها.

3- توسيع ملاكات قوات النخبة في الجيوش النظامية، التي تجمع في قاتلها الأسلوبين التقليدي وغير التقليدي. والتركيز في تدريباتها على قتال المدن، وكيفية التعامل مع العمليات الانتشارية والكمائن والتفحيخات... وقد أظهرت الحروب الدائرة، لا سيما في بداياتها، أن الكتلة الأكبر من بنية الجيوش النظامية، التي تتعرض بلدانها لخطر داعش وأخواتها لم تكن مهيئة لمواجهة هذا النوع من الأداء.

ما يفترض إدخال تعديلات على بناء القتالية، ليغدو عمدادها التشكيلات الصغيرة (أفواج مقاتلة، كومندوس، وحدات بحرية سريعة، قوات مجوقة ومؤللة...) بدلاً من الفرق الكبيرة التي لا تصلح للحروب الهجينة المركبة.

4- التركيز على الجهد الاستخباري لخرق بنية الجماعات التكفيرية وجمع المعلومات بواسطة أجهزة الرصد والتعقب المتنوعة، بقصد كشف نياتها مسبقاً، والإحاطة بقدراتها وحركتها الميدانية. وإذا استنادنا إلى تجربة الجيش اللبناني والأجهزة الأمنية في هذا المضمار، فقد نجحت إلى حد كبير، بتحويل المواجهة العسكرية التي سعت إليها الجماعات المتطرفة، وخاصة في مناطق الشمال، إلى عمليات أمنية أفضت، حتى الآن، إلى القبض على مئات المسلحين، وتفكيك عشرات الخلايا الإرهابية واعتقال أفرادها.

5- يلعب سلاح الجو دوراً محورياً في مواجهة الجماعات شبه النظامية، وخاصة الطائرات غير المأهولة المزودة بصواريخ جو-أرض، حيث يمكنها تأدية مهام الاستطلاع والمشاركة القتالية الفورية في آن واحد. وكذلك الطائرات العمودية، التي تميز بدقة إصاباتها، وتقدم دعماً

نارياً لصيقاً للقوات البرية في حالي الدفاع والهجوم. أما الطائرات القاذفة، فقادرة على ضرب كل الأهداف المعادية في العمق، مثل: مقرات القيادة والثكنات ومعسكرات التدريب ومخازن السلاح، وقوافل المسلمين أثناء تنقلها بين المواقع والجبهات.

## الخاتمة

إن الانتصار النهائي على قوى التطرف ليس سهل المنال، ويحتاج استراتيجية مركبة، تلحظ البعدين الآني والمستقبلبي في عملية الصراع:

### البعد الآني

يعطي الأولوية للجهاد العسكري والأمني للخلاص من طاعون الجماعات التكفيرية والقضاء على وبائها. وباتت ظروف تحقيق هذا المبتغى مؤاتية أكثر، بعد وصول إرهابها إلى بلدان أوروبية ودول إقليمية، مارست سياسيات تواطئية تجاه تلك الجماعات. وتبقى المراهنة الأساسية على نقلة روسيا الحاسمة في محاربتها للإرهاب بكل مسمياته.

هذه النقلة النوعية، شددت عضد الجيش السوري الذي سيزداد قوة وبأساً خلال معاركه المستقبلية. كما إنها عرّت الولايات المتحدة وحلفها الدولي في حربهما المزعومة ضد الإرهاب، ووضعتهما أمام معطيات ميدانية لا مهرب منها، قد تجبرهما على الإفلات عن استراتيجية «الاحتواء والاستئمار»، التي لم تهدف، يوماً، للقضاء على الإرهاب، وإنما لرسم حدوده، وتوجيه مساراته لمحاجهة قوى محور المقاومة.

### البعد المستقبلي

يمسّ مسائل حساسة مرتبطة بإعادة تشكيل المفاهيم والمنظومات القيمية لدى البيئات العربية والإسلامية، وبناء منهجيات مقارباتها وفق

أفكار تداول السلطة والمواطنة والحرية وقبول الآخر، كنفيض لنظم التفرد والاستبداد والحكم المطلق... لأن التطرف والتکفير بكل أشكالهما، يكمن جذرها في الأفكار والبيئة المحيطة، قبل تحولها إلى سلوك عصابي مدمر. وتطلب مكافحتهما جهداً استثنائياً من المؤسسات والمرجعيات الإسلامية المعتدلة، محوره تجريم قوى التکفير وتحريم الالتحاق بها، وتعرية ضلالتها أمام الأجيال الشابة. مضافاً إلى ضرورة العمل الجاد على تنقية الفكر والتراث الإسلامي، مما علق بهما من أدران فتاواه وروايات وأحاديث مسمومة يغرس المتطرفون من منابعها الآسنة. وكذلك الحد من انتشار فطريات القنوات الفضائية المحرّضة على الفتنة، وإلغاء برامج التعليم الديني المعتمدة في بعض الأقطار العربية والإسلامية، التي تحضّ على التعصب والكراهية، بما يخالف سماحة الإسلام وفطرته الرحمة تجاه الآخر، كأخ في الدين أو نظير في الخلق.

إن مهمة مواجهة وباء التطرف والتکفير، ليست مقتصرة على قوى الاعتدال الإسلامي وحده، فالقوى المدنية، أيضاً، مطالبة بالعمل الجاد لتوسيع مساحة حضورها العابر للطوائف والمذاهب؛ فمن دونه يغدو الحديث عن الدولة المدنية الديمقراطية التي لا يتعارض دستورها وقوانينها مع جوهر الشرائع السماوية، مجرد ترف فكري لا يصرف على أرض الواقع. وتضع الدولة المنشودة نصب أعينها تحقيق التنمية والرفاه والكرامة الإنسانية، والارتقاء بمواطنيها من رعايا منساقين كجماعات إلى أفراد أحراز يخطّون مستقبلهم بأيديهم.

لا يكتمل **الحلم** الطموح بتكون مجتمعات عربية حديثة، من دون لحظ الصراع الوجودي مع العدو الصهيوني الذي تشكّل قوى التطرف وجهه الآخر. لأن أي مشروع تحرري يتّجاه فلسطين هو مشروع مبتور يسهل الانقضاض عليه. والتاريخ خير معلم، فمحاولات تحقيق الطموحات الوطنية، وإسقاط القضية القومية من الحسبان، أوقع بعض

المجتمعات العربية في براثن الاستتباع والإلحاد الاستعماري غير المباشر. كما إنّ تغليب العامل «القومي» على نظيره الوطني، أدى إلى استيلاد دولة الخوف القمعية.

إن الحديث عن جهد مشترك لمواجهة موجات التطرف ليس ترفاً، كونها غزت معظم المجتمعات العربية والإسلامية. وبات التخلص من سموها، يفترض تعاون قوى الاعتدال والتغيير على المستويين الوطني والإقليمي. وتحقيق هذا التعاون، قد يسهم في إنتاج مشروع عربي إسلامي نهضوي، يتحاشى خطايا تجارب الماضي ويشق طرائق المستقبل. لكي لا يفرّخ لنا التاريخ عند كل مفترق داعش جديدة.

# **التكفير عند جماعات العنف التكفيرية**

## **الجذور والعوامل وسبل المواجهة**

### **–قراءة تاريخية وسيوسولوجية–**

الدكتور يحيى فرات<sup>(1)</sup>

تختلف النخب الفكرية-الثقافية في مقاربة الظواهر اللامعقولة التي تعصف بالعالم العربي ألا وهي تنامي وتعاظم دور جماعات العنف التكفيري، حول أسباب نشوء هذه الظواهر وكيفية مقاربتها، ويعود ذلك إلى الرؤى المسبقة أو الخلفيات الفكرية والعقدية، سواء منها السياسي أو القومي أو المذهبي.

نحن إذن أمام ظاهرة خطيرة وشديدة التعقيد والتدخل؛ إذ تشهد المنطقة العربية والإسلامية في هذه المرحلة من تاريخها، اضطراباً فكريّاً وتشظيّاً اجتماعياً لا مثيل له، أدى إلى اختلال التوازن النفسي على مستوى الفرد والمجموعة، على مستوى الهوية والانتماء الإنساني، أي مستقبل يتضرر هذا الجيل؟ وأي رابطة اجتماعية أو قومية أو وطنية يمكن أن يؤسس عليه مجتمعنا الحاضر واللاحق؟

**تُعد التيارات التكفيرية «تيارات مضرة وخطرة في التاريخ، ولها سوابق**

---

(1) باحث في شؤون الحركات الإسلامية، من لبنان.

تاريجية إلا أنها قد اكتسب حياة جديدة وقوة إضافية في السنوات الأخيرة<sup>(1)</sup> أدت إلى نفور شديد في الضمير الإنساني. مع ما نشاهده من البشاعة في الطرق والأساليب المتوجهة «وال المقدس» التي تنبع من الفكر الذي يفترض به أنه رحمة للعالمين<sup>(2)</sup>.

فهو «يقدم مقولات ناجزة ومقدسة حول طهارة المجرم ونراحته»<sup>(3)</sup>، وهو أمر فرض على علماء العالم الإسلامي ونخبه وحكماه. إن هذا الأمر قد افتعله العدو كمشكلة للعالم الإسلامي ونحن مضطرون لمواجهته، في حين أن القضية الأساسية هي الكيان الصهيوني، وهي قضية القدس<sup>(4)</sup> فتفاقتنا الموروثة وعقليتنا العربية والإسلامية قد أشربت هذا النوع من التماهي في مفهوم الآخر، والقبيلة والصحراء، إنه العقل الجماعي لشعوبنا التي لا حدود لها. السؤال الأساسي «من ساهم وبث هذا اللامعقول الغرائزي إلى حياتنا من جديد؟»، نحن من قبلنا التكفير بدلاً عن التفكير، نحن الذين جئنا بالخطر والشر إلى ربوعنا<sup>(5)</sup>، إنه «الليل الأسود الذي يعبر فيه عالم المسلمين اليوم»<sup>(6)</sup>.

استطاعت هذه التنظيمات التكفيرية من تنفيذ الخيال الإجرامي في النفس الإنسانية إلى واقع مصور ومعاشر في كرنفالية تستحي منها حتى البهائم ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا كَانُوكُمْ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَيِّلًا﴾<sup>(7)</sup>. فإذا كان التشبيه بالأنعم

(1) الإمام الخامنئي، «التكفير والاستكبار خطران متلازمان»، كلمته في مؤتمر العالمي لمواجهة التيارات التكفيرية، إصدار المركز الإسلامي، بيروت 2015.

(2) ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلنَّاسِ﴾، سورة الأنبياء: الآية 107.

(3) هادي قيسري، تقديس الجريمة.

(4) الإمام الخامنئي، «التكفير والاستكبار خطران متلازمان»، كلمته في مؤتمر العالمي لمواجهة التيارات التكفيرية، إصدار المركز الإسلامي، بيروت 2015.

(5) صادق النابسي، «إيديولوجيا التكفير»، جريدة الأخبار، 18–7–2013.

(6) الأ卜 يوسف مونس، جريدة النهار، 19–7–2013.

(7) سورة الفرقان: الآية 44.

وهم على مستوى الشكل مختلفون عن البشر، إذن بأي صبغة تختلف أو تضل السبيل أكثر من البهائم. إنها الصفة الإنسانية التي نرعت منهم.

وثقت اغتياله للكرامة والقيم الإنسانية، معتبراً أن الجريمة فضيلة والتوحش جهاداً، والغلو ديناً والتطرف مذهبًا والعدوانية واجباً والتعصب قاعدة والتکفیر أصلًا، والدموية فقهاً والترهيب منهجاً محموداً واغتصاب إنسانية البشر شرعاً والهوس المرضي القتل... وقطع الرؤوس وسيلة من وسائل التقرب إلى الله، وقتل الآخر وذبحه ضرورة لإقامة حكم الله في الأرض<sup>(١)</sup>. والمنهج الفطري القائم ﴿لَيْنَ بَسَطَتِ إِلَيَّ يَدَكَ لِتُقْتَلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِي إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾<sup>(٢)</sup> إِنَّ أُرِيدُ أَنْ تَمُوا أَبِيَّشِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ حَرَقُوا الظَّالِمِينَ<sup>(٣)</sup>.

كل هذا يتطلب من الباحثين وال منتخب الفكر والتنمية والسياسية جهداً كبيراً المواجهة هؤلاء. فهي مسؤولة كل جهة أو طائفة<sup>(٤)</sup>، فهم أيضاً من مسؤوليتنا، منهم ضحايا وجلادون في آن معاً<sup>(٥)</sup>. ومن هذا المشهد اعتبر بعض أن الملحدين أفضل منهم، هؤلاء الوحوش الجدد بحسب الرؤيا يسيئون إلى الله؛ لأنهم يستبيحون دماء الأبرياء ويرتكبون المآثم والمجازر باسم الله... فالملحدون أحسن منهم وأفضل؛ لأنهم لا ينسبون إلى الله خطاياهم وشرهم<sup>(٦)</sup>. هذا الجهد الذي أسماه الرئيس الإيراني الشيخ حسن روحاني في كلمته في افتتاح الجمعية العامة للأمم المتحدة العالم في مواجهة الإرهاب

(١) هلا أمون، رحلة العنف المقدس، ص.9.

(٢) سورة المائدة: الآية 28\_29.

(٣) نسيب حطيط، السلفية التکفیرية، ص14.

(٤) المصدر نفسه، ص14، لا أوفق ما ذهب إليه الدكتور حطيط أنه يمكن تسميتهم الوثنية الإسلامية، إنه تشابه وتلاقٍ للفكر الصهيوني مع الفكر التکفيري: (أسعد شرار، جريدة الأخبار، 17/7/2013).

(٥) الأدب مونس، جريدة النهار، 19-7-2013.

والتطور: واليوم تدعوكم جمهورية إيران الإسلامية والمجتمع الدولي بأسره لاتخاذ خطوة إلى الأمام في دعوة للانضمام... يجب علينا قبول أن نكون قادرين على فتح أفق جديد يمكن من خلاله أن يسود السلم على الحرب، والتسامح على العنف، والتقدم أكثر من إرادة الدماء، والعدالة على التمييز، والازدهار على الفقر، والحرية على الاستبداد<sup>(1)</sup>.

وقد تداعت الكثير من المؤسسات الدينية أو بحثية للبحث والنقاش حول هذه الظاهرة التي عصفت بالأمة العربية والإسلامية، من فقه الأزمة الذي أصدرته وزارة الأوقاف السورية إلى المؤتمر العالمي لمواجهة التيارات التكفيرية عام 2015 في إيران، إلى المؤتمر العالمي الذي انعقد في الأزهر الشريف عام 2014<sup>(2)</sup>، يأتي هذا المؤتمر المنعقد بتاريخ 9 و10-2015 بدعوى كريمة من المركز الاستشاري تحت عنوان جماعات العنف التكفيري<sup>(3)</sup> على أمل أن يقدم إجابات شافية وواافية، بحثاً وتنقيباً حول هذه الظاهرة، وكيف نواجهها معًا مسلمون سنة وشيعة ودروز، ومسلمون ومسيحيون، مجتمعة ونحوها على «جيل كامل يتكون ثقافياً ومسلكياً على الحقد والعنف»<sup>(4)</sup>.

شكل الاتجاه السلفي<sup>(5)</sup> في التاريخ الإسلامي مرجعية فكرية وعملانية كتير فكري عبر للطوابق السنوية الثلاثة: الأحناف<sup>(6)</sup> والشافعية<sup>(7)</sup>

(1) الشرق الأوسط، 30-9-2013.

(2) مجلة المقاصد، العدد 4-2014، ص 287-296.

(3) قاسم قصیر، السفير، 22-8-2015.

(4) صادق النابليسي، «إيديولوجيا التكفير»، جريدة الأخبار.

(5) السلفية طريقة في المعتقد والفقه، مفادها الرجوع إلى ما كان عليه الجيل الأول السلف الصالح في العقيدة والعبادة والأخلاق، (سلسلة من الباحثين (الشيخ زهير الشاويش)، السلفية: النشأة المرتكزات الهوية، ص ٥). وإن أول من استعمل كلمة سلف هو الإمام أحمد بن حنبل الذي احتاج بقول السلف في مسألة خلق القرآن، لقد روى عن غير واحد من سلفنا أنهم كانوا يقولون القرآن كلام الله غير مخلوق، وهو الذي أذهب إليه.

(6) الأحناف: مذهب فقهي ينسب إلى مؤسسه الإمام أبي حنيفة النعمان (ت 150هـ / 767م).

(7) الشافعية: مذهب فقهي ينسب إلى مؤسسه الإمام الشافعي (ت 204هـ / 819م).

والمالكية<sup>(1)</sup>، مركزاً ضمن المذهب السنوي الرابع الحنابلة، وإن كانت أعداد المقلدين لهذا المذهب أقلية في المذاهب الإسلامية ضمن جغرافيا الانتشار<sup>(2)</sup>، فهو معترف به رسمياً سواء في العصر العباسي إلى أن تم تثبيت المذاهب الأربعة رسمياً سنة (666هـ / 1264م) على يد السلطان بيبرس المملوكي<sup>(3)</sup>.

إلا أن هذه المدرسة قد واجهت صعوبات كثيرة في تقبلهم من قبل المدرسة السنوية الرسمية<sup>(4)</sup>، إلى أن بُعثت من جديد على يد الإمام محمد بن عبد الوهاب (ت 1207هـ / 1791) حيث استطاعت أن تكون لأول مرة المذهب الرسمي للدولة الإسلامية وهي المملكة العربية السعودية، ليشهد العصر الحديث والمعاصر انبعاث الحنابلة عبر الوهابية، التي طغت على المشهد الإسلامي الشيعي، ولعل أبرز ما يميّز هذه السلفية الدعوة إلى استخدام القوة والعنف ضد المخالفين، وإباحة دمائهم ومالهم. وقد اعتبر الشيخ محمد محسن بن عبد الوهاب زمه هو زمن الشرك المخرج من الملة، لقد فتح الشيخ محمد بن عبد الوهاب أبواب التكفير على مصاريعها، وكرّس مفاهيم العداوة والقطيعة<sup>(5)</sup> والبراءة وأحكام الشرك والتکفير واردة، بل تکفرون من توّقّف عن تکفير من کفرتّموه<sup>(6)</sup>.

---

(1) المالكية: مذهب فقهي نسب إلى مؤسسه الإمام مالك بن أنس (ت 179هـ / 795م).

(2) ابن خلدون (ت 808هـ / 1405م)، المقدمة، ص 448.

(3) المقريزي، الخطط، ج 2، ص 343.

(4) صراع الأشاعرة وأهل الحديث عبر محطات تاريخية متعددة، انظر: نموذج فتنة ابن رجب القشيري (ت 514هـ / 1120م)، ذيل طبقات الحنابلة، ج 1، ص 42.

(5) بلغ تعصّبهم إلى حد قطع العلاقات التجارية مع الشام والعراق حتى سنة 1269هـ / 1852م كما إذا وجدوا تاجراً يحمل متأناً إلى المشركين (أي الشام والعراق). صادروا أملاكه، (نجم الدين الطبسي، السلفية والسلفيون، ص 106؛ حنانا المير، الدر المرصوف في تاريخ الشرف، ص 160).

(6) كلمة الشيخ سليمان بن عبد الوهاب، الصواعق الإلهية في الوعود الوهابية، ص 27. نقاًلاً عن: نجم الدين الطبسي، السلفية والسلفيون، ص 56.

هذه اللغة الوهابية تتحول بعد التقارب الذي سوف يحصل بين أتباعها وأتباع السلفية القطبية إلى المنبع الأول الذي تستقي منه الحركات الجهادية والتكفيرية كل مبرراتها ومسوغاتها ومقولاتها ومفاهيمها في تكفير الناس والأنظمة<sup>(١)</sup>.

والأغرب أن هذه التيارات التي تخوض معركة الوصول للسلطة، هي غير قادرة على قيادة المجتمع الذي تنشط فيه وتدعى تمثيله<sup>(٢)</sup>.

وهي في سينيتها تعيش أزمة ثقافية في فكرها المتعنت والمطلوب، الذي لا يقدر على القيام بالمهام الوظائفية لقيادة المجتمع. وذلك لما تحمله من رؤى قبلية لواقع حاضر، ومرتكزات فكرية طوباوية متغيرة عن الواقع والدين والفطرة السليمة. ولا يكفي تحليل الدوافع المحركة لنشاط هذه الجماعة لفهم جذر الأزمة، إذ لا بد من العودة إلى نمطيات التفكير المتحكمة بها<sup>(٣)</sup>.

اختللت الآراء حول تحديد المرتكزات المؤثرة والدافعة لهذا التيار، بين ما هو عامل ديني أو عامل اجتماعي سياسي، أو البعد السياسي<sup>(٤)</sup>.

وفي الواقع أنا أرجح أن الأساس في نمو هذه التيارات هو الخلافية العقدية التي استطاعت أن تصل إلى السلطة كمذهب مع تأسيس المملكة العربية السعودية، التي تبنت المذهب الحنفي بصفته الوهابية.

وهنا لا بد من الإشارة إلى أن العنف ليس مرتبطاً بالدين أو أن الأصولية حكر على الدين الإسلامي، فالعنف هو ظاهرة إنسانية، بدأ

---

(١) هلا أمون، رحلة العنف المقدس، ص 23.

(٢) غسان ملحم، «الإسلام السياسي والحداثة في زمن العولمة»، الأخبار، 18–7–2013.

(٣) هادي قبيسي، أزمة الهوية السلفية القتالية.

(٤) بدر الإبراهيم، العنف التكفيري من الآخر البعيد إلى القريب.

مع الإنسان وما زال مستمراً ﴿مَا أَنْ يُبَاسِطِ يَدَيَ إِلَيْكَ﴾ وهذا ما ذكره الفيلسوف الإنكليزي توماس هوبيس (ت 1679م) «الإنسان ذئب لأنّيه الإنسان»<sup>(1)</sup>، وأيضاً ذكره الفيلسوف الألماني هيغل (ت 1831م) الإنسان شهوة لقتل الآخر وإلغائه<sup>(2)</sup>.

كما يمكن أن نقارن عنف الغرب الذي فاق عنف التكفيريين، فمجازر الحرب العالمية الأولى 1914–1918، وال الحرب العالمية الثانية 1939–1945 والقنابل الذرية التي أقيمت على اليابان وعنف النازية، وتغطية الجرائم والمجازر المرتكبة من قبل حلفاء الغرب وبالأشخاص بدعم وتغطية جرائم الكيان الصهيوني، وفي التهديد اليومي من خلال أسلحة الدمار الشامل، كلها شاهد على ذلك، وإنّا لما الفارق بين إجرام هنا وإجرام هناك، أو بين السيف والقنابل الخارقة والحرارة، والمجازر والإبادة الجماعية، والأسلحة النووية والجرومية.

ولهذا فالأزمة الحضارية تشمل الجميع سواء في الشرق الإسلامي أو الغرب، فالجميع في أزمة، ولكن المسؤولية تقع أولًا علينا كمسلمين أتباع الرسالة الإسلامية أصحاب رسالة وحضارة، فنحن أول من يتطرق إلى هذا الموضوع الغريب عن الإسلام المحمدي الأصيل ليعالجها. «وَيَحْيَا مَنْ حَيَ عَنْ بَيْنَةٍ»<sup>(3)</sup>، ولا بد من تشكيل نهضة علمية ومنطقية شاملة من قبل جميع المذاهب الإسلامية من أجل اقتلاع تيار التكفير، ومثل هذا لا يختصر بمذهب دون آخر، فعلى جميع المذاهب الإسلامية التي تتحرّق من أجل الإسلام، وتومن به وتحرص عليه أن تشارك في تحمل هذه المسؤولية، يجب علينا جميعاً القيام بحركة علمية عظيمة.

---

(1) فرانسوا أوبيرال وجورج سعد، معجم الفلسفه الميسّر، دار الحداثة للطباعة، بيروت ط 1، 1993، ص 118.

(2) المصدر نفسه، ص 121-124.

(3) سورة الأنفال: الآية 42.

لقد نزل أولئك «التكفيريون» تحت شعارهم الكاذب أتباع السلف الصالح إلى هذا الميدان، يجب أن ثبت براءة السلف الصالح مما يرتكبه هؤلاء...ويجب عليكم أن تخلصوا الشباب منهم، فثمة مجموعة منهم وقعت تحت تأثير هذه الأفكار المضللة<sup>(١)</sup>.

وتتجدر الإشارة إلى أن العنف التكفيري لا يرتبط بالمسلمين «السنة»؛ إذ إن التكفير هو أيضاً ظاهرة دينية، وعند جميع المسلمين دون استثناء... ولم تقتصر أيضاً عليهم، بل ظهرت كمنهج عقدي في الديانات السماوية<sup>(2)</sup>، وفي الإيديولوجيات العقدية المادية كالعلمانية والشيوعية، حيث تمثلت في بعض سلوكياتها مع النطاف الذي تحول إلى مركز من ركن العنصرية أو الأثنية<sup>(3)</sup>.

فعلينا السعي إلى ضرورة تفعيل دور العقل والتفكير الحر، عبر الاعتماد على التفكير العقلي والاجتهد التجديدي مقابل أسلوب الجمود على حرفية النصوص وقشريتها<sup>(4)</sup>، لقد غالب على السلطات المتعاقبة استعمال العنف والآن أصبح في متناول الجميع دون أي رادع، في عشوائية مفرطة، أدخلتنا في أزمة الوعي، إنه جنون الفوضى الخلاقية؛ إذ دخل التكفير والعنف في العولمة، فلا جغرافيا تحده، ويستطيع أي فرد أن يساهم فيه.

بات الآن موضة يتسابق عليها الصغير والكبير وفق منظومة تربوية أخرجت الإنسان وما تزال من بعده الإنساني إلى المتحولين، التي دأبت السينما الأميركية على إنتاجهم ضمن سلسلة متحوّل (1) ومتحوّل (2) وفق سيرورة معينة فاقت التصور والتخيل.

(1) الإمام الخامنئي، كلمة في المؤتمر العالمي لمواجهة التيارات التكفيرية، كانون الثاني، 2015.

(2) الت حصيلة.

(2) التوحيدية.

(3) نسب حطيط، السلفية، ص 16.

(4) مسودة الوثيقة الثقافية الصادرة عن معهد المعارف الحكيمية، بيروت تاريخ 18-6-2015.

وبتنااليوم نتعاطف مع متحوّل (2) ضد متحوّل (1)، وربما لاحقاً  
نتعاطف مع متحوّل (2) ضد متحوّل (3)... إلخ.

## المرتكزات الفكرية - مرحلة التأسيس

نشأت في العالم الإسلامي في منتصف القرن الثالث الهجري تيارات ومدارس ثقافية وفكرية وكلامية، انقسم حولها المسلمون في قضايا فلسفية المنشئ تارة، وسياسية أخرى تحولت إلى مرتكز ديني كما حصل مع الخوارج. أو بتأثيرات التفاعل مع شعوب وإثنيات وثقافات وأديان، نتيجة الاحتكاك إثر الفتوحات الإسلامية في العصر الراشدي الأول (111هـ/632م-40هـ/660م). ثم في العصر العباسي الأول.

من البساطة والبداءة حاملين معهم الثقافة الجديدة للعالم، الذي أدى إلى خلق النقاشات الدينية مع أديان سابقة كاليهود والنصارى والبراهمة والمجوس، وكل من هؤلاء بين رؤيته الكلامية والفلسفية والدينية حول العالم.

ومع عصر الترجمة إلى العربية من المراكز الثقافية المتعددة آنذاك، الهندية واليونانية والفارسية، التي أحدثت تحولاً في الفكر العربي والإسلامي؛ إذ أثرت فيه، تفاعلاً وإنتاجاً، على مستوى الأفكار والعقائد والسلوكيات<sup>(1)</sup> والنظم الإدارية للدولة، مما أدى إلى نشوء تيارات فلسفية وكلامية داخل أهل الإسلام. وما يعنينا هنا، هو نشوء المدرسة الكلامية «المعتزلة»، وما أنتجته من فكر كلامي كبير. اصطدم بالمدرسة التقليدية التي تبنت الفهم التقليدي التي عُرف أصحابها «بأهل الحديث»، ولاحقاً بالسلفية بعد أن أسس الإمام أبو الحسن الأشعري (ت324هـ/838م) عقيدته، والتي أصبحت الركيزة الأساسية في معتقد معظم أهل السنة،

---

(1) محمد طلس، تاريخ العرب، م (2)، 5 ص-162، 165.

وبقي القسم القليل على المدرسة التي عرفت في ما بعد بالسلفية أو أهل الحديث<sup>(1)</sup> أو...المتمسكون بفهم النص الديني دون تأويل.

ولتبدي المشكّلة الأساس هي اللغة، فهي عند المعتزلة<sup>(2)</sup> كائن يتّطور ينمو ويؤول، وهذا انعكّس على المفاهيم ككلام الله، وحرية الإنسان وغيرها من المسائل<sup>(3)</sup>.

ثم لحقه نمو الفكر الصوفي والذى يتّبّى تأويل النصوص وفق المنظور الصوفي، وما سوف يرافقه من عقائد فلسفية وباطنية، كل هذا ساهم في بلورة الشخصية السلفية كردة فعل وفق آراء المؤسس أحمد بن حنبل، (ت 241هـ/855م)، وقد سبق ذلك نشوء «المذاهب الفقهية وبالأخص مؤسس المذهب الحنفي أبو حنيفة النعمان (ت 150هـ/767م) صاحب اتجاه إعمال الرأي في قراءة النصوص. مما أدى إلى نشوء مدرستين<sup>(4)</sup>.

إذن ساهمت في نشوء هذا الاتجاه عوامل عدّة أبرزها مواجهة جهة المعتزلة والخوارج والشيعة<sup>(5)</sup> والصوفية. والانشقاق الأبرز الذي أحده لاحقاً، المنهج الكلامي لأبي الحسن الأشعري (ت 324هـ/935م) الذي

(1) مدرسة أصحاب الحديث: مالك بن أنس ثم لاحقاً الإمام أحمد بن حنبل.

(2) واصل بن عطاء شيخ المعتزلة (ت 181هـ/797م) الذي اعتزل مجلس الحسن البصري. (الشهرستاني، الملل والنحل، ج 1، ص 54).

(3) اعتبر المعتزلة البيان العربي في المجاز والتشبيه والاستعارة التي ترتكز عليها فكرة التأويل وقد اختلف الأصوليون حول قضية المجاز، فالحنابلة لا يستعملونقياس لأن العقل عاجز عن الوصول إلى ما وراء النص الديني. أما المعتزلة فقد قالوا إن اللغة ليست توقيفية بمعنى أنها من وضع البشر وما سيطراؤ عليها من تغير في الدلالة فمرده إلى تغير حياة المجتمع نفسه. انظر: محمد محمود، الحنابلة في بغداد، المكتب الإسلامي، ط 1، بيروت، 1986، ص 19-20.

(4) الشهرستاني، الملل والنحل، ج 1، ص 243-246.

(5) الآجري (ت 360هـ/970م)، الشريعة، ص 51

زاوج بين إعمال العقل والتفسير الحرفي في النصوص الدينية، ل تستقر غالبية السنة على الاتجاه الأشعري والماتريدي<sup>(1)</sup>.

أدت مواجهة فتنة خلق القرآن في عهد المأمون<sup>(2)</sup> والمعتصم<sup>(3)</sup> إلى معاقبة كل من لم يؤمن بأن النص القرآني مخلوق وليس أزلياً<sup>(4)</sup>، أو ما عرف في التاريخ الإسلامي بفتنة خلق القرآن،<sup>(5)</sup> وعلى رأسهم «أحمد بن حنبل» الذي برع اسمه كإحدى الشخصيات التاريخية التي ناصرت الإسلام<sup>(6)</sup>، وحتى عدّ ك عمر بن الخطاب وصلاح الدين الأيوبي (ت 589/1193م).

وبالتالي هي الإسلام نفسه لا غير، فإذا سألاك (الملكان) فقل رضيت بالله ربّا وبالإسلام دينًا، لا أشعرّاً ولا معتزلياً؛ بل حنبلياً سنياً<sup>(7)</sup>. ومن تمسك بمذهب أحمد بن حنبل في الأصول، فمسامح في ما اجترح أو فرط في الفروع<sup>(8)</sup>، ومن أغضب أحمد بن حنبل فهو كافر<sup>(9)</sup> وفقاً قاعدة تسلسلية «فقلت: يطلق عليه اسم الكفر، فقال: نعم، من أغضب أحمد بن

(1) أبو منصور الماتريدي: عالم كلام، ولد في سمرقند.

(2) المأمون بن هارون: تولى العهد سنة 198هـ إلى 218هـ (814م إلى 833م).

(3) المعتصم، أبو إسحاق بن الرشيد: تولى الحكم (218–833هـ) (ت 227هـ/842م).

(4) إن مذهب المعترضة قد تبنته الخلافة العباسية منذ مجيء المتكفل على الله بن جعفر بن المعتصم (232هـ/846م) (247هـ/861م) بداية الانحلال في الدولة العباسية، بدأ المتكفل عهده بنهي الناس عن القول بخلق القرآن.

(5) حتى كانت الدولة العباسية تطلق الأسرى عند الدولة البيزنطية مقصورةً على الذين يقولون بخلق القرآن، (انظر: حسن إبراهيم، تاريخ الإسلام السياسي والدين والثقافي والاجتماعي، دار النهضة المصرية، 1956، ج 3، ص 213).

(6) ابن أبي يعلى، طبقات الحنابلة، ج 1، ص 90 «طار بخطها وعنائها في الإسلام».

(7) المصدر نفسه، ج 10، ص 88، ترجمة: ابن الزوّزني (ت 451هـ / 1059م).

(8) ابن رجب، ذيل طبقات الحنابلة، ج 1، ص 90، نقلًا عن: البرداني (461هـ / 1068م).

(9) ابن أبي يعلى، طبقات الحنابلة، ج 1، ص 13؛ ابن رجب، ذيل طبقات الحنابلة، ج 1، ص 20 من لم يكن حنبلياً فليس بمسلم.

حتبل عاند السنّة، ومن عاند السنّة قصد الصحابة، ومن قصد الصحابة أغضب النبي (ص)، ومن أغضب النبي (ص) كفر بالله العظيم<sup>(١)</sup>.

وفق هذه الرؤية وما أنتج من أفكار وعقائد في خط المواجهة تشكّلت لدى أصحاب هذا الاتجاه المرتكزات الآتية:

أولاً: رفض التأويل اللغوي<sup>(٢)</sup> في النصوص الدينية، وحصره بما فهمه الصدر الأول من الصحابة والتابعين.

ثانياً: المرجعية التاريخية المؤسسة لفهم هي السلف الصالح، «وخير القرن قرني ثم الذي يليه وثم الذي يليه»<sup>(٣)</sup>.

ثالثاً: حصرية المعرفة بالسماع دون إعمال العقل.

رابعاً: إنهم الممثلون الحقيقيون للفرقة الناجية<sup>(٤)</sup>.

ويمكن اعتماداً على هذا التأسيس أن نفهم كيف دفعتهم هذه المرتكزات إلى مجموعة من العقائد والأفكار التي خالفوا في الكثير منها الغالية من أهل «السنّة والجماعة»، ففي المبدأ الأول رفض للتأويل اللغوي، واعتباره تكذيباً وباطلاً<sup>(٥)</sup>.

خامسًا: المغالاة في تكفير من قال بأن القرآن مخلوق، وغالوا أيضًا في تكfir من قال بأن القرآن كلام الله الأزلية، واعتبر من قال بأن لفظه مخلوق أو شك في كفره، أنه كافر<sup>(٦)</sup>. وبالتالي بدعوا الأشعرية، ثم كفروهم.

(١) ابن أبي بعلي، طبقات الحنابلة، ج ١، ص ٧.

(٢) انظر: عن التأويل: ابن رجب، ذيل طبقات الحنابلة، ج ١، ص ٦٤ و ٣٨٤ مع ترجمة: ابن الفاعوس الحجري (ت ٥٢١ هـ / ١١٢٧ م) وتعليق: ابن رجب، ج ١، ص ٣٨٥.

(٣) حديث شريف.

(٤) انظر: الآجرى، الشريعة، ص ١٤ - ١٨.

(٥) ابن رجب، ذيل طبقات الحنابلة، ج ١، ص ٦٤، ترجمة: أبو القاسم بن منده (ت ٤٧٠ هـ / ١٠٧٧ م).

(٦) ابن أبي بعلي، طبقات الحنابلة، ج ١٠، ص ٢٨٦.

سادساً: مرجعية السلف الصالح في العقائد والأفكار والسلوكيات هي الضامن الأساسي للإسلام، وبالتالي فكل ما صدر عنهم هو الإسلام نفسه، وكل ما لا يصدر عنهم في أي واقعة فهو «البدعة» وفق تفسيرهم، الأمر الذي أدى بهم إلى «تكفير» و«تبديع» كل من أشكل على بعض الصحابة، أو أيدى أي اتجاه على آخر<sup>(1)</sup>، أو على كل من حصر المعرفة بالقرآن أو السنة كأبي حنيفة النعمان<sup>(2)</sup>، أو من انتقد أصحاب الحديث « فهو عندهم زنديق »<sup>(3)</sup>.

ولهذا كان عندهم التزهيد في التحاكم إلى القرآن الكريم والمبالغة في الآثار، «إذا سمعت الرجل يطعن على الآثار، أو يرد الآثار، أو يريد غير الآثار فاتهمه على الإسلام»<sup>(4)</sup>.

وبالتالي يمكن فهم ما ورد من نقاش بين أبي الحسن الأشعري والبربهاري أحد كبار الحنابلة «لما دخل الأشعري بغداد، قال رددت على المعتزلة والنصارى والمجوس... فقال البربهاري: ما أدرى مما قلت لا قليلاً ولا كثيراً، ولا تعرف إلا ما قاله أحمد بن حنبل، فخرج الأشعري. وصنف له الإبانة فلم يقبله منه»<sup>(5)</sup>.

---

(1) ابن رجب، ذيل طبقات الحنابلة، ج 10، ص 301. سمعت أحمد بن حنبل يقول في إجابة عن سؤال رجل يفضل عمر بن عبد العزيز على معاوية بن أبي سفيان فقال أحمد: لا تجالسه ولا تؤاكله ولا تشاربه، إذا مرض فلا تعلمه.

(2) ابن أبي بعلي، طبقات الحنابلة، ج 1، ص 182-184؛ البغدادي، تاريخ بغداد، ج 2، ص 179.

(3) ابن أبي بعلي، طبقات الحنابلة، ج 10، ص 17.

(4) المصدر نفسه، ج 2، ص 122.

(5) الصفدي، الوافي بالوفيات، ج 12، ص 146-147 رقم 119؛ انظر: ابن تيمية، مجموع الرسائل والمسائل، دار الكتب العلمية، ط 1، بيروت، 1983، ج 1، ص 218. وما نقله عن الإبانة وبما كان عليه أحمد بن حنبل قائلون ولما خالف فيه مجانبون لأنَّه الإمام الفاضل والرئيس الكامل الذي أبان الله به الحق وعند ظهور الضلال وأوضاع المنهاج وقمع به بدع المتبدعين، وزبغ الزائغين، وشك الشاكرين وحرمة الله عليه من إمام مقدم وكبير مفهوم وعلى جميع أئمة المسلمين.

وأيضاً يمكن فهم أنماط السلوك عندهم من النقاش الذي دار بين «أحمد بن حنبل» مع زوجته أم ابنه عبد الله التي سألته «هل تنكر مني شيئاً، فقال: لا إلا هذا النعل الذي تلبسيه، لم يكن على عهد رسول الله (ص)، قال: فبأعته»<sup>(١)</sup>.

وفي حصرية الاتباع حتى في الترتيب الزمني للخلافاء فقد سئل أحمد بن حنبل عن رجل يقدّم علياً على أبي بكر وعمر، تقديم أفضلية دون الطعن فيهما «أنصلي خلفه؟ قال: لا تصل خلف هذا».

## حصرية المعرفة بالسماع دون العقل

أدت هذه الفكرة إلى الثوابت الآتية:

- 1- عدم تأويل الحديث.
- 2- رفض استعمال العقل، لأنّه يؤدي إلى التأويل.
- 3- أرجحية السنة على القرآن ضمناً، وفق قاعدة أن القرآن أحوج إلى السنة من السنة إلى القرآن<sup>(٢)</sup>، وما عَبَرَ عنه أحمد بن حنبل نفسه عندما قال له أحدهم: «حيّاك الله يا أبا عبد الله على الإسلام فأجابه: وعلى السنة»<sup>(٣)</sup>.

«لا تفَسِّرْ شيئاً من هذه بهواك فإن الإيمان بهذا واجب، فمن فَسِّرْ شيئاً من هذا بهواه ورَدَّه فهو جهنمي»<sup>(٤)</sup>. إنه ليس في السنة قياس، ولا تضرب بها

(1) ابن أبي علي، طبقات الحنابلة، ج 1، ص 310؛ انظر عن لباس المرأة في العصر العباسي الأولى: محمد أسعد طلس، تاريخ العرب، ج 2، ص 125.

(2) ابن أبي علي، طبقات الحنابلة، ج 1، ص 79-115-122.

(3) المصدر نفسه، ج 1، ص 29.

(4) الجهم بن صفوان ثار علىبني أمية وقتل سنة (116 هـ/734 م).

الأمثال ولا تتبع الأهواء، هو التصديق بآثار رسول الله (ص) بلا كيف ولا شرح ولا يقال لم؟ ولا كيف»<sup>(1)</sup>.

إنهم الممثلون الحقيقيون للفرقة الناجية.

لقد بَرَزَ الإمام أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلَ الْمَدَافِعُ الْأَكْبَرُ عَنِ الْإِسْلَامِ وَالسُّنَّةِ<sup>(2)</sup>. وَتَمَ التَّأكِيدُ عَلَى مَرْجِعِيَّتِهِ فِي الْعِقِيدَةِ وَالسُّلُوكِ، فَقَدْ وَرَدَ أَنَّ «الْإِجْمَاعَ عَلَى أَصْوَلِهِ الَّتِي اعْتَدَ، وَالْأَخْذَ بِصَحَّةِ الْأَخْبَارِ الَّتِي اعْتَمَدَهَا، حَتَّىٰ مِنْ زَاغَ عَنِ هَذَا الْأَصْلِ كُفَّرُوهُ، وَحَذَّرُوا مِنْهُ وَهَجَرُوهُ»<sup>(3)</sup>. وَمِنْ «أَظَهَرَ لَهُ عَنَادًا وَبَعْضًا، إِلَّا وَانْفَقَتِ الْأَلْسُنُ عَلَى ضَلَالِهِ، وَسَقَهُ فِي عَقْلِهِ وَجَهَالَتِهِ»<sup>(4)</sup>.

بعد كل هذه المرجعيات الحاكمة على هذه المدرسة ورؤيتها الدينية للعالم وللآخر، باعتبارها قواعد حصينة لحماية الإسلام وفق هذه العقلية، نفهم نشأة التكفير عند هؤلاء، وإن كان يغلب ذلك على العقائد والتبديع في مجالات أخرى. وابتعدوا كثيراً عن تكفير المسلمين على الذنوب والمعاصي.

وقد تطورت هذه المدرسة وتوسيع مجال التكفير عندهم إلى مجالات متعددة ظلت متأرجحة أو غير واضحة إلى ما قبل القرن الثامن الهجري الرابع عشر ميلادي. مع صعود نجم تقى الدين أَحْمَدُ بْنُ تَيمِيَّةَ (ت 728هـ / 327م) في دمشق؛ ليوسّع دائرة التكفير في المستوى العقدي ويحسّم الكثير من القضايا المتأرجحة والتي لم يحسّم تكفيرها أو تبديعها في المدرسة الحنبلية. مثل التوسل وزياراة القبور وغيرهم كثير.

وقد أسس مقولات تكفيرية من أخطر المسائل في التكفير، وهما:

---

(1) ابن أبي يعلى، طبقات الحنابلة، ج 1، ص 8.

(2) الآجري، الشريعة، ص 14.

(3) ابن أبي يعلى، طبقات الحنابلة، ج 1، ص 90.

(4) المصدر نفسه، ص 8.

## الأولى: تأسيسية لمقولات ثلاث في التوحيد.

1- توحيد الألوهية<sup>(1)</sup>.

2- توحيد الربوبية<sup>(2)</sup>.

3- توحيد الأسماء والصفات<sup>(3)</sup>.

الثانية: وهي من المقولات التكفييرية وهي: مفهوم الأسماء والأحكام<sup>(4)</sup>، وهي أيضاً من المسائل التي جرت ولا تزال علينا الويالات فمن لا يطبق عليه ولو تأوياً أنه مسلم كُفر، أو اعتبر مشركاً، وبالتالي يصدق عليه لقب الكافر، أو المرتد وما يستتبعه من أحكام القصاص، أو المسلم وفق الرؤية التيمية.

وعلى هاتين المقولتين أسس الشيخ محمد بن عبد الوهاب (ت 1791م) دعوته، فالدار التي يحكمها دار إسلام، والتي لا يحكمها دار

(1) توحيد الألوهية: هو إفراد الله تعالى بالعبادة.

(2) توحيد الربوبية: إفراد الله تعالى بالخلق والرزق والملك والتدبیر.

والنفع والمنع هو سبحانه الذي له الأمر كلّه، وهو لا يكتفي في الدخول في الإسلام، فالذى يدخل الرجل في الإسلام هو توحيد الألوهية (انظر: ابن تيمية، مجموع الفتاوى، ج 3، ص 72).

(3) توحيد الأسماء والصفات: إفراد الله تعالى بأسمائه الحسنى وصفاته العظيمة بصفات الكمال وفق شرطين.

1- الأسماء والصفات الواردة بالكتاب والسنّة بدون تأويل ظاهري ولا باطنى بلا تكييف.

2- تنزيه الله تعالى عن التشبيه.

انظر: يحيى فرجات، عقائد السلفية.

(4) المراد بأسماء الدين مثل مسلم ومشرك ومؤمن وكافر. فكل حكم علق بأسماء الدين من إسلام وإيمان وكفر وردة. إنما يثبت لمن أسقف بالصفات الموجبة لذلك وأن مسائل التكفيير والتنسيق هي من مسائل الأسماء والأحكام وتعلق بها الموالاة والمعاداة والقتل والحكم، (انظر: ابن تيمية، مجموع الفتاوى، ج 35، ص 226، ج 12، ص 468؛ انظر أيضاً عن الموضوع بالتفصيل: علي الخضير، الحقائق في التوحيد).

شرك<sup>(1)</sup>، وفي حوارية الشيخ محمد بن عبد الوهاب مع أخيه سليمان الذي قال له: إنك وضعت ركناً سادساً للإسلام، وهو من لا يتباعك فليس بمسلم<sup>(2)</sup>.

ولم يتوقف الأمر عند هذا الحد، فالذي يتحرّج من تكفير أهل لا إله إلا الله هو كافر<sup>(3)</sup>.

أي من آتىه ضميره ودينه في تكفير المسلم يأتي الحكم القاطع عن الشيخ محمد بن عبد الوهاب بتكفيره؛ لأنّه تحرّج في تكفير المخالف لدعوته.

وإنّ من قال لا إله إلا الله حال الحرب يقتل ولا يتوقف كما فعل أسامة بن زيد<sup>(4)</sup>.

هذا على المستوى الفردي، والاجتماعي (نجد هذا التشدد). وفي تقاطع التكفير مع السياسة، نجد أن الخلافة العثمانية عند علماء الوهابية كافرة «وأن من لم يكفرها فهو كافر لا يعرف معنى لا إله إلا الله، وأن من أعنهم فقد ارتكب الردة صريحة»<sup>(5)</sup>، وبالتالي يصبح عند هؤلاء وفق مفهوم التكفير كافراً، ويصبح المشركون الأصلية أفضل حالاً من المسلم الحالي «المشركون أفضل من المسلمين المخالفين له، الذين قاتلهم رسول الله (ص)، أصبح قوله وأخف شرّاً من هؤلاء».

ولا أوفق على رأي بعض الباحثين الذي ذهب إلى أن تنظيم داعش

(1) الدرر السننية في أوجوبة علماء النجدية، ج 1، ص 106-86؛ ج 9، ص 291-205.

(2) نجم الدين الطبسي، السلفية والسلفيون، ص 61.

(3) عبد الرحمن بن قاسم النجدي، الدرر السننية، ج 10، ص 39.

(4) صحابي: قتل أسامة بن زيد مشركاً بعدما قال لا إله إلا الله، فقال له رسول الله (ص): فكيف تصنع بلا الله الله الإله؟ إذا جاءت يوم القيمة: (انظر: الذهبي، سير أعلام النبلاء، مؤسسة الرسالة، ط 2، بيروت، 1982، ج 2، ص 496، رقم 104).

(5) عبد الرحمن بن قاسم النجدي، الدرر السننية، ج 9، ص 239؛ ج 15، ص 429.

أو غيرها، لم ينبع من كتب التراث<sup>(1)</sup>، أو أن نشأة الحزب في الإسلام قد فهمه العامة، بأن من لم ينضو تحت هذا الحزب ليس مسلماً<sup>(2)</sup>، ويمكن أن نقول: إن الحزب مفهوم عصري، كما يمكن أن نفسّر حصرية فهم الإسلام عند المدرسة الحنبلية، وماذا تعني الفرقة الناجية غير ذلك، فإذا كان مسلماً مقيولاً عند هؤلاء فهو مبتدع في أضعف الحالات.

اعتبر التكفير الحصن الأول المدافع عن الإسلام وفق رؤيتهم، أما الحصن الثاني فهو التبديع، وهو السلاح الثاني الذي استعمل من قبل هذه المدرسة<sup>(3)</sup>، وبالتالي يمكن القول إنه من خرج من دائرة التكفير وقع في دائرة البدعة «إياكم ومحدثات الأمور، فإن كل بدعة ضلاله»<sup>(4)</sup> ومفهومها هي كل أمر لم يرد في السنة ويعقره «الصحابية» و«السلف الصالح»، وفي قصيدة للحسن الهاشمي (ت554هـ/1154م) يعطينا صورة واضحة عن تفكير هؤلاء:

يا ذا الذي أضحي يصول ببدعة لا تُنكرَنْ تحنبلي وتسنني	وتُشَيَّع وتمشعر وتمعزل فعليهما يوم المعاد معولي
إن كان ذنبي حب مذهب أَحْمَد	فليشهد الثقلان أني حنبلي <sup>(5)</sup>

ولكي نقرب المشهد لهذا النمط من التفكير نورد هذه الحادثة «نقتل جثة لأحد الحنابلة ودفنت في مقابر الصوفية (مسلمين سنة)» بعدما كانت في مدافن الحنابلة، فقد توفي ابن الدجاجي الذي دفن في مقابر الصوفية إرضاءً لهم، لأنه أقام عندهم مدة في حياته، فبقي على ذلك خمسة أيام، وما

(1) محمد بن عبد الوهاب، كشف الشبهات، ص.43.

(2) بدر الإبراهيم، العنف التكفيري.

(3) إلياس فرات، ورقة مقدمة للمؤتمر: «جذور العنف في الجماعات الإرهابية».

(4) حديث شريف: رواه أبو داود في لزوم السنة والترمذى في العلم.

(5) ابن رجب، ذيل طبقات الحنابلة، ج 2، ص.72.

زال الحنابلة يلومون ولده على هذا يقولون مثل هذا الرجل الحنبلي لأي شيء يوضع عند الصوفية، فنبشه بعد خمسة أيام بالليل»<sup>(1)</sup>.

## تطور الفكر الحنبلي، والوهابي: التأسيس—الاستمرارية

إن مراجعة عميقة لأفكار وسلوكيات المؤسس الإمام أحمد بن حنبل (ت 241هـ/855م) يدرك أن بعضاً من أفكاره وأحكامه في عدد من الموضوعات، كانت متأرجحة، ولهذا كان يُنسب إليه رأيان، وربما يعود ذلك إلى أن بعضاً من آرائه كانت عبارة عن ردة فعل، وذلك ردّاً على آراء المعتزلة «إن زادوا زدنا»، أو «رددوا رددنا»، ولهذا جاءت أحياناً ملتبسة تارة، وغير محسومة تارة أخرى. وبالأخص في آراء متعلقة ببعض المسائل العقدية، مثل زيارة القبور والتلوّس، وإذا كانت الثقافة الحنبليّة ومعظم علماء الحنابلة إلى ما قبل القرن الثامن الهجري/الرابع عشر الميلادي، صوفية<sup>(2)</sup>، وتزور القبور ومنها قبر الإمام أحمد<sup>(3)</sup>، وتتوسل بالصالحين منهم<sup>(4)</sup>. فقد انعكس ذلك التأرجح على طرق تفكير علماء الحنابلة المتعاقبين، حتى استطاعت المدرسة الحنبليّة الدمشقية حسم هذه القضايا وفق مسار ومنهجية الإمام المؤسس «أحمد بن تيمية» (ت 728هـ/1327م)، وخصوصاً في التوسع في دائرة التكفير، وزيادة موضوعاته وتشعباته.

وتتجدر الإشارة إلى وجود بعض اتجاهات الحنبلية قبل «ابن تيمية»، حاولت إصلاح الكثير من المفاهيم الملتبسة عن مذهب الإمام «أحمد»، كالتشبه مثلاً أو الحد، والتقليل من الأفكار الصعبة، والنظرة لأهل البيت

(1) المصدر نفسه، ج 2، ص 220 رقم 147.

(2) انظر: يحيى قاسم فرجات، دور الفقهاء السياسي، الديني والاجتماعي في بلاد الشام في العصر المملوكي الأول، ص 421-424.

(3) ابن رجب، ذيل طبقات الحنابلة، ج 10، ص 11.

(4) الدعاء عند قبر معروف الكرخي مستجاب.

(ع)؛ وذلك في المدرسة الحنبلية العراقية مع الإمام ابن الجوزي (ت 597هـ/1200م) وغيره<sup>(١)</sup>.

وقد اصطدمت مجلداً، المدرسة الحنبلية الدمشقية بالفکر الأشعري، الذي ينتهي إليه معظم مسلمي السنة في العالم، عبر صراع طويل وعنيف مع علماء هذه المدرسة من الشافعية والمالكية في مصر والشام، ومنهم آل السبكي<sup>(٢)</sup>، وعلى رأسهم علي بن عبد الكافي السبكي (ت 771هـ/1364م)، مما أدى إلى سجن «ابن تيمية» ووفاته في السجن بدمشق سنة 728هـ/1327م، وقد استطاع «ابن تيمية» تثبيت فكره، مع الدور الكبير الذي لعبه تلميذه ابن الق testim الجوزية (ت 751هـ/1350م)، واستمر هذا الفكر بالصمود والانتشار عبر تبني معظم الحنابلة لهذا الفكر مع تأثيرات محدودة في باقي المذاهب الإسلامية كنهج عقدي لا فقهى<sup>(٣)</sup>.

ومع ظهور وانتشار الدولة العثمانية ماتريدية<sup>(٤)</sup> العقيدة، وحنفية المذهب، وصوفية الاتجاه والسلوك، في الوقت الذي كان علماء الحنابلة في تلك الفترة قد تصالحوا أكثر مع واقعهم المحيط بهم، دون المس

---

(١) انظر: ابن رجب، ذيل طبقات الحنابلة، ج ٢، ص ٣٤٨ و ٤٦٦.

(٢) انظر: طبقات الشافعية الكبرى.

(٣) تأثير ابن تيمية في ابن كثير، والذهبي وغيرهم من الشافعية. يقول السبكي: إن هذه الرفة المزدوجة والذهبية والبرالي أضرّ بها أبو العباس ابن تيمية، إضاراً بيّناً وحملها من عظام الأمور أمراً ليس بيّناً وجرّهم إلى ما كان التباعد عنه أولى بهم (طبقات الشافعية الكبرى، ج ٦، ص ٢٥٤).

(٤) محمد بن عبد الوهاب بن سليمان ولد سنة ١١١٥هـ/١٧٠٣م، في العينة في بلاد نجد. نشر بالإصلاح الديني ويدعو إلى مذهب الإمام أحمد بن حنبل ويحرض على قراءة كتب ابن تيمية. تعاون بدأية مع أمير الدرعية محمد بن سعود في سنة ١١٥٧هـ/١٧٤٤م الذي توفي في سنة ١٧٦٥م) ثم تولى سعود بن عبد العزيز الثاني (ت ١٨١٤م) سنة ١٨٠٣ م اتفق هو والشيخ على نشر الدعوى بالسيف. فاتسع نطاقها وعمت جميع شرق الجزيرة العربية واليمن والججاز إلى أن مات ابن عبد الوهاب سنة ١٢٠٦هـ/١٧٩٢م في الدرعية فخلفه ابنه وقويت الصلات بين آل عبد الوهاب وآل سعود طوال العصر، وما يزال أبناء عبد الوهاب حتى أيامنا هذه معروفين بآل الشيخ.

بشوابتهم أو سلوكهم، التي باتت غير حادة أو صادمة، والتي لا يتقبلها المسلمون من أتباع العقدين «الأشعرية» و«الماتريدية»، ومن أتباع المذاهب الفقهية الأخرى: الأحناف، الشافعية، المالكية.

ومع منتصف القرن الثامن عشر الميلادي استطاع هذا الفكر التيمي من العودة إلى مسرح الحياة الثقافية الإسلامية وإلى الواجهة من جديد، عبر دعوة مؤسس الاتجاه الوهابي، الإمام محمد بن عبد الوهاب ولكن إلى واجهة الحياة السياسية، عبر تبني المملكة العربية السعودية المذهب الحنبلي، مذهبًا للدولة الفتية، ولأول مرة في التاريخ استطاع «الحنابلة» بناء دولة يحكمونها<sup>(١)</sup>.

استطاعت هذه المدرسة أن تقدم نفسها كحركة إصلاحية دينية، في ظرف كان العرب والمسلمون يعيشون عن أجوبة لإشكالاتهم التي بدأت بالظهور منذ سيطرة نابليون بونابرت على مصر 1798م، وسيطرة الاستعمار لاحقاً، وضعف الحركات الإصلاحية في عصر النهضة، بدءاً من جمال الدين الأفغاني إلى محمد عبده والكتوبي وغيرهم من الوصول إلى عملية التغيير لواقع الأمة وقيادتها.

كما استطاعت أيضاً وراثة هذه الأفكار الإصلاحية التي انتهت عند الوهابية، وليس أولى ذلك من محمد رشيد رضا (ت 1935م) وتأسيسه للجامعة السلفية وتبنّيه لخياراتها، ولأنأخذ مثالاً يعبر عن الحالة الثقافية التي قام بها محمد رشيد رضا، في هذا الاتجاه، ما حصل معه في جامع دمشق.

«في تلك السنة (1326هـ/1908م) وقعت حادثة رمضان الشهيرة بدمشق التي أدهشت الحكومة، وأخلت بالأمن... وكان سببها إلقاء الدرس الديني في الجامع الأموي من قبل صاحب مجلة المنار المصرية العالم الشهير الشيخ رضا نزيل دمشق إذ ذاك، فاعتراضه بعض رجال العلم في بعض

---

(1) انظر: محمد أسعد طلس، تاريخ العرب، ج 8، ص 24.

المسائل المتعلقة في زيارة القبور، وخالف الأمر بعض العوام، وهجموا على قتل الشيخ، ولو لا أنني تداركت (المؤلف نفسه) الأمر بنفسه وأخذت الشيخ إلى داري التي في قرب الجامع الأموي لوقع مالم تحمد عقباه»<sup>(1)</sup>.

هذه الحركة الدينية السياسية التي انطلقت بفرض الإصلاح الديني وتصحيح العقيدة الإسلامية... سرعان ما ظهرت، بأنها مصدر أساسى لقيم القطيعة والتكفير، واستخدام العنف والقتل ضد المخالفين، والتي سوف تجد صدى عميقاً وواسعاً في أوساط الحركات الإسلامية السلفية الجهادية التكفيرية المعاصرة<sup>(2)</sup>.

وينبغي لنا في ختام هذا المبحث أن نذكر ما ذكره «الشريف حسين بن علي» ملك الحجاز السابق في رسالته لعصبة الأمم في وصفه للوهابيين، وما تذكره الصحف والمقالات والكتابات في وصف الجماعات التكفيرية الحالية.

«لما أفشل الوهابيون... ولما اقتحموا مملكة شرقى الأردن بمجموع عصاباتهم هناك، وقف في وجههم ولدا الأمير عبد الله... فتغلّب على هذه العصابات المتتوحشة... وقد رأى وشاهد بالعين بعض كبار القوم، وهم شهود عدول بأن الوهابيين بعد فرارهم كانوا إذا وجدوا مسلماً جريحاً ترجلوا عن خيولهم، وأغمدوا خناجرهم في قلبه، وشربوا وغسلوا وجوههم من دمائه، وهذه حقيقة ناصعة يجب أن يعلمهها جميع المسلمين في العالم والدول الأوروبية»<sup>(3)</sup>.

وفي رسالته ما ذكره عنهم بعد فشلهم في غزو الكويت «إرجاع الوهابيين بالفشل عن مقاصدهم الشريرة، التي خلقوا فيها، وتربوا عليها،

---

(1) محمد أديب آل تقى الدين الحصنى، منتخبات التوارىخ لدمشق، قدم له: كمال الصليبي، منشورات دار الآفاق الجديدة، ط. 1، بيروت، 1979م، ج 1، ص 280.

(2) هلا أمنون، رحلة العنف المقدس، ص 20.

(3) محمد الحصنى، منتخبات التوارىخ لدمشق، ج 1، ص 343-343.

وهي تجتمع في أمر واحد، وهو غزو جيرانهم وسلب ما عندهم من نساء وأولاد وأموال، وهم عنوان الهمجية البدوية والتوحش النجدي، هذه العصابات المتواحّدة عصابات همجية شريرة»<sup>(1)</sup>.

## العوامل الأساسية التي أدت إلى انتشار الفكر الوهابي

إن المتتابع لمسار الأحداث في التاريخ المعاصر يجد أن المدرسة الوهابية نمت وتطورت بشكل مطرد نتيجة عوامل عدّة أهمها:

- 1- سقوط الدولة العثمانية سنة 1932.
- 2- تأسيس المملكة العربية السعودية 1928، وتبنيها للفكر الوهابي عقيدة الدولة ومذهبها الفقهي «مذهب الحنابلة».
- 3- وما تتمتع به المملكة من إمكانات روحية ومادية، فهي بلد الحرمين الشريفين، «مكة» و«المدينة»، ومن إمكانات مالية ضخمة، استطاعت عبرهما توسيع الفكر الوهابي في العالم ونشره.
- 4- ضعف التيار الأشعري-الماتريدي.

لقد شكّلت المدرسة الأشعرية والماتريدية مرجعية عقدية، ولا تزال لمعظم أهل السنة والجماعة في معظم حقبات التاريخ الإسلامي، ومع التطور الحاصل في العالم وما بُرِزَ من تحديات فلسفية وكلامية جديدة وانففاء الحاجة إلى المدرسة الكلامية القديمة، لم تفتح هذه المدرسة مساراً علمياً لما يمكن أن يطلق عليه علم كلام جديد.

- 5- ضعف المؤسسة الدينية الأبرز لأهل السنة والجماعة.
- أعني بها مؤسسة الأزهر الشريف، المدرسة العريقة في فكرها وفقها

---

(1) المصدر نفسه، ص344

ووجهادها<sup>(1)</sup>، حيث استطاع الفكر الوهابي احتواها من الداخل، وبالاخص بعد موت عبد الناصر 1970، وتولى أنور السادات الحكم في مصر، فضلاً عن ارتباط الأزهر بالسلطة الرسمية، التي أضعفت دوره في التصدي لمشكلات العالم الإسلامي.

#### 6- ضعف الالتزام الديني في الحياة المعاصرة.

إن سيطرة الاستعمار على البلاد الإسلامية وما أحدثه من صدمة على مستوى العالم الإسلامي، والتي أدت إلى الانبهار بالثقافة الغربية، وتبني فلسفة المنتصر، أذت بجيبل من المسلمين إلى الاغتراب عن دينهم، والأخذ بفلسفات غربية معاصرة، وتبني نظم لا علاقة لها بالإسلام، الذي أضحي في عقول الشباب جامداً عن مواكبة التطور. وبعد انتصار الثورة الإسلامية في إيران سنة 1979 بقيادة الإمام الخميني، استطاع أن يؤسس لفكرة أن الإسلام دين حياة، قادر على قيادة المجتمع في ظل صراعات إقليمية ودولية، في السياسة والثقافة ما بين الرأسمالية والاشراكية.

الدين يقود الحياة والمجتمع، بعد مقوله «الدين أفيون الشعوب»، وهذا آثر في عودة المسلمين إلى دينهم، وبدأ تبني الإسلام يتتطور في حياة الشباب المسلم، وعودة الكثيرين منهم ممن تبناوا أفكاراً ثقافية بعيدة عن الإسلام إلى التدين به.

ثم إن الدوافع في مواجهة الثورة من قبل أمريكا ودول الخليج جعلت الساحة الإسلامية السنّية في مواجهة ما أسموه تصدير الثورة الإسلامية، هنا استطاعت المدرسة الوهابية بفكرها الجذاب، ودعم مالي كبير وسياسة موجّهة وإعلام متشر، وتحدد طائفي وقومي ومذهبي أن تستفيد من ظروف متعددة؛ لنشر دعوتها عند الشباب المسلم السنّي، والتأثير بهم في مقابل

---

(1) دور الأزهر في مقاومة الاحتلال الفرنسي وخصوصاً في: 1798-22.

ضعف خط الوحدة الإسلامية في تثبيت أركانه على الأرض لأسباب لا مجال لذكرها.

ما إن أعلنت الثورة الإسلامية في إيران ورحب معظم العالم السنّي آنذاك بها، ومنهم الإخوان المسلمين، بعودة الإسلام إلى مسرح الحياة، حتى أعلنت المؤسسة الوهابية الرسمية حربها على إيران (الشيعة - الفارسية)، حرباً شعواء لم تترك أيّاً من الأوراق الصفراء في خضم الصراعات القديمة إلا وألقتها في مواجهة إيران<sup>(١)</sup>.

#### 1- فشل الإخوان المسلمين في إقامة مشروع الخلافة أو الدولة.

هذا الأمر، دفع بالكثيرين من هذه المدرسة وبالأشخاص من يؤمن بالمدرسة القطبية داخل الإخوان إلى الارتماء في حضن الوهابية في تقاطع كبير، وهذا ما أدى في ما بعد إلى نشوء تيارات متعددة، مثل: القاعدة وغيرها. حيث تطورت فيما بعد إلى داعش.

#### 2- تأثر الإخوان المسلمين بالفكر الوهابي.

من العوامل المهمة في ذلك تأثر أكبر حزب إسلامي سنّي، يعني الإخوان المسلمين 1928، بالأفكار الوهابية، وذلك بعد صدامات مع السلطة في مصر الخمسينيات، في زمن عبد الناصر (ت 1970)، وصولاً إلى إعدام سيد قطب 1966، وفي سوريا الشمانيات في عهد الرئيس حافظ الأسد (ت 2000م) كل هذا أدى بهؤلاء إلى الهجرة إلى السعودية والخليج، مما أحدث تفاعلاً كبيراً بينهما. فاثروا وتأثروا، وليس أدل على ذلك من «السرورية»<sup>(٢)</sup> وجود شخصيات كبيرة كانت قريبة من الإخوان

---

(1) الآلاف من الكتب الداعية إلى تكفير ومواجهة إيران والشيعة. على سبيل المثال: إحسان الهبي ظهير، وجاء دور المجنوس.

(2) السرورية، نسبة إلى محمد سرور بن نايف زين العابدين الذي مزج السلفية الوهابية بالقطبية =

مثل: عبد الله عزام وابن لادن وغيره، وقد تأثر الإخوان المسلمين في مرحلة سابقة بالوهابية كحركة إصلاحية تبني عن الدين الشوائب، ولكن دون التأثر بالعقيدة الوهابية، إلا أن تحولًا قد طرأ على هذه المدرسة، وهو ما أطلق عليه المدرسة القطبية، والذي ينسب إليه فكرة تكفير المجتمع، والتي تتلاقى بشكل كبير مع الفكر الوهابي دون الفكر الحنبلي التقليدي؛ إذ كانت هذه الفكرة من إنشاء الخوارج، وهنا أحيبت أن أعلق على مسألة تكفير المجتمع في الفكر الحنبلي القديم، والوهابي والقطبي الحديث، والتي استلهمت من أفكار الداعية الباكستاني أبي الأعلى المودودي في (ت 1970، في كتابه: المصطلحات الأربع في القرآن الكريم<sup>(1)</sup>).

## تكفير المجتمع

إن فكرة تكfir المجتمع هي من صميم الفكر الخارجي في التاريخ الإسلامي، ولطالما شكّلت المدرسة الإسلامية بكل فرقها رداً على هذه المدرسة، وبالأخص ما ظهر في أدبيات المدرسة السنّية، وهو مفهوم الجماعة<sup>(2)</sup>.

وقد ظهر هذا المفهوم من جديد مع أفكار سيد قطب (ت 1966)، الداعية إلى تكثير المجتمع الإسلامي، حيث يقول سيد قطب في كتابه: «إن المجتمع الجاهلي هو كل مجتمع غير المجتمع المسلم... وأخيراً تدخل في

---

= الأصولية. وكان يرى أن ما ينقص السلفية هو أن تكون مسيسة وثورية ووجد أن فكر سيد قطب يتكلّل بهذه المهمة.

لقد نتج عن عملية المزج هذه المزيد من تحبّل الإخوان وتوهّب القطبيين منهم، وقطبية تيار الصحوة الوهابي وتسييسه. انظر: عبد الغني عماد، السلفية وإشكالية الآخر بين المفاصلة والمقابلة، نشر ضمن كتاب السلفية، معهد المعارف الحكيمية، ص 74-75.

(1) أبو الأعلى المودودي، المصطلحات الأربع في القرآن، دار التراث العربي، ط 2، القاهرة، 1936.

(2) الآجري، الشريعة، تحقيق: محمد حامد الفقي، دار الكتب العلمية، ط 1، بيروت، 1983، ص 71.

إطار المجتمع الجاهلي تلك المجتمعات التي تزعم لنفسها أنها مسلمة»<sup>(1)</sup>، ثم يتحدث سيد قطب عن العزلة، وهنا «يرشدهم الله إلى اعتزال معابد الجاهلية، واتخاذ بيوت العصبة المسلمة مساجد تحس فيها بالانعزال عن المجتمع الجاهلي»<sup>(2)</sup>.

ومع ابتعاث الوهابية في منتصف القرن التاسع عشر، التي أكدّت في أدبياتها الصراعية في مرحلة التأسيس على مقوله دار الإسلام ودار الكفر، ثم جاءت كتابات أبي الأعلى المودودي (ت 1970)، التي ساهمت في التأثير على سيد قطب (ت 1966) في مفهوم تكفير المجتمع.

«إن الناس ليسوا مسلمين كما يدعون، وهم يحيون حياة الجاهلية، ليس هذا إسلاماً، وليس هؤلاء مسلمين»<sup>(3)</sup>، والسؤال الذي يطرح هل يوجد في الفكر الحنفي ما يساعد في تكريس هذا الاتجاه؟ في الواقع أنني من المتابعين لهذا الفكر، لم أحظ وجود هذه الأفكار عندهم؛ بل إن أدائهم يدل على خلاف ذلك، فهل كانت المجتمعات الإسلامية السابقة لا تشبه المجتمعات الحالية؟..

ففي أثناء الخلاف العقدي الكبير الذي حصل ما بين أهل السنة والجماعة، وبالخصوص الحنابلة والخلافة العباسية، فيما عُرف بفتنة خلق القرآن، والتي أدت إلى سجن الإمام أحمد بن حنبل وضربه، ومع ذلك بقي الحنابلة يعترفون بالخلافة الشرعية كنظام للحياة السياسية والدينية للMuslimين،<sup>(4)</sup> ورفض منطق الثورة عليها، وفي إجابته عن بعض الأسئلة

(1) سيد قطب، معالم في الطريق، ص 67.

(2) سيد قطب، في ظلال القرآن، ج 3، ص 816؛ انظر: محمد علوش، السلفية الجهادية، ص 27 وما بعد.

(3) سيد قطب، معالم في الطريق، ص 173. انظر عن التكفير عند الشيخ محمد بن عبد الوهاب: حسن بن فرحان المالكي، داعية وليس نبياً، ويعتبر من أهم الكتب في مجاله.

(4) انظر: ابن رجب، ذيل طبقات الحنابلة، ج 3، ص 329.

يمكن أن تستخرج أن الإمام أحمد بن حنبل أقصى ما أجاب عنه في امتحان العقيدة ترك الوظيفة مع استثناءات.

سئل عن «الإمام يخاف أن يتمتحن على الإمامة، قال: يتركها، قلت فالمؤذن يخاف أن يتمتحن على الأذان، قال: يتركه، قلت فالمحرر يخاف أن يتمتحن على القراءة قال: لا يتركها. ليس كل الناس يحفظ القرآن»<sup>(1)</sup>، وكثيراً ما كان الإمام أحمد يتقد بعض العلماء؛ لأنهم يرون السيف أبي الثورة، نسبة إلى الآيات القرآنية حول قتال المشركين كافة..

وسأاستعراض هنا بعض النماذج، قال الحافظ الذهبي: «فلما قُتل الأمين، واستخلف المأمون على رأس المئتين، نجم التشيع، وأبدى صفحته، وبلغ فجر الكلام، وغلبت حكمية الأوائل، ومنطق اليونان وعمل رصد الكواكب، وأنشئ للناس علم جديد مُردٍّ مهلك»<sup>(2)</sup>.

وعلى أيّضاً في حوادث سنة (251هـ/865م) «فقد تفاني أصحاب الحديث وتلاشوا... يهزاً بهم أعداء الحديث والسنّة ويسخرون منهم... منكبين على عقليات من حكمية الأوائل وأراء المتكلمين... فعمّ البلاء واستفحلت الأهواء... فرحم الله امرأً أقبل على شأنه في الصحيح، وعبد الله قبل أن يبعثه الأجل»<sup>(3)</sup>.

وقد ذكر الآجري (ت 360 هـ/970م) في تعليقه على حديث «لتتبعنْ أمر من كان قبلكم حذو النعل بالنعل» قائلاً «من تصقح أمر هذه الأمة من عالم عاقل عليه أن أكثرهم، والعام منهم، تجري أمورهم على سنن أهل الكتابيين، كما قال النبي (ص) أو على سنن كسرى وقيصر، أو على سنن

(1) ابن أبي بعلي، طبقات الحنابلة، ج 1، ص 127.

(2) الذهبي (ت 748 هـ/1374م)، طبقات الحفاظ.

(3) المصدر نفسه.

الجاهلية، مثل: السلطنة وأحكام العمال والأمراء وغيرهم، وأمر المصائب والأفراح والمساكن واللباس واللحية والأكل والشرب والولائم والمراكب والخدّام والمجالس، والبيع والشراء، والمكاسب من جهات كثيرة، وأشباه لما ذكرت يطول شرحها، تجري بينهم على خلاف السنة والكتاب، وإنما تجري بينهم على سنن من قبلنا.. ما أقل من يخلص من البلاء الذي قد عمّ الناس، وأن يميز هذا إلا عاقل عالم قد أدبَه العلم»<sup>(١)</sup>.

ويقول ابن تيمية: «وليغفر الله فيه لمن لم يقم الحجة عليه ما لا يغفر به لمن قامت الحجة عليه»، كما في الحديث المعروف: « يأتي على الناس زمان لا يعرفون فيه صلاة ولا صياماً ولا حجّا ولا عمرة، إلا الشيخ الكبير والعجوز الكبيرة، ويقولون أدركنا آباءنا وهم يقولون لا إله إلا الله، فقال: تنجيهم من النار، تنجيهم من النار، تنجيهم من النار»<sup>(٢)</sup>، من خلال ما تقدم نلاحظ أن تكفير المجتمع لم يكن في أدبيات الحنابلة القدماء، وأكاد أجزم بأنها أفكار حديثة ومعاصرة، والسؤال الذي يطرح «هل تتحوّل أصولية هذا الزمان إلى فتنة كبرى تأكل أولادها، وتدفع بالمسلم في مواجهة المسلم في تصارع وتقاول وتناحر لا يقي ولا يذر. إننا نسير بالفعل إلى هذا المنحدر»<sup>(٣)</sup>.

ولكن على الرغم من أن فكر سيد قطب ظل إلى حد ما نظريّاً، إذا ما قارناً أثره بكتاب رسالة الإيمان التي نشرها العام 1973 صالح سرية أحد أبرز المخططين لاغتيال الرئيس المصري أنور السادات<sup>(٤)</sup>، ثم كتاب الفريضة الغائية لمحمد سلام فرج أواخر العام 1980<sup>(٥)</sup>.

(١) الآجري، الشريعة، ص20، انظر: الأوضاع الاجتماعية في العصر العباسى، الطبي، وابن الأثير.

(٢) ابن تيمية، مجموعة الرسائل والمسائل، ج ١، ص 65.

(٣) مصطفى محمود، الإسلام العباسى والمملة القادمة، دار أخبار اليوم، العدد 338، ص 24.

(٤) انظر عن اغتيال أنور السادات: عادل حمودة، اغتيال رئيس، دار أقرأ، ط ١، ١٩٨٥.

(٥) محمد علوش، السلفية الجهادية، ص 34.

## العوامل المساعدة في نهضة الاتجاه السلفي-التكفيري

إن المتبع لتاريخ الأزمات والصراعات، والأخص التي تمثل اضطرابات داخلية، أو خارجية، يظهر له بروز تيارات متشددة أو تأخذ خيارات دموية وعنيفة.

في التاريخ المعاصر شهد العالم انبعاث الأفكار التكفيرية والعنفية في مرحلة حسّاسة، تشهد اضطراباً في الأفكار والخيارات، وثمة عوامل مساعدة أدت إلى خلق هذه الظاهرة التي تشغّل عالم اليوم، ومنها:

### 1- جدلية السياسي والديني

كانت العلاقة ما بين السلطات المتعاقبة والمؤسسة الدينية على اختلاف مكوناتها وأفكارها في العالم الإسلامي علاقة تعاون وثيق الصلة، وأحياناً يتناحرن ويختلفون خصوصاً في الجانب العقدي وفي جدلية العلاقة ما بين الشريعة والسياسة، كما حصل في تبني الخلافة العباسية في زمن المأمون لأفكار المعتزلة، أو في السلطة العقدية إسلامية، لا يقبل بها بعضُ وليس أدل على ذلك من بعض أوجه الصراع ما بين الأشاعرة والحنابلة.

ومن القضايا التي يتعاون عليها الاثنان، أي السلطة والمؤسسة الدينية، مواجهة العدو الخارجي-الداخلي أي خارج مفهوم الجماعة السنّية، وهنا تتقاطع المصلحة لكل من السلطة السياسية والمؤسسة الدينية التي يبرز في مثل هذه الحالات الاتجاه السلفي على الخصوص. وليس أدل على ذلك ما حصل في الفتوى التي أطلقها ابن تيمية ضد الشيعة في كسروان سنة (705/1305م)<sup>(1)</sup>، والتي أدت إلى مجزرة بحقهم وتهجير لهم، هذا التقاطع في المصلحة أنتج هذا الجانب التكفيري الإلغائي.

---

(1) محمد بن أحمد بن عبد الهادي، العقود الدرية من مناقب شيخ الإسلام أحمد بن تيمية، تحقيق: محمد حامد الفقي، دار الكتاب العربي، لا ت، ص198.

علمًا أن شيعة «دمشق» وغيرها من المناطق لم يتعرّضوا لهذه المذبحة وخاصة إذا ما علمنا بالصداقات الكبيرة التي كانت تجمع «ابن تيمية» وبعض علماء الشيعة كابن السكاكيني<sup>(1)</sup> مع الفقيه الشيعي إبراهيم بن أبي الغيث<sup>(2)</sup>... كان حيًّا عام (1334هـ/734م)

وما أشبه الأمس باليوم عندما نجد أن الفقيه المعاصر الدكتور يوسف القرضاوي قد اعترف بأن الشيعة هم مسلمون، وأن قرأتنا واحد<sup>(3)</sup>.. وبعد الأحداث التي عصفت بسوريا آذار 2011، وتدخل حزب الله في سوريا إلى جانب محور المقاومة، أصبح الشيعة عنده كفارًا...<sup>(4)</sup>.

وفي مثل هذه الأجواء يأتي الشحن الطائفي وبصورة أقوى الشحن المذهبى، ليضم الآذان ويعمى القلوب والعقول عن الاستجابة لكل دعوة إلى الاعتدال، والكف عن ممارسة السلوكيات الإرهابية... ويمكن أصحاب المصالح من تغليف صراعاتهم وتطلعاتهم السياسية والاقتصادية بخلاف ديني أو مذهبى<sup>(5)</sup>.

هذا الاتجاه هو «هوية فكرية متارجحة مفتوحة على تأثير العامل السياسي إلى حد تنجّح فيه الاتجاهات الفكرية والفقهية، بناءً للمصالح السياسية المتكررة للأمراء والمجموعات»<sup>(6)</sup>.

«وما تلك الأصولية التي تدفع بالمسلم ضد المسلم إلا فتنه رسمها الأعداء بعناء، وأنفقوا عليها في سخاء وجندوا لها الفئات الحاقدة... وهي

---

(1) الذهبي، ذيل تاريخ الإسلام، ص 191؛ انظر: يحيى فرات، دور الفقهاء السياسي.

(2) الصفدي، الوافي بالوفيات، ج 4، ص 79.

(3) خطابه في الأونيسكو بيروت.

(4) أكثر من تصريح بعد 2011.

(5) علي يوسف، الإسلام وتهمة الإرهاب، سلسلة أدبيات النهوض، دار المعارف الحكيمية، بيروت، 2015، ص 7.

(6) هادي قيسى، أزمة الهوية السلفية القتالية.

دعوة إلى الفرقة وتحريض للمسلم ليقتل المسلم، وهي استدرج خبيث لشبابنا، ليبددوا قواهم في معارك داخلية، ولি�ضيعوا بلدتهم في حروب أهلية، ولينصرفوا بذلك عما يحاك لهم من مؤامرات في الخارج... هي عودة لفكر الخوارج والقراطمة»<sup>(1)</sup>.

## 2- الأزمات السياسية والاجتماعية

تعتبر الأزمات الداخلية من أهم الفرص لهؤلاء الجماعات التي تسعى إلى الدخول في تركيبة المجتمع، وتقديم مشروعها، وعادة ما يجد هذا النوع من التنظيمات مبررات وجوده وشرعنته في استشراء الظلم والقهر والفقر والاستبداد والتخلف والتبعية وغيرها من المظالم التي يعاني المسلمين من ويلاتها، وفي الاستغلال والاحتلال والانسحاق الكامل أمام الغرب<sup>(2)</sup>.

وقد شهد العالم الإسلامي وخصوصاً في مطلع القرن العشرين ولا يزال يعاني المزيد من التفتت والأزمات على المستوى الداخلي:

أ- الأزمات الاقتصادية: البطالة - الفقر - احتكار الثروات من قبل قلة فاسدة، بينما تقع الأغذية تحت خط الفقر والعوز والحرمان.

يقول الإمام علي (ع): «الغني في الغربة وطن، والفقر في الوطن غربة»<sup>(3)</sup> على ضوء هذا القول، نفهم لماذا شكلت الظروف الاقتصادية والاجتماعية الثقافية مناخاً ملائماً لممارسة المترتبات العملية والدعوية

(1) مصطفى محمود، الإسلام السياسي، ص 26. القراءة: نسبة إلى حمدان بن الأشعث ويلقب بقرمط. فهو مثلاً وضع ضريبة اسمها ضريبة الهجرة لإنشاء دار الهجرة. (ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج 8، ص 36).

(2) هلا أمنون، رحلة العنف المقدس، ص 9.

(3) نهج البلاغة، ج 4، ص 15.

التي لا تقيم شرع الله.. أو هجر هذه المجتمعات وإعداد العدة للانقضاض على أي منها إذا توفرت الظروف الملائمة لإقامة دولة الإسلام التي تشكل قاعدة لمتابعة الجهاد حتى إقامة الدولة الأممية الإسلامية، أو بعض هؤلاء القادة ليسوا بالضرورة من عامة الناس الذين وصفنا ثقافتهم، بل نجد معظمهم من المتعلمين الذين همّشتهم البطالة، وسدّت أمامهم أبواب الرزق وأبواب العمل المشروع لإصلاح الأحوال الفردية والمجتمعية في أنظمة يسود فيها الإرهاب الرسمي ما يشعرهم بالغرابة عن أوطانهم والبحث عن موطن يمكنون فيه من الهجرة إلى الله عبر الجهاد في سبيله؛ بحثاً عن إقامة دولة الإسلام<sup>(1)</sup>.

#### بـ- ضعف التعليم وسطوحية الثقافة<sup>(2)</sup>.

في مثل هذه الظروف من «ال الطبيعي أن تكون نسبة الأمية في الأواسط الاجتماعية الفقيرة المهمشة، وأن تقتصر الثقافة على الموروث الثقافي السائد، منقولاً من الأجيال السابقة إلى الأجيال اللاحقة بواسطة الأهل وبعض الوعاظ من أئمة المساجد، ووسائل الإعلام المرئية بصورة تغلب عليها السطوحية والشكليّة والعجز عن التميّص<sup>(3)</sup>.

- احتواء المؤسسة الدينية وضعفها.

- ضعف الخطاب الديني في مواكبة العصر.

- الهزائم المتكررة.

لقد شعر المسلمون السنة بالغبن منذ إلغاء الخلافة العثمانية سنة 1924 على يد أتاتورك ونهاية لحلم جميل ظل طوال 13 قرناً يحمل العنوان الجامع لهم بصرف النظر عن تقييم مسار الخلافة.

---

(1) علي يوسف، الإسلام وتهمة الإرهاب، ص 4-5.

(2) مصطفى محمود، الإسلام السياسي، ص 6.

(3) علي يوسف، الإسلام وتهمة الإرهاب، ص 6.

وعندما وقع العالم الإسلامي منذ بداية القرن التاسع عشر حتى بداية القرن العشرين تحت سلطة الاستعمار وما أفرزه من تقسيم المنطقة: سايكس-بيكو 1916، ومن ثم وصلة الانتداب وما أفرزه من تقسيم العالم الإسلامي إلى دويلات وكيانات متعددة تحكمها نخب تنتمي إلى مدرسة التغرب، وتتبني فلسفة المتصر «لا شك في أن ميلاد الأصولية الإسلامية بكل تطرفها كان بسبب الهجمة الاستعمارية الشرسة على امتداد الرقعة الإسلامية من الجزائر والمغرب وتونس وليبيا ومصر والسودان إلى الهند وباكستان. وبسبب الحكومات التي جاءت بعد رحيل الاستعمار. فقد كانت نتيجة هذا الكبت والقهر والقمع المستمر نشوء اتجاه معاكس للبحث عن الذات واسترداد الهوية والعودة إلى الأصول. وكانت للأسف عدوى تشنجية لم تأخذ من الدين إلا الشكليات والمظاهر والشعارات»<sup>(١)</sup>.

وبالتالي فقد تحولت البلدان الإسلامية من صورة جامعة ولو شكلاً إلى كيانات متعددة، ومن ثم تبني العلمانية والاشراكية والقومية كمصادر حاكمة لهذه البلدان. وقد سبق ذلك تأسيس الكيان الصهيوني سنة 1948. وما أفرزه من تهجير ومجازر، وما ألحقه بالعرب من خلال سلسلة هزائم بدأت من 1948 وصولاً إلى 1967 واحتياج بيروت سنة 1982 ثم حرب البوسنة 1994 وغزو روسيا للشيشان. 1995 وصولاً إلى احتلال أفغانستان من قبل أمريكا 2001 واحتلال العراق 2003.

فقد أدى سقوط العراق إلى انتقال الحكم من السيدة (نظريًا) إلى الشيعة، فسوريا محكومة من قبل الطائفة العلوية، وأصبح العراق عاصمة العباسين ودمشق عاصمة الأمويين، في هذه الظروف والأزمات والحروب التي عصفت بعالمنا العربي والإسلامي شجعت الشباب على الإقبال على هذه الاتجاهات لعلها توصل بها ما انقطع.

---

(1) مصطفى محمود، الإسلام السياسي، ص 71.

## جـ-انتصار الثورة الإسلامية في إيران

أدى انتصار الثورة الإسلامية وعودة الإسلام على مسرح السياسة الدولية إلى المزيد من القلق عند أصحاب الاتجاه التكفيري المتقاطع مع المصالح السلطوية الذي أدى إلى استنهاض هذا المشروع لمواجهة ما أسموه حركة التشيع، ولاحقاً الهلال الشيعي الذي أطلقه الملك عبد الله الأردني سنة 2004.

## دـ-انتصار حزب الله اللبناني

إن الانتصارات المتلاحقة لحزب الله وتماسك محور المقاومة لإسرائيل، الذي نظر له على أنه محور شيعي (بالمناسبة كانت حماس المتحالفة مع حزب الله وإيران وسوريا يطلق عليها الاتهامات مثل (التشيع في فلسطينـ بناء الحسينيات إلخ..) هذه المقاومة التي أذهلت القريب والبعيد، أطلقت بعدها ثقافياً مهماً، وهو استنهاض الأمة وقدرتها على كسر الجيش الذي لا يقهـر، وهذا ما أدى بمقاطع المصالح إلى محاولة الحد من نفوذه الأخلاقيـ القيمي عند جمهور العرب والمسلمين في حركة دعوية لتشويه سمعة حزب الله. هذه الانتصارات شجعت هذا الفريق على بث أجواء التكفير والمذهبية؛ لمواجهة هذا الحزب الذي لطالما آمن بالوحدة الإسلامية وعمل عليها.

## هـ-تفكك الدول وضعفها

أدّت الهزائم المتلاحقة والاهتزازات الداخلية لبلداننا وما رافق ذلك من الضعف الاقتصادي والبنيوي في معظم هذه الدول، إلى انتشار الفكر الديني السلفي (إعلامـأموالـانتصارات في أفغانستان) وهذا ما يعتبر فرصة كبيرة لهذا الخط، وما نظرية إدارة التوحش<sup>(1)</sup> إلا مثالاً على كيفية

---

(1) أبو بكر الناجي، إدارة التوحش.

استفادة هذه التيارات من ضعف مركزية الدولة؛ مستفيدة أيضًا من التفكك العربي والأضغان التي تحملها الدول العربية في ما بينها<sup>(1)</sup>.

#### وـ التقاطع الدوليـ الداخلي

لقد خبر الغرب في تعامله مع العرب والمسلمين كيفية الاستفادة والتحكم، والسيطرة على عقولهم وثرواتهم، ومنع وحدتهم<sup>(2)</sup>.

وقد سبق للولايات المتحدة الأمريكية في صراعها مع الاتحاد السوفيافي بعد غزوها لأفغانستان، أن ساهمت بالتعاون مع المملكة العربية السعودية في تأسيس ورفد حركات الجهاد الأفغاني التي تأسست مع الشیخ عبد الله عزام (ت 1989)، ومن ثم قيادة «ابن لادن» لحركة الجهاد ضد الوجود الروسي في أفغانستان. ومع بداية ما سُميّ الربيع العربي، ظهر جليًّا مدى التنسيق الأمني واللوجستي مع بعض هذه الجماعات مباشرةً، أو عبر دول محلية داعمة لها ضمن لعبة المصالح الكبرى ما بين الجبهتين.

والأغرب من ذلك أن بعضًا منها، والتي تقاتل في سوريا، وأعني بها جبهة النصرة<sup>(3)</sup> لا تتوانى عن التعامل اليومي اللوجستي والاستخبارات، وتنسيق العمليات مع العدو الإسرائيلي وخصوصًا في جبهة الجولان.

تراهم لا يعيشون في وجه الكيان الصهيوني، في حين أنهم يتآمرون ويوجهون شتى أنواع وأشكال الضربات إلى الدول الإسلامية وشعوبها وبذرائع شتى<sup>(4)</sup>.

---

(1) مصطفى محمود، الإسلام السياسي، ص 25.

(2) كسنجر، جريدة الحياة.

(3) طلب أبو محمد الجولاني من أبي بكر البغدادي الإذن له بالذهاب إلى سوريا. وفي سنة 2012 ثم أعلن البغدادي في نيسان 2013 أن جبهة النصرة، والتي أُعلن عن تشكيلها في 24-1-2012 هي جزء من تنظيم الدولة الإسلامية في العراق، معلنًا دمج التنظيمين تحت مسمى واحد وهو الدولة الإسلامية في العراق والشام.

(4) الإمام الخامنئي، كلمته في المؤتمر العالمي لمواجهة التكفير، ص 14.

ولطالما كان ضياع الأولويات عند هذه الجماعات الغائب الأكبر في سلوكها، ألم يخرج أناس من فلسطين، أو من دول الطوق لمواجهة السوفيات في أفغانستان، في الوقت الذي لم يطلق رصاصة واحدة على الكيان الصهيوني، والأغرب أننا لا نجد في قاموسها الديني أو السياسي ما يشير إلى قتال إسرائيل، وقديمًا أفتى ابن تيمية أن قتال الشيعة أوجب من قتال الأرمن<sup>(1)</sup>.

إن تيار التكفير والحكومات التي تدعمه وتحميه إنما تتحرك كلها باتجاه النوايا المبيتة للاستكبار والصهيونية، وأن كل ما يفعلونه إنما يخدم أهداف أمريكا والدول الاستعمارية، الأوروبيّة والكيان الصهيوني، إن للتيار التكفيري ظاهرًا إسلاميًّا، لكنه من الناحية العملية ليس سوى خدمة للتيارات الاستعمارية، التي تعمل ضد العالم الإسلامي، ومن ضمن الشواهد التي يذكرها الإمام الخامنئي على ذلك، هي:

أن تيار التكفير هذا استطاع أن يحرف حركة الصحوة الإسلامية، وأن يغيّر وجه هذه الحركة العظيمة المعادية للاستكبار وأمريكا وللاستبداد، إلى حرب بين المسلمين واقتتال بين الإخوة. لقد كانت حدود فلسطين المحتلة تمثّل الخط الأمامي للنضال في هذه المنطقة، فجاء هذا التيار التكفيري وحول هذا الخط الأمامي إلى شوارع بغداد ومسجد دمشق الجامع وشوارع باكستان والمدن المختلفة في سوريا، بحيث أصبحت هذه الأماكن هي الخط الأمامي للمواجهة<sup>(2)</sup>.

ويمكن أن نشير إلى بعض هذا التحكم المباشر وغير المباشر في دعم هذه الحركات طالما هي توافق أجندة الغرب في الفوضى الخلاقة، وتقسيم المنطقة وسيادة إسرائيل عليها:

---

(1) ابن تيمية، مجموع الفتاوى.

(2) الإمام الخامنئي، كلمته في المؤتمر العالمي لمواجهة التكفير، ص 12.

1- فتح الطرق ووسائل النقل إلى المنطقة المستهدفة.

2- السماح بالتمويل والتسلیح.

3- إعطاء المجال النظامي ووسائل الإعلام المتقدمة.

## سبل المواجهة

إن سبل مواجهة هؤلاء هي مسؤولية الجميع، أفراداً ومؤسسات، نخبًا ودولًا، وأهم هذه الاقتراحات:

1- تفعيل خط الوحدة الإسلامية، وتبني الماضي المشترك والحاضر الذي أدى إلى انتصارات في غزة ولبنان.

2- العودة إلى قضية الأمة الأولى فلسطين، فمن أراد الاستثمار في الدنيا عليه بفلسطين، ومن أراد الاستثمار في الدنيا والآخرة، فعليه بفلسطين، فالعدو الأول للأمة هم الصهاينة.

3- اتخاذ المواقف القاطعة بعدم الإساءة إلى شخصيات تاريخية، وهنا تأتي فتوى الإمام الخامنئي في حرمة سب الصحابة كنموذج على ذلك.

4- تفعيل اللقاءات والندوات التخصصية، وثمة حالات ناجحة، مثل فتوى الشيخ زهير الشاويش الذي حكم على الشيعة بأنهم مسلمون.

5- تفعيل دور مصر الإقليمي

6- تفعيل دور الأزهر، وعودته إلى الساحة الإسلامية بشكل أقوى.

7- تفعيل دور التنمية في المجتمعات، وفتح مسارات تنمية.

8- العمل على بيان فساد عقائد الجماعات التكفيرية، وبعدها عن الإسلام، على أن يتولى علماء المسلمين هذه المهمة.

9- كسر الحواجز النفسية والاجتماعية بين طوائف الأمة.

10- أعود لأذكر بما قاله السيد الخامنئي في كلمته في افتتاح المؤتمر العالمي لمواجهة التيارات التكفيرية، وهي على سبيل الإيجاز:

أ- نهضة علمية: تشكيل نهضة علمية ومنطقية شاملة من قبل جميع علماء المذاهب الإسلامية من أجل اقتلاع تيار التكفير، ومثل هذا الأمر لا يختص بمذهب دون آخر، فالمعنى به جميع المذاهب الإسلامية، فعليها المشاركة في تحمل المسؤولية، والقيام بحركة علمية عظيمة.

ب- كشف حقائق السياسات الاستكبارية.

ج- التوجه نحو القضية المركزية.

1- تعزيز التفسير السنوي للقرآن الكريم.

2- التثقيف على الأخلاق الإسلامية: المودة والرحمة.

3- تعزيز دور علم الكلام الجديد بين علماء الأمة؛ للإجابة على تحديات العصر ومواكبته.

4- فتح مسارات حوارية هادفة مع هذه الجماعات، فهم إخوة لنا في الإسلام والإنسانية.

5- مواجهة هذه المجموعات بدون هوادة، ومنعها من السيطرة؛ نظراً إلى ما تشكله من خطر على الإسلام والمجتمعات والتعددية.

6- فتح مسارات حوارية وبالاخص مع علماء الوهابية، وخاصة مع من ينضر إلى الإسلام كدين، وليس كمذهب أو عصبية.

7- التأكيد على حوار الأديان وتفعيله؛ وذلك من خلال تفعيل العمل في المشتركات، وفتح نافذة التعرّف على الآخر.

8- تفعيل المشاركة في الاحتفالات وخطب الجمعة.

- 9- التأكيد على دور إيران الإقليمي كرافعة لقضايا الأمة، ودورها في نشر مفاهيم الإسلام العلمية والاستفادة منها.
- 10- التركيز على سلسلة أعلام الأمة من الفريقين، الذين نشطوا في مجال التقرير، وإحياء تراثهم، ووضع سيرتهم في متناول الجميع.
- 11- نقد التراث المتعلق بالصراعات الدينية والتأسيس عليه، لأنه أضر بالأمة، في ظروف أحدها السياسة، ووجد في مناخات مؤاتية.

# **جذور الإرهاب، ومصطلحاته، والمواقف السياسية المحيطة به، وسبل معالجته**

العميد المتقاعد إلياس فرحت<sup>(1)</sup>

## **مقدمة**

إذا سأّل سائل لماذا أكتب في موضوع «جماعات العنف التكفيري» وأنا أمضيت أربعين عاماً في الخدمة العسكرية كانت جلّها في قيادة الجندي والتدريب والعمليات والتحقيقات والانضباط والإدارة ولا يابع لي في هذا الموضوع؟

فالجواب أنني شعرت أن هذه السنوات أكسبتني معرفة لموزاييك المجتمع اللبناني، المؤلف من 17 طائفة، فقد تسلّى لي لقاء أشخاص من جميع الطوائف اللبنانية والعيش معهم، ومزاملة حمل السلاح والعيش في مختلف الظروف. كما كان للمواجهات بين الجيش اللبناني وتنظيم القاعدة في الضنية في مطلع الألفية الثالثة، واستمرار هذه المواجهات وصولاً إلى معارك نهر البارد في شمال لبنان عام 2007 تأثير كبير على التوجهات العسكرية والسياسية في لبنان.

---

(1) باحث في الشؤون العسكرية، لبنان.

كان الانتماء الطائفي والمذهبي يسهم بتكوين الثقافات إلى جانب الانتماءات الجغرافية والقبلية والعشائرية والجهوية، ما أود أن أقوله تحديداً إن الدين والطائفة لم يكونا المحددان الأساسيين للثقافة الاجتماعية كما هو الحال اليوم، إذ ثمة متغيرات طرأت في المنطقة أدت إلى هيمنة الفكر الديني لدى كل الطوائف، وتراجع الانتماءات الأخرى، وساقها هذا الفكر في مسارات معقدة، وأوصل بعضًا إلى سوء فهم للدين، وسوء استخدام للمعتقدات الدينية، وصولاً إلى ظهور ما وضع عنواناً لهذا المؤتمر، وهو العنف التكفيري. في جانب آخر مضيء استخدمت العقيدة الدينية لأجل تمتين أو اصرار مجموعة وحشد طاقات أخرى؛ لأجل مواجهة أخطار شتى، وفي أحيان كثيرة لتطويير بعض المجتمعات وتنميتها.

### الفكر القومي والفكر الديني

في عهد الاستعمار أو الانتداب الفرنسي والبريطاني نشأت فكرة القومية والوطنية في معظم الدول العربية، وفقاً للتقسيمات السياسية التي وضعها الانتدابان الفرنسي والبريطاني. نشأ حزب البعث بأفكار زكي الأرسوزي من لواء الإسكندرية، وميشال عفلق الدمشقي، ونشأت حركة القوميين العرب بأفكار جورج حبش الفلسطيني، ومحسن إبراهيم اللبناني، وباستلهام جمال عبد الناصر. ترافق ذلك مع نشأة حزبين إسلاميين هما: جماعة الإخوان المسلمين في مصر بأفكار حسن البنا، وحزب التحرير الإسلامي في فلسطين وببلاد الشام بأفكار تقى الدين النبهاني. لأول مرة في التاريخ تحول الإسلام إلى حزب سياسي، فقد كان من قبل دين الأحزاب السياسية جميعها، القومية والوطنية والاشراكية وحتى الشيوعية، إذ إن هذه الأحزاب فصلت الانتماء الديني عن الانتماء السياسي.

الإسلام حزب هذا أمر جديد وخطير فهمته العامة على أن من يتسب إلى هذا الحزب هو مسلم، ومن لا يتسب إليه فهو ليس مسلماً! وإذا كان

الحزب دعوياً وليس سياسياً كما يقال، فهذه مسألة أخطر، أي أنه يدعو إلى الإسلام، وكان أهل هذه البلاد ليسوا مسلمين. هذه بعض من عوامل قلق عميقة الجذور في التاريخ العربي والإسلامي، وفي الحاضر أيضاً والتي طالما طرحت أسئلة انتلاغاً من تراكمات تاريخية فقهية، لم تتمكن المؤسسة الدينية الرسمية من تقديم تفسيرات موحدة وقاطعة ومقنعة للشباب المسلم القلق. من هذه الأسئلة المقلقة، هل كان في التاريخ وجود لدولة إسلامية؟

ما خلا فترة المدينة وإدارة النبي محمد رسول الله (ص) للناس اختلف المسلمين حول وجود دولة إسلامية أم لا، لكنهم أكثر ما أجروا على هي وجوهها على عهد الخلفاء الراشدين. لكن عهد الخليفة الثالث عثمان وال نهاية المأساوية بمقتله والفتنة والحروب الداخلية التي رافقته وبعثه وما عصف بال المسلمين، وتعدد الروايات وتناقضها في بعض الأحيان، لم تترك لنا رواية عن إدارة إسلامية مستقرة، ونظم واضحة، بل ممارسات وأقوال الخلفاء أبي بكر الصديق الذي انشغل بحروب الردة، وعمر بن الخطاب الذي اشغل بفتح الشام والعراق، والخليفة الرابع علي بن أبي طالب في الفترة القصيرة نسبياً التي تمكّن فيها من إدارة شؤون الناس في الكوفة. بعدها تحول الإسلام إلى سلطة، وتحولت الخلافة إلى مؤسسة سياسية ثيوقراطية دينية وراثية من دون سند شرعي من القرآن ولا من السنة، على حد ما أثار علي عبد الرزاق مطلع القرن الماضي<sup>(١)</sup>. كما تحولت الدولة إلى كيان أمبراطوري ضمّ شعوباً وإثنيات وديانات ومذاهب متعددة، بعد ثورات وفلاقل مستمرة خلال فترة الخلافة الأموية القصيرة، انتهت هذه الخلافة بالقضاء على بنى أمية في ما يشبه التطهير العرقي بالعائلة، وحلّ بنو العباس في السلطة التي لم تختلف كثيراً عن سلطة بنى أمية.

---

(١) علي عبد الرزاق، الإسلام وأصول الحكم، كتاب صدر عام 1925 بعيد إنتهاء الخلافة العثمانية تعرض مؤلفه لضغط من ملوك العرب لاسيما الملك فؤاد الذين كانوا يطمحون إلى لقب الخلافة ومنع الكتاب.

ما نقصده أنه لم تكن في تاريخنا دولة إسلامية نموذجية نستلهم منها أفكاراً، بل كان الإسلام شعاراً ودستوراً لدولة تأخذ منه ما يفيد سلطتها، وهي سلطة الخليفة الذي يحكم نظرياً بشرعية الله فيما يطبق عملياً مصالحة السياسية، وليس مقتضيات الشريعة.

أنشأت الخلافة الإسلامية سواء كانت أموية أو عباسية أو فاطمية أو عثمانية نظام أمبراطوريات عائلية وراثية يشبه أمبراطوريات العائلات في الغرب الأوروبي مثل: الإمبراطورية الرومانية، والإمبراطورية الكارولنجية. لكن الإسلام، وعلى الرغم من تحجّط السلطات السياسية الحاكمة وتغييراتها، احتفظ بمخزون عقدي روحي عميق مكّنه من الصمود والبقاء في وجه التحديات السياسية والفكرية والثقافية، وكان القرآن كتاب المسلمين دستوراً ومرجعاً روحيًا وفقهياً وفلسفياً يحافظ على الدين واللغة والخطوط العامة الثقافية، كما أنه شكّل مرجعية لجميع المسلمين لم يختلف أحد عليها.

هذا المخزون الروحي جرى استخدامه في شؤون متعددة، منها: الشؤون الداخلية وإدارة شؤون الناس بالعدل، وفي التعبئة ضد الاحتلال ومقاومة الغزوات وأخصها غزوات الفرنجة التي اصطلح على تسميتها بالحروب الصليبية، كما أسيء استخدامه في الحروب بين الدول الإسلامية كحرب العباسين مع الأمويين، وحرب الفاطميين على العباسين، وحرب العثمانيين على المماليك والصفويين، أو الحروب الداخلية في الخلافات الإسلامية مثل: حرب الأمين والمأمون، وثورات محمد النفس الزكية والزننج وغيرها.

لم يستطع الفقهاء تقديم اليقين الإيماني لجميع المسلمين فدخلت حركات فلسفية وغنوصرية، ونشأت مذاهب وفرق تأثرت بالفلسفات اليونانية والهندية والفارسية، واختلطت بال المسيحية واليهودية، وتکاثرت

الاتهامات بالخروج على الدين، من الخوارج إلى المعتزلة إلى الغلاة إلى الإسماعيلية بفروعها وغيرها. لم تقدم المؤسسة الدينية عبر التاريخ تفسيرات واضحة للتعامل مع هذه الاختلافات، وأسهم الفلاسفة من الكندي إلى الغزالى وابن سينا وابن رشد في تحريك العقل في داخل الإسلام باتجاهات شتى.

جاء ابن تيمية في القرن الرابع عشر ليصدر أول فتاوى بحجم كبير، ليكفر فيها قسماً كبيراً من المذاهب الإسلامية<sup>(1)</sup>. توّقف الفقه عند ابن تيمية لسبعين قرون، شهد فيها الإسلام والمسلمون سباتاً فكريًا وثقافياً وسياسياً عميقاً عَبَرَ عنه شاعر عصر الانحطاط ابن الوردي حين قال:

صدق الشرع ولا ترکن إلى رجل يرصد في الليل زحل  
جانب السلطان واحذر بطشه لا تعاند مَنْ إذا قال فعل  
حِبَّكَ الأوطان عجز ظاهر فاغترب تلقَ عن الأهل بدل<sup>(2)</sup>.

## سقوط الخلافة والمساريع القومية

مع سقوط الخلافة العثمانية عام 1924 انطلقت اليقظة الوطنية والقومية والإسلامية، لكنها لم تحمل جوامع مشتركة للمسلمين على الرغم من التنوير الذي شهدناه من الأفغاني ومحمد عبده وغيرهما. في الشرق الأقصى المسلم، أسهمت كتابات أبي الأعلى المودودي، وحسن الندوبي في خلق تشدد إسلامي كان مطلوباً لمواجهة الاحتلال البريطاني. لم يوافق مسلمو شبه القارة الهندية على طروحات غاندي لوحدة الهند، وأنشأوا أول

(1) ابن تيمية فقيه ولد عام 1263 م وتوفي عام 1328 م عاصر سقوط الصليبيين وهزيمة المغول ونشوء دولة المماليك عرف بأنه أصدر فتاوى تكفير عدّ من المذاهب الإسلامية.

(2) ابن الوردي شاعر عاش في شمال سوريا في أوائل القرن الرابع عشر في عهد دولة المماليك وعاصر الفقيه ابن تيمية.

دولة تحمل اسم دولة إسلامية في التاريخ: جمهورية باكستان الإسلامية.  
لكن هل كانت باكستان دولة إسلامية؟ وهل هي اليوم كذلك؟

ثمة خلافات حول هذه الفكرة. انشغل مسلمو القارة الهندية بمواجهة الهندوس ومنافستهم أكثر من اشغالهم في بناء دولة عادلة تشكل نموذجاً للإسلام القائم على التآخي بين الناس والمساواة، فغاب التأثير الإسلامي المليهم والإدارة العادلة والراشدة لشؤون المسلمين عن أكبر تجمع إسلامي يضم حالياً نحو 550 مليون مسلم في باكستان وبنغلادش والهند ما زالوا يعانون من الفقر والتخلف والبطالة وسوء المحاكمة.

سقوط مشروع النهضة السورية مع إعدام أنطوان سعادة عام 1949، وسقوط المشروع القومي العربي بعد هزيمة مصر وسوريا والأردن عام 1967، وانتهى أيضاً مع رحيل جمال عبد الناصر عام 1970. بعدها سيطرت أنظمة حكم عسكرية شبه قومية وعلمانية في مصر وسوريا والعراق، توجد اختلافات حول ما إذا حققت تقدماً للدولة والمجتمع أم لا. وفي النهاية تصدىت هذه الدول أو انهارت جراء التدخل الخارجي والانقسامات الداخلية أيضاً. أسهم ذلك التصدع في تصاعد التيارات الدينية وانتشار التدين بين القوميين والوطنيين.

## تحوّل كبير: الثورة الإسلامية في إيران

عام 1979 حصل تحوّل كبير في تاريخ المنطقة، وهو نجاح الثورة الإسلامية في إيران. كانت هذه الثورة فعلاً ثورة شعبية مثل: الثورة البلشفية أو الثورة الفرنسية، ثورة دينية اتخذت من الإسلام إيديولوجياً محركـة، وثورة حكمية اتخذت من الإمام الخميني قائداً كاريزميـاً ذا سطوة واسعة، وتبجيل واحترام، وثورة سلمية لم يستعمل فيها الثوار السلاح، حيث فصل القضاء وحده في أمر الجائرين.

نشأت الجمهورية الإسلامية في إيران بعد باكستان (إذا استثنينا موريتانيا)، وخلافاً لما جرى في باكستان من اعتماد التعددية الحزبية السياسية، نشأ في إيران لأول مرة في التاريخ نظام إسلامي يختلف المراقبون، ومن بينهم إيرانيون، على درجة اكماله.

قدمت الثورة الإسلامية نموذجاً في الثبات والصمود على الرغم من الحروب والمحاولات التي تعرضت لها، والعقوبات الاقتصادية التي فرضت عليها، فحققت تنمية اقتصادية مشهودة، وأصبحت قوة إقليمية ودولية لها اعتبارها، وأظهر نظمتها السياسي حيوية في تداول السلطة، ودرجة عالية من المناعة ضد الانقسامات، فسيطرت على مشاكلها، وفتحت أبواب الحلول.

على صعيد نظرة الثورة إلى العالم الإسلامي وتأثيراتها، فقد أعلن الإمام الخميني من قبل، واليوم السيد علي الخامنئي عن الصحوة الإسلامية، وقبلهما ومعهما الراحل السيد محمد حسين فضل الله عما سماه الحالة الإسلامية، لكن السؤال الذي يطرح: إلى أين وصلت هذه الصحوة؟ وكيف أصبحت هذه الحالة في وضعنا الراهن؟

## جذور القاعدة

بالعودة إلى مطلع القرن الماضي عندما تمكّن الملك عبد العزيز الذي عرف بابن سعود من توحيد قسم كبير من جزيرة العرب، مستنداً إلى تحالف سياسي بين آل سعود، والمؤسسة الدينية الوهابية، واستفاد من القوة العسكرية الدينية التي عمادها تحالف القبائل مع جيش «إخوان من أطاع الله»، المعروف بجيش الإخوان.

احتل ابن سعود المحجاز والأحساء وعسير ونجران وجيزان، ولكن خلافاً نشب مع جيش الإخوان الذين طالبوه باستمرار في التوسيع نحو بلاد

الشام والعراق، كما كان الحال في الدولة السعودية الأولى، فيما كان عبد العزيز يكتفي بالحدود الحالية للدولة.

قضى ابن سعود على جيش الإخوان في معركة السبلة عام 1929، وتواتر الحلف القبائلي الديني الوهابي، وقد انتهى إلى سيطرة آل سعود والقبائل المتحالفة معهم، وخصوصاً في نجد، على السلطة على حساب تراجع المؤسسة الدينية الوهابية.

اصطدمت الأسرة السعودية بالوهابية المتشددّة المتمثّلة بجيش إخوان من أطاع الله، لكنها لم تقضِ عليها فكريّاً. في هذا البلد الغني بثروة النفط انكمشت الوهابية المتشددّة، واختمرت، ثم تفجّرت عام 1979 في حركة جهيمان العتيبي الذي سيطر على الحرم المكي الشريف.

بعد القضاء على ثورة جهيمان جسدياً تبيّن أن هذه العقيدة ما زالت قوية وراسخة في نفوس العديد من الشباب في المملكة وخصوصاً في نجد، وما أن أطلت تسعينات القرن الماضي، ووطأت أرض الجزيرة أقدام مسيحية في عملية عاصفة الصحراء حين احشد مئات الآف الجنود الأميركيين والأوروبيين في جزيرة العرب من أجل تحرير الكويت من الاحتلال العراقي، حتى تحرك أسامة بن لادن وأتباعه من الوهابيين المتشددين، وغالبية المجاهدين العرب السابقين في أفغانستان، وأنشأوا تنظيم القاعدة، ونحوها عام 1996 في إنشاء دولة إسلامية في أفغانستان أُعلنوا راحل الملا عمر خليفة للمسلمين فيها.

## تصادم إسلاميين

أصبحنا أمّام إسلاميين: وهابي متشدد في إفغانستان، وشيعي إمامي في إيران، مضافاً إلى إسلام السلطة في ممالك الخليج وباقٍ لأنظمة العربية.

إذا كانت جماعة الإخوان المسلمين أَسْهَمَت في قبول المسلمين

الستة للثورة الإسلامية الإيرانية، وكانت أول من هنأ الإمام الخميني بانتصار الثورة، فإنها لم تستطع الصمود في وجه الوهابية المتشددة المتمثلة بالقاعدة، ولا أمام الدول المنافسة لإيران، وخصوصاً دول مجلس التعاون الخليجي الذين نظروا إلى إيران بارتياح، وأعربوا عن خشيتهم من تصدير الثورة الإسلامية إلى بلدانهم.

تحالف الإخوان المسلمين مع إيران ظهر في لبنان وتحديداً في مدينة طرابلس في الشمال عبر حركة التوحيد الإسلامي. إزاء ذلك عزّزت السعودية، وهي الدولة العربية الأغنى والأبرز، علاقاتها مع المؤسسة الدينية الوهابية الرسمية وأعطتها جرعات من الدعم من دون أن تهمل خططها المتمثل بالقاعدة.

أسهمت القدرات المالية الهائلة لدول مجلس التعاون، وتمويل شخصيات ثرية، وأجهزة استخبارات لتنظيم القاعدة بتغيير الكثير من المعطيات، فشهدنا ما يمكن اعتباره أ عملاً تبشيرية وهابية في الدول الإسلامية. ففي باكستان مثلاً بلغ عدد المدارس الدينية نحو ألفين، وتوجد آلاف المدارس على مختلف المستويات في معظم البلاد الإسلامية في الهند وأندونيسيا وآسيا الوسطى، فضلاً عن تركيا والدول العربية وخصوصاً مصر، كما تأثر الأزهر الشريف بالعقيدة الوهابية.

كانت الوهابية المتشددة تستهدف الوجود الصليبي واليهودي في أدبياتها الدينية، ثم أصبحت تستهدف المجتمع في ما اصطلاح على تسميته بالنكفي والهجرة. شكل اغتيال السادات أول صدام بين الثورة الإسلامية في إيران، وإسلام الدولة في مصر. كان السادات استضاف شاه إيران المخلوع في مصر، فيما أطلقت إيران اسم خالد الإسلامي الضابط المصري الذي أطلق النار على السادات على أحد شوارعها، وبهذا الفعل انقطعت العلاقات المصرية - الإيرانية ولا تزال.

لم يكن مصطلح «النزاع السنّي الشيعي» قد انطلق بسبب العلاقة القوية بين جماعة الإخوان المسلمين، وهي التيار الأساسي في الإسلام السنّي، وبين إيران. في ثمانينات القرن الماضي شهدت مدينة طرابلس اللبنانيّة قتالاً عنيفاً بين القوات السورية، وبين حركة التوحيد الإسلامي مدرومة من إيران ومنظمة التحرير الفلسطينية، على الرغم من التحالف الإيراني السوري.

شكل الاحتلال الأميركي للعراق عام 2003 نقطة تحول كبيرة في التعبئة المذهبية، وفي يقظة جديدة للوهابية المتشددة بعد ما أطاح الاحتلال الأميركي بالخلافة الإسلامية في أفغانستان عام 2001، ووسم تنظيم القاعدة بالإرهاب إثر أحداث 11 سبتمبر 2001. تمثلت هذه اليقظة بظهور تنظيمات إرهابية بعقيدة وهابية متشددة تعلن حرباً على الأميركيين والشيعة معاً.

استغل الوهابيون نكمة المسلمين السنة من سقوط صدام حسين وإعدامه فجر عيد الأضحى، واستطاعوا تعبئة الرأي العام السنّي العراقي ضد الشيعة والكرد. ساعد الأميركيون على نمو هذا النزاع بواسطة إدارتهم المريبة للدولة العراقية بعد سقوط نظام البغدادي بقيادة صدام حسين، حيث شكل الأميركيون صيغة سياسية طائفية تكرّست في دستور كتبه بول بريرمان الحاكم الأميركي للعراق، وفي حل الجيش العراقي، وتسریع الضباط والجنود الذين باتوا من دون عمل ومصدر رزق، فوجدت فيهم المنظمات الإرهابية هدفها المنشود، واستفادت من خبراتهم العسكرية في تشكيل جماعات إرهابية، وتنفيذ هجمات وإنشاء جيش أرعب العالم عرف في ما بعد بجيش الدولة الإسلامية داعش.

أقام الأميركيون نظاماً سياسياً يرتكز على أحزاب دينية، هي حزب الدعوة والمجلس الأعلى الإسلامي والتيار الصدري عن الشيعة، والحزب الإسلامي عن السنة، فيما اعتمد المكون الكردي حزبين غير

دينين للبرزاني والطالباني. أسهمت الإدارة الأمريكية للعراق بتوسيع نطاق الحرب المذهبية على حساب المقاومة العراقية للاحتلال الأميركي، وسرعان ما تراجعت المقاومة الشديدة التي تجسّدت بإسقاط طائرات هلكوبتر، وتنفيذ كمائن شبه يومية، وحلّت مكانها تفجيرات انتشارية استهدفت الأحياء الشيعية في بغداد، كما استهدفت المسيحيين وباقى الأقليات، وقابلها أعمال انتقامية ضد السنة.

فشلت الأحزاب الدينية الحاكمة في العراق في وضع حد للنزاع السني الشيعي، وعلى العكس جرى تعيميه تحریضاً وتعبئة في جميع أنحاء العالم الإسلامي. استهدف تنظيم القاعدة الشيعة والصوفيين في باكستان، كما استهدف الصوفيين في القوقاز. في لبنان أُسْهِمَ اغتيال رئيس الوزراء السابق الشهيد رفيق الحريري في إشعال النزاع السني الشيعي في هذا البلد الصغير، وبذا واصحاً أن الهدف الحقيقي هو ضرب المقاومة الإسلامية ضد الاحتلال الإسرائيلي وعمادها حزب الله. أدار حزب الله النزاع المفروض بحكمة واضحة، رافضاً الانجرار في معارك مذهبية مهما بلغت التضحيات، واعتبر المقاومة ضد إسرائيل أولوية لا يتزحزح عنها.

### الأحداث السورية: تدهور خطير

عام 2011 بدأت الأحداث السورية بتغطية إعلامية غير مسبوقة في التاريخ، استهدفت الحكومة السورية برئاسة الرئيس بشار الأسد. فجأة أدارت تركيا العدالة والتنمية ظهرها للعلاقات المتينة والاتفاقات السياسية والأمنية والاقتصادية مع سوريا، وعملت على شق الجيش السوري بإنشاء الجيش السوري الحر، مدعومة من الولايات المتحدة وفرنسا وبعض دول الخليج.

شنّت الولايات المتحدة وجامعة الدول العربية حملة سياسية واسعة النطاق ضد سوريا، وصلت إلى حد إعطائها مهلاً قصيرة لتنفيذ طلبات غير

طبيعية، ثم انتهت بتعليق عضويتها في جامعة الدول العربية. بشكل عام جرت شيطنة النظام السوري، وعاش العرب والعالم على وقع انتظارات متكررة لسقوط النظام. لكن النظام لم يسقط.

في مطلع عام 2012 صدر القرار الخطير من الدول المعادية للنظام باستدعاء تنظيم القاعدة إلى سوريا من أجل الإسراع بإسقاط النظام، وسرعان ما انتشرت العمليات الانتشارية في المدن السورية، وخصوصاً دمشق وحلب، وبثت الرعب في البلاد، وتلقت القاعدة دعماً غير محدود، وفتحت لها الحدود التركية - السورية، وهي عملياً حددت حدود حلف شمال الأطلسي التي تراقبها القوات الأميركية المنتشرة جنوب غربي تركيا في قاعدة أنجورليك. وضع العد العكسي لسقوط النظام عربياً ودولياً، وازداد تدفق مقاتلي القاعدة من أتباع الوهابية المتشددة من دون أن تحسب تركيا حساباً لعواقب هذه الخطوة على الشعب السوري، وعلى الدول المتألفة لسقوط النظام، ودونما اعتبار للأثار الجانبية المفترضة.

أعلنت القاعدة أن أحد أهم أهدافها هو إسقاط المقاومة اللبنانية، ووضعت حزب الله والشيعة هدفاً عليّاً لها في الحرب السورية، وانتشرت وحداتها في غرب حمص وعلى الحدود اللبنانية السورية في مواجهة البقاع الشمالي وعكار في الجانب اللبناني، وفي جبال القلمون شرقاً في مواجهة البقاع الشرقي، وبالفعل نفذت القاعدة داعش الشبيه عشرة عملية انتشارية في البقاع وضاحية بيروت الجنوبية، أدت إلى مقتل العشرات وجرح المئات من المدنيين. عندها كان لا بد للمقاومة اللبنانية أن تتدخل لمواجهة خطر القاعدة على الحدود اللبنانية السورية في ظل عدم تمكن الجيش اللبناني بسبب إمكاناته المحدودة من الانفراد بهذه المهمة، على الرغم من انتشار وحداته على جزء من هذه الجبهة. كان تخوّف حزب الله صحيحاً عندما اجتاز تنظيم الدولة الإسلامية داعش محافظات نينوى وصلاح الدين

والأنبار بسبب تهاون الحكومة والقوى السياسية في العراق، وإهمالها في استشراف ذلك الخطر القادم من حدودها الغربية.

تعرّض حزب الله لحملة إعلامية مرّضة بسبب تدخله في سوريا، ارتكزت في أحيان كثيرة على البعد المذهبي. أسهم الإعلام وخصوصاً الفضائي في إثارة الغرائز، والسيطرة على العقول البسيطة، وتوجيه الجهد الروحي والمعنوي باتجاهات مذهبية تجلّت في أعمال انتحارية نفذها شبان يافعون ضد أهداف مدنية في سوريا ولبنان والعراق بحجة أنها شيعية أو إيرانية أو سنية معارضة لهم.

شارك تنظيم الدولة تنظيم القاعدة في الإرهاب، وبدا الخلاف بين التنظيمين على السلطة وليس على العقيدة ولا على الأولويات، حيث نشب بينهما قتال عنيف أدى لسقوط نحو أربعة آلاف قتيل تخلّله عمليات انتحارية متبادلة بين التنظيمين اللذين يحملان الإيديولوجيا الوهابية المتشددة نفسها، والتي حملها من قبلهم إخوان من أطاع الله، وجهيمان العتيبي، وأساميـة بن لادـن، وأبـو مصـعب الزـرقـاويـ. كشفـت العمـليـات الـانتـحـارـية سهـولة التـعـبـة وسـهـولة إـقـاعـ الشـبـابـ بالـانتـحـارـ فـي قـتـالـ مـذـهـبـيـ، وـهـذاـ ماـ يـدـلـ عـلـىـ نـجـاحـ كـبـيرـ لـحملـةـ التـحرـيـضـ فـاقـ كلـ التـوقـعـاتـ.

أوصل هذا القتال المذهبي القضية العربية الإسلامية الأولى، فلسطين والقدس، إلى أدنى سلم الأولويات، وبات النزاع المذهبي يحل في المكان الأول، ووصل المسلمين إلى وضع مزرٍّ. تصاعد إرهاب داعش والقاعدة، وتحول التنظيمان إلى بندقية للإيجار، وخصوصاً في حرب داعش ضد الأكراد في سوريا، حيث وضع الاختلاف المذهبي جانباً، وجرى استحضار الاختلاف العرقي، وبدأت العمليات الانتحارية والهجمات ضد الأكراد خدمة لأجندة تركية واضحة. في المغرب العربي وغرب أفريقيا بما ذلك الإرهاب، فهو في ليبيا كان مع جهة وقبيلة ضد جهة أخرى وقبيلة أخرى، وفي داخل المذهب نفسه، وفي الجزائر لم يكن مذهبياً إنما ضد حكومة

اعتُبرت علمانية، وفي نيجيريا كانت بوκو حرام تعبيء الشباب ضد المسيحيين، وضد الدولة ومؤسساتها أيضًا.

## العوامل المؤثرة على نمو الفكر الإرهابي

ثمّة عوامل كثيرة تؤثر على نشوء الإرهاب، أبرزها الآتي:

### أولاً: تراجع الهويات الوطنية لصالح الهوية الدينية والهوية المذهبية

تعتبر إيديولوجيا القاعدة وداعش الاتماء الوطني بمثابة الكفر، وهنا نذكّر بما قاله عناصر تنظيم القاعدة في بلاد الشام عندما أسرروا قائد الكتيبة 30 التي درّبها الأميركيون في تركيا: «جيش وطني كافر»<sup>(1)</sup>، وبما قاله عدد من قادة داعش والقاعدة: «لا للوطنية».

ينطلق كلا التنظيمين من تفسير ديني وهو أن أرض الله واسعة، وإنما المؤمنون إخوة، وأن حدود الدول والأوطان هي مصطنعة وصلبية كافرة. تباهت داعش وتباهي معها بعض داعميها عندما أسقطت سايكس بيكون باجتياح غرب العراق، فيما تعرّضت مصر وسوريا عندما اتحدتا في دولة واحدة لمؤامرات إقليمية ودولية لأجل إنهاء الوحدة والعودة إلى الانفصال، فهبت القوى نفسها التي تباهتاليوم بإسقاط سايكس بيكون لإسقاط هذه الوحدة.

على الرغم مما رافق اجتياح داعش الهمجي من أعمال سبي وسوق نخاسة للأقليات المسيحية والأيزيدية والكردية اعتبرها بعض خطوة جريئة ضد التقسيمات الاستعمارية. باتت الهوية الدينية والمذهبية هي المحرك

---

(1) رامي عبد الرحمن: مدير المرصد السوري لحقوق الإنسان في مقابلة مع تلفزيون سكاي نيوز عربية. الرابط

<https://www.facebook.com/syriahro/videos/10153556957703115>.

الأول لمشاعر الشباب وغرايّهم، وتراجعت الهوية الوطنية إلى مستوى خطير عندما شهدنا فلسطينيين يتخلون عن الهوية الوطنية الفلسطينية، ويتخذون من الإسلام الدين ثم المذهب هوية لهم، ويتوّجهون من الضفة الغربية وغزة وأراضي 1948؛ ليقاتلو ما اعتبروه عدو الدين في أفغانستان، وفي ما بعد ما اعتبروه أيضًا عدو المذهب في سوريا، تاركين عدو الوطن إسرائيل يفتّك بالشعب الفلسطيني ومقدساته.

شكل هذا التحول الكبير في الهوية الوطنية لمصلحة الدين والمذهب خطيرًا كثيّرًا، إذ تحول المذهب إلى وطن، وتحول الأخ في المواطن إلى عدو بسبب اختلاف الدين أو المذهب. كان تحرك المراكز السياسية والدينية في العالم العربي والإسلامي محدودًا جدًا في التطرق إلى مسألة الهويات؛ لذلك نجد أن الهوية الوطنية ضعيفة جدًا في جزيرة العرب والعراق وسوريا ولبنان، وهي قوية في مصر، وأضعفها في بلاد المغرب العربي.

لم تقدم المؤسسة الدينية الإسلامية إجابات للشباب حول هويتهم الوطنية، وعلاقتها بالإسلام، ولم تقدم الأنظمة السياسية التي بمعظمها يعتريها الفساد، وتعاني من مشكلة حرّيات وتنمية، أي حلول للشباب وخصوصاً العمالّة والضيّمانات الاجتماعية قبل أن تقدّم لهم حلولاً لمسألة الهوية. وحدّها دول الخليج تمكّنت من تجميد هذا التنازع حول الهوية، عن طريق تقديم اجتماعية اقتصادية لمواطنيها، مستفيدة من ثروتها النفطية والغازية، لعل الرفاه الاجتماعي يصرف انتباه الشباب عن مسألة الهوية، ولكن على الرغم من ثراء دول الخليج لم تتمكّن هذه الدول من الفصل بين الوهابية، والوهابية المتشددة، إذ رأينا في حالات عدّة مواطنين من هذه الدول ينضمون إلى القاعدة وداعش، وآخرين أغنياء يدعمون بالمال كل التنظيمين؛ لأنهما شكلاً لهم حلاً روحيًا ودينيًا.

## ثانياً: مناهج التعليم الديني الإسلامي

أُسهمت عوامل كثيرة في إضعاف الهوية الوطنية وأخصها التنشئة الثقافية والنظام التربوي. في دراسة جديدة لمركز هيوفوس<sup>(١)</sup> تبيّن أنه في سوريا التي يحكمها حزب البعث وسمي بالحزب القائد، كان خمس عدد الطلاب يتوجّهون بعد الإعدادية إلى دراسة الشريعة. والمهم هنا أن من يفشل في الحصول على معدلات تحوّله الذهاب للأدبي والعلمي يتحول إلى دراسة الشريعة، أي إن الطلاب المتخلّفين هم من يتولون اليوم قيادة المجتمع دينياً، وهذا ما أثّر كثيراً على العامة في العالم الإسلامي. إذا كان ذلك قد جرى في سوريا البعثية القومية فلنا أن نتصور ما جرى في باقي الدول، وخصوصاً أطروحة الدكتوراه في بعض جامعات الخليج بعناوين «تكفير الرافضة والنصارى»، وأن نتصور أيضاً من يقود المجتمع الإسلامي، ومن أوصلنا إلى إعلان إنكار كروية الأرض<sup>(٢)</sup>! وجعل من الإسلام مهزلة ومضحكة يتندّر بها الغرب.

قيل الكثير عن مناهج التعليم في دول الخليج، لكن في مصر الأزهر حصلت مفاجأة مذهلة عندما ظهرت الإعلامية المعروفة لميس الحديدي على شاشة تلفزيون CBC. وهي تمسك كتاباً بيدها، وتوجهت للإمام الأكبر شيخ جامع الأزهر قائلة: هذا الكتاب يحلّ أكل لحم الكافر وهو مقرر لطلابنا؛ ولذا لنا أن نتخيل خطورة هذه المناهج في إعداد جيل مضلل يأخذ بلاده إلى التهلكة.

---

(١) برنامج المعرفة حول المجتمع المدني في غرب آسيا. نشرة لرستم محمود بتاريخ 4 حزيران.  
الرابط:

[http://www.hivos.net/Hivos-Knowledge-Programme/Themes/Civil-Society-in-West-Asia/node\\_8905/node\\_32493](http://www.hivos.net/Hivos-Knowledge-Programme/Themes/Civil-Society-in-West-Asia/node_8905/node_32493).

(٢) محاضرة للشيخ بندر الخبرري الرابط  
<http://akhbaar24.argaam.com/article/detail/203180>.

كما صدرت ردود فعل دالة على ذلك بعد التفجير الإرهابي الأخير في أبها في المملكة العربية السعودية في 6 آب 2015. قال الكاتب المسرحي السعودي محمد العيشم في تغريدة على تويتر: «لم نر الإرهاب إلا بعد تسييس الدين؛ ليصير الوعظ مهنة العاطلين، ويعتلي المنابر جهله، وتحيد الثقافة النوعية، هذا كله صنع الإرهاب»، وكما قال الشاعر السعودي محمد الرطيان: «ابحثوا عن الفكرة التي آمن بها هنا الأحمق وأفنته أنه بتفجير المسجد وقتل المصلين وانحراره سيذهب إلى الجنة.. وحاربوها»<sup>(١)</sup>.

غابت الأغانى والأنشيد الوطنية وحب الأرض والوطن عن ثقافة الشباب في الدول العربية والإسلامية. لم نعد نقرأ أدباً وطنياً إلا نادراً. وفي الأساس تراجعت القراءة إلى حد بعيد، وغاب الفكر النبدي الثقافي، وندرت البرامج الثقافية في التلفزيونات والصفحات في الجرائد، وحلّت مكانها ثقافة العناوين والتحريرistik في الفضائيات.

سمح ضعف الهوية الوطنية وسوء التنشئة الدينية والوطنية للأجيال، والتردد والقلق السائدان في العالم الإسلامي للتيار الوهابي المتشدد بتسويقه تفسيراته الفقهية المتشددة، والتي لا تعتمد其 غالبية المسلمين في العالم. استفاد هذا التيار من الإمكانيات المالية الهائلة المتاحة له سواء من مصادر رسمية أو خاصة، مضافاً إلى التسهيلات الناتجة عن استخدام بعض الدول لتنظيمات تعنتق هذه العقيدة بدفعها للقتال بالوكالة عنها ضد منافسيها مثل: المجاهدين الأفغان في قتالهم لصالح الولايات المتحدة ضد الاتحاد السوفياتي، وداعش لصالح تركيا ضد الكرد.

### ثالثاً: المواقف السياسية الملتبسة

سلك حزب الله اللبناني غالبيته الساحقة من الشيعة درب مقاومة

---

(1) جريدة الوطن السعودية، العدد 7، آب أغسطس 2015.

الاحتلال الإسرائيلي، واستطاع إنشاء مقاومة جدية ومنظمة وفاعلة تمكنت عام 2000 من دحر إسرائيل عن لبنان من دون أي شروط وأي مفاوضات أو ترتيبات. عام 2006 فاجأ حزب الله العالم بإلحاق الهزيمة بالجيش الإسرائيلي بعد 33 يوماً من الهجمات الجوية والبحرية ومحاولات التوغل البري باءت جميعها بالفشل.

أثار انتصار الحزب هلع إسرائيل ومؤيديها وأهمهم الولايات المتحدة، وخافوا من أن يصبح هذا الحزب مثالاً في مقاومة إسرائيل تعتمده القوى العربية المختلفة. حاز حزب الله بشكل ملفت على تأييد الشعوب العربية والإسلامية ونصرتها، وظهرت صور الأمين العام السيد نصر الله في القاهرة وفي عواصم ومدن عربية وإسلامية أخرى. رفض حزب الله كل أشكال الفتنة المذهبية، وقدّم تنازلات سياسية أبرزها التحالف الانتخابي مع تيار المستقبل والقوات اللبنانية عام 2005، وهمما الحزبان الأكثر خصومة وانتقاداً للمقاومة، وأكثر المطالبين بنزع سلاحها. كما رد السيد حسن نصر الله على مقتل أربعة مناصرين للحزب عام 2007 بقوله: لو قتلوا منا ألفاً لن ننجّر إلى الفتنة.

أمام وهج الانتصار الكبير على إسرائيل لم يجد تنظيم القاعدة الذي جذب الشباب في عملية 11 أيلول 2001 أي مدخل للتعرض إلى حزب الله وانتقاده، ولم تنجح في ذلك أيضاً طروحات الخلاف السنّي الشيعي التي يشير ها عادة هذا التنظيم.

في مكان آخر في العراق ظهرت تعقيدات في العلاقات السنّية الشيعية أدت إلى تصادم خطير، وفرت مادة لإعداد الإرهابيين وتنشئتهم. كان الشيعة ينظرون إلى صدام حسين على أنه ديكتاتور وطاغية وجائر، وفي الوقت نفسه يعتبرون أمريكا عدواً. تعقد الموقف عندما هاجم العدو الأميركي العدو البهائي صداماً. انتصر الأميركي وسقط صدام وأعدم. هنا

بدأت إشكالية سياسية خطيرة: هل يمكن التعامل مع الأميركي على أنه منقذ وحليف؟ كيف ينظرون إلى الشخصيات السياسية والأحزاب التي جاءت «على ظهر الدبابات الأميركيّة»، وتحديداً المجلس الإسلامي الأعلى وحزب الدعوة اللذين اجتمع قادتهما مع رؤساء أميركيّين ونسجوا علاقات تحالف مع أمريكا، وشكّلوا حكومات برضى الأميركيّين؟ هل هم فعلاً عملاء لأميركا كما كان أنطوان لحد عميلاً لإسرائيل؟ أم هم مناضلون ضد جور نظام البعث؟

لم تعالج هذه الإشكالية ولم تُوضّح للجمهور الشيعي، كما إنّ الجمهور السني في معظم أنحاء العالم نظر إلى قادة الحزبين المذكورين، وقاده الحزبين الكرديّين جلال الطالباني وسعود البرازاني على أنّهم عملاء لأميركا. ثم إنّه إذا كان الأمر إيديولوجياً أي ضد البعث، وطرح موضوع اجتثاث البعث فكيف يتم التعامل مع البعث في سوريا؟ أليس لأسباب طائفية كما اعتبرها المتشدّدون؟ أدى ذلك الغموض إلى تغيب مسؤولية بعض الدول العربية والإسلامية وخصوصاً دول الخليج التي شاركت الأميركيّين بغزو العراق، وإلى تحميل مسؤولية الغزو للأكراد وللشيعة، الذين تعاونوا مع الاحتلال الأميركي قبل الغزو وبعده.

ما إن بدأت المقاومة ضد الاحتلال الأميركي حتى تحول قسم منها إلى إرهاب ضد الشيعة في أحياهن وأسواقهم ومعابدهم ومقدساتهم واحتفالاتهم، وكان أخطرها تفجير مرقد الإمامين العسكريين في سامراء الذي أشعل جولة من العنف الطائفي في جميع أنحاء العراق. نمت القاعدة والفكر الوهابي المتشدد، وحضرت فتاوى ابن تيمية وابن قيم الجوزية في ظل هذه الإشكالية السياسية العميقة حول موقف الشيعة من الاحتلال الأميركي، وعلى وقعها انتقل العراق إلى مرحلة تصادم مذهبية انطلاقاً من اتهام السلطة الشيعية الجديدة في العراق بالعملة الأميركيّة. لم تقدم هذه السلطة تبريرات مقنعة، ولم تقدم نموذجاً مقبولاً في إدارة الدولة، ولا في

نشر العدل والمساواة، وفرض سلطة القانون، وإعادة بناء المؤسسات، الأمر الذي أدى إلى انتشار الفساد بشكل لا يطاق، وإلى انعدام الخدمات، وتخلّف البني التحتية، وتراجع فرص العمل، وزيادة الفقر على الرغم من مدخول النفط.

كانت الطامة الكبرى عندما انهار الجيش العراقي في محافظات نينوى والأربيل وصلاح الدين، والذي يبلغ عدد وحداته هناك 30 ألفاً انسحبوا أمام ألفين من داعش مما كشف إهتماماً كبيراً في بناء المؤسسة العسكرية والأمنية، فقدان العقيدة القتالية والهوية الوطنية والانضباط العسكري. لكن الأخطر كان تدرج الاحتضان الشعبي لداعش في المناطق السنية من اللامبالاة تجاهها إلى تأييدها فور وصولها، ليس حباً بها، بل نفوراً من الحكومة. بعدما تمكنت داعش من أسباب القوة في المناطق السنية في العراق تغير المزاج السني منها، لكن بعد فوات الأوان.

طرح هذه الواقع المداخل التي سلكتها المنظمات الإرهابية الوهابية المتشددة، والحجج التي اعتمدت عليها في تعبئة الشباب السني وتحريضهم ضد الشيعة كطائفة بسبب ما اعتبروه تبعية قياداتهم وأحزابهم للولايات المتحدة، والأثر البالغ لذلك في تنشئة وتحريض الإرهابيين. في المقابل وكما ذكرنا فشلت القيادات الشيعية في تقديم تبرير مقنع لللشيعة ولا للسنة، فعززت تلك المنظمات تعبئتها للإرهابيين، وكثرت العمليات الإرهابية الاتحارية ضد المدنيين الشيعة، ضد المراكز الحكومية، والأكراد وال المسيحيين وبقى الأقليات.

هذه إحدى الحالات الملتبسة في الموقف السياسي للشيعة العراقيين تجاه الاحتلال الأميركي في العراق. وثمة حالات أخرى استغلها الوهابيون المتشددون للتحريض المذهبي وأدت إلى نمو كبير في الإرهاب.

#### رابعاً: الشعارات والمصطلحات

نظرًا إلى نسبة الأمية العالية في الدول العربية والإسلامية، وتراجع عدد القراء العرب، وسيطرة الإعلام المرئي والمسموع وخصوصاً الفضائي منها على الجمهور العربي والإسلامي، تغيرت وسائل التقرب والتوجه للرأي العام، وشاع اعتماد التلفزيون الذي يدخل بالصوت والصورة إلى جميع المنازل.

يرتكز الإعلام التلفزيوني المخصص لتوجيه الرأي العام على عناوين وشعارات أكثر منه على البحث والنقد. وإذا جرى الإسهاب في عرض مسألة سياسية أو دينية يكون المضمون موجّهاً نحو الغرائز، وليس نحو العقول. تحرص بعض التلفزيونات في برامج الحوار السياسي توكل شو على إظهار مبارزات أكثر من مناقشات، وتستعمل خطاب التحرير من المركز على شعارات ومصطلحات تدخل مباشرة إلى ذهن المشاهد. من هنا، لا بد من إعادة المصطلح أهمية بالغة نظرًا لتأثيره على الرأي العام، وإسهامه في تعبئة الإرهابيين. قبل البدء بعرض بعض الشعارات والمصطلحات نعرض لمصطلحين كان لهما تأثير كبير في الرأي العام.

**الأول: مصطلح الحروب الصليبية** الذي يستخدمه معظم المؤرخين. إبان تلك الحروب لم تذكر المصادر العربية ولا الأوروبية كلمة الصليبية ولا الصليبيين. كان العرب يسمّونهم الفرنجة، وكان الأوروبيون يسمونهم بالحجاج Pilgrims. أما مصطلح الحروب الصليبية فقد ظهر في القرن الثامن عشر، وأطلق على غزوات الفرنجة؛ وذلك لإضفاء طابع ديني وأخلاقي على تلك الحروب، وتشبيه الاستعمار الأوروبي من بريطاني وفرنسي وبرتغالي الذي كان سائداً في ذلك العصر بالحروب الصليبية.

كان من نتيجة هذا المصطلح إثارة شكوك العرب والمسلمين باليسريين في الشرق، وتوجيه تهمة دائمة لهم بالولاء للغرب، في حين

كان المسيحيون مستهدفين من حروب الفرنجة مثلما كان المسلمون كذلك، وإن الحملة الصليبية الرابعة توجهت تحديداً ضد مسيحيي الشرق. خلق هذا المصطلح هوة بين المسلمين العرب ومسيحيي الشرق، وعلى الرغم من ذلك لم يغيره أحد وبقي فاعلاً في الثقافة العربية والإسلامية.

الثاني: مصطلح استعمله الإسرائييليون وهو مستعمرة، أي القرى المبنية على أراضي الفلسطينيين المسلوبة في الفترة الممتدة من الثلاثينات إلى السبعينيات من القرن الماضي. كان هذا المصطلح فاعلاً في الرأي العام الفرنسي والبريطاني، الذي كان هو أيضاً مستعمراً، ورأى المستعمرات الإسرائيلية شبيهة بمستعمراته. عام 1970 بعدما سقطت الولايات المتحدة هيمنتها على السياسة الدولية، وخصوصاً في الشرق الأوسط، وباتت الحليف الأول لإسرائيل، وتراجع دور فرنسا وبريطانيا، غير الإسرائييليون مصطلح مستعمرة، وبدأوا باستعمال مستوطنة؛ وذلك في رسالة للرأي العام الأميركي الذي هو أساساً مستوطن في أميركا بأنهم مثله مستوطنون. وهذا ما سهل الدعاية الإسرائيلية في الولايات المتحدة، وسهل الاستيطان أي اغتصاب الأرض.

إليكم بعض المصطلحات المستخدمة والتي تثير الجدل والخلافات المذهبية التي يستفيد منها من يُعدّ وينشئ الإرهابيين.

## ١- الرافض والناصب

الرافضة كلمة أطلقت على الشيعة الإمامية بسبب موقف سياسي، والرفض هنا معناه المعارضة في عصرنا الحالي. كانت الرافضة هن المعارضة. ينسب بعض المؤرخين أن أول من أطلق كلمة رافض هم الشيعة الزيدية على الشيعة الإمامية. أما الناصب فهي تطلق على من نصب العداء لأهل البيت. بتعميم استعمال هذين المصطلحين يصبح كل الشيعة رافضة أي معارضة، وكل السنة ناصب، أي ينصبون العداء لأهل البيت. إذا

كان بنو أمية قد نصبوا العداء لأهل البيت فقد جاء بنو العباس وقضوا عليهم، وأسقطوا دولتهم وانتهت القضية منذ ثلاثة عشر قرناً، فلماذا تستحضر اليوم مصطلحات تفرز الطوائف وتعمق الانقسامات. عندما يُقال للإرهابي أثناء تشتيته إن الرافضة يتهمونك بأنك تنصب العداء لأهل البيت، وهذا غير صحيح، يصدق الإرهابي المبدئي وتعمق كراهيته وأحقاده. وعندما يتهم الشيعي بالرفض تثار مشاعره، وكأنه تلقى إهانة.

## 2- الفئة الباغية والخوارج والفرقة الناجية

ثمة من يستعمل تعابير الفئة الباغية للدلالة على الإرهابيين فيعيد الصراع السياسي العقدي القائم اليوم إلى زمن الخلافات والفتن الإسلامية، والتي لم تجد لها حلاً مقبولاً من الجميع منذ أربعة عشر قرناً، فيسهم في استحضار تلك الخلافات إلى هذا الزمن، وفي تسعير المشاعر وإثارة الغرائز.

ينطبق ذلك على الخوارج وهو مصطلح أول ما عرف هو عن الذين خرجوا عن طاعة الإمام علي بن أبي طالب بعد معركة صفين. لكن ما هي المصلحة في إعادة الأمور أربعة عشر قرناً إلى الخلف؟

أما مصطلح الفرقة الناجية فهو من أخطر المصطلحات حيث تعتبر الفرقة التي تعتبر نفسها أنها الناجية وأن باقي الفرق ذاهبون إلى النار، وهي وحدها تفوز بالجنة. عند إقناع الشباب بأنهم يتمون إلى الفرقة الناجية؛ لأنهم يتمون إلى التنظيمات الإرهابية، يصبح الهجوم على باقي الفرق مشروعًا، ويصل الحد إلى القيام بعمليات انتشارية ضد باقي الفرق.

## 3- جبهة النصرة أم القاعدة؟

ينتشر تنظيم القاعدة في سوريا تحت اسم تنظيم القاعدة في بلاد الشام جبهة النصرة، ويحرص الجولاني قائد التنظيم على تأكيد الولاء والطاعة

لأيمن الظواهري زعيم تنظيم القاعدة العالمي. يُصدر التنظيم بياناته بعنوان تنظيم القاعدة في بلاد الشام جبهة النصرة. على الرغم من ذلك يحرص سياسيون وإعلاميون على الالتفاء بعنوان جبهة النصرة، وإغفال القاعدة من العنوان الأساسي، وهذا ما يضفي طابعاً وطنياً سورياً معارضاً على هذا التنظيم، فيما هو في الحقيقة جزء من التنظيم العالمي للقاعدة يرتبط بأجنحتها في المنطقة، وسوريا بالنسبة إليه ساحة مثل باقي الساحات في العراق واليمن ومصر وغيرها. إن التركيز على مصطلح «النصرة» يسهم في إخفاء طابع الإرهاب الدولي على هذا التنظيم، ويحول منتسبيه الإرهابيين إلى وطنيين بنظر العديد من القوى السياسية.

#### 4- الإرهاب التكفيري

ينتشر استخدام مصطلح الإرهاب التكفيري بشكل واسع وهو يشمل تنظيم القاعدة وتنظيم داعش. إن استعمال هذا المصطلح يوحي أن ثمة مشكلة عقدية، أو فقهية مع هذين التنظيمين فيما المشكلة هي سياسية وأمنية، وهو يؤدي إلى اتهامات متبادلة بالتكفير. في لبنان مثلاً يتهم بعض قادة تيار المستقبل وقادة المعارضة السورية<sup>(1)</sup> حزب الله بأنه حزب تكفيري، وذهب بعضهم إلى اعتبار حزب الله داعش وجهين لعملة واحدة<sup>(2)</sup>. وإذا دخل أحد في سجال حول هذا الاتهام يصبح مصطلح

---

(1) عضو الائتلاف الوطني للمعارضة السورية ميشال كيلو في حديث إلى جريدة الوطن السعودية 19 آذار مارس 2014؛ النائب السابق مصطفى علوش في مداخلة في برنامج بموضوعية على شاشة محطة MTV في 27 آب أغسطس 2014.

(2) النائب أحمد فتفت في حديث إلى جريدة النهار في 27 كانون الأول ديسمبر 2013؛ رئيس حزب القوات اللبنانية في حديث صحافي بتاريخ 15 شباط فبراير 2015؛ النائب السابق محمد عبد الحميد بيضون في حديث إلى جريدة الوطن السعودية في 6 أكتوبر تشرين الأول 2014.

«تكفيري» مثار جدل فكري وفقهي، فيما عنوان التنظيمين، أي القاعدة وداعش، يختصران ويدلان على الإرهاب بشكل تام.

إذا توسعنا باستخدام مصطلح التكفير نتخيّل رد فعل الإرهابيين عندما يتلقون هذه التهمة، ويسارع مفكروهم إلى رد التهمة بالتفجير المضاد، والمزيد من التحرير واستحضار اختلافات الماضي وواقع غير مثبتة في التاريخ من أجل تدعيم عقيدة الإرهابي.

نرى إن استعمال مصطلح التكفير يُسهم بتشتيت الجهود في المعركة ضد الإرهاب. والسؤال الذي يطرح نفسه، لماذا لا نسمى الأشياء بأسمائها؟ لماذا لا نسميهم بأسمائهم داعش والقاعدة، وما هو الهدف من إطلاق الصفات والألقاب مثل الإرهاب التكفيري؟

## خلاصة

لا شك في المحصلة العامة أن تنظيم الدولة الإسلامية والقاعدة يقفان في وجه خط المقاومة ضد إسرائيل والمشروع الصهيوني، وأن أداءهما يخدم مصالح الولايات المتحدة وإسرائيل. لقد تمكّن هذان التنظيمان والتنظيمات المتفرعة عنهما من ضرب بُنى الدولة والمجتمع في العراق وسوريا ولبيا والصومال، وإلى حد ما في اليمن وأفغانستان. كما إنّهما يهددان استقرار دول مهمة مثل: باكستان والمملكة العربية السعودية ومصر والجزائر، وينفذان هجمات انتشارية إرهابية في هذه الدول.

كثر الحديث عن مكافحة الإرهاب وخصوصاً من الولايات المتحدة التي سعت إلى تبني مجلس الأمن القرار رقم 1373 لمكافحة الإرهاب عام 2001. ومنذ تبني هذا القرار حتى اليوم وبدلاً من القضاء على الإرهاب نراه وقد توسيّع وضرب في أنحاء عدّة من العالم، وأدى إلى تقويض الاستقرار في الدول المذكورة آنفاً. لم تتحرك الدول المتضررة من الإرهاب من أجل

الاجتماع، وتبني مواقف سياسية وإجراءات تنسيقية في ما بينها لمكافحة الإرهاب. والأسوأ أنه لم يتم الاتفاق بين الدول المتضررة على تحديد التنظيمات الإرهابية. غرق قادة بعض الدول وأغرقوا شعوبهم في قراءات خاطئة وغريبة حول الإرهاب، إذ إن بعضهم مثلاً يعتبر تنظيم الدولة الإسلامية الذي يحتل نصف مساحة سوريا، ويشكل خطراً كبيراً على النظام أنه من صنع النظام، فيما ذهب بعض آخر إلى اتهام إيران على أنها وراء تنظيم داعش، وأخرون إلى اتهام روسيا.

أما تنظيم القاعدة الإرهابي فقد منحه بعض القوى أساساً تخفيفية، وأصبح معارضه سورية، وفي بعض الأحيان ثواراً سوريين.

سادت النظرة نفسها في العراق حيث اعتبر بعض داعش معارضه عراقية، وفي مصر اعتبرت ألوية بيت المقدس في سيناء ومصر أنها معارضة للانقلاب، وفي ليبيا أنها تنظيم قبلي جهوي.

لا يمكن مكافحة الإرهاب من دون النظر إلى جذوره ومصطلحاته والمواقف السياسية المحيطة به. كل ذلك لا يلغى التصدي الأمني والعسكري للإرهاب الذي يبقى ضرورة وواجبًا من أجل الدفاع عن أمن الدول والمجتمعات وحفظ التراث والعقائد. إن الإهمال الواضح في التطرق بجدية وصراحة لبعض النقاط مثل التي وردت في الفقرات السابقة يؤدي إلى بطء في مكافحة الإرهاب الذي ينمو بسرعة خاطفة، ولا يتضرر أحداً وينتهز أيّ فرصة ليضرب. كما إن هذا الإهمال يؤدي إلى عدم تدعيم الانتصارات العسكرية على الإرهاب بانتصارات ثقافية اجتماعية سياسية تسهم في ترسيخ القضاء عليه من داخل نفوس معتقديه.

# إعادة صياغة مفهوم الإسلام السنّي ودوره في مواجهة الإرهاب<sup>(1)</sup>

الدكتور أحمد موصلي<sup>(2)</sup>

أعتقد أنه في المرحلة الحالية لا بد من إعادة صياغة مفهوم الإسلام السنّي لأسباب عدّة، فالرؤى المتشرّبة اليوم هي الرؤى الوهابية لا السلفية، فلا بد من تفكيك هذه الرؤى الوهابية وإعادة صياغة مفهوم إسلامية حديثة فكرية اجتماعية اقتصادية لها تواصل مع بناء الدولة والمجتمع والعلاقات الدولية.

لا يبالغ إن قلنا إن عمليات الإصلاح في العالم العربي سواء كانت في الفكر الإسلامي السياسي كما شهدنا مع جماعة الإخوان المسلمين في مصر أو غيرها، أُسقطت لا سقطت. أيضًا القومية العربية أُسقطت، والاثنان أُسقطا من قبل الوهابية، ومن قبل كانت تستخدم الرجعية العربية لاسقاطهما واليوم دول الخليج تقوم بهذه المهمة. عندما صعد جماعة الإخوان المسلمين بتشكيل بارز كان ثمة خوف من أن يتفضّل فكرهم وهو له قاعدة في

---

(1) ملاحظة: لم يقدم الباحث ورقة مكتوبة، ولذلك اعتمدنا التسجيلات الصوتية مع صياغتها بما يتاسب مع طبيعة النص المكتوب.

(2) أستاذ مادة العلوم السياسية والدراسات الإسلامية في الجامعة الأمريكية.

الخليج وليس غريباً عنه، وكثير منهم أصبحوا مثقفين ومُدرسين ومارسوا أدواراً أساسية في الخليج وال السعودية والإمارات والكويت وغيرها.

ترافق انتشار جماعات مثل داعش مع ضرب الإسلام السياسي المعتدل الذي كان على رأسه جماعات الإخوان المسلمين. الإخوان يتميزون بالديمقراطية فهم يقبلون الانتخابات ويقبلون تداول السلطة. أما ما نشهده اليوم من فكر فهو ليس بجديد بالمطلق، فكلنا نعرف كيف قامت دولة السعودية بطريقة مشابهة للطريقة التي تقوم عليها داعش اليوم. والتاريخ يشهد، فالهجوم، والذبح، والقتل والاستيلاء وما شابه كلها طرق مشابهة لما تفعله الجماعات التكفيرية اليوم، نعم اختلفت الأساليب العسكرية وبعض الأمور التفصيلية. بدأ هذا الفكر التكفيري المعاصر من الوهابية، والوهابية حركة معاصرة وليس حركة قديمة، وعلى مائدتها نشأت حركات أخرى مثل حركة الإخوان وغيرها، نعم أضاف الإخوان تكفير المجتمع كمجتمع.

إن سيد قطب هو من أسس لتكفير المجتمع، وبالتالي ما شهدناه في أفغانستان وما بعدها هو اندماج الفكر التكفيري الذي انشق عن جماعة الإخوان المسلمين مع الفكر التكفيري للجماعات الوهابية. السلفية الوهابية هي مجموع هاتين الحركتين وأكثر.

لا يمكن مواجهة هذا الفكر إلا عبر العودة إلى فكر إسلامي سني مت porr يقوم على مواجهة الفكر التكفيري الوهابي الذي -وبسبب النفط والبترودولار- تمكّن من إنشاء المدارس والمعاهد والمؤسسات التي خدمت هذا الفكر، وفي لحظة ما طفا على السطح وتمكن من استقطاب الشباب.

والاليوم دولنا العربية إما محاومة بنظم عسكرية مثل مصر وسوريا أو بملوك وأمراء، وبالتالي علينا إنتاج منظومة تعيد للشعب قدرته على

التأسيس. لم يتمكن الفكر العربي الإسلامي أو العلماني لا من إنشاء منظومة فكرية متطرفة علمية ولا من إنشاء منظومة إسلامية حداثية متطرفة. من هنا أتت أهمية الخلافة الإسلامية، الخلافة بغض النظر عن مسألة المشروعية أو عدم مشروعية.

كانت الخلافة الوعاء الذي كان مرتكز الفكر الإسلامي السنوي، وسقوطها شطبي المنطقة. ونحن حالياً في مرحلة تشظي ثانية ولا مجال للتفاؤل، لذلك لا يكفي أن نقول إننا ضد القتل والتکفير؛ بل لا بد من صياغات حديثة تأخذ في الحسبان موازين القوى.

جزء كبير اليوم من الصراع سببه هذا التناقض المذهبي بين السعودية وإيران، فلا بد من إيجاد حل لهذه المشكلة، وإنما فالشعوب هي التي سوف تدفع الثمن. أنشأ داعش اليوم دولة ولا يمكننا إنكار ذلك. وداعش هذه بما هي عليه اليوم ستبقى مستمرة. ولا نستبعد أن يكون الحل المقترن هو تقسيم المنطقة إلى دولات مذهبية: مسيحية، درزية، سنية، شيعية، وما إلى ذلك. وهذا العراق فعلياً هو مقسم إلى إلى ثلاثة دول.

لذا، إذا لم تتمكن المنطقة من إيجاد صيغة للتعايش الإسلامي الإسلامي، ولم تتمكن من إيجاد صيغة للتعايش القومي العربي أو إيجاد صيغة إقليمية للتعاون مع الواقع الدولي، فتحن ذاهبون إلى تشظي الإسلام كله السنوي وغير السنوي والى انشقاقات أكثر وأكثر، وقد نشهد نشوء جماعات أكثر تطرفاً من داعش.

في مصر، ضربت الجماعات الإسلامية وعاد الحكم العسكري بشكل أسوأ من السابق. والوضع في لبنان أيضاً ليس بأفضل، فالاحتقان المذهبي يجب معالجته بشكل حساس ويجب على الشيعي أن يستوعب السنوي عوضاً في الوقت الحاضر لأسباب تتعلق بالجغرافيا السياسية وتغيير موازين

القوى في المنطقة، بخلاف ما كان في الماضي عندما كان السنّي يستوعب الشيعي.

## ملحقات

- جماعات الإسلام السياسي: الصعود.. إلى المهاوية (الدكتورة هلا رشيد  
أمون)
- الجماعات التكفيرية: الجذور، التحالفات، أساليب التجنيد، وسبل  
المواجهة (الدكتور ياسر الشاذلي)
- كيف هزم لبنان بوحدة شعبه وجيشه ومقاومته الإرهاب التكفيري،  
ولماذا؟ (الدكتور طراد حمادة)



# جماعات الإسلام السياسي الصعود.. إلى الهاوية

الدكتورة هلا رشيد أمون<sup>(1)</sup>

قبل الخوض في جذور جماعات العنف التكفيري، لا بدّ من التوقف سريعاً عند بعض المحددات والتعريفات الضرورية لمصطلحي «العنف» و«التكفير»، للتعرّف إلى هويّة الجماعات التي تمارسهما.

«العنف» تعريفاً هو كل خطاب أو فعل مؤذٍ أو مدمّر يقوم به فرد أو جماعة ضدّ جماعة أخرى، والعنف نوعاً: «العنف الشرعي» المقبول قانونياً واجتماعياً، و«العنف غير الشرعي» غير المصدق عليه اجتماعياً. وتكمّن وظيفة الإيديولوجيا الدينية والسياسية التي تسعى دوماً إلى تعزيز السلطة القائمة، في تأمّل شرعية ما، لفعل عنيف أو عدواني، عبر اللجوء إلى التعاليم الدينية والحجج الأخلاقية والموروث الثقافي، كي يصبح استخدام العنف مقبولاً اجتماعياً وأخلاقياً، باعتباره وسيلةً لدفع مظلومية أو تحرير أرض مغتصبة أو إصلاح مجتمعات فاسدة، أو حسم الصراع بين الخير والشرّ، الإيمان والكفر الحقّ والباطل. وبهذا التبرير الإيديولوجي، لا يعود استخدام العنف خياراً؛ بل يصبح حتميّةً تاريخيّةً وضرورةً وجوديّةً وواجبًا أخلاقيًّا.

---

(1) أستاذة الفلسفة في الجامعة اللبنانيّة.

هذا بالنسبة إلى مصطلح «العنف»، أما بالنسبة إلى مصطلح «التكفير» ففي اللغة العربية، «كَفَرَ الشيءُ، وَكَفَرْهُ» تعني: ستره وغطاه. كفر الزراغ البذر بالتراب: غطوه. و«الكافر» هو الزارع، والليل المظلم الذي يستر بظلمته كل شيء.

أما بالمعنى الديني، فإن عبارة «كفر الرجل» تعني: أشرك بالله، لم يؤمِن بالوحدانية أو بالنبوة أو بالشريعة أو بثلاثتها. و«الكُفُر» هو الجحود، خلاف الإيمان. و«الكافر» هو الجاحِدُ، الساتُرُ لِنَعْمَ اللهُ عَلَيْهِ؛ لأنَّه مُغطٍ على قلبه، المشرِكُ بالله، الشخص الذي يأتي بقولٍ أو فعلٍ أو اعتقادٍ يخرجه من الإسلام. و«كفر الرجل»: نسبة إلى الكفر، حمله على الكفر، عدُّه كافراً، أي أخرجه من حظيرة الإيمان، مع ما يستدعي ذلك من أحکام فقهية بالتجريم والردة والعقوبة التي تصل حد القتل.

ونزعة التكفير التي تجعل الدم المعصوم حلالاً، هي مسألة شديدة الخطورة في ثقافتنا الإسلامية. وقد ترسخت أحکامها الفقهية من خلال المناقشات التي دارت بين المدارس والمذاهب والفرق الكلامية والفقهية الإسلامية، لتعريف الكفر الذي هو نقيس الإيمان، وتحديد درجاته (بالاعتقاد أو القول أو العمل) وأقسامه وأنواعه (كفر ظاهر وكفر باطن، وكفر عمل وكفر جحود...) وقواعد وأدلة من القرآن والسنة. وثمة مدارس وسعت دائرة موجبات التكفير، وأخرى وضعت شروطاً وضوابط عدّة، لتقييد أو منع إلصاق تهمة الكفر بال المسلمين.

ومن هذا الجدل والنقاش الذي استمر لقرون عدّة، في صحة الإيمان والتوحيد، في مقابل خطيبة الكفر والردة، انتشرت عادة التكفير على ألسنة الناس، وأصبحت هذه النزعة من القوة والرسوخ في ثقافتنا، بحيث إننا بتنا بحاجة إلى ثورة ثقافية ومعرفية وعقلية وأخلاقية وفقهية شاملة؛ لاستئصالها

واقتلاعها من قاموسنا كوسيلة سهلةٍ لإنهاء معاركنا وخلافاتنا مع خصومنا، وتصفية حساباتنا مع أعدائنا.

ولا شك في أنه عندما يتداخل الدين بالسياسي، والإلهي بالبشري، ويختلط الآخروي بالديني، والماورائي بالواقعي، والمقدس بالوضعي، كما يحصل مع بعض الأحزاب والجماعات التي ترفع شعارات دينية لتحقيق أهداف سياسية وسلطوية، فإن العقل الديني ينقل إلى الحقل السياسي كل مطلقاته وقيماته وثوابته وأحكامه ومقدّساته. والمقدس المطلق بطبيعته يتعارض مع حرية الفكر والرأي والتقرير والاختيار، وهو يفترض السمع والطاعة والخضوع، ويأبى الاختلاف والخروج على ما يعد أصحابه إجماعاً، تحت طائلة شيطنة الشخص المختلف أو المبدع، وتعريضه إلى النبذ والاتهام في دينه والتشكيك في إيمانه.

ولذلك فإنَّ أبرز ما يميز العقل الديني المغالي والمتشدد، هو رفضه النوع وتعدد المشروعات، وادعاؤه بأنه الوحيد الذي يمتلك «الحقيقة» التي لا يأتيها الباطل؛ وأنَّ من يرفض «حقيقة» فهو يرفض «الدين» نفسه. ومن هذا الادعاء تنبع كل مظاهر الغلو والإقصاء والإلغاء والتطرف ومصادرة الحريات واستخدام العنف مع المخالفين والخصوم الفكريين من أتباع التيارات والمذاهب الأخرى. وإذا سمحنا لهذا النموذج من العقل الديني بأن يمارس سلطته وطغيانه وفوقيته واستعلاءه داخل الحقل السياسي، فلا شك في أن النتيجة سوف تكون كارثية، كما نشاهد في وقتنا الراهن. ذلك أن «الدين» هو بنية عقدية وإيمانية وأخلاقية وقيمية مطلقة، تؤمن بوجود مفاهيم نهائية وشاملة؛ أما «السياسة» فهي بنيةٌ نسبيةٌ ومتحولةٌ ومتقلبةٌ تعمل على التوفيق بين العناصر والمعطيات المتباينة؛ وهي تعترف بتنوع الحقائق والسلطات في المجتمع، وتعامل مع الأزمات والمشكلات بصورة واقعية لا ماورائية أو غيبية. في السياسة مبدأ التفعية مُقدم على الأخلاق، والغاية تبرر الوسيلة، والمصالح أهم من المبادئ.

ولذلك عندما تتوسل بعض الأحزاب اليقينات والمطلقات والمقدسات لتحقيق أهدافها -بعض النظر عن شرعيتها المجتمعية والشعبية والدينية والأخلاقية، أو مشروعيتها القانونية والحقوقية-. وعندما تضفي على استخدامها العنف قيمة دينية ورصيداً أخلاقياً لتبيره، فإنها تقوم عن سابق تصوّر وتصميم، بالخلط بين بنيتين مختلفتين ومتباعدتين في الجوهر والوسائل والأهداف، وتلحق الضرر والأذية بكلٍّ منهما، وذلك عندما تستحضر من الحقل الديني مفاهيم «التكفير» بكل ثناياه (مؤمن-كافر، مُوحَّد- مشرك، ظاهر- نجس، متّبع-مبتدع...) ليتم تطبيقها في الميدان السياسي (وطني- خائن، مقاوم-عميل، شريف- متآمر، صديق- عدو، حداة- جاهليّة، إسلاميّ رجعي- علمانيّ ملحد، إرهاب إسلامي- ديمقراطيّ كافرة....) مع ما يستتبع هذه الثنائيات من أحكام مُبرمة بالنبذ والعزل والإلغاء والإقصاء والنفي من دائرة الحق والخير والإيمان، والتجريم واستحقاق العقوبة المادية والمعنوية.

وبهذا المعنى فإن جماعات الإسلام السياسي بكل انتماءاتها -شيعة وشيعة- تمارس تحت شعارات مذهبية، العنف التكفيري المادي والسياسي النفسي، عبر تقديمها على أنه مقاومة ونضال وجهاً نبيل ومشروع، لتحقيق مكاسب مادية وسلطوية.

وبالعودة إلى موضوعنا المطروح، فقد شكّل الصعود المفاجئ لتنظيم «داعش» إلى مسرح الأحداث العالمي، صدمةً حقيقة للرأي العام المحلي والعالمي، وفتح جدلاً واسعاً حول حقيقة جماعات العنف التكفيرية: تاريخها، جذورها الفكرية، مركزاتها الفقهية، مصادر تمويلها، أجنداتها القرصنة وأهدافها البعيدة... ولأن الفكر، أيّاً كان مضمونه واتساعه، لا يأتي من عدم أو فراغ؛ بل من شروط اجتماعية واقتصادية وسياسية وطبقية و... فقد حاولنا البحث والتقصي لمعرفة المناصب والجذور والمنظفات والعوامل الحاسمة والمؤثرة في نشأة وبروز هذه الجماعات.

وقد أكّدت خلاصهُ البحث والتحليل أنه:

من رحِم الإحباط واليأس والشعور بالدونية والاستلام والانسحاق والهزيمة والفشل في بناء دُولٍ مدنيةٍ عصريةٍ وأنظمةٍ عادلة وديمقراطية، خرج مارد التطرّف الديني من قمقمه، وقد تجسّد تنظيماتٍ تمارس باسم الله، العنف المادي والإرهاب النفسي بأبشع صورهما، بذرية الانتقام للشعوب العربية التي ذاقت مرارة السياسة الممنهجة في سرقة ثرواتها وتتجهيلها وتغافلها وإخضاعها وإذلالها لترويضها.

من رحِم استغلال الاجتهادات والتفسيرات والتآويلات المختلفة للموروث الديني والمقدس، بُغية توظيفها في إزاحة سلطةٍ قائمة، والصعود مكانها إلى الحكم، تشَكّلت عقيدتها وفكُرُها الذي يبدو أنه الابن الشرعي لتعصّبنا القبلي، وعُنفنا العشائرِي المتجلّر في لاوعينا على الرغم من ادّعائنا التحضر؛ والوريثُ الطبيعي لموروثنا الثقافي الذي تم اختصاره بآيات السيف والقتال والغزوات وجُرْ الرقاب، واستئصال كلِّ من ليس على صورتنا ومثالنا؛ ولتارikhنا المتخيل الذي ي يريد دُعاءُ العنف والهدم والتقويض والتطهير، حصره بأحداث المرحلة «المدينية» من مراحل نشأة الإسلام، باعتبارها المرجعية المؤسّسة المثالية لتأصيل انتهاجهم أساليب الرجم والجلد والذبح، بذرية السير على خطى السلف الصالح، وتقليدهم في أقوالهم وأفعالهم.

إذن، وحشُ الإرهاب المقدس، الذي حضرته ورعاهُ وغذّته واستثمرته ووظفته في ضرب وتشويه كلِّ ما له قيمة في ثقافتنا ومجتمعاتنا، دولٌ وحكوماتٌ وأنظمةٌ وأجهزةٌ استخباراتٍ محليةٍ وعالمية ليس طفرةً مفاجئة أو عابرةً في حياتنا، إنه في الحقيقة، مجرد تطويرٍ دراميكي أو ردّ فعل طبيعي للإرهاب والاستبداد والقهر والظلم السياسي الذي مارسته الأنظمة العربية الحاكمة، ومجرد حلقةٍ من سلسلة التوظيف والتشويه والاستغلال

للمقدّس، امتدّت على مدى عقودٍ من الزمن. وتاريخنا غنيٌ بالشواهد التي تؤكد أنَّ العنف والغلو وطرد الآخرين من حظيرة الإيمان واتهامهم بالزندة والردة، والتعصّب الديني والاستعلاء المعرفي واحتكار الحقيقة وتحصين الذات عبر شيطنة الآخر، وتأكيدها عبر إثبات ضلاله وانحرافه، والاحتراب بين المذاهب وتبادل أدوار الإلغاء والتکفير في ما بينها هي في تاريخنا، ظواهرٌ وحقائقٌ بلغت حدَ اللامقول والعيث والغوضى، تحولَ معها الدفاع عن نقاء الدين وصفائه، إلى سلاح مشروع لتبير الإسراف في العقوبات من أجل السيطرة والغلبة، ومن أجل التخلص من الخصوم الفكريين والسياسيين (محنة أحمد بن حنبل، مأساة الحلاج، تکفير الإمام الغزالى، اضطهاد الطبرى، المعارك الفكرية بين الأشاعرة والمعتزلة، الاحتراب بين السنة والشيعة....)، وتحوّلت معها الرسالة السماوية التي أعطت العرب كلَّ مجدهم العقلى والعلمى والسياسى والعسكرى والحضارى الذى تولوا به قيادة العالم قروناً طويلاً، إلى رحم ولوِّد يتجه على مرِّ الأزمنة والأمكنتة، مشاريع رُعب وبطش وثأر وانتقام وتطهير وإقصاء وإلغاء وتکفير وقتل باسم الله وتطرف لا يعرف التسامح أو الاعتدال؛ مشاريع تتبرى الهوس المرضي بالقتل والانتقام جهاداً؛ والتتوّحش فقهًا؛ والتطرف مذهبًا؛ والغلو تدينًا، والشعور الهذيانى بامتلاك الحقيقة إيماناً، وتکفير المخالفين وإخراجهم من الملة، طاعة وتقرّباً إلى الله.

وإذا كان يوجد إجماعٌ على أنَّ القرآن هو الثابت المطلق الوحيد في موروثنا الديني المقدّس، فإنَّ منظري حركات الإسلام السياسي -سنة وشيعة- قد تعمّدوا جعل النسبيّ مطلقاً، والمتغيّر ثابتاً، والظرفي أبداً، والمؤقت دائمًا، والبشرى مقدّساً، وذلك عندما تعاملوا مع الفتاوى والتفسيرات والتاويلات واجتهادات العلماء في قراءة النصّ الديني، التي ظهرت في عصور متباينة منذ مئات السنين، على أنها مطلقةٌ ومعيارية ونهائية ويمكن تطبيقها في كل زمان ومكان، ما يعني أنهم وضعوها في

مرتبةٍ واحدة مع أحكام القرآن، ورجعوا إليها بالمستوى نفسه من الوثوق واليقين النقطي، بصرف النظر عن تغيير ظروف العصور، وتبدل ميزاتها وحاجاتها وشروطها وضروراتها وإشكالياتها ومقاييسها وقوانينها. وهذا واحدٌ من مصادر التضليل والانحراف والتشوّه في فكر تلك الحركات، وخاصة في ما تطلّقه من أوصاف وأحكام وثنائياتٍ: مجتمع جاهلي وإسلامي، دار حربٍ ودار سلام، دارُ كفرٍ ودار إيمان...

ما هي أبرز الخلفيات التاريخية والسياسية والاجتماعية والفكريّة والدينية التي أدّى تراكمُها عبر السنوات، إلى انفجار موجات العنف العاتية والعصبيّات والهويّات المذهبية القاتلة، والتي ساهمت في بلورة استراتيجية التوحش التي عزّزت افلات المشاعر الانتقامية والثأرية وتفشّي الغرائز العدوانية؟

أولاً: ظهور جماعة «الخوارج» بعد موقعة التحكيم بين الإمام علي بن أبي طالب ومعاوية بن أبي سفيان، وما تبع ذلك من تشظٌّ وشقٌ للصف الإسلامي الواحد، ومن شيوخ لأحكام التكفير والردة وقتل المخالفين والثورة على حُكّام الظلم والجور، معطوفٍ عليها انطلاق شرارة النزاعات والصراعات الدموية على السلطة، وعلى إثبات أحقيّة خلافة الرسول في قيادة الأمة، التي استمرت مئات السنين، ولم تنطفئ بعد، جذوةً فتنتهَا ومفاعيلُ حقدّها وإمكانية توظيفها واستثمارها في التحرير والتّعبئة ونبش قبور الماضي السُّحيق، واستعادة صراعاته ونزعاته القبلية والعشائرية.

ثانياً: ولادة المدرسة السلفية على يد الشيخ السعودي محمد بن عبد الوهاب الذي نجح في تأسيس دولةٍ في عام 1744 بالتعاون مع الأمير محمد بن سعود، تبنّت المذهب الحنبلـي الذي تُعتبر أحكام أصحابه (أحمد بن حنبل وتلميذهـ ابن تيمية وابن القيم الجوزـيـة) الفقهـيـة، وفتاوـيهـمـ المتـشدـدةـ،

الركيزة الأساسية في تأصيل الفكر الجهادي واستشراء الأحكام التكفيرية لدى بعض حركات الإسلام السياسي.

ثالثاً: سقوط «الخلافة الإسلامية» بعد تفكك الدولة العثمانية، وتقسيم العالم العربي، وتوزيع الوصاية عليه بين المنتصرين في الحرب. وما تلا هذه الأحداث من غضب عارم في العالم الإسلامي الذي ظلّ بعض أبنائه الذين يعتبرون الدول القطرية كيانات سياسية مؤقتة خلقها الاستعمار العالمي، يحلمون بإعادة إحياء أمجاد الخلافة الرائلة، كرمز من رموز القوة والمنعنة وتوحيد المسلمين تحت راية واحدة. وما زال هذا الحلم يدغدغ مشاعر الملايين من المسلمين حول العالم، كلما كسرت شوكتهم وازداد استضعافهم وتخلّفهم واستباحتهم، مهما بدا لهم من استحالة تحقيق هذا الحلم.

رابعاً: إعلان قيام «دولة إسرائيل» في سنة 1948 على أرض فلسطين، وما سبق ذلك، وللحقة من المجازر التي ارتكتها الميليشيات والعصابات اليهودية، أضف إلى ذلك الحروب التي شنّها هذا الكيان الديني الغاصب بدعم من دولٍ غربية عدّة، على الدول العربية المجاورة، وهزيمة الجيوش العربية النظمية أمام الجيش الإسرائيلي، وما تركته تلك الهزيمة من شعور بالانكسار والانسحاق والغضب، ومن جرح دائم وغائر في عقل وقلب وكرامة الشعب العربي، نتيجة ضياع الأراضي المقدّسة.

خامساً: فشل كل الإيديولوجيات والعقائد الفكرية والسياسية (القومية والبعثية والعلمانية والاشتراكية والشيوعية...) التي ازدهرت في أعقاب نيل الدول العربية استقلالها، بعد وصول أصحابها إلى السلطة عبر الانقلابات العسكرية أو الاستفتاءات الشعبية المزورّة أو محسومة النتيجة سلفاً، وممارستهم الحكم بقبضةٍ من نارٍ وحديدٍ وطائفيةٍ وعنسٍ

ومخابراتٍ كتمت أنفاسَ الشعوب، وأذاقتها مرارةَ الذلِّ والهوانِ والقنوط، وأورثتها القهرَ والقمعَ والجهلَ والفقرَ والبطالة.

ويمكن القول إنَّ فشلنا في إقامة دولٍ عصرية، يعود بالدرجة الأولى إلى إخفاق تلك التيارات التي أعماها عشقُ السلطة، في تعميق التجربة الديمقراطية القائمة على المساءلة والمحاسبة وتداول السلطة والتنمية، لانشغلها بالصراع على السلطة، وبالسعى لحيازة أكبر قدر منها عبر خنق الحريات وإلغاء التعددية السياسية، وتعزيز أنظمة القمع والفساد والاستخبارات والتسلّط.

سادساً: نجاحُ الثورة الإسلامية في إيران في سنة 1979 بقيادة الإمام الخميني، الذي نجح، وانطلاقاً من فكرة الولاية العامة للفقيه، في إقامة دولةٍ شيورقاطية على أساس المذهب الشيعي، يحكمها الفقهاءُ ويقرر مصيرها في كل صغيرةٍ وكبيرةٍ، رجلُ دينٍ يمتلك صلاحياتٍ مطلقةٍ تجعله قادرًا على فرض وصايةٍ تامةٍ على المجتمع. وقد أعطى قيام هذه الدولة على أنقاض الحكم الملكي الفاسد والمستبد، جرعةً أملًّا لتنظيمات الإسلام السياسي السني، بأن ثمة إمكانيةً لإسقاط الأنظمة العربية الالашرعية والكافرة التي تحكم بغير ما أنزل الله، وإقامة الدولة الشيورقاطية على أساس المذهب السني. ويُذكر أن جماعة «الإخوان المسلمين» كانت من أوائل الذين قدّموا التهنة للإمام الخميني بانتصار الثورة. ولأسبابٍ معروفة، فقد قامت إيران لاحقاً، بإطلاق اسم «خالد الإسلامبولي» قاتل الرئيس المصري أنور السادات، على أحد الشوارع في العاصمة طهران.

سابعاً: اجتياح الاتحاد السوفيتي لأفغانستان في سنة 1979 وما تلاه من تحريض دينيٍّ وتجييش طائفيٍّ من قبل دول عربية وغربية على رأسها الولايات المتحدة الأميركيَّة، بهدف دعوة جميع المسلمين في العالم، للنذود والدفاع عن حياض دولةٍ إسلامية اجتاحتها دولةٌ كافرةٌ وملحدة.

وبفعل الدعم اللامحدود، فقد تدفق الآلاف من الشباب المسلم – وهم الذين سيعرفون لاحقاً باسم «الأفغان العرب» – إلى أفغانستان حيث اكتسبوا مهاراتٍ عسكرية وقتالية هائلة، واختبروا القتال والجهاد على أرض الواقع، وحيث بدأت بالتشكل إيديولوجياً دينية تقوم على مفاهيم الولاء والبراء والجهاد والقتال والتکفير والهدم والتقویض وشطر العالم إلى فسطاطین أو محورین: الحق والباطل، الخير والشر، الإيمان والکفر، الله والطاغوت، الإسلام والجاهلية، دار الحرب ودار السلام؛ إيديولوجياً تدعو إلى قتال العدو القريب، أي الأنظمة العربية، والعدو البعيد، أي الأنظمة الدولية التي تحتل أرض المسلمين وتسرق ثرواتهم وتتدنس مقدساتهم.

ومن رحِّم هذه التجربة الجهادية، خرج تنظيماً «القاعدة» بزعامة الشيخ «أسامه بن لادن» الذي تحول إلى رمزٍ وأيقونةٍ ومدرسةٍ لأجيالٍ لاحقةٍ من الجهاديين، أبرزهم الأردني «أبو مصعب الزرقاوي».

ثامناً: الغزو الأمريكي للعراق في عام 2003 حيث تم، تحت ذرائع كاذبة وأدلة ملفقة، تدمير العراق وحلّ الجيش العراقي الوطني ومحاكمة رئيسه وإعدامه في عيد الأضحى وتسلیم مفاتیح العراق إلى إيران الشيعية التي طیفت الجيش ومدّبت المؤسسات وصادرت القرار السياسي للبلاد. وقد استدعاي هذا الواقع رد فعل عنیف من قبل حركات الإسلام السياسي السني التي اعتبرت أن معركتها ليست فقط مع المحتل الأمريكي الصليبي؛ بل ومع الروافض الذين اضطهدوا سُنة العراق وهجّرُوهُم من مناطقهم وأقصوهُم عن المناصب العالية، وحوّلوا العراق العظيم إلى مجرد محافظةٍ يتولّ إدارتها المرشدُ الروحي الإیراني الذي لا يتردد قادته السياسيون والعسكريون بالمجاھرة والتصريح بأنَّ نظامهم يسعى إلى إحياء مشروع قوميٍ توسيعيٍ ذي صبغةٍ مذهبية، بذریعة تحریر فلسطین ونصرة المستضعفين في الأرض.

ومن الفوضى غير الخالقة التي عمت العراق، تنازلت الجماعاتُ الععنفية السنّية والشيعية، التي مارست العنف التكفيري بمعناه الإقصائي الإلگائي الذي ينبذ حق الاختلاف، ويتهم الآخر في دينه وإيمانه؛ وكرّست شريعة الغاب وسيادة منطق الغريرة والوحشية والتمدّب والتعصّب، إلى أن تم تتوسيع مسیرتها بصعود نجم تنظيم «الدولة الإسلامية في العراق والشام» التي تُعرف اختصاراً باسم «داعش».

تاسعاً: اندلاع الثورات العربية ابتداءً من تونس، مروراً بمصر ولibia واليمن، وانتهاءً بسوريا التي انطلقت شارة الثورة فيها منذ أربع سنواتٍ، وما رافقها من موتٍ وقتل وتهجير واعتقال وإيادة جماعية بالأسلحة الكيميائية والبراميل المتفجّرة، ارتکبها نظام العائلة الحاكم، مدعوماً من دولٍ إقليمية عدّة، وعلى رأسها روسيا وإيران التي اعتربت بقاء النظام مسألة وجودية وقضية حيَا أو موت بالنسبة إليها، وهو ما دفعها إلى تسخير كل إمكاناتها المادية والمعنوية والبشرية والأيديولوجية، لمناصرة نظام مستبدٍ يفتک بشعبه ويرتكب المجازر الوحشية بحقّه. وقد ترافق تدفق الميليشيات المسلّحة الشيعية المدعومة من إيران، وعلى رأسها حزب الله، إلى سوريا، مع تدفق الميليشيات المسلّحة السنّية، المدعومة من دول عدّة، ما أدى لاحقاً إلى تحويل الأرض السورية إلى «ذبحٍ» أو «محرقٍ» أو «مقتلٍ» تبارز فيها كل الوحوش الطائفية والغائزية من الجهاديين والمعطّشين للموت والقتل والانتقام، وجميعهم يدّعي أنه مقاومٌ ومجاهدٌ في سبيل جعل كلمة الله هي العليا، وفي سبيل إقامة مملكة الله على الأرض.

هذه المحطات والأحداث المفصلية التي منها ما يعود إلى العصور الأولى من التاريخ الإسلامي، ومنها ما يتعلّق بتاريخنا المعاصر، تعتبر مسؤولةً عن استشراء العنف السياسي والاجتماعي والاقتصادي والأخلاقي والإعلامي والديني في مجتمعاتنا، وعن إيجاد الأرضية الخصبة لتنامي حركاتٍ وجماعاتٍ تمتلك إيديولوجياً راديكالية لا تعترف بالحدود

والجنسيات الوطنية والحاكمية الشعيبة، تطالب بقتل الغرب الكافر، وبإزالة الأنظمة الفاشلة والفسدة والمفلسة على المستوى التنموي والاجتماعي، والمرتهنة للسياسات الأمريكية والغربية والصهيونية، واستبدالها بدولة إسلامية تحكم بواسطة الشريعة الإسلامية، لا بواسطة القوانين الوضعية، بغية إعادة أسلمة الأمة التي كفرت وارتدى، وإخراج المجتمعات من ظلمات الجاهلية والكفر والردة، وإعادتها إلى أنوار اللحظة التأسيسية الأولى للدين الإسلامي بكل نقاءه وصفائه، قبل أن تلوّثه البدع والمحدثُ والقيم الغربية المادية الوافدة.

وفي مصر وسوريا والجزائر وغيرها من الدول العربية، ظهرت أولى الجماعات الأصولية المتشدّدة (الإخوان المسلمون، تنظيم الجهاد..) التي ركّزت على مفاهيم الذات والهوية والخصوصية، باعتبارها آلية الدفاع الأنفع في مواجهة العولمة وتحديات الحداثة والتغريب التي تهدّد منظومة القيم الإسلامية وثوابت الموروث الثقافي؛ والتي تبنت الجهاد طريقاً للتغيير والإصلاح والاستلاء على السلطة، معتبرةً أن الديموقراطية مُستحٍجٌ كُفريّ، وأنّ الدولة القطرية وليدُ غير شرعي أُنجبه الاستعمار الغربي وفرضه على الأمة. وقد دخلت في صراعاتٍ دموية مع الأنظمة الحاكمة بهدف إسقاطها، تخلّلها قلاقل وتفجيراتٍ وأغتيالاتٍ لشخصياتٍ نافذة.

وعلى مدى أجيالٍ، استغلت هذه الجماعات التي لا يجمعها تنظيم أو إطارٌ مرجعي واحد، والتي تتحالف حيناً وتتصارع حيناً آخر - وبشكل انتقائي - كل الآيات القرآنية والتأنويات والاجتهادات والفتاوي الدينية، لبلورة نظرية سياسية تخاطب عقول الجماهير المحبوطة والمهمشة، وتمكنّها من القبض على السلطة. وكلّ حركةٍ لاحقةٍ كانت تضيف إلى الحركة السابقة رصيداً مُهماً من التشدد والتغصّب ومنسوب العنف المستخدم، إلى أن أفضت رحلة العنف المقدس إلى ولايةٍ طبيعيةٍ لتنظيم «داعش» الذي نجح كغيره من الحركات الشيعية (جيشُ الحشد الشعبي والعشرات

من الميليشيات والفصائل والكتائب التي تورّطت في القتال وسفك الدماء في سوريا والعراق) في استقطاب طلاب الموت والاستشهاد والمُشوّهين نفسياً اجتماعياً وأخلاقياً، والمشحونين بفعل التعبئة والتحريض المذهبي والإيديولوجي، بالحقد والكراهية والغضب، من كل أصقاع الدنيا. وقد بات هذا التنظيم بعد إعلانه قيام «الدولة الإسلامية» يمثل العنف بشكله الأكثر وحشيةً ودمويةً وعنيفةً وتفاخراً بالقتل والذبح والحرق والسب والشنق والرجم أمام عدسات الكاميرات، بعد أن أصبحت وسائل الإعلام بكافة أشكالها وتقنياتها العالية، من أبرز أسلحته الفتاكـة التي يُحسن استخدامها لتوثيق جرائمه وبـث انتهاكاته وعرض اغتيالـه للكـرامـة والـحـيـاة الإنسانية، على الرأـي العام، باعتبارـها وسـيـلـة ترهـيب وتمـكـين وـسيـطـرة وـرـعـب لـكـل مـن يـخـالـفـه في الرأـي والـوـسـيـلـة والـمـشـرـوـعـ.

وقد أثبتت هذا التنظيم بممارساته ونشأته وارتباطاته ومصادر تمويله وتمددـه السريع وـهـوـيـة عـنـاصـرـه وقادـته العـابـرـة للـحدـود وـالـأـوـطـانـ والـجـنـسـيـاتـ، أمرـينـ:

الأمر الأول: هو أنَّ الصراع الذي يخوضه هذا التنظيم وأشباهـهـ، قد تخطـى البـعـد الـاجـتمـاعـيـ والـسـيـاسـيـ والـدـينـيـ المـحـلـيـ، ليـصـبـحـ صـرـاعـاً دـولـياًـ تقـودـهـ وـتـحـكـمـ فـيـ دـولـ إـقـلـيمـيـةـ وـقـوىـ عـظـمىـ تستـفـيدـ منـ بـثـ الفـروـضـيـ والـخـرـابـ فـيـ مـنـطـقـتـاـنـ، لـتـحـقـيقـ مـطـاعـمـهـ وـمـصـالـحـهـ الـحـيـوـيـةـ؛ ولـتـأـمـيـنـ استـمـرـارـ اـبـتزـازـهـ لـلـأـنـظـمـةـ غـيرـ الـمـتـصـالـحـةـ معـ شـعـوبـهـ، وـتـدـخـلـاتـهـ فـيـ شـؤـونـ الدـوـلـ الـعـرـبـيـةـ وـالـإـسـلـامـيـةـ تـحـتـ شـعـارـ «ـمـكـافـحةـ الـإـرـهـابـ»ـ؛ وـلـإـثـابـ صـحـةـ مـقـوـلـةـ «ـصـدـامـ الـحـضـارـاتـ»ـ الـتـيـ تـصـفـ الـحـضـارـةـ الـإـسـلـامـيـةـ بـأـنـهـ حـضـارـةـ دـمـوـيـةـ تـعـادـيـ الـحـدـاثـةـ وـالـدـيمـقـراـطـيـةـ وـحـقـوقـ الـإـنـسـانـ، وـأـنـ الـدـينـ الـإـسـلـامـيـ فـيـ بـنـيـتـهـ وـجـوـهـرـهـ، هـوـ دـيـنـ الـحـربـ وـالـسـيفـ وـالـتـعـصـبـ، وـأـنـ دـيـنـ رـدـيفـ لـلـعـنـفـ وـالـشـرـ وـمـعـادـةـ الـحـدـاثـةـ وـالـعـقـالـيـةـ الـحـدـيـثـةـ.

الأمر الثاني: هو أنّ «فقه القتل» المغربي قد أصبح الفقه الأكثر استقطاباً وجذبًا لكل الضحايا من المحبطين واليائسين والحالمين بالقضاء على الدولة القطرية التي هي رمزُ الفساد واللاعدالة والاستبداد، وبإقامة «الدولة الإسلامية» العادلة التي تنصفهم وتستعيد حقوقهم المفقودة وكرامتهم المتهكمة وأمجادهم الزائلة، وترجع ماضيهم المجيد عبر تدمير حضارة الآخرين وماضيهم وآثارهم التي هي ملك البشرية قاطبةً. وفي نظرة سريعة إلى الدول الإسلامية التي نشأت في عصرنا (المملكة العربية السعودية، جمهورية باكستان الإسلامية، الجمهورية الإسلامية الإيرانية، الدولة الإسلامية في أفغانستان تحت حكم طالبان) تؤكد أن العدالة المنشودة والرفاه الاجتماعي ومراعاة الحقوق والكرامة واحترام الذات الإنسانية، يصعب تحقيقها في ظلّ دولةٍ يتحول فيها «الدين الإسلامي» إلى حزب سياسي حاكم، يصادر الحرّيات وينتهك الكرامة الإنسانية، ويمارس غطرسته وتعسّفه باسم المقدس.

هذا هو الواقع الراهن المأزوم بكل تحدياته، وهذه هي أبرز العوامل التي ولدت العنف السياسي والعنف الديني المضاد. أما كيفية مواجهة جماعات العنف التكفيرية، والحدّ من فعاليتها ومن تمدد مخاطرها وتوسيع رقعة سيطرتها ونفوذها، فهو السؤال الأكثر استعصاءً وتعجيزاً، وكل ما يحصل حولنا في العراق المخطوف وسوريا الذبيحة واليمن غير السعيد ومصر المضطربة وليبيا القابعة على فوهة بركان ولبنان الرهينة، يؤكّد أن مبادئ فلسفة الخراب والتلوّح قد تم ترسيخها بنجاح في مجتمعاتنا؛ وأنّ رحلة العنف التي أفلعت منذ عقود، لن تصل قريباً إلى خواتيمها السعيدة؛ وأنّ أجيالاً قادمة سوف تدفع فواتير باهظة من الدم؛ وأنه من المستحيل أن تبقى تأثيراتها الدموية محصورةً في حدود العالم العربي، دون أن تتخطّاً إلى دولٍ أخرى في العالم. لذلك فإنَّ المطلوب من الجميع: قادةً وحكاماً ورجال دين ومتكلّمين وباحثين وفلاسفة الأمور الآتية:

- المسارعة إلى لجم وتطويق مخاطر وتداعيات انفلات هذه الظواهر العنفية، عبر السعي إلى تجفيف منابع العنف الديني بالقضاء على كل منابتة الثقافية والدينية ومسبّباته الاقتصادية والسوسيولوجية والسياسية، وإرساء قواعد العدالة الاجتماعية والمساواة والحرية والديمقراطية واحترام الكرامة البشرية وحقوق الإنسان، وتفكيك مركبات ثقافة العنف عبر إدانةٍ صريحة لمموجي الخارج والحساين، ولكل ظاهرة تاريخية مشابهة تبنت التكفير والتطرف والعنف قولهً وفعلاً وتفكيرًا وأسلوباً؛ وعبر تنقية الثقافة الإسلامية من الفتوى والتآويلات والاجهادات والمفاهيم ومنظومة القيم المولدة للتعصب والتطرف، والمسوّغة لاستخدام العنف والتّوحش، كي يفقد العنف رصيده الديني والأخلاقي، ويتم إغلاق مصادر التكفير...

- ولأنَّ كل محاولة لتوظيف الديني والمقدّس في المجال السياسي، سوف تؤدي بالضرورة إلى ضرب وتشويه الاثنين وتعطيل وظيفتهما المفترضة في تنظيم حياة الناس المادية والروحية، فإنَّ المخرج من دوامة العنف ومن النفق المظلم الذي دخلت فيه مجتمعاتنا، يكمن في مقاومة ورفض تسييس الدين، أو تدين السياسة، والإصرار على إقامة الدولة المدنية بديلاً من الدول الدينية التي هي مفرخة العنف المقدّس والاستبداد المقدّس، ذلك أنَّ مملكة الله تقوم في الأرض بسيادة العقل والعدل والقانون، وليس بسيادة الخرافية والظلم ومنطق القوة، ولا بتحويل الإيمان إلى أداةٍ تجييشية وتحريضية تتلاعب بمشاعر المستضعفين في الأرض، وتنشر غواية القتل وإغراء التدمير في صفوفهم، وتعيث بمصالحهم عبر إقناعهم أنَّ بطاقة الدخول إلى الجنة والحصول على الحور العين، لا يمكن حيازتها إلّا بقتل النفس والآخرين؛ ولا بتحويل الدين إلى إيديولوجيا نكوصية انكفاء طوباوية تحمل حنيناً مَرْضِيَاً إلى الماضي، الفردوس المفقود، وتستغلُّ الرأسمال الرمزي الهائل للنّص الديني لتحقيق أجنداتها

الخاصة، عبر تكريس مقولات الصراع والصدام وتأيد حالة الحرب والقتال.

- سحب فتيل الاشتباك والخلاف الدامي بين السنة والشيعة (النواصب والروافض)، وإنجاز مكافحةٍ ومصالحةٍ تاريخيةٍ بينهما، تعمق التقارب والأخوة الإيمانية والإنسانية بين أتباعهما، وتوقف نزيف الفتنة وحمام الدم المتدافع بين جنبات الأمة منذ مئات السنين، بفعل التحرير والتوجيه واستثمار خلافات الماضي وعصبياته القبلية.

- ممارسة العقل العربي لفاعليته النقدية في مراجعة مصطلحات التراث ومفاهيمه ومقولاته، والتوقف عن مناشدة الموتى واستنطاق الراحلين واستفتاء السلف الصالح والأئمة والتابعين في حل أزماتنا. أجل نحن أمّة تراثية، ولكن هذا التراث بات عبئاً ثقيلاً وعقبة كأداء تعرقل قيامنا وتقدمنا، بحيث إننا نجد أنه لا صدقية أو مشروعية لأي قولٍ أو رأيٍ أو فعلٍ، إلا انطلاقاً من مشروعية المأثور الديني والفقهي والثقافي؛ ولذلك، لا مجال لنفرض تخلفنا و Yasna إلا انطلاقاً من التعاطي القدسي مع هذا التراث الذي بتنا أسرى سلطنته وسلطوته وطغيانه على عقولنا وأفهامنا وطريقة معالجتنا مازقنا ومشكلاتنا.

وإن لم نفعل ذلك، فإن جدلية المظلومية (التي يحمل لواءها الخطابُ الديني لتبرير استخدامه العنف) والظلامية (التي يطلقها الخطابُ السياسي على فكر الإسلاميين لتبرير محاربتهم)، ستظل السمة الرئيسية التي تميز العلاقة بين الحاكم والمحكوم، الأنظمة والشعوب، ما يعني أن المجتمعات العربية سوف تظل تعيش في حلقةٍ مفرغةٍ من تبادل الأدوار القمعية بين العنف السياسي الذي تنهجه السلطاتُ الحاكمة، والعنف الديني المضاد الذي تقرفه الحركاتُ الإسلامية، بحيث يبدو أنهما يتغذيان من بعضهما، ويعطيان الأعذار كي يمارس كل طرفٍ منهما عنفه واستبداده وجرائمها

انطلاقاً من استراتيجية التوّهش الخاصة به، ويقدّمان المبررات لأعدائنا  
كي يتلاعبوا بنا، ويصفّوا حساباتهم ويحقّقوا مصالحهم على ظهر خلافاتنا  
وتشظيّنا ونزاعنا على السلطة، ما يحوّل مجتمعاتنا إلى بؤرةٍ خصبةٍ لصراع  
أبدي بين السياسي والديني، الإنسان العربي فيه، هو كبس الفداء وضحيته  
الدائمة.

اللهم إن لم تُهلك هذه العصابة من مدّعي الإسلام، التي تهدم وتدمّر  
وتجلد وترجم وتُحرق وتذبح وتقتل باسمك، فلن تُعبد في الأرض أبداً!



# **الجماعات التكفيرية**

## **الجذور، التحالفات، أساليب التجنيد، وسبل المواجهة**

الدكتور ياسر الشاذلي<sup>(1)</sup>

### **مقدمة**

إن موضوع ومحور القضية المثارة هنا، هو الركن الركين لتشخيص حالة التردي والشرذم والتقاول، التي تجتاح المنطقة كلها طولها وعرضها، ولا تستثنى أحداً، وتستهدف الجميع، وتعمل على هدم ما هو قائم كله، لإنشاء الدولة التي يطمح منظرو ومشغلو الحركات التكفيرية، ومن يتعاون معها، إلى الوصول إليها، هذه الحركات التي تستهدف كل مخالف، تزعزع عنده عصمة روحه وماله وعرضه، وتسلبه إياها، وتمارس سياسة الأرض المحروقة، وتسببي النساء وتسلب وتنهب وتدمير وتحرق، ولا تلوي على شيء، وتتخذ من الدين شعاراً وتتستر خلفه سترًا، وترفع راية رسول الله محمد (ص)، وهو ودينه براء من كل ما أتوه ويأتونه صباح مساء.

إن المتأمل لحالة هذا الفكر وصعوده وتمدده في المنطقة، واستطاعته أن يجذب الآلاف من الشباب والرجال والنساء والصبية، وأن يقضم

---

(1) الرئيس العام لهيئة إيلاف آل البيت العالمية، المحامي الجنائي الدولي، الرئيس التنفيذي لهيئة حقوقيون ومحامون مقاومون، من مصر.

من أراضي الدول العربية وغير العربية، مساحات يمارس فيها نشاطه وعملياته، يتخذ من بعضها قواعد خلفية لغرف عمليات أمنه يدير منها أعماله ويوجهها، بمعية قوى كبرى غربية وصهيونية مستفيدة مما يحدث، ويتخذ من غيرها مسرحاً لأعماله ولتجنيد مقاتلين جدد للانضمام إليه حيث يكون أجهزة بحروبه، أو مجندًا لهم ليقروا في دولهم كخلايا نائمة مستعدة ومجهزة وبعيدة عن أعين أجهزة الأمن، ترقب اللحظات التي ياتح لها فيها، و يؤذن لها فتعمل بعمل التنظيمات التكفيرية في بلدانها التي يرقد الوحوش التكفيري فيها تحت الرماد الساخن والحي بتنظيمات واستراتيجيات عدوانية متواحشة، آلت على نفسها أن تستلهم من كل فكر استخدم الإجرام والذبح والتنكيل عبر العصور الماضية، فأنتجت منه مسخاً كبيراً مشوهاً، تغلب على كل فطائع التاريخ، وأبعش مجازره، ليتسع أخطر حالة تواجه البشرية في العصر الحديث، تهدد المنطقة خصوصاً في المرحلة الآنية والعالم عموماً لاحقاً كما تعلن وتشي أبيات تلك التنظيمات صراحة.

إن التعرض لهذه الحالة يجب أن يكون وفقاً للمنهج متسلسلاً بحسب ترتيب الموضوعات التي يبحثها المؤتمر، مقطعاً تخصصياً لكي يسهل تشخيصها أولاً، وتوصيف وتحديد معالمها، وأسباب صعودها وانتشارها، وكذا التعرض لخطابها التاريخي والمعاصر ونظرته إلى الآخر، ثم للعوامل الإقليمية التي تذكر نيرانها، وتقاطع المصالح بين تلك الجماعات والقوى الإقليمية والدولية، ومعالم الدعم المتبادل، ثم لأساليب التعبئة والتجييش والتجنيد التي تتخذها تلك التنظيمات، وبيان لانحراف الشباب فيها مع التركيز على الدول الكبيرة في تعداد السكان وخصوصاً مصر، مع إلقاء الضوء على الخطاب الإعلامي ووسائل التواصل الاجتماعي لتلك الجماعات، ومن ثم وضع الحلول والتصورات لمواجهتها، عقدياً وفكرياً وسياسياً واجتماعياً وإعلامياً واقتصادياً وقانونياً أيضاً، وعلى كل مستوى ممكن ثم نظرة القانون الدولي إلى تلك الحالة الإنسانية الشاذة، ومواجهتها

والحد من آثارها عبر التقاضي الدولي في مواجهة من أفسوها وغذوها وأطلقوا على المخالفين بالمنطقة.

سيكون العرض مقسماً لمحاور خمسة هي:

**المحور الأول: الحالة التكفيرية خوارج العصر نظره تاريخية وعودة معاصرة.**

**المحور الثاني: الخوارج المعاصرون وعوامل إقليمية محفزة، وتحالفهم ودول إقليمية وغربية.**

**المحور الثالث: أسباب وأساليب تجنيد الشباب في التنظيمات نظرة خاصة إلى مصر.**

**المحور الرابع: سبل مواجهة هذا الفكر وتفكيكه وإحلال وإظهار البديل النموذجي فكرياً وعقدياً وسياسياً، واجتماعياً وإعلامياً واقتصادياً وقانونياً.**

**المحور الخامس: التقاضي الدولي لمواجهة داعمي الخوارج الجدد.**

**المحور الأول: الحالة التكفيرية خوارج العصر نظره تاريخية وعودة معاصرة**

يستمد هذا الفكر المنحرف معينه تاريخياً من تطبيق وتأويل خاطئ لفهم النصوص المقدسة التي وردت بأصول ومصادر التشريع الإسلامي منذ صدر الإسلام، والتمثلة في الكتاب والسنة النبوية المطهرة؛ إذ نزل هذا الدين في مجتمع بدوي جاهلي مت Hwyجّر، ومن أسباب إعجازه أنه نزل فيهم وبلغتهم، على أشرف من فيهم ليعلمهم، ويوجه بأسمهم وشدة طباعهم، وجلافة فكرهم، نحو الذين مع الإخوان في الدين، وبقاء البأس مع المشركين الذين عذّبوا المسلمين الأوائل وساموهم أسوأ العذاب حتى هاجروا الهجرتين إلى الحبشة، ثم إلى يثرب المدينة المنورة.

وشاء الله تعالى أن يستضيء بنور الإسلام كثيرون ممن عاصروا الرسول و كانوا من صحابته الكرام، فأرسى في حياته نظاماً إسلامياً عادلاً شرعه الله تعالى بين يديه، وأطلقه على لسانه، وهذب وشرحه بتبيانه وفضحاته وبلاعنة لسانه، وكمّله بزهد نبيه في متاع الدنيا وملكتها وزخرفها، فشاع في الخلق القريب والبعيد خبر الدين، والنبي المعصوم من الزلل، صاحب الخلق العظيم الذي كان قرآنًا يمشي على الأرض كما وصفه الله تعالى، وورد في أقوال الأولين وصف لهذا النبي الخاتم (ص)، وكان نتاج هذا الدين في عهد النبوة، أبلغ الأثر وعظمي الفتוחات؛ إذ كان الدين الأول الذي يقيم نبيه دولته بعد ميلاد المسيح ولم يسبقه إلى ذلك إلا ملوكبني إسرائيل الكبار، داود وسليمان، فقد كان مبشرًا ونذيرًا، وكان قاضيًا وحاكمًا عدل يقسّم بالسوية، ويعدّل بين الرعية، ويتصرّل للمظلوم، ويعطي لكل ذي حق حقه.

أيقن كل ذي لب، عاصر تلك الحالة النبوية الفريدة، أن هذا الدين في التطبيق مشروع نموذجي لدولة كبيرة وعظيمة، تستطيع أن تفتح الآفاق، وكان أن دخل في الدين من كان ملكاً أو رئيساً أو شيخاً قبل الإسلام، ومن ظلّ معانداً محارباً لله ورسوله، قهره الله بفتح مكة وانتصار الرسول والمسلمين، وما كان من الرسول إلا أن أطلق هؤلاء الزعماء وأعتقهم وفك رقبابهم من الأغلال، التي كان ليضعها غيره عليهم، لو قدر عليهم وانتصر مثلما انتصر رسول الله (ص)، وقد قال فيهم مقولته الشهيرة، اذهبوا فأنتم الطلاقاء.

ومع انتقال هذا النبي العظيم إلى الرفيق الأعلى، وشيوخ حالة من التنازع في الحكم بدت في سقيفة بني ساعدة بعد وفاة الرسول وقبل دفنه، والتي انتهت إلى ما انتهت إليه، وفي عهد الخليفة الثالث عثمان بن عفان، كثرت الفتنة، وتركت السلطات في أيدي رجال أظهرت نفوسهم حبّاً للرياسة والدنيا، فكانت حادثة مقتل الخليفة عثمان بن عفان، والتي كانت

مع ما أحاطها من ملابسات سبقتها وصاحتها ولحقتها وتبعتها هي أكبر معول فرق في الدين حتى يومنا هذا، وأنتج الخلاف في الرأي، وتکفير الحاکم واستحلال دماءه، والخروج عليه، وكان هذا رأي سواد العوام، وعلو صراخهم، وقد استغل بعض حالة اندفاع أولئك العوام؛ ليهدوا لهم سلطانهم من حيث يعلمون أولاً يعلمون، فخرج بنو أمية وترعهم معاوية بن أبي سفيان، مطالبًا بثأر الخليفة عثمان، والقصاص من من نسب إليهم قتلهم، رافضاً بيعة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، الإمام المستحق للبيعة والمبايع من عامة الصحابة الحاضرين بالمدينة المنورة، مطالبًا إيهامه بإقامة الحد على من نسب إليهم قتل الخليفة عثمان بن عفان، متاحلاً ولاية دمه، وكان ولی دمه القريب غير مطالب بما طالب به معاوية بن أبي سفيان، الذي طفق يعرض قميص عثمان ملطخاً بالدماء، وهو خطيب على المنابر يخطب في الناس بالشام، ومحرض على عدم بيعة الإمام علي بن أبي طالب سابقًا له لاعنًا، مطالبًا بالقصاص من قتل عثمان ومن يمنع عنهم القصاص، وكان يقصد بذلك الإمام علي بن أبي طالب (ع).

والمتأمل في حالة معاوية بن أبي سفيان، وبني أمية أثناء حكم الخليفة عثمان بن عفان، وسيطربهم على مفاصل الدولة الإسلامية، وتعديهم على أعلام من الصحابة، وحملهم الخليفة عثمان بن عفان على الغلظة على بعض صحابة رسول الله (ص)، والمظالم التي صاحت به ذلك تجاه الرعية، التي زحفت من بلاد عدة متراوحة الأطراف حتى وصلت إلى المدينة المنورة، وحاصرت منزل الخليفة عثمان بن عفان وتسورت سوره، وقتلته من قتله بسبب تلك المظالم، وبسبب توليته لمفاصل هامة في الدولة الفتية، لرجال من بني أمية أفسدوا فيها كما نسبوا إليهم وقتها، وعدم قيامه بعزل أي منهم على الرغم من وعوده المتكررة بذلك.

إن تلك الحالة بالذات أنتجت للمرة الأولى من بعد عصر النبوة حالة سخط وشعور بالمظالم وهياج وهرج لدى العوام، وعصيان لدى الرعية،

وعدم استقرار للحكم، وكثرة الآراء، ومن هذه اللحظة الفارقة، التي قُتلت فيها أول خليفة بعد رسول الله (ص) على أثر هياج وسخط كبير من عوام بالرعية ومن بلاد مختلفة، وضعت بذور تكفير الحاكم ومن يتباهي، وأيّاً كانت الأسباب، التي صاحبت تلك الحالة، فقد كان حدثاً جللاً، أصاب الأمة الإسلامية في مقتله، وأورثها وهنَا كبيراً، لم تزل تعاني منه حتى الآن، متفاقماً متضاعداً يستمد قوته من تلك الحادثة، ومما تلاها وترتب مباشرة عليها مما سيأتي ذكره وهو معروف للجميع.

وعندما بُويع الإمام علي بن أبي طالب، وخرج عليه معاوية ومن معه، ونكثوا في بيعته، ووقعت معركة الجمل وكان على رأسها أم المؤمنين عائشة زوج رسول الله (ص)، وطلحة والزبير، ادلهمت الأمور واستعصى على العوام فهمها، فهؤلاء كبارهم ومراجع دينهم، ولم يزل رسول الله عهده بهم قريب، فقاتل من قاتل، وقتل من قتل، وهزم الإمام الناكثين لبيعته، وتبع طلحة والزبير من قتلهمما بعدهما ولّوا من المعركة، وعادت أم المؤمنين برفة أخيها محمد بن أبي بكر إلى المدينة سالمـة، ونـحر الجمل، واندحرت الفتنة ولكن إلى حين.

مرة أخرى يجد معاوية بن أبي سفيان فيما حـدث سـبيلـاً يستخدمـه في مواجهـة أبيـ الحـسنـ عليـ بنـ أبيـ طـالـبـ، طـلبـاً لـلـحـكمـ والـرـيـاسـةـ والـسـؤـددـ الذيـ كانـ فيـ بـيـتـ أبيـ سـفـيانـ بنـ حـرـبـ قبلـ الـبـعـثـةـ النـبـوـيـةـ فيـ مـكـةـ، وـقـدـ وـجـدـ نـفـسـهـ أـحـقـ مـنـ أـمـيرـ المـؤـمـنـينـ عـلـيـ بنـ أـبـيـ طـالـبـ بـالـحـكـمـ، وـاجـتمـعـ معـ عـمـرـوـ بـنـ عـاصـصـ علىـ قـتـالـ إـلـمـامـ الـمـبـاـيـعـ مـنـ قـبـلـ الـمـسـلـمـينـ، وـكـانـ صـفـينـ، وـكـانـ عـصـيـانـ وـالـتـمـرـدـ وـالـفـكـرـ الـمـخـالـفـ وـالـمـنـحـرـ، وـالـفـهـمـ السـطـحـيـ لـلـنـصـوصـ قـدـ سـرـىـ بـيـنـ عـوـامـ الـأـمـةـ، الـذـيـنـ لـمـ يـعـودـواـ يـنـصـتوـنـ لـأـيـ منـ كـبـارـ رـجـالـ الدـيـنـ فـسـهـلـ التـمـرـدـ، وـاستـشـرـىـ عـصـيـانـ، وـاخـتـلـطـتـ الـأـفـهـامـ وـلـمـ تـزـلـ كـذـلـكـ، حـتـىـ خـرـجـ جـيـشـ مـعـاوـيـةـ الـمـهـزـوـمـ بـنـاءـ عـلـىـ مـشـوـرـةـ عـمـرـوـ بـنـ عـاصـصـ بـرـاـيـةـ التـحـكـيمـ لـكـتـابـ اللـهـ تـعـالـىـ، كـلـمـةـ الـحـقـ الـتـيـ يـرـادـ بـهـ باـطـلـ،

وهنا خرج من جيش الإمام على نفسه مجموعة القرائين وهم خوارج ذلك العصر، الذين أخذوا بظاهر النص وأحاطوا الإمام من كل جانب وهددوا بقتله، ما لم ينزل على رغبة جيش معاوية المهزوم، فاستدعي الإمام علي، مالك بن الأشتر، وكان ما كان من عمرو ومن المحكم الذي ارتضاه الإمام علي بن أبي طالب، وخديعة عمرو له، فأبطل الإمام التحكيم، وأبى إلا أن يقاتل جيشه جيش معاوية وعمرو بن العاص، حتى إذا عاد إلى العراق ومعه جيش جرار، قاتل أولاً في النهروان هؤلاء الخوارج حتى أفنائهم إلا عدداً قليلاً منهم، وجهز جيشه من بعد ذلك لملاقاة جيش الشام بقيادة معاوية، وكان الفكر الخوارجي يعمل في الأمة، فظفر به عبد الرحمن بن ملجم وقتل أمير المؤمنين علي بن أبي طالب في محراب مسجد الكوفة، وهو قائم يصلي صلاة الصبح، مستندًا إلى فتوى أطلقها وأشاعها القراؤون الخوارج، واستخدمها من أرادوا لها أن تسرى في الأمة هدماً لكل قامة تبقت من عهد رسول الله (ص)، بتکفير المخالف ولو كانت قامة علي بن أبي طالب وعمله وسبق جهاده، ووصية رسول الله به، وكان ذلك إيدان بميلاد واستمرار تلك الحالة على مر العصور الإسلامية التي لبست حلالاً عدّة، والتحفت برأيات مختلفة، ووُجِد فيها السلطان الطامح للحكم سبيلاً وأداة يستخدمها لتخويف خصومه وقتلهم، أو إفزاع الرعية، وإخضاعها لحكمه، مروراً بدول إسلامية نشأت واندثرت على مر العصور السابقة، وكان التزواج والتلاقي بين الفكر الخوارجي التكفيري، والسلطان الطامع في التمدد، وإقصاء الآخر، دائمًا قائماً، وحاضرًا، فضلًا عن التصادم بينهما والتطاحن، في مراحل وأوقات مختلفة، عندما يجد أصحاب هذا الفكر الخوارجي أنفسهم في موقع قوة، فيطمحون إلى السلطة، ونزع السلطان من الحاكم فيغير عليهم ويضر بهم وينكل بهم بكل ما أوتي من قوة، فيردهم إلى حجم يقيهم أحياء، ولا يقضى عليهم، ولا يمكن لأي قوة عسكرية أن تقضي عليهم، وإنما تكتف شرهم عن نفسها بدرجة ما، تمكّن كلاهما من العيش معًا.

يستمد ذلك الفكر قوته وعوامل بقائه من جهل أصحابه بأصول تأويل النصوص المقدسة، وينتشر تحت عناوين القدسية وحماية الدين، وتحميته وتضييه ظلال السيف وسفك الدماء، والعنصرية والجاهلية البغيضة، الذي يسبقها نزع عصمة الروح والدم والمال والعرض من قبل هؤلاء لكل مخالف وأي مخالف، وإن التكفير في منهجمهم سمة أساسية، وعلامة فارقة، تطال حتى المتفقين معهم في منهجمهم إن خالفوهم في آراء سياسية، أو موقف دنيوية بحتة، أو دينية سطحية.

إن ذلك الفكر الذي تلبسته تنظيمات دموية شرسة، تديرها عقول شبعت، ونفوس أتحمت، من توجيه مخابراتي غربي وصهيوني وإقليمي من دول إقليمية أنشئت ومؤلت وغذت هذا الفكر، حتى شكلت مسخاً خطيراً متعدد الأجنحة، وجد الشاذون فكريًا ومنهجياً فيه ضالتهم المنشودة، ومن كل أصقاع الأرض؛ إذ وجد فيه بعض المسلمين على رقاب ومقدرات الأمة من حكام أصحاب عروش رجعية، سبيلاً وسبباً لتجميع سلطانهم بتوجيه ذلك الفكر صوب مخالفاتهم؛ ليخضعوهم ويسلباً حقوقهم، ووجد الفكر الخوارجي الحديث في فقه مذهب الحنابلة مكاناً عريضاً لينطلق؛ إذ كفر إمام المذهب أتباع المذهب الجعفري وكل مذهب مخالف لما يراه، ونسج على منواله من اتباعه على مذهبه من أمثال ابن تيمية، ومن قبله ابن القاسم، ثم لاحقاً محمد بن عبد الوهاب الذي تحالف مع مؤسسي الدولة السعودية الأولى، فأصبح لهذا الفكر دولة ترعاه وتمويله وتحكم بموجبه، ولا غرابة إذا وجدنا أكثر من يفجرون أنفسهم في الآمنين من مواطني السعودية؛ إذ إن فقه الدولة الرسمي يكفر صراحة أتباع باقي المذاهب الإسلامية غير الوهابية، ومنها ما يقرب من نصف عدد سكان السعودية نفسها من مواطنها الإمامية والزيدية والإسماعيلية والصوفية أيضاً، وغيرهم من أجانب يحملون معتقدات الأشاعرة ومارتريدية وغيرها من المذاهب

الإسلامية التي أقر مشايخ الأزهر التاريخيين، ومجامع الفقه الإسلامي  
صحة العبودية عليها.

إن هذا الفكر موجود ومتواصل بين فئة معينة وقديمة من أبناء الأمة الإسلامية، احتكرت تأويل النصوص المقدسة وتفسيرها بحسب تراث مناسباً، وخرجت على الإمام العادل علي بن أبي طالب، من بعد رسول الله (ص) وأصلت لمنهج تكفير المخالف ولو كان ولائياً للأمر، وبغير بيضة وعلم أو فقيه يعتبر يرجع إليه، واستمرت هذه الحالة بملامحها تلك، وانضمت إليها دول مؤئلتها وغذتها وأشجتها، لستولى على ما تطاله يدها، وتوطد أركان حكمها ومملكتها، كالمملكة العربية السعودية في العصر الحديث وال الحالي ومن يدور في فلكها، ورأت في تصدير الفكر التكفيري والمقاتلين المعبيين به إلى بلدان أخرى، تخفيقاً لغلواه خطورتهم على حكم الأسرة السعودية في الداخل، وبساطاً للتفوز المنعوي على شعوب المنطقة، وإهاراً لكل فرص التقدم والازدهار لشعوب مجاورة، كي لا يتأثر الشعب الدولة السعودية، بأي تحضر وحرابات في أنظمة الحكم، التي قد تنشأ نتيجة للاستقرار بتلك الدول، فيصبح نموذجاً مهدداً لعرش آل سعود، فشاعت الفوضى في كل المنطقة نتيجة لسيطرة فكر متحجر مثله، وعكسه كبار السياسيين السعوديين في الخارجية، وفيأجهزة المخابرات، وشهدت المنطقة أبشع جرائم الكراهية، التي تبث صباح مساء عبر الإعلام الموجه، ونشأت تنظيمات دموية شرسة، كطور من أطوار القاعدة، التي أصبحت موديلاً قديماً، وحل محلها داعش ذلك الوحش الراهن، والمسلح الكبير الذي حول فكر القاعدة التنظيري، والتنظيمي إلى فكر تنفيذي تكتيكي واستراتيجي، واستبدل نظرية قتال البعيد، بنظرية قتال القريب، ووضع خططاً نهائية لاستهداف مصادر الثروة؛ ليتمكن من الإنفاق ذاتياً، وباستقلال عن دول وكيانات وأحلاف أنشأته، فاستولى على أراضٍ تحوي منابع ومصافي النفط، وعلى بنوك ومصارف، واستهدف مصادر القوة، بالاستيلاء

على مخازن الأسلحة الثقيلة، وانشقاق الجيوش وانضمام المنشقين إليه، كما استهدف الرجال من خلال تجنيدهم أو ذبحهم، والنساء لسبعين وهتك أعراضهن، وما يترتب عن ذلك من مواليد لقطاع يردون قواته، التي يخطط لها أن تقيم دولة الخلافة في مفهومه.

ولذلك فإن عودة الخوارج المعاصرة، هي عودة حقيقة قوية، ذات استراتيجية، نجحت في تنفيذ الكثير منها، وأقامت لنفسها وجوداً، وقضت على التنظير بلا تنفيذ منهجه، وانتقلت من مرحلة الاستضعفاف إلى الاستقواء، والتغلب وبث الرعب في نفوس المستهدفين، وأقامت مشروعًا يدعمه كثر بالمنطقة، ويتجدد الغربيون وخصوصاً الأميركان مفيداً لتشويه الإسلام، وشرذمة المنطقة وفتنيتها لصالح إسرائيل قوية ذات محيط ضعيف، مكون من إمارات متاخرة ودول فاشلة، وتخفيض سعر النفط الذي وضعت داعش يدها عليه ووجدت من يشتريه منها، فضلاً عن فرص ثمينة من عقود مليارية لبيع السلاح من مصانع الغرب، الذي يقوم اقتصاده وخصوصاً الأميركي على مصانع بيع السلاح، وهو أكبر اقتصاد نٍّ لهم وشره للبتروال التي تعم المنطقة فوق محيطاته منه.

إن الولايات المتحدة الأمريكية وحلفاءها يريدون أن يضمنوا دواماً أن البترول في متناول يدهم بسعر معقول لا يضر في اقتصادياتهم، وقد أثبتت الأيام أن تقاطع المصالح بين تلك التنظيمات والأنظمة الإقليمية والدول الغربية قائم و موجود ولو تحاربوا في ما بينهم بشكل ما، فإن تلك الحرب هي تحريك للقوات وتحديد للخطوط الحمر ليس أكثر من ذلك، والغرب وأميركا والتحالف الوهابي السعودية والإمارات وقطر والبحرين والأردن ومعهم تركيا ليسوا راغبين في إنهاء حالة داعش والنصرة وما يشبههما من تنظيمات، ولو أرادوا ما استطاعوا؛ لأن تلك التنظيمات التكفيرية لديها من البنية والوجود الفكري والتنظيمي داخل تلك البلدان، القادرة بموجبه أن تنهي عروشاً وحكم سلاطين وملوك وأمراء ورؤساء تلك الدول بلا أدنى

مبالغة، وهو ما سيحدث بشكل أو باخر عندما تجد تلك التنظيمات، أنها استنفذت مطالبها من تلك العروش، وأنها أحق منها بالحكم، وهي تكفر هؤلاء الملوك على أي حال، وقد صار منظرو ذلك الفكر متقدمين كثيراً في التكفير عن مشايخ الفتاوى الرسمية التي تنطق باسم تلك الأنظمة، فيرونهم جميعاً على ضلال، ولم يعد من وجودهم طائل، وإنما هي مسألة وقت قبل أن تعلن تلك التنظيمات الحرب الشاملة على تلك الأنظمة الرجعية الفاشية بالمنطقة، وعندها سيكون الذي حدث ويحدث بالعراق وسوريا ولibia وغيرها مجرد لعب، لا يقارن بما سيحدث في تلك البلدان، وما سيطال الآمنين من شعوبها بسبب ما جناه حكامهم، وما قدموه من سوء صنيع حتماً سيطال عروشهم، وبكل أسف شعوبهم أيضاً.

## المحور الثاني: الخوارج المعاصرون وعوامل إقليمية محفزة وتحالفهم مع قوى إقليمية وغربية

لا شك في أن تمدد حالة الخوارج في المنطقة في السنوات الأخيرة، وفي أعقاب أحداث سبتمبر 2001، وصولاً بالاحتلال الأميركي لأفغانستان والعراق، ثم انسحابهم من العراق، أو جد انتشاراً وشعوراً فائضاً بالقوة والقدرة على الوصول لدى كثيرين ممن يؤيدون هذا الفكر، وبالوقت نفسه أيضاً وجدت فكرة الانتقام من أميركا وإيلامها في عمق قلبها، ولو بوخزة شوكة مسمومة وقوية، تنفياً عن الغضب والحنق والإحباط البالغ، لدى طبقات عريضة من المجتمعات العربية والإسلامية جراء المساندة المزدوجة وغير المحدودة من نظام الولايات المتحدة الأميركية للكيان الصهيوني، وتغطيته على عدوانه المستمر على الأقصى والشعب الفلسطيني، وأيضاً تأييده ودعمه غير المحدود لحكام وأنظمة طاغوتية تحكمهم، وتنهب خيراتهم، وتعمق حرياتهم بكل أشكالها، مما أنتج طوراً جديداً من الفكر التنظيمي التكفيري حمس وشّجع شيئاً كثيرين على الالتحاق به، تحت وهج سقوط البرجين، ونقل شاشات التلفزة لصور

العرب وأغلبهم سعوديون كمنفذين لهذه العمليات، التي لا يمكن تصورها عقلاً ولا منطقاً أنها جرت بلا تنسيق وقيادة وسيطرة ولو جيستيات أرضية وجوية ورادارية لتوجيه تلك الطائرات نحو وجهتها.

وبغض النظر عن نظرية المؤامرة التي شاعت حول الموضوع، ومدى مصداقية قيام تنظيم القاعدة بتنفيذها، فإن التنظيم وزعيمه في ذلك التوقيت قد أعلنوا صراحة تبني عملية الهجوم على برجي مركز التجارة العالمي بنيويورك، وقد ترتب على ذلك ما ترتب من دخول أميركا إلى المنطقة مرة أخرى، بعدما خرجت بقواعدها تقريراً منها في أعقاب تفجيرات الخبر في التسعينات تحت وطأة ضربات هذا التنظيم أيضاً، أي تنظيم القاعدة، واستطاعت ببراعة أن تضع يدها على أكبر بركة نفط بالعالم، وهي الاحتياطي النفطي العراقي عبر عملية معقدة من التعاقدات وعقود الخصخصة والمشاركة في الإنتاج بين الشركة الوطنية العراقية، وبين الشركات الأجنبية، التي بالطبع ليس مصادفة أنها أميركية.

واتخذ التنظيم طوراً دموياً كبيراً، وفتح صفحة سوداء ملطخة بالدماء الطائفية عندما دعا أبو مصعب الزرقاوي - ربيب أسامة بن لادن - إلى قتال وقتل المخالفين في العقيدة والفهم الوهابي الذي كان يعتقد، وجاوز شيخه في آرائه التي كانت لا تكفر الشيعة ولا تدعوا إلى قتالهم، وكانت نظريته تتوجه نحو قتال البعيد، وبدأ التحول في فكر التنظيمات التكفيرية نحو قتال القريب المخالف مع مرحلة الزرقاوي في العراق، وتحت عنوان قتال الأميركان ومن يعاونهم، استهدف الزرقاوي الأميركيان والسنة من أبناء الصحوات والشيعة أيضاً، ورأينا أهواه التفجيرات وبحار الدماء المسكونبة، والأرواح المزهقة عبر التفجيرات اليومية والتي نراها ممتدة حتى الآن، حتى بعد مقتل أبي مصعب الزرقاوي.

وكنتاج مباشر لمنهجه الذي يطابق فكر الخوارج نسجت داعش

نسجها، وبدأت مقدماتها في الظهور، واتضحت معالمها شيئاً فشيئاً، ولم يستطع أيمن الطواهري أن يملاً فراغاً تركه زعيم القاعدة المؤسس، فأصبح في العراق تنظيمات مارست القتل وسفك الدماء باسم الدين، إلى درجة أن أيمن الطواهري أصبح مجرد منظر من الدرجة الثالثة، لا يلبي طموحات تلك التنظيمات، ورأى دول إقليمية بعد مواجهة حزب الله والكيان الصهيوني الإسرائيلي الغاصب، فضلاً عن أميركا وحلفائها وإسرائيل نفسها، أن حزب الله لم يهزّم أبداً في مواجهة إسرائيل، وأن قوته تعاظمت، وشقته وسيطرته تأكّدت، ولم يعد من الممكن المخاطرة بمواجهة إسرائيل له وحدها وإنما ستكون نهايتها فيها، وفي الوقت التي وقفت الأنظمة العربية الرجعية ضد حزب الله وأسمته مغامراً، وكانت تدعو إسرائيل إلى عدم إيقاف الحرب حتى القضاء على حزب الله، وجدت تلك العروش المهرّة نفسها أمام قيادة فذة فتية تقول لهم، نحن مغامرون، لا نريد منكم دعمماً، وعلى مدى 33 يوماً من القصف والتدمير والقتل المتلتفز، صرخت إسرائيل ومعها أميركا وقادّة إقليميون بوجوب وقف القتال، الذي توقف لإنقاذ إسرائيل من براثن حزب الله، الذي فتك بقواتها ودباباتها وأسقط طائرات مروحية لها، وأفشل إنزالات جوية قامت بها، فلم يعد بالإمكان فعل شيء، في مواجهة حزب الله إلا وقف الحرب، فكل يوم تجرح فيه إسرائيل، ليس في مصلحة بقائهما ككيان يقوم على سمعة وقوة الجيش الصهيوني، الذي مرّ حزب الله أنفه في التراب.

وقفت سوريا وإيران وحدهما بصدق وبعض الدول العظمى أيضاً، مع حزب الله في مواجهة العدوان، وكانت قطر وتركيا تقومان بدور ظاهره المساندة لحزب الله، وباطنه بدت حقيقته فيما بعد، وبدأ واضحاً الآن بكل تأكيد، وجدت القوى العربية الرجعية ومن تحالف معها في سوريا، سبباً لقوة ومنعة حزب الله، وتأمين خطوط الإمداد الاستراتيجي بينه وبين الجمهورية الإيرانية، فضلاً عن كونها عمّاً استراتيجياً عسكرياً وسياسياً

واقتصادياً واجتماعياً أيضاً، يحتضن جمهور المقاومة الذي هُجّر إلى سوريا ومناطق لبنان تحت وطأة القصف العشوائي، والتدمير الممنهج من قبل العدو الصهيوني، ووجدت بعقلية البداوة وفقر العقول، في شخصية الرسول بشار الأسد، عدواً ونداً وخصماً لمجرد أنه تلفظ على منابر سورية إعلامية وبمجلس الشعب السوري، أفالاً اعتبرها الملك السعودي الراحل عبد الله بن عبد العزيز إهانة له.

ساعات العلاقات بين السين سين إلى الأبد، وتحول الحليفان وبأمر عمليات أميركي صهيوني أيضاً، وهابي من أجنحة حكم داخل النظام السعودي، مرتبطة ارتباطاً لا يقبل التجزئة بهذا الحلف، تحول النظام والشعب والرئيس السوري على رأس كل هؤلاء إلى هدف يرميه الجميع ويبيغي ويطلب رأسه كل هؤلاء، والسبب الحقيقي كان هو عقابه وعقاب حزب الله، وتقليم أظافر الحزب إلى الأبد وختقه وتطويقه، وحصاره في النطاق الضيق لجغرافيا لبنان ومناكفاته الداخلية، وبالتالي قطع الطريق على الأمين العام لحزب الله السيد حسن نصر الله من صنع انتصارات وإلقاء خطابات قربنة بتلك الانتصارات، تلهب مشاعر عوام العرب والمسلمين، ولو كانوا مختلفين عنه في المذهب، فقد رأوا فيه خصماً يخشون كلماته وبلغته قبل صواريخته، فكان أن فتحت أبواب الجحيم من كل حدب وصوب في مواجهة سوريا لهذا الغرض، فصدرت الفتاوى وجّشت الجيوش، وجّهـ المقاتلون، وأرسلت الأسلحة، وفتحت الحدود، واشتركت مجموعة دول في هذه العملية الإجرامية الكبيرة التي فتحت على سوريا ومعها العراق أوسع عملية دموية شهدتها التاريخ حتى الآن، والنتيجة هي، صمود النظام السوري ورئيسه وحزب الله وقادته وحلفائهم من إيران إلى روسيا إلى الصين وغيرهم في مواجهة حرب عالمية كونية شرسة تدور رحاها بأدوات من لصوص، وسلاميين وشذاذ آفاق من كل بقاع الأرض أتوا إلى سوريا ليروا عطشهم للدماء، هذا ما حفـ الحركات التكفيرية من

عوامل إقليمية استخدمتها لتصل إلى هدفها، ونخب مساعها ولم يتحقق ما أرادته، صحيح أنه شرّد كثير من الشعب السوري، ودمرت مقدرات الدولة السورية، وكذلك استولى التنظيم المسمى داعش على مساحات كبيرة من أراضي الدولتين السورية والعراقية، ولكن لم يتحقق هدف المعركة أبداً، فلم يسقط الجيش السوري ولم يسقط النظام كذلك، ولم ينقطع خط الإمداد الاستراتيجي بين حزب الله وإيران، ولم تنتهِ انتصارات الأمين العام لحزب الله؛ بل انفتحت أمام قواته آفاق جغرافية جديدة وواسعة، خارج الحيز الجغرافي اللبناني الضيق، وأصبح له رؤية كبيرة وواسعة تضخ إلى الداخل اللبناني في أوصال حزب الله قوة ومنعة ورصيداً من انتصارات في مواجهة المد التكفيري، الذي كان السيد حسن نصر الله أول من قرأ ملامحه وحذر منه، وراقبه ودرس حالته واستعدّ له وعلم أنه مستهدف وحزبه منه، فخرج إلى قتاله دفاعاً عن نفسه وعن قضيته، وعن خط الدفاع الأخير، الذي يفصله عنه وهو الدولة السورية، واستطاع أن يقرأ سريعاً أن إسرائيل تقف له بالمرصاد، وتريد تحيّن لحظة ضعفه للالستفادة به وحيداً، تحقيقاً للحلم القديم، الذي أثبتت الحوادث أنه أصبح صعب المنال، يرقى لدرجة الاستحالة، وبالتالي فإن معضلة الطرف المحارب والمواجهة لمحور المقاومة بالمنطقة، هي كبيرة ووعيصة جداً، وهم يرون بأمّ أعينهم المفتوحة عن آخرها خصمهم العتيق يتمدد ويكسب أرضًا جديدة، ويؤشر بإاصبعه الذي يغطيهم ويختفيهم في آن معًا ما زال قادرًا على صد الهجوم وتوجيه الرسائل، وينسب إليه كل منصف حتى أعداؤه أنه مسؤول عن من سقط النظام السوري والجيش السوري تحت وطأة المد التكفيري الإجرامي.

### المحور الثالث: أسباب وأساليب تجنيد الشباب في التنظيمات التكفيرية: نظرة خاصة إلى مصر

لا شك في أن أسباباً كثيرة عقدية وفكّرية وسياسية واجتماعية واقتصادية تحيط بعملية تجنيد الطاقات وتجييش الشباب، لصالح

تلك التنظيمات الخطيرة، التي درست أحوال المجتمعات العربية التي استهدفتها، ونظرت إلى اختراقها، ووضع برامح فكرية وعقدية، دعمتها بأطر اجتماعية واقتصادية وسياسية أيضاً، وأقامت لنفسها تنظيماً يحكم بتلك النظريات، ويعمل على كسب الجديد والأحداث في كل القطاعات.

إن الحالة السياسية التي حكمت البلدان العربية طوال عقود خلت، اتسمت بالغباء والظلم والاستبداد والفساد، وغياب العدالة، وبالتالي سحق الفرد العادي لصالح فئات عليا من المجتمع، أصحاب الحظوة والنفوذ المقربين من الحكم الفاسد، وبالتالي وكتيبة حتمية سيغيب الفكر الديني النموذجي والمستنير؛ لتكتمل منظومة الفساد، التي لا يمكن أن تحيى بدون غياب المفهوم الحقيقي للدين، وسوداد قشور محله، وسيطرة فقهاء السلطان على المشهد الرسمي ومنع غيرهم من الحديث إلى الناس وتوجيههم، ضماناً لاستمرار العروش وسيطرتها أمداً طويلاً على مقدرات الشعوب بغير أن تسمح أبداً بأي تململ، أو محاولة لرفع الرؤوس، مع التكيل بالمعارضين أشد تكيل، لكي يكونوا عبرة لمن تسول إليه نفسه ارتكاب، أي محاولة للمطالبة بالحقوق المنشورة للشعوب المقهورة.

إن تلك الحالة الشرسة التي سادت المنطقة، واستخدمت فيها المعركة مع إسرائيل لتبرير سيطرة الأنظمة العسكرية التي تحولت لکابوس ببلداننا، مع ما يوازيها من أنظمة رجعية متخلفة، وترابط إحباط الشباب، وبطالتها، وتأخر سن الزواج، وعدم وجود فرص للترقي بالحياة داخل أوطنهم، وضياع حقوقهم في مواجهة الدولة ومن يمثلها بالشارع، لأنفه الأسباب، وإحساس المواطن العربي أو الشباب أنه غريب بوطنه، خائف من البح وبأي اعتراض مشروع على حالته، وحالة أقرانه، في الوقت الذي ينقل إليه الإعلام حالة بلدان متقدمة، فضلاً عن صور وأفلام ومسلسلات تنقل واقعاً مزيفاً داخل بلاده من نجمات وممثلات آيات في الجمال وقصور شاهقة وسيارات فارهة لا يحلم أن يمتلك يوماً صورة فوتوغرافية

لأي منها يعلقها على جدار غرفته المتهالك، مع وجود نزوع فطري للتدبر لدى العرب والмесرقيين، وإنما مع حالة الإحباط تلك فإن المرء يهرب للدين كأصل يجده ملاذاً ليخفف إحباطه، وإحساسه بالقهقهة واليأس ويلجأ إليه فيجد العون والراحة، ومن يتلقفه في غياب الفكر الديني المؤصل والنموذججي، والذي غيب عمداً قبل عقود لمنع نهوض الشعوب في وجه الأنظمة الجائرة، يجد شيوخ الفتنة والضلال الممولين وهابياً وسعودياً وخليجياً بكل قوة، والجاهزين بأفكارهم وفتاويمهم، وتربيتهم للشباب جنات الخلد والحرور العين الذين هم أجمل من الممثلات الفاتنات اللاتي يملأن الشاشات، وسيسكن القصور الفارهة التي لا عين رأتها ولا خطرت على قلب بشر، فيندفع الشاب بكل حقده على المجتمع والمظالم التي حاقت به، والقهر والحرمان، والرغبة في طلب ما عند الله، متوجهاً أنه يرضيه، ويسعى في طاعته، بطلب قتل أخيه المسلم، أو غير المسلم غير المحارب المعصومة دماءه، فنرى ما نشاهد من أحوال لا مثيل لها.

أما مصر، فهي خزان بشري هو الأكبر بالمنطقة وشعبها عاطفي، يتأثر بسهولة، ويمكن توجيه طاقاته الكبيرة عبر العاطفة والحمية الدينية أو الوطنية، والشباب هم النسبة الغالبة من سكان مصر، ونظرًا إلى موقعها وإمكانياتها وقوتها التاريخية، ووسطيتها المعروفة بها، وتعداد سكانها الكبير، ومستوى تعليم سكانها، فإن أي مدقق متبع لما يحدث بالمنطقة، يدرك وجود غرفة عمليات خلفية واحدة مكونة من أجهزة أمن ومخابرات إقليمية وعالمية، ترسم بدقة وتنقل المحرائق بشكل مدروس، وبتفويتات تشي بأن ثمة قدرًا من القيادة والسيطرة، ورغبة واضحة في توصيل تلك الرسالة إلى أفهم سكان المنطقة، ومحاوله هزيمة نفوسيهم بمفهوم بث الرعب المسبق، وهو ما يتبدى في كل الإشارات التي تستفاد من فيديوهات القتل والحرق والإغراق والذبح، والسببي وغيرها التي تمارسها تلك الجماعات وتعلنها وتبيّنها بقوة وفاعلية، وتتصاعد بالشكل الذي يجعل

المتلقى يتأكد أنها ليست مجرد حالات فردية متفرقة في بلدان مختلفة؛ بل هي مترابطة ومتماضكة ومتألاحةة ومقصودة ومتعمدة، فهي أساليب استقطاب، ومن ثم إغراء في الالتحاق بتلك التنظيمات بحيث يخشى أي شاب في الخروج عليها بعد التحاقه بها، وبغير خطاب ديني مستنير يصعب تصور خروج أي شاب التحق بتلك التنظيمات عليها، إلا في حالات نادرة، وغالباً ما تنتهي بفشلها، ثم بقتله وجعله عبرة لغيره كي لا يفکر أن يقوم بما فعله غيره.

إن مصر ومع تغلغل الحركة السلفية التكفيرية فيها وبدء استهدافها بسلسلة عمليات نوعية خطيرة، تهدف إلى تأكيد مفهوم قدرة تلك التنظيمات على الوصول لأي شخص أو مكان تستهدف، مع وجود عوامل الإحباط بكل أسبابها لدى الشباب أو غالبيتهم العظمى بمصر، وسوداد الفكر الدينى التكفيري عبر وسائل الإعلام ووسائل التواصل الاجتماعى، وغياب كل فرصة للحصول أو الوصول إلى خطاب ديني منهجه مستنير، وانسداد الأفق السياسي وإعادة إنتاج وجوه من رموز نظام مبارك مع بعض التعديلات، كل ذلك يجعل مصر في خطر كبير وداهم، ويجعلها الخزان الأكبر للتجييش والتجنيد لتلك التنظيمات؛ إذ إن سياسة دول الرجعية والممالك المهزولة بالمنطقة، تقوم على فلسفة ضخ دماء الآخرين في عروقها لكي تحييا هي، وبما أنها صارت مستهدفة من أبنائها في الداخل بعدما تشبعوا بالفكرة الضال والمنحرف، الذي ما زالت تغذى به في كل مراحل التعليم، عبر وسائل الإعلام، وبما أنها تفضل أن تيسّر الطريق لمن يريد من أبنائها للذهاب إلى ميادين القتال لتخالص منهم، ولا تسمح لمن ينجو منهم بالعودة إليها، وبما أنها تتخذ قضية القتال والقتال عبر التكفير لتسود إسلامياً، وتبقى كما تزعم منارة الإسلام، فإنها بحاجة لجند تجيئهم؛ ليكونوا وقود تلك المعارك، التي ستظل تذكيرها لا محالة مهما أعلنت أنها ضد داعش والتطرف، وستكون اهتمامات إدارة تلك التنظيمات،

التي هي ضالعة فيها بكل مسؤوليتها لا استثناء منهم ولا بينهم، مصوبة على مصر، الخزان البشري الضخم الجاهز بكل ظروفه لتجيشه للمعركة الكبرى بالمنطقة، وأيضاً الجاهز إذا ما اُتُخذ القرار بخراب مصر، أن يقوم بهذه المهمة، لصالح تكبيل وتركيع مصر، وإخراجها خارج سياق تاريخها ودورها نهائياً؛ خدمة للمشروع الأميركي الصهيوني الخليجي التفتيسي أصلاً، والذي لا يخدم إلا ممالك الخليج المفككة أصلاً، وبالتالي في خدمة إسرائيل.

فمصر خطط على نفسها وعلى محيطها، إذا ما تركت لمصير أسود كهذا، وهو ما يدبر لها ومجرد التفجيرات المتلاحقة والاستهدافات المتتالية، ليست إلا إرهاصات ومقدمات لكل ذلك، ويجب على المنظرين الذين يعملون في تحليل هذه الحالة، والقادة العاملين لمقاومتها أن يمدّوا يد العون لمصر لئلا تنزلق في هذا المترافق والأتون المستعر، الذي إن حدث لا قدّر الله لن يقي ولن يذر، وسيكون حل الأزمة مستعدياً، وهو ما نوقن أنه يمكن استدراكه والعمل على احتوائه من منطق الحلول التي سنعرض لها في المحور السادس والأخير من هذه الدراسة.

#### **المحور الرابع: سبل مواجهة هذا الفكر وتفكيكه وإحلال البديل النموذجي فكريًا وعقديًا وسياسيًا واجتماعيًا وإعلاميًا واقتصاديًا وقانونيًا وإظهاره**

بعد تحصيل تلك الواقع، وتشخيص المعضلة الجسيمة والأزمة الكبيرة التي تواجه الأمة الإسلامية والبلدان العربية؛ بل والعالم أجمع، فإنه يمكن القول إن الخلاصة من ذلك التحليل، أن ذلك الفكر عدائي وشرير، واستئصالي دموي، يتنهج عقيدة وفكر الأرض المحرفة، والتنكيل بالخصوم إذا ما ظفر بهم، وغلب وتفوق على أعتى الجبارات التاريخيين في درجة الدموية، واستحلال حياة وأعراض المخالفين، وأنه لما يمثله هذا

التكفير لا يمكن أن يكون للبشرية السوية حياة تحياها بجانبه، ولو ارتضته تلك البشرية في عمومها، وتقبلته فإن لها أثراً جانبياً ضاراً، لا يتقبله ذلك الفكر، ويسعى إلى صياغتها على هواه، أو حسب ما يراه صائباً، مما اعتقاده صحيحًا من الدين.

والهدف من هذا المحور هو الوصول إلى نتيجة مفادها أن هذا الفكر القديم العائد في ثوب معاصر، وبكل أدوات التكنولوجيا، لا يمكن أن يستقيم حال شعوب المنطقة معه إلا باستئصاله، وقطع دابرها على كل الصعد وجميع المجالات وبكل قوة، ووفقاً لمناهج وآليات منضبطة، أو على الأقل العمل على حصاره في أضيق نطاق بحيث يكون فاشلاً، وغير قادر على التدمير والقتل وسفك الدماء وتوزيع الآمنين.

إن المواجهة العسكرية والأمنية ضرورية وحاسمة في مواجهة المتقددين للقتال في ساحات المواجهة، ولكن حتماً ليست قادرة وحدها على إنهاء هذه الحالة الإنسانية الشاذة والمتفاقمة نتيجة كل العوامل التي سبقت الإشارة إليها، مضافاً إلى ذلك يجب أن يتبع القائمون على مواجهة هذه الحالة، على أنها تعبر عن مشروع كبير لحكم المنطقة، ووضع كامل مقدراتها تحت يدها، وبمعاونة إقليمية وغربية ومصالح متقطعة سبقت الإشارة إليها، قد لا تستطيع السيطرة على كامل حركات وسكنات كيان مسخ هجين مثل هذا الوحش الذي أطلقوه في المنطقة، وهو سيطالهم بكل تأكيد، بدرجة ما، من داخل أراضيهم حتماً هذا ما سيتحقق.

إن مواجهة المشروع العقدي والسياسي والاقتصادي والاجتماعي لتلك التنظيمات التكفيرية، وخصوصاً تنظيم داعش، لا يكون، بأسلوب رد الفعل؛ بل يجب أن يكون رد الفعل لمواجهة الحوادث المتلاحقة والمترابطة، ومواجهته بخطوة متكاملة، وبمشروع يطلقه المحور الذي آلى على نفسه مواجهة هذا الفكر المنحرف والإجرامي في المنطقة، وهو

المحور الذي يستهدفه هذا التنظيم، ومن يقف خلفه ممن يغذّونه ويمولونه، ويشغلونه، ويستثمرون نجاحاته، ويغطون فشله أو تعثره في مجال أخرى.

آن لمحور المقاومة وحلفائه بالمنطقة والعالم أن يتتجوا من بينهم مسروعاً إنسانياً متكاملاً عقدياً وحدوياً، متعايضاً مع الآخر يقدم النموذج الصحي للدين الإسلامي في كل نواحي الحياة بلا استثناء؛ ليقدموه سائغاً متكاملاً للشباب والشابات والمجتمعات، مما يساعد على خلخلة وتفكك بنية الإرهاب التكفيري وسحب البساط من تحت أقدامه، التي تجد لها محلًا دوماً في غياب المشروع المقابل، القادر على مقارعته وهدمه، ومزاحمته وإخراجه من المعادلة تماماً، ولا يمكن أبداً أن يظل مشروع المقاومة الكبير والعظيم مقتصرًا على تقديم الحل العسكري والدفاع عن النفس في مواجهة الذبح على الهوية والقتل وسفك الدماء، واستحلال الحرمات، ولا يقوم مبتدراً بطرح المشروع المتكامل الذي من شأنه كشف الشبه العقدي لدى عوام المسلمين عن معتقدات أتباع المذاهب الإسلامية، والتأصيل البين لبطلان عقيدة الخوارج، وليس مجرد إطلاق الصفات والنعموت عليها بلا تنظير أو تأصيل، هكذا فقط يستطيع أهل المنطقة أن ينجو من هذه المهلكة التي تجد قوتها في الجهل والإحباط وغياب المنهج المتكامل والمشروع النموذجي في مواجهة مشروع موجود وقائم، تجيئ به الأموال والرجال والنساء والأسلحة والإعلام، وسياسات دول.

نحن على ثقة أن أولي العلم والحكم من قادة ورجال العرب والمسلمين يقدرون على أن يتتجوا بما لديهم من مقدرات ووعي كبيرين، أن يتتجوا ذلك المشروع إيجابياً وبشكل متكامل، وتجيئ الطاقات له، في نموذج نهضوي إنقاذي دفاعي لهذه الأمة، الإنقاذه دينها وأهلها، وكفّ أذى شرذمة تمدد وتجد في غياب ذلك المشروع الوحدوي النموذجي المتكامل، مصدر قوتها، وفي وجوده وإنتاجه نموذجيًّا ستلقى تلك الظاهرة اندحاراً، وتراجعاً وانزواءً، حتى يحين أجل فنائها.

## المحور الخامس: التقاضي الدولي لمواجهة داعمي الخوارج الجدد:

لا شك في أن تلك الحالة الشاذة التي أنتجتها دول وممالك وأجهزة استخبارات معلومة و معروفة، والأدلة على تورطها في تمويل وتجهيز وتسهيل مرور المقاتلين الأجانب الذين دخلوا إلى الأراضي العراقية والسورية واللبيبة وغيرها، وأمدّتهم بالفتاوی الرسمية والإعلام الذي شکل الغطاء لهم، وأصفوا الشرعية والمشروعية الظاهرية على ما ارتكبوه ويرتكبونه صباحاً ومساءً، إن تلك الحالة، في حد ذاتها هي ارتکاب مسؤولي تلك الدول لجرائم الجنایات الكبرى المعمرة وفقاً لمبادئ القانون الجنائي الدولي، ولظام روما الأساسي للمحكمة الجنائية الدولية، وهي جرائم العدوان وال الحرب والإبادة الجماعية وجرائم ضد الإنسانية، إنه وإن كان من الصعوبة بمكان تحريك الدعاوى الجنائية عبر المحكمة الجنائية الدولية، بسبب كون معظم تلك الدول ليست أعضاء بالمحكمة، ويستلزم إحالة من مجلس الأمن ليتحرك المدعي العام للمحكمة، إلا أن ثمة صلاحية للمحاكم الأوروبية للنظر في جرائم ضد الإنسانية ترتكب ضد أبرياء ولم تقع على أراضيها، وكذا تم اختصاصها للنظر في جرائم الجنایات الكبرى الأخرى.

إن نقل الصراع بين العقول الفقهية القانونية العربية الداعمة لحقوق الشعوب في تقرير مصیرها من مرتبة توثيق جرائم الجنایات الكبرى والتنديد بها إلى مستوى تشكيل هياكل وتكوينات قادرة وكبيرة تدعمها جهات، ودول معنية في مواجهة الاستكبار والإجراءات الممنهج الذي يعرب طليقاً في المنطقة، ولا تكفي القوة المسلحة في مواجهته ولا تقدر على مواجهته في كل حين وأن، وإن نقل ذلك الصراع إلى مرتبة التقاضي الجنائي الدولي والمدني الدولي وملاحقة مسؤولي الدول الذين تورطوا في ارتكاب هذه الجرائم كلها، وتسببو في معاناة شعوب وتهجيرها

ولجوئها وتشريدها وتدمير مقدرات بلدان بأكملها، تسبباً مباشراً، تأسياً على نظرية المشروع الجنائي المشترك، فمن دعموا وسهلوا وجهزوا ومررروا هؤلاء وأفتو لهم، كانوا يعلمون سلفاً ماذا هم فاعلون بالبلدان التي غزوها، وفرّقوا شامل أهلها وأبادوا إمكانية العيش الآمن فيها.

إن العقلية التي تدير عملية الانتقام والحقد البدوي الجاهلي تجاه كل من يصرخ ويقف في وجه الظلم بالمنطقة يكون جزاؤه الحرب والاستهداف، إما بشكل مباشر كما حدث في اليمن، وإما بالواسطة كما حدث ويحدث بسوريا والعراق ولibia وغيرها، والدور يأتي على مصر المستهدفة رويداً رويداً.

إن حكومات ومسؤولي المملكة العربية السعودية، وقطر، والإمارات والأردن، وتركيا، يجب أن تدرس تماماً كيف تطال مسؤولياتهم يدي العدالة الدولية وبأي ثمن، ولن يكونوا أصعب أو أقدر أو أكثر حصانة، من قادة الكيان الصهيوني في ملاحقتهم عبر المحاكم الدولية الأوروبية المختلفة، غایة ما هنالك هي أن تؤمن القوى المقاومة بجدوى هذا العمل وتعتمده سبيلاً مقاوِماً ناعماً لمواجهة هذه الحالة والدول التي تسأل عنها، أملاً في فرمتها وكف أذاتها وحضارتها داخل حدودها.

إن الوقوف صفاً وإعلاء الصوت عالياً، وتكوين حلف قانوني فقهى حقوقى يجمع فقهاء ومحامين متخصصين يتقدمون الصفوف، لفتح جبهة عالمية في مواجهة تلك الدول بدعوى مقاضاتها دولياً، والضغط بكل سبيل للتنفيذ إلى ذلك لعقد الاختصاص للمحاكم الأوروبية المختلفة عبر ضوابط الاختصاص التي تضعها، إن ذلك كله مع دعم ظاهر وتبّن واضح من قادة ودول محور المقاومة في المنطقة والعالم قادر يبيّن أن يدحر قوى الاستكبار مع ما يلحق به من أدوات، وسبل مواجهة ذكرناها في المحور السابق.

خاتمة: بعد نهاية هذه الدراسة فإنها بالتأكيد قاصرة عن بحث كل أوجه ومحاور الموضوع الهام والخطير ولكنها، كافية في معرض مقامنا هذا، مضافاً إلى ما أدلّى به الأساتذة المتخصصون الكبار الحاضرون من آراء وأفكار ضمنوها أو رأق عالمهم، ونأمل في أن تجد الأفكار المهمة التي وردت في تلك الدراسات كلها سبيلاً إلى التنفيذ تحصيلاً للفائدة، على أننا لا ننسى ولا يفوتنا أن نؤكد، أن بيروت أمّ الشرائع، عاصمة المقاومة التي تحتضن حالة الصمود العظيمة التي تقف في وجه هذا الفكر الإجرامي والعدو الصهيوني في آن معًا بامتياز، بيروت هذه هي المؤهلة لإطلاق المشروع النموذجي المتكمّل للأمة وللمنطقة، وهو ما نتمناه ونأمل أن نراه في القريب.

# كيف هزم لبنان بوحدة شعبه وجيشه ومقاومته الإرهاب التكفيري، ولماذا؟

الدكتور طراد حمادة<sup>(1)</sup>

كان الإرهاب التكفيري يحسب أن لبنان بلدًا سهل المنال، وأنه يمكنه السيطرة عليه وإيجاد موقع له على شاطئ البحر الأبيض المتوسط، محصّنًا بالسيطرة على وادي البقاع وسلسلة جبال لبنان الشرقية والغربية، ويكون له السلطة القادرة على تهجير اللبنانيين من أرضهم وتشريدهم إلى بلدان أخرى، وإسقاط النظيرية اللبنانية وتجربتها الواقعية في العيش المشترك بين المسيحية والإسلام وكذلك بين المذاهب الإسلامية المعتبرة من أهل السنة والشيعة.

وعليه، فقد بادرت حركات الإرهاب التكفيرية إلى إقامة مراكز لها في جبال الضنية منذ سنوات، وفي الشمال اللبناني والبقاع الغربي ومدينة صيدا والمخيمات الفلسطينية، مضافًا إلى بعض أحياء العاصمة اللبنانية بيروت، هي مراكز أقرب إلى الحركات الدعوية في الظاهر، والعمل السري على التدريب وجمع السلاح والسيطرة على مناطق محدودة، في الجبال العالية وفي أحياي المدن الفقيرة وأذقة المخيمات الفلسطينية الرازحة تحت وطأة الحرمان والفقر.

---

(1) أستاذ الفلسفة في الجامعة اللبنانية.

لاقت هذه الخطة في بدايتها إهالاً من السلطات الأمنية، كما استفادت من التنافس السياسي الوطني بين القوى والأحزاب السياسية، ومن حرية الإعلام وحق التعبير وحصانة المساجد والمدارس الدينية، وتراخي علماء الدين عن متابعة مهمة الهدایة والتبلیغ، إلى الاشتغال في سياسات التفرقة والتنازع. كما لاقت اهتماماً إقليمياً تمثّل برفدها بالمال والغطاء السياسي؛ لإكمال مشروعها شديد الخطورة.

كان لبنان، في استراتيجية حركات الإرهاب التكفيري بلدًا صالحًا للإيواء، وبناء حاضنة شعبية تنشأ في أحوال الحرب، كما أنّ الجغرافية اللبنانيّة، تتفق مع بحث هذه الجماعات عن مناطق جبلية محصّنة ضدّ القصف الجوي، مؤهّلة لتدريب العناصر وحمايتها من رقابة أجهزة الأمن، وتناسبها أيضًا في ذلك الأحياء المكتظة بالسكان، الرازحة تحت ركام الفقر والتخلف التنموي والتربوي، يضاف إلى ذلك التركيبة اللبنانيّة الاجتماعيّة التي تسمح على وجه الدقة بمحاربة الكفار الصليبيين والمرتدين من المسلمين الشيعة. كما يسمح الساحل اللبناني، باستقبال أعداد المتطوعين الأجانب في صفوف الحركات التكفيرية، واستيراد السلاح والعتاد والأموال، ومساومة القوى الدوليّة من موقع القوة؛ لأنّ لبنان على حدود فلسطين، ولا بد للغرب المشغول بحماية كيان الاحتلال من مساومة القوى المسيطرة، مقابل هدوء الجبهة مع العدو الصهيوني، مضافًا إلى ما تحصله من تعاون مع هذا العدو، كما هو عليه الأمر في الجولان السوري المحتل.

تمكن الإرهاب التكفيري من تحويل لبنان إلى منطقة مستهدفة في استراتيجية خراب الدول والعمران وإشاعةفوضى القتل، وإرهاب الجماعات والأفراد، والنيل من هيبة مؤسسات الدولة السياسيّة والأمنية، وقد بكر في تنفيذ خطة الاستهداف وجعلها تحت عنوان خاطئ هو: نصرة أهل السنة في لبنان، ودعم أهل السنة في سوريا ومقاتلة الصليبيين والشيعة، ولعلّ الأحداث المتلاحقة منذ بداية الألفية الثالثة، في جبال الضنية وفتنة

حروب طرابلس وظاهرة أحمد الأسير، وحرب عبرا، وعمليات الاغتيال السياسي وإرهاب الآمنين من المواطنين الأبرياء في شوارع العاصمة بيروت وبقية المدن في البقاع والشمال، مروّراً بحرب نهر البارد، والسيطرة على زواريب وأزقة مخيم عين الحلوة، وإرسال المقاتلين إلى سوريا وحتى إلى العراق، وتشجيع عمليات الانتحاريين بالسيارات المفخخة، وإطلاق الصواريخ على المدن والبلدات اللبنانيّة، والاستفادة من حرية نقل الأموال وقوانين السرية المصرفية، لجلب المال من الخارج، واستغلال التزوح السوري ومساعدة النازحين، وأخذ عرسال وجدها رهينة، وفرض السياسات على أهلها، وكذلك بعض قرى عكار والبقاع الغربي، كلها عمليات كانت تسعى إلى السيطرة على الأرض اللبنانيّة، وتدمير الإنسان والبنيان، من الدولة إلى ثقافة الكيان، إلى بسط النفوذ والسيطرة والتأمين.

كانت خطة الجماعات الإرهابية التكفيرية، تجمع على خارطة غرفة عمليات واحدة الأوضاع في كل من لبنان وسوريا. ووضعت في استراتيجية السيطرة العسكرية الميدانية، خطة، تقوم على النفاذ من الحدود الشمالية - الشرقية بين لبنان وسوريا إلى البلدين، كما هو الحال الجاري على الحدود بين سوريا والعراق، حيث تعتبر السيطرة على جانب من الحدود في سوريا عاملاً مساعداً للسيطرة على القسم المجاور من العراق، وتكون المعركة مفتوحة على خارطة عسكرية واحدة تتبادل الأدوار في الدعم والمساندة على قاعدة وحدة المعركة في الميدان، وعليه كانت السيطرة على منطقة القصیر، مقدمة للتوسيع إلى السلسلة الشرقية وقادتها عرسال، وإلى السلسلة الغربية وقادتها المناطق المشتركة بين جرود الهرمل وعكار، كذلك طرابلس وما يتبقى في منطق القواعد العسكرية من جهد لقوات محاربة تسيطر على الحدود اللبنانيّة - السوريّة من أسباب تمنع بسط سيطرتها على الساحل والداخل اللبناني، وصولاً إلى العاصمة بيروت

كما حصل هذا الأمر في السيطرة على المحافظات في العراق، ومحاصرة بغداد، وعلى المحافظات في سوريا ومحاصرة دمشق.

كانت الخطة الاستراتيجية للحركات الإرهابية واحدة ومتراقبة في مخططاتها في لبنان وسوريا. وتبدو متقدمة من حيث إن السيطرة على وادي العاصي من الحدود التركية إلى جسر الشغور وحمص وحماء، إلى منابع العاصي في الهرمل تمسك بالحواضر السورية المتاخمة لحدود البايدية، وتسمح له السيطرة على الجبال المحيطة بوادي العاصي بالنفاذ إلى المدن الساحلية على شواطئ البحر الأبيض المتوسط. تلك كانت استراتيجية الغزاة على مرّ التاريخ، في محاولة بسط نفوذهم على حاضرة وادي العاصي، والتي شهدت تاريخها حركة من الهجرات المتابعة، لأبرز الفرق الدينية والجماعات الثقافية والاثنية في التاريخ القديم، من هجرات المسيحيين الموارنة إلى المسيحيين الأرمن وفرق المسلمين الشيعة من الإمامية والإسماعيلية مضافاً إلى العلوين الفرقة الإمامية التي دفعت أثمان هذه الهجرات.

إن أصولاً مشتركة تجمع بين العائلات الشيعية في مناطق الفوعة والنبل والزهراء وحلب وحمص وحماء، وبين العائلات في منطقة الهرمل على وجه الخصوص، مما يكشف أن مسار الهجرات كان يحصل في السابق على قواعد تفرضها الجغرافيا التي لا تتغير، في قواعد الحرب مهما تغيرت الاستراتيجيات، كان واضحاً أن كل الغزوات التي شهدتها مناطق وادي العاصي، دفعت بالسكان إلى اتخاذ مواطن دفاعية لها في جبال لبنان ومدنه الساحلية القريبة من السفوح، وأن هذه الجبال عصمتها من حملات البطش والقتل، لقد سقطت كل الغزوات على وادي العاصي، في التناسق المتنين بين حرب الجبال والقتال على ضفاف الأنهر وفي الأودية كثيفة الأشجار، وهذا ما حصل في الحرب الدفاعية اللبنانية - السورية على الإرهاب التكفيري.

إن خطة الحركات الإرهابية التكفيرية تهدف للسيطرة على حاضرة العاصي وجبال لبنان والساحل السوري اللبناني. وجعلت عنوان هذه الحرب القتال ضد المرتدين الشيعة والصلبيين المسيحيين من أرمن ولبنانيين وسوريين موارنة وأرثوذكس، وهم غالبية مسيحيي الشرق؛ وذلك تحت عنوان الدفاع عن مصالح أهل السنة، وردة الظلم عنهم، هذا الشعار الذي تحول إلى إعلان الخلافة الإسلامية عند داعش، فيما بقيت مجموعات أخرى ترى في أمر الخلافة، محصلة لبسط السيطرة على بلادها في سوريا؛ للخلاص من حكم بشار الأسد، وفي لبنان لضرب المقاومة اللبنانية، وانشقاق النظام اللبناني الذي يحميه، وفق نظرها، ما تسميه الجيش الصليبي المسيحي.

في هذه الناحية، ناقشت بدعوة من المركز الاستشاري للدراسات مجموعة تهتم بأمر الأزمات الدولية، وكانت مؤلفة من مدير المؤسسة في سوريا، وهو خبير في سياسات المنطقة، وخبير آخر في الحركات الإرهابية يسمى جدلاً الجهادية، وسيدة تهتم بما تسميه الحركات الإسلامية السنّية.

وما لفتنني أن خبير الحركات الإرهابية يدافع بطريقة ملفتة عن ما يسميه الإرهاب المعولم وهو داعش، والإرهاب صاحب المهام المحلية الوطنية ومثاله جبهة النصرة. فيما ذهبت السيدة خبيرة الحركات الإسلامية السنّية إلى الحديث عن مظلومية المسلمين من أهل السنة في لبنان.

ما يهمنا في هذا النقاش هو الالتفات إلى أمرین:

- الأمر الأول: إن التمييز بين حركات الإرهاب القائمة على أسس خاصة بها، يتحول إلى تمييز يتعلق باستراتيجيتها، ونقول إذا كانت تتقاول فيما بينها لأسباب تخصّها فإن الرابع من هذه المنازلة يوحّد بندقية الإرهاب لقتالنا والسيطرة على بلادنا، وتهجير شعبنا فلا يعود التمييز بين إرهاب وآخر مفيداً، ولا مساعدًا على محاربته.

- الأمر الثاني: إن خطة الإرهابيين كانت تقوم على مقوله مظلومية أهل السنة في لبنان، كما في سوريا، وضرورة نصرتهم، وهذا أمر مساعد لهم لإقامة حاضنة شعبية.

لقد اصطدم الإرهابيون بأن لا حاضنة شعبية حقيقية لهم في لبنان، وأن خطاب الدفاع عن مصالح أهل السنة ونصرتهم لم يعطِ أكله، لأنه لا يستند إلى الواقع، وهو بعيد عنه، وأهل السنة في لبنان، هم أهل السلطة فيه، حيث تعززت سلطتهم بعد اتفاقيات الطائف ولا تزال. وعليه، فقد عولوا على خلق حاضنة شعبية من خلال الحرب، وهذا يعني ميدانياً، أنهم سيحتلون المدن ذات الغالبية السنية، ويقتلون أخصامهم السياسيين، ويطلبون البيعة لهم، وحين يحصل الأمر يجررون أبناءها للقتال في صفوهم. هذه واحدة من مركبات خطتهم للسيطرة على المناطق اللبنانية، وخلق ما يُسمى بالبيئة الحاضنة بواسطة الحرب، وزجّ المناطق في قتال لا ناقة لأهلها فيه ولا جمل، وخلاف كل منطق عقلي ومصلحة وطنية.

**كيف هزم لبنان بجيشه ومقاومته وشعبه الإرهاب التكفيري، ولماذا؟**

ليس لبنان كما ظنّ الإرهابيون التكفيريون البلد السهل لبسط سيطرتهم، إنّ ما حسبوه في استراتيجيةهم نقاط ضعف في الكيان اللبناني ينفذون منها إلى بسط السيطرة بعد انهيار هذا الكيان وتدميره على رؤوس مواطنه، كان في الواقع نقاط قوة، استطاع اللبنانيون الاستناد إليها في معركتهم ضدّ الإرهاب التكفيري، وهزموه بكل ما للهزيمة من معنى على المستويات الاجتماعية، والسياسية والعسكرية. وعليه، تكون مناقشة إشكالية السؤال المطروح أعلاه، في البحث عن مواطن القوة اللبنانية، السياسية والاجتماعية، والعسكرية، وكيف استُخدمت في إدارة الحرب الناجحة على الإرهاب التكفيري؟

أولاً: في قوّة لبنان الاجتماعيّة - التاريـخـية

يطن الواقع الاجتماعي اللبناني، قوة كامنة في تماسک العيش بين الأديان والمذاهب، وعلى الرغم من الصراعات المتلاحقة بين مكوناته الاجتماعية، في مساراتها التاريخية، فإن ثباتها على العيش المشترك غالب عناصر الوفاق والتفاهم، والوصول إلى تسويات جعلت من البنية الاجتماعية اللبنانية، بنيةً متحددةً اجتماعيًّا، قادرةً على إدارة شؤونها من خلال الميثاق الوطني ومجموعة الأعراف والتقاليد المتبعة في السياسات العامة، إن لبنان وطن نهائي لأبنائه، يمثل سكانه شعبًا واحدًا على تعدد مكوناته، مرتبًا بأرض وطنه، قادرًا على إقامة دولته المستقلة، وفق قواعد الدستور وأنظمة القوانين العامة التي تنظم أمور الشأن العام.

وعليه، فإن كل محاولة للنظر إلى المجتمع اللبناني كمجتمع متفكك متآكل من الداخل، منقسم على نفسه يمكن النفاذ إليه وتدمیره بالاستفادة من فساد بنائه، هو نظر قاصر، عاجز عن تحقيق أغراضه، يصطدم بقوة بناء المجتمع اللبناني وترابطه.

ونستطيع من هذه الرؤيا أن نست婢ن الحقائق الآتية:

**الحقيقة الأولى:** إن الدولة اللبنانية أقوى من السلطة والحكومات المتعاقبة، ومنسوب الخلافات في الخطاب السياسي أعلى من الخلاف في الواقع السياسي وفيه تعيين:

بـ- لا يوجد صراع بين المسلمين السنة والشيعة في لبنان، فهم كانوا ولم يزالوا على أحسن حال، على خلاف ما يذهب بعض النافذين في بوق الخلافات المذهبية. إن مستوى الحوار والتدخل الديني بين الشيعة والسنّة في لبنان والتجاور والتصاهر، والتعاطف والتنافس، والمشاركة، والاختلاف والالتفاف يمنع أي محاولة لزرع الفتنة العمياء. وعليه، فقد تكسرت كل أمواج الفتنة المذهبية على صخرة الشاطئ الأمين للوحدة الإسلامية.

إن الصراع والتنافس السياسي قائم وحاصل، والخطاب السياسي متواتر للغاية. وجنوح بعض الزعامات السياسية عن جادة الوطنية الحقة متوفراً ومشهور، ولكن، كل ذلك، يبقى في دائرة تدور على كف الأمان، حيث يصعب الوصول إلى فتنة مذهبية، كان يمكن للإرهابيين أن ينفذوا منها.

إن ما نسوق له بعض قوى الإرهاب التكفيري من ظلم لاحق بأهل السنة في لبنان والدعوة إلى نصرتهم. لا يستند إلى الواقع ويتجاوزي الحقيقة مجافاة تامة. المسلمين السنة في لبنان لا يشعرون بأنهم مظلومون، وهم في موقع السلطة آمنون على أنفسهم، مؤمنون على مواطنיהם ووطنهم. وعليه، فقد أسقط هذا الواقع أهم ثغرة كان يمكن للإرهابيين أن ينفذوا منها إلى الساحة الداخلية، وإشعال الفتنة وطلب النصرة، وإقامة البيئة الحاضنة.

الحقيقة الثانية: إن التعايش بين المسيحية والإسلام والوحدة بين المذاهب، ونبذ الفتنة والتفرقة، يسمح للعقل اللبناني، إذا صحت التسمية، أن يكون عقلاً منفتحاً، وأن يكون العقل السياسي كذلك عقلاً معتدلاً، وللتنافس السياسي أن يكون تنافساً ممكناً ومفيداً، في ظل وجود آليات ديمقراطية تسمح له بالتعبير والوصول إلى السلطة وتداولها بين القوى السياسية، على الرغم من المشكلات المعروفة للطبقة الحاكمة في لبنان،

وتوارث النفوذ داخل بعض الأحزاب ودور العائلات، فإن الفعل السياسي العام يبقى ديمقراطياً.

**الحقيقة الثالثة:** إن الذاكرة اللبنانية القريبة تجعل من الإنسان في لبنان فرداً نابذاً للإرهاب والعنف، معارضًا للحرب الأهلية، والحروب المشابهة لها في أشكال العزوّات القادمة من الجوار، والمدعومة من الأبعدين إقليميًّا ودولياً. هذه الذاكرة تشكل قوة مناعة لكل فرد عرف الحرب، أو سمع عنها، لأن يسعى إلى رذّها وأثارها عن البشر والحجر في بلادنا.

**الحقيقة الرابعة:** كما الذاكرة القرية تمثل الذاكرة التاريخية البعيدة، لمجموع الفئات والطوائف اللبنانيّة حملًا ثقيلاً ضدّ الحرب والغزوّات، فإن هذه المجموعات التي شهدت هجرات كبرى في تاريخها وتبدلات ديمغرافية ودينية، نتيجة الحروب والغزوّات، مزودة بمناعة قوية بدورها ضدّ الخضوع لرغبات الإرهاب التكفيري.

**الحقيقة الخاصة:** إن عاملين أساسيين أحدهما مناعة ولحمة وطنية قوية، وهما:

أـ انتهاء الحرب الأهلية اللبنانية إلى تسوية سياسية أعادت بناء المؤسسات وإعادة الإعمار، ودعمت اتجاهات النسيان والمسامحة، وإشاعة أجواء التعاون والاعتدال.

بـ الانتصار على الاحتلال الصهيوني للأراضي اللبنانية في الجنوب والبقاع الغربي وتحريرها، ومن ثم هزيمة قوات العدو في حرب تموز عام 2006. إن تاريخ المقاومة وثقافتها، وسياساتها، شكّلت عناصر قوة للوطن اللبناني وكذلك للمواطن اللبناني وجعلته أكثر ثقة بصلابة قدراته وطنه ووحدته وقوته القدرة على الدفاع عنه ضد العدوان مهمماً غلت التضحيات.

إن وطنًا وشعبًا يخرج من حرب داخلية بصلاح متين، ويربح حربًا على

العدو المحتل ويطرده من أرضه، فهو وطن عصي على كل أنواع العدوان والغزو، ولو تعدد الإرهابيون والبرابرة..

### ثانيًا: عناصر القوة في المستوى السياسي

يختلف اللبنانيون فيما بينهم حول السياسات الوطنية الداخلية، وتلك واحدة من سمات الأنظمة الديمقراطية، لكن مهلاً، ليست الديمقراطية اللبنانية بقدرة على اجتراح المعجزات، وتحاول بعض القوى السياسية مجافاتها، لكن سرعان ما تعود إلى قواعدها حين يظهر أنه لا بدile عنها. يتناوب الصراع مع التسوية في السياسة اللبنانية الداخلية لكن الصراع، بعد تجربة الحرب الأهلية، يلزم أن يكون منضبطاً تحت سقف الوحدة الوطنية والحفاظ على السلم الأهلي وانضباط عمل المؤسسات والنظام العام، وكلما حصل شطط في توجهات بعض القوى لتغليب الصراع على التسوية، سرعان ما تدرك أن لبنان بلد يقوم على سيادة التسويات.

وعليه، فإن الخطاب السياسي الذي يظهر متورتاً في مراحل معينة يكون أعلى من توترات الواقع السياسي، حيث يعود هذا الواقع ليفرض نفسه على الخطاب فيستقيم ويعتدل. إن الخلافات الطائفية إذا ظهرت تظل تحت سقف الشراكة الوطنية والعيش الواحد، والخلافات المذهبية إذا برزت تظل تحت سقف الوحدة الإسلامية ونبذ الفتنة العمياء، والخلافات السياسية إذا اشتدت تظل تحت سقف التوافق الوطني وعمل المؤسسات والاحتكام إلى الدستور والقوانين، وصدق ونفع الاقتراح.

وهذا على ما ذكرنا، بعض تقاليد الديمقراطية اللبنانية، وإلى جانبها يظهر الحوار الوطني، كواحد من سمات الوضع السياسي اللبناني، مثلما كانت تجربة طاولة الحوار، وكذلك بين القوى السياسية كما هو الأمر بين حزب الله والتيار الوطني الحر، والتيار الوطني الحر والمستقبل، والمستقبل وحزب الله، والتيار الوطني الحر والقوى اللبنانية، وحوار

اليمين واليسار والقوى الاقتصادية من أرباب العمل والعمال، والحوارات داخل الإعلام ومؤسسات المجتمع المدني، وكذلك المجتمع الأهلي، بين العائلات والعشائر والمناطق، وغيرها. إن فلسفة الحوار والإعلام الحر وحق التعبير والاعتراف بالآخر المختلف واحدة من سمات النظام اللبناني، الظاهرة والباطنة.

إن إرادة الحياة والاعتدال وعشق الحرية والإنتاج والإبداع والفن، وامتلاك العلم وتقنياته واحدة من سمات الشخصية اللبنانية؛ وعليه، نجد أن في مسألة الاعتدال تظهر خسارة المستشدين معاركهم السياسية بفترة قياسية، حيث سرعان ما ينكشف للناس خطورة التعصب والتشدد والمغالاة لصالح الاعتدال والاستقامة. وإذا كان الفساد الاقتصادي السياسي موجوداً، فإن اللبنانيين يجمعون على أنه أمر مكرور. وإذا تكشف أمر الفاسدين، خسروا ما ربواه وصاروا عاجزين عن تسويق فسادهم. الفساد بكل وجوهه موجود في لبنان، لكنه مكرور بصورة عامة، ولا يستطيع أحد الدفاع عنه، كما إن الفساد، على خطورته، لا يستطيع إفساد الحياة السياسية اللبنانية العامة.

إن بلداً من سماته السياسية هذه الصفات لا يمكن أن يكون هدفاً سهلاً للغزاة والإرهابيين التكفيريين. وعليه، فإن الحياة السياسية الداخلية بдинاميكيتها قادرة على تنظيف نفسها من مواضع الفساد، وإصلاح نفسها من عناصر الوهن، لتصبح قادرة على إدارة حياتها والحفاظ على مصالحها وقيمها وسيادتها الوطنية.

ولكن بقدر ما هي صورة الإشكالات اللبنانية في السياسات الداخلية قابلة للحلول، فإن إشكاليات السياسة الخارجية، عربية وإقليمية ودولية تبدو أكثر صعوبة، والأمر يعود إلى شهية الخارج الإقليمي والدولي على زج أنه في شؤون البلد الصغير. ابتدعت السياسة اللبنانية مقوله النأي بالنفس عن سياسة المحاور والنزاعات التي عصفت بالشرق العربي والإسلامي، لكن

هذه السياسة لم تكن واقعية ما فيه الكفاية. حيث لو ترك القطا لغفا ونام. إذ كيف يمكن النأي بالنفس عن محاربة الإرهاب، والحال أن قوى الإرهاب تضع لبنان في أولوية استراتيجيتها؛ للسيطرة على الشرق العربي والإسلامي على ما ذكرنا؟

وعليه، فإن النأي بالنفس كان ممكناً في حالة عدم التدخل في الشؤون الداخلية للدول الأخرى، ولكن لا يمكنه أن ينأى بنفسه في الدفاع عن نفسه أمام هجمات الإرهابيين من الغزاة التكفيريين.

إن النقاش الوطني حول سياسة النأي بالنفس وموضع العلاقة مع المحاور الإقليمية استند أحياته لجهة أن هذه المحاور حقيقة واقعية، تجذب اللبنانيين للانضمام إليها، لكن هناك فارقاً بين محاور يكون للبنان مصلحة مشتركة معها في الدفاع عن نفسه، وأخرى تجلب له الضرر والويلات. وعليه، فقد استيقظ اللبنانيون بعد غفوة النأي بالنفس إلى ضرورة الانخراط في جبهة حقيقة لمقاومة الإرهاب، كان لبنان جيشاً ومقاومة وشعباً من السبابين إليها.

وهذا ما يكشفه النظر في المستوى العسكري والأمني من الحرب على الإرهاب، وكيف وجد اللبنانيون أنفسهم جبهة وطنية واحدة في مواجهة غزو إرهابي وصل من تطويق الحدود ومحاجمة المناطق وارتهان المدن والبلدات، إلى ارتكاب مجازر القتل الجماعي في أسواق المدن وتهديد الأمن القومي ووحدة البلاد وسلامة أرضها وحماية حدودها، والحفاظ على سيادتها الوطنية، ومصالحها وقيمها، حتى صار خطراً وجودياً باعتراف جميع المكونات اللبنانية سواء أعلنت القوى السياسية هذا الاعتراف، أو أبقته لأسبابها الخاصة طي الكتمان.

### ثالثاً: المستوى العسكري والأمني

ذكرنا أن حركات التكفير الإرهابية ظلت أن لبنان سيكون هدفاً

سهلاً لها، مستندة إلى ما تظن من وجود وهن وخلل في بنائه الاجتماعي والسياسي؛ ولذلك وضعته في أولويات استراتيجيتها العسكرية لإكمال السيطرة على حاضرة وادي العاصي وسهل البقاع والجبل الشرقي والغربي المحيطة بهما، والاندفاع إلى شواطئ المتوسط على الساحل السوري- اللبناني.

وحددت العدو بالمعنى العسكري لها والمتمثل في كل من حزب الله والمقاومة الإسلامية والجيش اللبناني والقوى الأمنية، وجمعت في تكتيکها العسكري بين عمليات الإرهاب بواسطة السيارات المفخخة والصواريخ الموجهة في داخل المدن والبلدات، وحشد القوى العسكرية على الحدود الشمالية الشرقية؛ لانقضاض في الوقت المناسب في خطة غزو شاملة للبقاع والشمال، وصولاً إلى مدن الساحل وجبل لبنان. وحددت لهذه الخطة المحكمة مناطق في سوريا قوامها المنطقة الوسطى، وقاعدتها مدينة حمص، ورأس حربتها مدينة القصير، وريف دمشق وحربته الزيداني للسيطرة على طريق بيروت - دمشق.

تشكل المنطقة الوسطى في سوريا عقدة عسكرية أساسية للسيطرة على لبنان، باعتبارها مفتوحة على الباية من ناحية، وعلى الحدود التركية - السورية من ناحية ثانية. وجعلت من القصير، وريف مدينة حمص، مركز تجمع القوات ورأس حربة الغزو المتضرر للأراضي اللبنانية، وجعلت لها في لبنان مراكز موزعة بين السلسليتين الشرقية والغربية، في بلدة عرسال وجروف القلمون في السلسلة الشرقية، وجروف عكار الضنية المتصلة بجسر مدينة الهرمل ومدينة بشري في أعلى جبال المكممل، وكانت طرابلس درة المتوسط في خطة السيطرة على الساحل اللبناني.

وعليه، تمثل حرب القصير وتلة قادش، المعركة الفاصلة في الحرب على الإرهاب التكفيري، لقد بَيَّنت الاستعدادات العسكرية، في مرحلة

متقدمة من الحرب في مدينة القصیر وريف حمص المجاور للأراضي اللبنانية، والدور الذي أوكلته هذه الجماعات لها في استراتيجيتها العسكرية؛ وعليه، فإن تحرير القصیر وريف حمص، وجزء كبير من مدينة حمص شَكَلَ الضربة القاسية من الناحية العسكرية لخطة غزو لبنان.

إنني كمواطن لبناني أولاً، وابن مدينة الهرمل ثانية، الجارة العزيزة لحمص والقصیر أجد نفسي في موقع تقديم التحية لأرواح الشهداء الذين سقطوا في الحرب على الإرهاب في هذه المنطقة، خاصة فرسان جبل عامل، وما أدرك ما جبل عامل؟! وكذلك أبناء الضاحية الجنوبية لبيروت وببلاد جبيل وجبل كسروان وكل لبنان. إن دماءهم الطاهرة في معركة الدفاع المقدس ستبقى ديننا في رقابنا، وشاهداً علينا إلى يوم القيمة. لقد حدّثني إخوة كثيرون من أبناء الهرمل عن سماع نداءات اللاسلكي يتوعّدون فيها أهلنا، بتناول الغداء على منابع نهر العاصي، بعد أن يقتلو الرجال ويسبوا النساء، وأنهم قادمون إلى الجبل والساحل وبيروت.

كانت هذه خطة غزوهם، ولكن للحرب قوانينها وللميدان رجاله، فقد حصل ما بات معروفاً من هزيمة التكفيريين النكراء، هزيمة كاملة بالمعنى العسكري في حرب القصیر، وتلتها حرب القلمون، والتي صارت في فصولها الأخيرة، بعد أن تمكّن الجيش العربي السوري من تحرير المناطق السورية في قلعة الحصن المحیطة بكل من جرود عكار ومدينة طرابلس.

لعب الجيش اللبناني إلى جانب المقاومة دوراً بارزاً في منطقة عرسال وجرودها، وفي جرود القاع ورأس بعلبك ولا يزال. وصار من المستحيل على قوات الإرهاب التكفيري تحقيق مكاسب عسكرية في معاركها الانتحارية. معارك الموت المجاني، الناتج عن التعصب والكراهية والعنف الأعمى، وأوهام الغزو والسيطرة.

استطاع الجيش اللبناني ومخابراته والقوى الأمنية الأخرى تفكik

المجموعات الإرهابية في الداخل اللبناني، واعتقال الشبكات السرية لهم، وتجميف مواردها البشرية والمالية، وخلاياهم البشرية المبثوثة في المناطق اللبنانية وفي المخيمات الفلسطينية، وكانت معركة عبرا وما تلاها، وتخلص مدينة طرابلس من أسر قوى الميليشيات المحلية، وتفكيك خلاياها واعتقال عناصرها، وكذلك فك حصار عرسال من الإرهابيين وعودة هذه البلدة اللبنانية الشجاعة إلى أحضان منطقتها ووطنهما، واحدة من أبرز إنجازات الحرب الأمنية على الإرهاب، لقد عملت الاستخبارات اللبنانية كمؤسسة مهنية محترفة، واجبها الدفاع عن الأمن القومي، وكان تعاونها مع جهاز أمن المقاومة فعالاً ومنتجاً في مواضع عدة من الحرب الاستخبارية على خلايا الإرهاب وتفكيكها، وتجميف مصادرها.

لست هنا في معرض دراسة عسكرية تفصيلية لهذه الحرب، لكنني على قدر ما أعرفه في هذا المضمار فإنه يبرز أمران أساسيان في التقييم العسكري المحسن لمجريات الحرب اللبنانية على الإرهاب هما:

**الأمر الأول:** إن الجيش اللبناني ومعه القوى الأمنية على تواضع الإمكانيات المتوفرة لهما حققا إنجازات لافتة في محاربة الإرهاب، عجزت عنها جيوش وأجهزة مخابرات دول قوية، لم تكن المعركة ضد الإرهاب سهلة على الإطلاق، لقد ذهب ضحيتها إلى جانب جنود الجيش وجرحه وأسره أناس أبرياء من المواطنين اللبنانيين. وقد تهدد الأمن القومي اللبناني في العمق، وضرب الإرهاب في وسط العاصمة اللبنانية بيروت وضاحيتها الجنوبية. واعتدى على المقرات الدبلوماسية للدول الشقيقة، وهدد أخرى وكذلك فعل في العاصمة الثانية طرابلس الفيحاء، وعاصمة الجنوب مدينة صيدا المقاومة، وفي مدينة الهرمل والبقاع الشمالي، ومدينة بعلبك أقدم المدن في التاريخ.

**كيف استطاع الجيش اللبناني والقوى الأمنية مواجهة الإرهاب في تكتيكاته المتعددة الأهداف.**

**لقد تحقق هذا الإنجاز بفعل العوامل الآتية:**

**أ-** كان الشعب اللبناني يقف مع الجيش ووراءه في حربه على الإرهاب، فلم يكن الجيش اللبناني جيشاً صليبياً على ما ادعى الإرهابيون، ولا جيشاً فئوياً على ما ذهب آخرون، إنما كان جيشاً وطنياً، عقידته الدفاع عن الوطن والشعب، في التضحية والوفاء والشرف.

**ب-** كان الجيش اللبناني مطمئناً إلى دعم الشعب له؛ وعليه، فقد استطاع، بنسبة مقبولة، أن ينفذ من مشكلات الخلاف السياسي، وحمل القوى السياسية على الاتفاق حول ضرورة توحيد القوى، ودعم الجيش والقوى الأمنية في الحرب على الإرهاب.

**ت-** كان الجيش اللبناني يذهب إلى الحرب مطمئناً؛ لوجود سند قوي له، هم رجال المقاومة الإسلامية، وأن المجاهدين حاضرون للدفاع عن الوطن والشعب والجيش. كان يستند إلى وحدة حقيقة في استراتيجيةه القتالية بين حرب الجيوش الكلاسيكية، وحرب الأنصار في المدن وفي الجبال.

**ث-** اشتغلت الوحدات الخاصة في الجيش اللبناني بقدرات مرتفعة في حرب الجبال، وذلك يفيد في تعزيز دور وحدات المعاویر والم gioقل وغيرها من الوحدات الخاصة المدربة على شتى مهام القتال الصعبة.

**ج-** عملت الاستخبارات العسكرية والقوى الأمنية، كوحدات مهنية عالية الكفاءة، وتعاونت مع أجهزة أخرى إقليمية ودولية، فيما كان تعاونها مع جهاز أمن المقاومة الأكثر نجاعة في مواجهة خلايا الإرهاب؛ اشتغلت هذه المؤسسات على قاعدة مصالح الأمن القومي، على الرغم

من التدخلات السياسية التي تعرقل بعض أعمالها وتجعلها أكثر صعوبة، وهذا يفيدها فأجهزة الأمن يجب أن تعمل بمهنية وتقنية وكفاءة ونزاهة عالية، ويكون لها تقاليد المؤسسة أو service، بصرف النظر عن المتغيرات والتدخلات السياسية، دفاعاً عن سلامة البلاد والأمن القومي.

ح- في مسألة دور الجيش وقياساً على مراحل مشهودة من الحرب الأهلية تبرز مسألة العلاقة مع المخيمات الفلسطينية خاصة بعد تجربة حرب نهر البارد القاسية. ومن الصريح القول إن الشعب الفلسطيني، كغيره من الشعوب العربية يعاني من وجود تيارات الإرهاب التكفيري، إلا أنه أكثر الشعوب العربية مصلحة في محاربته، خاصة وأن الإرهاب يضعف الأمة ويفتت قواها، ويبعد مجاهديها عن القدس.

استطاع الجيش اللبناني والقوى الأمنية بالتعاون مع أمن المقاومة، وكذلك لجان الحوار اللبناني - الفلسطيني، من ضبط التطورات السلبية في المخيمات، خاصة في مخيم عين الحلوة في الجنوب، وبعض مخيمات الشمال اللبناني.

إن الفلسطينيين في لبنان اكتسبوا من الاجتماع اللبناني طبيعة هذا الاجتماع، كما اكتسب منهم اللبنانيون أموراً عدّة، وصار العقل الفلسطيني مدرّكاً لخطط الآخرين من حمله إلى دخول حروب لا ناقة له فيها ولا جمل. لقد أثمرت كل هذه الجهود في الحفاظ على الأمن الفلسطيني في المخيمات، وعلى استقرار الوضع وضبط محاولات التحرّب وإشاعة الفوضى.

هذه هي العناصر المشتركة التي ساعدت الجيش اللبناني على كسب مراحل حربه على الإرهاب، على الرغم من الصعوبات التي واجهته في مسارها الملتهب.

## الأمر الثاني: حزب الله والانتصار في الحرب على الإرهاب:

إن حزب الله والمقاومة الإسلامية واجهوا في حرب الدفاع المقدس، حركات الإرهاب التكفيري، على اختلاف ميولها وتسميتها؛ وذلك في موقع عدّة، في كل من سوريا ولبنان. كان حزب الله، واثقاً بأن هذه الحرب تستهدفه في لبنان، وتستهدف حلفاءه في سوريا والعراق وبقية دول المنطقة. وأن الهدف الرئيسي للإرهاب التكفيري هو القيام بضرب حزب الله، الأمر الذي عجز عنه العدو الصهيوني، وهذا ما استلزم شرحاً سياسياً مركزاً في البداية.

قام سماحة الأمين العام السيد حسن نصرالله حفظه المولى، في خطب عدة بشرح وافٍ وكافٍ لطبيعة الحرب على الإرهاب ودور حزب الله في مواجهتها. وكان يركز على أن الأمر، بطبيعته المركبة في البداية، يحتاج إلى تكون البصيرة محل البصر، بمعنى أن إدراك حقائقه وجهره، يستلزم اشتراك الحواس الظاهرة والباطنة للوصول إلى كنه حقيقته. فليس الذهاب إلى الحرب عند حزب الله بالأمر المستحب، كُتب عليكم القتال وهو كره لكم، لكن حين يكون القتال ضروريًّا للدفاع عن النفس والعقيدة، عن المصالح والقيم، يكون حزب الله جاهزاً ومستعداً لتقديم التضحيات، ويرى أن الحرب أمر صعب، ولذلك يعده لها كل ما استطاع من قوة، ومن رباط الخيل ...

لقد ربح حزب الله والمقاومة الإسلامية كل معارك الحرب على الإرهاب في سوريا وفي لبنان، وهذه ناحية ملفتة بنظر العقل العسكري المحسن. فالجيوش في حروبها، تربح في معركة وتخسر في أخرى، ولكن مجاهدي المقاومة الإسلامية ربحوا في حرب الدفاع المقدس كل معاركهم ضد الإرهابيين التكفيريين، وهذه مسألة تستحق من العقل العسكري المحسن دراستها بإمعان وتدبر؛ لأنها في جانب منها على ما أعتقد يقوم التوفيق الإلهي الذي لا يكون إلا للصادقين.

لا يسعني استخلاص الدروس العسكرية المستفادة من حرب المقاومة على الإرهاب التكفيري، لكن يمكن القول على قدر المعرفة المتوفرة عندي، أن صوابية الموقف السياسي، وحكمة القيادة، وشجاعة القرار، والقدرة على تقديم التضحيات، ومستوى الإعداد المادي والمعنوي، والحرص على قواعد أخلاق الحرب، التي جعل منها أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (ع) قواعد تضع الانتصار في ميدان الحرب، وفي الوقوف في ميدان الحساب يوم القيمة. وأن التنسيق عالي المستوى بين مؤسسات المجلس الجهادي العسكري والأمنية والمالية والإعلامية والإدارية، كلها ساهمت في تحقيق الانتصار المدوي على الإرهاب، مضافاً إلى التنسيق الدائم مع الجيش، والتواصل الدائم مع الشعب، وكشف الحقائق للرأي العام، ووضعه في محل المسؤولية، ومشاركة القيادة أعباء القرارات الصعبة، كلها، وفي مقدمتها قدرة الشعب اللبناني، وأهل المقاومة على تقديم التضحيات والثقة بالقيادة الحكيمية، صنعت الانتصار في المعارك دون خسارة واحدة منها، وهو على ما أعتقد لأمر عجيب في النظر العسكري.

#### رابعاً: وحدة الجيش والشعب مع المقاومة تحقق مرة ثانية انتصارها الصريح

إن أجوبة السؤال الإشكالية كيف ربح لبنان حربه على الإرهاب التكفيري ولماذا؟ صارت واضحة، ببينة الأسباب والطرائق. ولعلها تكون مفيدة لإدارة الحرب العالمية على الإرهاب في بلدان ومناطق أخرى.

لقد ربح لبنان في عناصر قوته الاجتماعية والسياسية والعسكرية الحرب على الإرهاب وأصبح في منطقة آمنة نسبياً من أخطاره، لكن الحرب تستلزم حالة الاستعداد لها خاصة إذا كانت النيران لا تزال مشتعلة في مناطق الصراع.

إن هزيمة الإرهاب تكون بسحق قوته إلى غير رجعة حيث لا تقوى له  
بعد هزيمته قيمة.

إن سحق قوات العدو هو الانتصار بالمعنى العسكري المensus. وهذا  
تحقق في جانب منه في حرب لبنان على الإرهاب، بوحدة الجيش والشعب  
والمقاومة. ومنه يستفيد الآخرون لو أدركوا الحقائق واعتبروا.





بيتلت لنا النقاشات التي دارت بين المؤتمرين وردود الأفعال على المداخلات التي قدّمت مجموعة من الملاحظات:

أ- إن العنف والإرهاب من الظواهر الإنسانية أكثر مما هما ظاهرتان دينيتان، فلا يكاد يخلو مجتمع من المجتمعات البشرية من إرهاب وعنف يمارس بهذا الشكل أو ذاك.

ب- إن العنف غير الديني أعمق وأكثر اضراراً بالبشرية من العنف الممارس تحت راية الدين، وتكتفي الإشارة إلى الحربين العالميتين اللتين خيستا دون أن يكون لأي دين فيهما راية.

ج- والفارق الأساس يكمن في أنَّ من يقتل باسم الدين يصرَّ بذوقه ويبلو شعاراته الدينية على ضحاياه، أمَّا من يقتل لأسباب أخرى لا يجد نفسه ملزماً بالتصريح بهذه الدوافع.

د- يبدو لنا أنَّ الدين نفسه هو ضحية من ضحايا العنف والإرهاب؛ وذلك أنَّ الدين في كثير من الحالات يتحوَّل إلى غلاف تغْلُّف به سائر الدوافع. وبالتالي يتجلَّ العنف المختزن في النفوس التي تمارسه في عنف ديني.

وفي الختام، نافت نظر القارىء الكريم باسم الناشرين إلى أنَّنا اعتمدنا طريقة مختلفة في غلاف هذا الكتاب؛ لأنَّ مادته هي حاصل جهد مشترك في المؤتمر إعداداً وإشرافاً وإدارة.

النَّاشران

## Groups of Takfiri Violence Roots Structures and Affecting Factors

**Center of Civilization for the  
Development of Islamic Thought**

THE CIVILIZATIONAL STUDIES' SERIES



### مركز الحضارة للتنمية الفكر الإسلامي

بنية مامي، ط ٥ - خلف الفانتزي ورلد - بولفار الأسد - بئر حسن - بيروت  
هاتف: +961 1 826233 - فاكس: +961 1 820378 - ص.ب: 25/55

E-mail:info@hadaraweb.com - www.hadaraweb.com

### المركز الاستشاري للدراسات والتوثيق

بنية الورود، ط ١ - خلف الفانتзи ورلد - بولفار الأسد - بئر حسن - بيروت  
هاتف: +961 1 836610 - فاكس: +961 1 836611 - ص.ب: 24/47

E-mail:dirasat@dirasat.net - Website: www.dirasat.net